المجموعة الكاملة لمؤلفات

جبران خليل جبران

المعرّبة عن الإنكليزيّة

تقديم

د. جميل جبر

دار الجيل

بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

تقديـــم

في قصيدة جبران المنشورة «بين الخرائب» يظهر سليمان بصفته حكيماً وملكاً قديراً في نظر الناس، ومحباً عظيماً وشاعرَ حُبٍّ، ويعترف بأنَّه كان على ضلال في سعيه وراء القوة والمجد، فإن الزمن لاشى قوته وكاد يقضي على شهرته لو لم يكن عظيماً في حبه ينشد له الأناشيد، فهو الآن يدرك الحقيقة العظمى التالية: «الأبدية لا تحفظ إلا المحبة لأنها مثلها».

وكان جبران في هذه القصيدة يتكلَّم عن نفسه من حيث إنه لم يكن عظيماً إلا لأنه ينشد للحبِّ، بعد أن أناره الحبُّ، فبقي خالداً في نفوس قرائه لأن المحبة كانت وراء كتاباته ورسومه ونجاحه في كتاب «النبي» فحفظتها الأبدية لأن المحبة خالدة مثلها.

وفي آخر كتاب «دمعة وابتسامة» مقال عنوانه «صوت الشاعر» يختمه جبران بالعبارة التالية:

«والذي أقوله الآن بلسان واحد يقوله الآتي بألسنة عديدة».

لقد صدق جبران؛ فمنذ ذلك الحين والمطابع ودور النشر تطبع وتصدر وتوزِّع كتب جبران، وقراؤه يزدادون ويزدادون في البلاد العربية وغيرها من بلاد العالم. فبلغات كثيرة تُطبع كتبه وتُقرأ، وأرقام مذهلة تصلنا عن انتشار كتابه «النبي» الذي يشكل جوهرة العقد من مجموعته الإنكليزية المعرَّبة.

لقد أراد جبران في مجموعته الإنكليزية أن يقول كلمته التي كان يشعر بأنها ستكون من أجمل بنات أفكاره، وكانت هذه الكلمة هي «النبي» كما نفهم من كتاب نعيمه عن جبران. وأراد أن يقولها بالإنكليزية بعد تشجيع ملاكه الحارس ونقصد به ماري هاسكل التي كان لها أعظم تأثير إيجابي في حياته،

وربما توجه إلى الإنكليزية لأنه شعر آنذاك بأنه يملك الجدارة لفعل ذلك، وأن العالم الذي يتكلم الإنكليزية هو أوسع من العالم الذي يتكلم العربية وأغنى.

الكتب التي ألفها بالإنكليزية وضمتها المجموعة المعروفة بالمجموعة الإنكليزية هي كما يلي مرتبة بحسب تاريخ صدورها:

المجنون	١٩١٨	يسوع ابن الإنسان	١٩٢٨
السابق	١٩٢٠	آلهة الأرض	١٩٣١
النبي	١٩٢٣	التائه	١٩٣٢
رمل وزبد	١٩٢٦	حديقة النبي	١٩٣٣

في «المجنون» تتبدَّى اتجاهات تتميَّز بحدة في التفكير وبإيجاز في التعبير وباستخدام للرمزية؛ كما يتميز بالسخرية البالغة.

وفي «رمل وزبد» يتجلى استخدام جبران للمثل في ذاته استخداماً واسعاً للغاية مختصراً به الفكرة اختصاراً شديداً، إذ وضع كتاب رمل وزبد برمته في هذا الشكل.

أما كتاب «النبي» وهو رائعة جبران، فالاعتقاد بالله ـ الذات الكبرى ـ أساس حكمة النبي وجوهرها، وهو ترنيمة تمجّد الإنسان والحياة، وفيه ذلك النثر المنمّق غاية التنميق وفيه ما فيه من خصائص الشعر كالرؤيا والإيقاع والصورة ورقة شعور لا نلقاها إلا عند الرومنطيقيين وفي الأسفار الشعرية في التوراة، كما أن نبي جبران يدعى المصطفى وهو لقب من ألقاب النبي محمد.

وفي «يسوع ابن الإنسان» يعبر جبران عن عقيدته المغايرة للعقيدة المسيحية في النظرة إلى المسيح، فالمسيح ليس إلهاً تجسَّد إنساناً، بل هو إنسان بكل معنى الكلمة لكنه بلغ أعلى مراتب الإنسانية سمواً روحيًّا...

أما كتابه «آلهة الأرض» فهو كما وصف جبران كتابته بأنها «صادرة من جحيم الشاعر» وفيه تظهر العبثية واللعب بمصائر البشر، ونقطة منيرة واحدة في اللوحة السوداء هي الحب الخالد.

وفي كتابه «التائه» تبرز شدّة الظلام والسخرية المرّة عندما يمتلئ القلب البشري باليأس والتشاؤم.

أما كتابه الأخير «حديقة النبي» فقد أراد جبران أن يتحدّث فيه عن علاقة الإنسان بالطبيعة بعد أن تحدَّث في «النبي» عن علاقة الإنسان بالإنسان، ولكن الموت لم يفسح له في المجال فجاءَت بربارة يونغ لتضيف إلى الصفحات المعدودة التي كتبها جبران من أجل هذا الكتاب، صفحات وفصولاً سبق أن كتبها جبران في أوقات متباينة منها «الويلات التسع» وقد كتبت قبل الحرب العالمية الأولى؛ وهذا الكتاب هو كلمة الوداع التي يختتم بها جبران حياته.

وبكلمة واحدة إن مجموعة جبران الإنكليزية لا غنى عنها للقارئ العربي فهي في الأهمية تفوق المجموعة العربية في رأي النقاد الذين يعتبرون كتاب «النبي» الذروة بين تآليف جبران. فكتاب «النبي» فيها أصبح كتاباً شعبياً ـ إذا صح التعبير ـ في الوسط الأميركي، ومنذ سنة ١٩٥٧ بيعت منه النسخة المليون ولقد ترجم إلى لغات عديدة.

وغنيّ عن البيان أن جبران الشاعر والأديب هو جبران الفنان الرسام ذو الخيال المحلّق والعين النفّاذة البصيرة التي تلتقط أسرار الأضواء والظلال. فإذا كان جبران قد جعل من الكتابة فنًّا تصويريًّا بالكلمة ليؤدي دوراً وظيفيًّا لا زخرفيًّا فحسب، فإن كتبه لا تؤدي الغرض منها كاملاً إلا إذا دعّمت بالصور التي رسمها جبران من أجل هذه الكتب بالذات.

ولما كانت طبعات مؤلفات جبران تخلو كليًّا أو جزئيًّا، من صور اللوحات التي رسمها والتي تعبّر تعبيراً إيحائياً عن فكره وسموه وتراقيه؛ ولما كان جبران الرسام، في نظر الكثير الكثير من النقاد يفضّل على جبران الكاتب؛ فقد جئنا بهذه الطبعة لمجموعة جبران المعرّبة عن الإنكليزية، وقد أرفقناها ببعض الصور التي رسمها جبران، وهي تكمّل كتاباته وتتابع إيحاءاتها بشكل مستمر كلما وقعت عليها العين. وبذلك تصبح هذه المجموعة الأنيقة الطباعة كنزاً أدبياً وفنياً ثميناً يحرص محبُّو الأدب والفن على اقتنائه.

وإن دار الجيل لترجو أن تكون دائماً عند حسن ظن القارئ المتذوّق، وفي المستوى الذي تحلم به الأجيال الناشئة.

والله وليّ التوفيق، وعليه الاتكال أولاً وأخيراً.

المجنون

تعريب
الارشمندريت انطونيوس بشير

كيف صرت مجنوناً؟

هذه قصتي إلى كل من يودّ أن يعرف كيف صرت مجنوناً: في قديم الأيام قبل ميلاد كثيرين من الآلهة نهضت من نوم عميق فوجدت أن جميع براقعي قد سُرقت ـ البراقع السبعة التي حكتُها وتقنعْتُ بها في حيواتي السبع على الأرض. ـ فركضت سافر الوجه في الشوارع المزدحمة صارخاً بالناس: «اللصوص! اللصوص! اللصوص الملاعين!» فضحك الرجال والنساء مني وهرب بعضهم إلى بيوتهم خائفين مذعورين.

وعندما بلغت ساحة المدينة إذا بفتًى قد انتصب على أحد السطوح وصرخ قائلا: «إنّ هذا الرجل مجنون أيها الناس!» وما رفعت نظري لأراه حتى قبّلت الشمس وجهي العاري لأول مرة. لأول مرة قبلت الشمس وجهي العاري فالتهبت نفسي بمحبة الشمس ولم أعد بحاجة إلى براقعي. وكأنما أنا في غيبوبة صرخت قائلاً: «مباركون مباركون أولئك اللصوص الذين سرقوا براقعي!».

هكذا صرت مجنوناً، ولكني قد وجدت بجنوني هذا، الحرية والنجاة معاً: حرية الانفراد، والنجاة من أن يدرك الناس كياني، لأن الذي يدركون كياننا إنما يستعبدون بعض ما فينا.

ولكن لا أفخرنّ كثيراً بنجاتي، فإن اللص وإن كان في غيابة السجن فهوِ في مأمن من أقرانه اللصوص!

الله

عندما ارتعشت شفتاي بالنطق لأول مرة صعدت إلى الجبل المقدس وناديت الله قائلاً: إنني عبدك يا ربي، مشيئتك الخفية شريعتي، وسأظلّ خاضعاً لك سحابة الحياة».

فلم يجبني الله بل مرّ كعاصفة هوجاء واختفى عن ناظري.

وبعد الف سنة صعدت ثانية إلى الجبل المقدس وخاطبت الله قائلاً : «أنا جبلة يديك يا خالقي، من تراب الأرض صنعتني وبنفخة من روحك العلوية أحييتني. فأنا مدين لك بكليتي».

فلم يجبني الله، وكألف من الأجنحة الخاطفة اجتاز بي عابراً.

وبعد ألف سنة صعدت إلى الجبل المقدس أيضاً وناجيت الله ثالثة قائلاً: «يا ابتاه القدوس، أنا ابنك الحبيب. بالرأفة والمحبة ولدتني وبالمحبة والعبادة سأرث ملكوتك».

فلم يجبني الله في هذه المرة أيضاً. وكالضباب الذي يغشى قصيّ التلال توارى عن عيني.

وبعد ألف سنة صعدت إلى الجبل المقدس وخاطبت الله رابعة قائلاً: «يا الهي العظيم الحكيم العليم، يا كمالي ومحجتي، أنا أمسك وأنت غدي. أنا عروق لك في ظلمات الأرض وأنت أزاهر لي في أنوار السماوات ونحن ننمو معاً أمام وجه الشمس».

فعطف الله إذ ذاك عليّ وانحنى فوقي وهمس في أذني كلمات تذوب رقة وحلاوة، وكما يطوي البحر جدولاً منحدراً إليه طواني الله في أعماقه.

وعندما انحدرت إلى الأودية والسهول كان الله هنالك أيضاً.

ياصاحبي

يا صاحبي: إنني لست على ما يبدو لك منيّ، فما مظاهري سوى رداء دقيق الصنع محوك من خيوط التساهل والحسنى، ألتفّ به ليدرأ عني تطفلك ويقيك من إهمالي وتغافلي. وأما ذاتي الخفية الكبرى التى أدعوها أنا فسرّ غامض مكنون في أعماق سكون نفسي ولا يدركه أحد سواي، وهنالك سيبقى أبداً غامضاً مستتراً.

يا صاحبي: إنني أود أن لا تصدق ما اقول وأن لا تثق بما أفعل، لأنّ اقوالي ليست سوى صدى لأفكارك، وأفعالي ليست سوى أشباح آمالك..

يا صاحبي: عندما تقول لي: «الريح تهبّ شرقاً» أجيبك على الفور قائلاً: «نعم إنها تهبّ شرقاً» لأنـني لا أريد أن يخطر لك أن أفكاري السابحة مع أمواج البحر لا تستطيع أن تحلق طائرة على متون الرياح. أما أنت فقد مزقت الأرياح نسيج أفكارك القديمة البالية فبتّ قاصراً عن إدراك أفكاري العميقة المرفرفة فوق البحار. وحسنٌ أنّك لم تدرك كنهها لأنّني أريد أن أمشي على البحر وحدي.

ياصاحبي: عندما تبزغ شمس نهارك تدنو ظلمة ليلي، ومع ذلك فإني أحدّثك من وراء ستائر ظلمتي عن أشعة الشمس الذهبية التي ترقص عند الظهيرة على قنن الجبال وعما تحدثه في رقصها من الظلال الظليلة المنسابة إلى الأودية والحقول ـ أحدثك عن كل ذلك لأنّك لا تستطيع أن تسمع أناشيد ظلمتي ولا أن ترى خفقان جناحيّ بين الكواكب والنجوم. وما أحلى أنّك لا تسمع ولا ترى ذلك لأني أوثر أن أسامر الليل وحدي.

يا صاحبي: عندما تصعد إلى سمائك أهبط إلى جحيمي. ومع أنّه تفصلني عنك هوّةٌ لا يستطاع عبورها تظلّ تناديني قائلاً: «يا رفيقي، يا صاحبي»، فأجيبك: «يا رفيقي، يا صاحبي»، لأنّني لا أريد أن ترى جحيمي، فإن لهيبه يحرق باصرتيك ودخانه يسدّ منخريك. أما أنا فإنني أضنّ بجحيمي أن يزوره من كان على شاكلتك، لأنني أفضل أن أكون في جحيمي وحدي.

يا صاحبي: أنت تقول إنّك تعشق الحقّ والفضيلة والجمال، وأنا أقول مقتدياً بك إنّه يليق بالإنسان أن يعشق مثل هذه المناقب، غير أنني أضحك من محبتك في قلبي ساتراً ضحكي عنك، لأنّني أريد أن أضحك وحدي.

يا صاحبي: إنّك رجل فاضل متيقظ حكيم، بل إنّك رجل كامل. ولذلك فإنّي ضناً بكرامتك أخاطبك بحكمة وتيقّظ ـ ولكنني مجنون منجذب عن العالم الذي تقطنه أنت إلى عالم غريب بعيد، وإنني أستر عنك جنوني لأنّني أود أن أكون مجنوناً وحدي.

أنت لست بصاحبي، يا صاحِ! ولكن كيف السبيل لأقناعك فتفقه وتفهم؟ إن طريقي غير طريقك ولكننا نمشي معاً جنباً إلى جنب.

اللعين

قلت مرة للعيّن[1]: «ألم تسأم نفسك الإقامة في هذا الحقل وحيداً منفرداً؟»

فأجابني قائلاً: إنّ لي في التخويف لذةً لا يسبر غورها، ولذا فإني راضٍ عن عملي ولا أملّه».

ففكرت هنيهة ثم قلت له: «بالصواب أجبت، فإنّه قد سبق لي فخبرت هذه اللذة بنفسي.».

فأجابني قائلاً: «إنّك واهم يا هذا، فإن هذه اللذة لا يعرف طعمها إلا من كان محشوّاً بالقشّ مثلي.».

فتركته إذ ذاك وانصرفت وأنا لا أدري هل مدحني أم تنقّصني.

وانقضى عام صار اللعين في أثنائه فيلسوفاً علاّمةً. وعندما مررت به ثانية رأيت غرابين يبنيان عشّاً تحت قبّعته.

(١) هو الشاخص الذي ينصب في هيئة الرجل بين الزرع لطرد الوحوش.

بين هجعة ويقظة

كان في المدينة حيثما ولدت امرأة وابنة، وكانت لهما عادة أن تمشيا وهما نائمتان.

فحدث في إحدى ليالي الصيف الهادئة الجميلة أن نهضت الأم وابنتها من نومهما على جاري عادتهما ومشتا ـ وهما نائمتان ـ في حديقتهما المبرقعة بالضباب.

وفيما هما ماشيتان قالت الأم لابنتها: «تباً لكِ من عدوٍ شرير! أنت التي هدمت شبابي وبنت حياتها على أنقاض حياتي! آه لو أستطيع أن أقتلك!».

فأجابت الابنة وقالت: «أيتها المرأة الممقوتة والحيزبون الأنانية الرثة القائمة بيني وبين ذاتي الطليقة، يا مَن تودّ أن تكون حياتي صدى لحياتها الرثة البالية! ألا ليتك تهلكين!».

وفي تلك اللحظة صاح الديك فأفاقتا معاً من نومهما وهما بعد في الحديقة ماشيتان.

فقالت الأم بلطف: «أذاك أنت يا حمامتي؟»

فأجابت الابنة بحلاوة: «نعم أنا ابنتك يا حنونتي!».

الناسكان

عاش ناسكان في قنة جبل عالٍ، وكانا دائبين في عبادة الله وحبهما الواحد للآخر.

وكان لهذين الناسكين قصعة من الخزف لم يكن لهما غيرها مقتنى.

ففي أحد الأيام وسوس الخناس في قلب الناسك الكهل فجاء إلى رفيقه الشاب وقال له: «لقد مضى على حياتنا معاً زمن طويل وقد آن لنا أن نفترق.

ولذا فإني أريد أن نقسم مقتنياتنا.»

فاكتأب الناسك الشاب وأجابه قائلاً: «إن انفصالك عني يجرح قلبي وحقك يا أخي. ولكن إن كان ثمة من ضرورة لذهابك فلتكن مشيئتك.».

ثم تناول القصعة الخزفية بيده وقال له: «إن هذه القصعة هي كل ما نقتني أيها الأخ العزيز، ولما كانت قسمتها بيننا مستحيلة فأرى أن تكون لك وحدك.»

فأجابه الناسك الكهل وهو يتميز غيظاً قائلاً: «إنني لا أطلب منك صدقة ولا أقبل متاعاً ليس لي، ولذا يجب أن تقسم القصعة فينال كل منا نصيبه منها.».

فقال له الشاب برقة: إذا قسمنا القصعة فأية منفعة ترجى من قسمتها سواء لك أم لي؟ دعنا إن حسن لديك نقترع عليها.»

فأجابه الكهل وقال: «إنني لا أريد سوى حصتي كما تقضي العدالة بيننا. ولن أرضى البتة عن القرعة العمياء التي تحطّ من قدر العدالة وتجعلني مقامراً أعرض العدالة وحصتي لصدفة عمياء. ولذاأطلب قسمة القصعة.»

فلم يبق إذ ذاك مجال للشاب أن يبحث معه في الموضوع، فقال له: «إذا كانت هذه حقيقة رغبتك أيها الأخ الحبيب ووددت أن يكون الأمر على ما وصفت فلتقسم القصعة.»

فاسودّ وجه الناسك الكهل وصرخ به قائلاً: «تباً لك، ما أجبنك وما أقعدك عن الخصام أيها الخامل البليد!».

الكلب الحكيم

مرّ كلب حكيم ذات يوم بجماعة من السنانير، ولما دنا منهم رآهم منصرفين عنه ولم يعبأوا بقدومه.. فوقف يتأملهم مستغرباً أمرهم.

وفيما هو يتطلع إليهم نهض من بين الجماعة سنور بادن تبدو على وجهه أمائر الهيبة والوقار، فنظر إلى رفقائه وقال لهم: «صلوا أيها الإخوة المؤمنون، فإني الحق أقول لكم إنكم إذا صليتم وكررتم صلاتكم بحرارة يستجاب تضرعكم وتمطركم السماء فئراناً في الحال.»

فلمّا سمع الكلب الحكيم تلك العظة البالغة ضحك منهم في قلبه وارتدّ عنهم وهو يردّد لنفسه قوله: «ما أغبى السنانير وما أعمى بصائرهم عن إدراك ما في الكتب! أليس مكتوباً، بل ألم أقرأ أنا، وأجدادي من قبل أخبروني أن ما تمطره السماء إجابة للصلوات والتضرعات والابتهالات ليس فئراناً بل عظام!».

اطلبوا تجدوا

كان في قديم الزمان إنسانٌ وكان له ملء وادٍ من الإبر.

ففي أحد الأيام جاءت إليه أم يسوع وقالت له: «يا صاحب، إن رداء ابني مشقوق وأريد أن أرتقه له قبل أن يذهب إلى الهيكل، أفلا تقرضني إبرة؟».

فلم يعطها إبرةً، غير أنّه أعطاها عظة بالغة كانت عنده، موضوعها «اطلبوا تجدوا» ، لكي تأخذها إلى ابنها قبل أن يذهب إلى الهيكل.

الذوات السبع

في سكون الليل العميق وقد بدأ النعاس يغالبني جلست ذواتي السبع يتحادثن.

فقالت الذات الأولى: «لقد مرّت الأيام والأعوام على وجودي في هذا المجنون وليس لي ما أفعله سوى تجديد آلامه نهاراً وأحزانه ليلاً. وقد كرهت نفسي القيام بهذه الوظيفة المملة، فلأثورنّ عليه.»

فأجابتها الذات الثانية قائلة: «إنّك أوفر مني حظاً يا أختاه. فقد قدّر لي أن أكون شريكة لهذا المجنون في أفراحه وملذاته فأضحك لضحكه وأترنم في ساعات سروره، وبأقدام مثلثة الأجنحة أرقص لأفكاره البراقة، فإن تكن ثورة، فمن أحقّ بها مني؟».

فقالت الذات الثالثة: «أواه أيتها الرفيقتان إن عملي أدعى إلى الثورة من عمليكما. فأنا الذات المريضة حباً المتلهبة شوقاً الهائمة حنيناً! ألا إن الثورة على هذا المجنون من شأني وأنا ذات الشقاء والأسى.»

فقالت الرابعة: «إنني أكثر منكن شقاء أيتها الرفيقات. فقد قدّر لي أن أثير كوامن البغض وأوقظ نيران الكره والحقد في قلب هذا المجنون. فأنا، الذات الثائرة الهوجاء المولودة في كهوف الجحيم السوداء، أحق منكن بالثورة على مهمتي.»

وقالت الذات الخامسة: «إنني أغبطكن جميعاً أيتها الأخوات بما قدر لكن من العمل السعيد، فقد آثر الدهر أن أجدد أحلام هذا المجنون التي لا تنتهي، وأهيج جوعه وعطشه اللذين لا يسكنان، هائمة به على وجهي في فضاء اللانهاية من غير أن أتذوق طعم الراحة، ناشدة ما لم يُعرف قطّ وما لم يُخلق بعد. فأنا ـ أنا أولى منكنّ بالثورة والعصيان.»

فقال الذات السادسة: «ما أسعدكنّ أيتها الأخوات وما أتعسني وأشقاني! فأنا الذات المشتغلة العاملة الحقيرة التي بيديها الدائبتين وعينيها الساهرتين

ترسم من أيامها صوراً وتمنح العناصر الدنيئة العديمة الشكل أشكالاً جميلة خالدة ـ ألا إنه أجدر بي أنا الذات المعتزلة الهادئة أن أنقم وأثور».

فتطلعت الذات السابعة في كل منهن وقالت: «أف منكن جميعاً! ما أغرب ثورتكن على هذا الرجل المسكين بحجة أن لكل منكن عملاً محموداً. حبذا لو أسعدتني الأيام بعمل محدود كأعمالكن. فأنا ذات بطّالة لا عمل لها، اجلس أبداً بين اللانهايتين ـ الصمت والظلام ـ في حين أن كل واحدة منكن دائبة في تجديد الحياة على تنوع مظاهرها. بربكن قلن لي أيتها الشقيقات من منا أحقّ بالثورة، أنتن أم أنا؟»

ولما فرغت الذات السابعة من كلامها نظرت إليها الذوات الستّ بشفقة وحنان ولم يجرن جواباً.

وجنّ الليل فرقدن وفي طيات صدورهنّ استسلام جديد وخضوع سعيد كل لما قسم لها من الواجب المحدود!.

أما الذات السابعة فظلت شاخصة تراقب اللاشيء الذي وراء كل شيء.

العدالة!

وكان عرس في قصر الأمير في إحدى الليالي، وكان المدعوون يدخلون ويخرجون. فدخل رجل مع الداخلين وحيّا الأمير باحترام ووقار. فنظر إليه الجميع بدهشة لأن إحدى عينيه كانت مفقوءة والدم ينزف من نقرتها الفارغة.

فسأله الأمير قائلاً: «ما دهاك يا صاح؟» فأجابه الرجل قائلاً: «أنا لص أيها الأمير، وقد اغتنمت فرصة في ظلمة هذه الليلة على جاري عادتي وذهبت لأسرق أموال أحد الصيارفة. وفيما أنا أتسلق الجدار لأدخل دكان الصيرفي ضللت سبيلي ودخلت من نافذة جاره الحائك. فعدوت طالباً الهرب وأنا لا أبصر شيئاً لشدة الظلام، فلطم نول الحائك عيني وفقأها. ولذلك قد أتيتك الآن ملتمساً أن تنصفني من الحائك.».

فأرسل الأمير واستدعى الحائك. فأحضر الحائك في الحال، فأمر الأمير أن تقلع عينه.

فقال له الحائك: «بالصواب حكمت أيها الأمير، فإن العدالة تقضي بقلع عيني، ولكنه غير خاف على سموك أنني أحتاج في حرفتي إلى عينين لكي أرى حاشيتي الشقة التي أنسجها. غير أن لي جاراً إسكافاً له عينان مثلي ولكنه لا يحتاج في مهنته إلا إلى عين واحدة. فاستدعه إن أردت واقلع إحدى عينيه للمحافظة على الشريعة.»

فأرسل الأمير في الحال واستدعى الإسكاف، فحضر واقتلعت عينه وهكذا تأيّدت العدالة!

الثعلب

خرج الثعلب من مأواه عند شروق الشمس، فتطلع إلى ظله منذهلاً وقال: «سأتغدّى اليوم جملاً.» ثم مضى في سبيله يفتش عن الجمال الصباح كله. وعند الظهيرة تفرس في ظله ثانية وقال مندهشاً: «بلى، إن فأرة واحدة تكفيني.».

الملك الحكيم

كان في إحدى المدن النائية ملك جبار حكيم، وكان مخوفاً لجبروته محبوباً لحكمته.

وكان في وسط تلك المدنية بئر ماء نقي عذب، يشرب منها جميع سكان المدينة من الملك وأعوانه فما دون لأنه لم يكن في المدينة بئر سواها.

وفيما الناس نيام في إحدى الليالي جاءت ساحرة إلى المدينة خلسة

وألقت في البئر سبع نقط من سائل غريب وقالت: «كلّ من يشرب من هذا الماء فيما بعد يصير مجنوناً.»

وفي الصباح التالي شرب كل سكان المدينة من ماء البئر وجنّوا على نحو ما قالت الساحرة. ولكنّ الملك والوزير لم يشربا من ذلك الماء.

وعندما بلغ الخبر آذان المدينة طاف سكانها من حي إلى حي ومن زقاق إلى زقاق وهم يتسارّون قائلين: «قد جنّ ملكنا ووزيره. إن ملكنا ووزيره قد أضاعا رشدهما. إننا نأبى أن يملك علينا ملك مجنونٌ. هيا بنا نخلعه عن عرشه!».

وفي ذلك المساء سمع الملك بما جرى فأمر على الفور بأن يملأ حق ذهبي (كان قد ورثه عن أجداده) من مياه البئر. فملأوه في الحال وأحضروه إليه. فأخذه المليك بيده وأداره إلى فمه، وبعد أن ارتوى من مائه دفعه إلى وزيره فأتى الوزير على ثمالته.

فعرف سكان المدينة بذلك وفرحوا فرحاً عظيماً جداً لأن ملكهم ووزيره ثابا إلى رشدهما.

الطموح

جلس ثلاثة رجال إلى خوان في حانة. وكان الأول حائكاً والثاني نجاراً والثالث حفار قبور.

فقال الحائك لرفيقيه: «قد بعت اليوم كفناً بديعاً من الكتان بدينارين. فلنشرب ما طاب لنا من الخمر.

فأجابه النجار وقال: «أما أنا فقد بعت أثمن نعش عندي. فلنأكل أفخر اللحوم مع الخمر.»

فقال لهما حفار القبور: «إنني لم أحفر اليوم سوى قبر واحد. أيها الصديقان، ولكن الذي استأجرني دفع لي الأجر مضاعفاً. فلنستحلِ بقليل من العسل.»

فحفلت الخمارة بهم في تلك الليلة لأنهم طلبوا الخمر واللحم والعسل مراراً وكانوا يرقصون طرباً.

أما صاحب الحانة فكان يتلفت بين آونة وأخرى إلى زوجته متبسماً وهو يكاد لا يصدق ما يراه بعينيه، لأن ضيوفه الثلاثة كانوا ينفقون المال من غير حساب.

وظل الأصحاب في الحانة إلى ساعة متأخرة من الليل يأكلون ويشربون. وبعد أن امتلأوا من كل شيء انصرفوا وهم يغنون ويضجّون.

وكان صاحب الحانة وزوجته واقفين بباب حانتهما يشيعان ضيوفهما بأنظارهما.

فقالت المرأة لزوجها: حبذا لو يسعدنا الحظّ في كل يوم بمثل هؤلاء الزبائن الكرماء الشرفاء، فإننا نتمكن وقتئذ من إعفاء ابننا الوحيد من خدمة هذه الحانة القذرة ونستطيع تعليمه ليصير في المستقبل قسيساً.

اللذة الجديدة

اخترعت في ليلتي الماضية لذة جديدة.

وبينما كنت أتمتع بها لأول مرة رأيت ملاكاً وشيطاناً قد وقفا ببابي يتخاصمان ويتناقشان على تعريف لذتي.

فكان الأول يصرخ بأعلى صوته قائلاً: «إنها خطيئة مميتة.».

فيعترضه الثاني قائلاً بصوت أشدّ من صوته: «لا، لعمري إنها فضيلة.»

اللغة الأخرى

حدث أنّه بعد ميلادي بثلاثة أيام كنت متكئاً في مهدي الحريري أتفرس بلهفة غريبة في العالم الجديد حواليّ.

فقالت أمي للمرضع: «كيف حال ولدي اليوم؟» فأجابتها قائلة: «هو بخير يا سيدتي، فقد أطعمته ثلاث مرات، ولم أر قط قبله طفلاً بشوشاً مثله.»

فما سمعت ذلك حتى ثار ثائر غضبي وصرخت قائلاً: «لا تصدقي، لا تصدقي ذلك يا أماه، فإن فراشي خشن الملمس، والحليب الذي رضعته مرّ المذاق، ورائحة الثدي كريهة في أنفي، فيا شدّ ما بي من تعاسة!».

فلم تفهم أمي لغتي وكذلك المرضع لم تفقه ما قلته لأنني خاطبتهما بلغة لعالم الذي أتيت منه.

وفي اليوم الحادي والعشرين لولادتي، وهو اليوم الذي تعمدت فيه، قال الكاهن لأمي: «إنني أهنئك يا سيدتي لأن ابنك ولد مسيحياً».

فقلت للكاهن مندهشاً: «إذا كان الأمر كما تقول فأحرِ بأمك التي في السماء أن تكون تعسة بك لأنك لم تولد بعد مسيحياً.»

فلم يفهم الكاهن ما قلته له بلغتي.

وبعد سبعة أقمار جاءنا عرّاف فتفرس في وجهي مليّاً وقال لأمّي: «إن ابنك هذا سيكون زعيماً داهية وسيتبعه الناس طائعين.»

فصرختُ بأعلى صوتي قائلاً: «تلك نبوءة كاذبة، فأنا أدرى بنفسي وأعلم يقيناً أنّني سأدرس الموسيقى والغناء ولن أكون إلاّ موسيقياً.»

ولشدّ ما دهشت إذ لم يفهم أحدٌ لغتي مع أنني كنت قد بلغت ذلك الحد من عمري.

ولقد مرّ على ذلك ثلاثٌ وثلاثون سنة وقد ماتت أمي والمرضع والكاهن (ظلل الله أرواحهم برحمته). أما العراف فلا يزال حياً يرزق. وقد

رأيته في الأمس أمام الهيكل فحدثته وحدثني وأطلعته على انخراطي في سلك أبناء الموسيقى فقال لي: «قد طالما وثقت بأنّك ستكون موسيقياً كبيراً، ولقد سبقت في أيام طفولتك فأنبأت أمك بمستقبلك هذا.»

فصدقت قوله لأني أنا نفسي نسيت لغة العالم الذي أتيت منه.

الرمانة

عشت مرّة في قلب رمانة، وبينما أنا جالس يوماً في خليتي سمعت حبة تقول: «سأصير في المستقبل شجرة متعالية تترنم الأرياح بأغصانها وترقص الشمس على أوراقها، وسأكون قويةً جميلة على ممر الفصول.»

فأجابت حبة ثانية وقالت: «ما أجهلك أيتها الرفيقة! فإني حين كنت صغيرة مثلك حلمت أحلامك. ولكنني بعد أن صرت قادرة على تحديد كل شيء بمقياس ومعيار أدركت أنّ جميع آمالي كانت باطلة».

ثم قالت حبّة ثالثة: «أما أنا فإنني لا أرى فينا ما ينبئ بمثل هذا المستقبل العظيم.»

فأجابت حبّة رابعة وقالت: «إذا لم ترمِ حياتنا إلى مستقبل أنبل وأبهى فباطلة هي.»

فوقفت إذا ذاك حبة خامسة وقالت: «ما بالنا نتجادل فيما سيؤول إليه أمرنا في المستقبل في حين أننا لا نعرف ما نحن عليه اليوم؟»

فقال حبة سادسة: «إنّنا سنظل أبداً على ما نحن عليه الآن.»

فأجابتها حبة سابعة قائلة: «إن في ذهني صورة واضحة للمستقبل ولكنني لا أستطيع أن أرسمها بالألفاظ.»

ثم تكلمت حبة ثامنة وتاسعة وعاشرة وحبوب كثيرة حتى تكلم الجميع

فلم أفهم شيئاً لوفرة الأصوات وبلبلتها.

فتركت الرمانة في ذلك اليوم وأتيت فسكنت في سفرجلة حيث لا يوجد إلا قليل من الحبوب تعيش بصمت وسكون.

القفصان

كان في حديقة أبي قفصان.

وكان في أحدهما أسد أحضره عبيد أبي من براري نينوى، وفي الثاني زرزور غريد لا يملّ الإنشاد.

كان الزرزور يأتي في كل فجر إلى الأسد فيحييه قائلاً له: «عم صباحاً يا أخي السجين!»

النملات الثلاث

اجتمع ثلاث نملات على أنف رجل كان نائماً في الشمس، فحيت كلّ منهنّ الأخرى بتحية قبيلتها. ثم وقفن هنالك يتحدثن.

فقالت النملة الأولى: «إن هذه التلال والسهول التي نحن عليها اليوم هي أقفر جهة وطئتها في حياتي على الأرض، فقد طفت النهار بطوله أفتش عن حبة من أي نوع كان فلم أظفر بشيء.».

فأجابت النملة الثانية وقالت: «قد طالما سمعت أبناء قبيلتي يتحدثون عن مكان يطلقون عليه اسم الأرض الملساء الجرداء وما أكثر ما لهم في دورانها وحركتها من الآراء! وإنّه ليلوح لي أنّنا نسير اليوم عليها لأنّني جلت في جميع منعرجاتها وعطفاتها وخبرت بنفسي حقيقتها.»

فرفعت النملة الثالثة رأسها وقالت: «أيتها الصديقتان، نحن الان واقفون على أنف النملة العظمى ـ النملة الجبارة اللامتناهية، التي تعاظم جسمها حتى عجزت عن رؤيته عيوننا، واتسع ظلها حتى قصرت عن استقصائه مقاييسنا. وارتفع صوتها حتى كلّت عن سماعه آذاننا. هذه هي النملة الأزلية المالئة الأرجاء بلا نهايتها.»

وعندما فرغت النملة الثالثة من كلامها نظرت كل من رفيقتيها إلى الأخرى وضحكتا من حديثها.

وفي تلك اللحظة تحرّك الرجل في رقدته فرفع يده وحك أنفه فانسحقت النملات الثلاث تحت أصابعه.

حفار القبور

بينما كنت يوماً أدفن ذاتاً من ذواتي الميتة إذ وقف بي حفار القبور.

وقال لي:

«أنت هو الرجل الفرد الذي وقع بقلبي دون جميع الذين يأتون إلى هذه المقبرة.»

فقلت له: «لقد سرني قولك يا صاح، ولكن لماذا وقعت بقلبك دون سواي من الناس؟»

فأجابني قائلاً: «إن سواك يأتي باكياً ويعود باكياً، أما أنت فإنك تجيء ضاحكاً وترجع ضاحكاً».

على درجات الهيكل

رأيت في مساء الأمس امرأة جالسة على درجات الهيكل.

وكان جالساً معها رجلان واحد عن يمينها والآخر عن يسارها ينظران إليها.

وقد لاحظت متعجباً أن وجنتها اليمنى كانت شاحبة وأن وجنتها اليسرى كانت مورّدة.

المدينة المباركة

خُبّرت في حداثتي عن مدينة كان جميع الناس يعيشون فيها وفق تعاليم الكتاب، فقلت لنفسي: «لأسعَ إلى تلك المدينة سعياً فأحظى بما فيها من البركة العليا».

وكانت المدينة بعيدة فأعددت للسفر كامل العدّة. وبعد مسير أربعين يوماً أشرفت عليها. وفي اليوم التالي دخلت إليها فإذا كل سكانها أعور أقطع. فأخذتني الحيرة وقلت لنفسي: «وهل على كل من يعيش في هذه المدينة المقدسة أن يكون أعور أقطع!».

ثم لحظت أن القوم كانوا ينظرون إليّ بدهشة أعظم من دهشتي، لأنّهم هم أيضاً كانوا متعجبين من عينيّ ويديّ.

وفيما هم يتحدّثون سألتهم قائلاً: «هل هذه هي المدينة المقدسة حيث يعيش كل إنسان وفق تعاليم الكتاب؟».

فقالوا: «نعم هذه هي المدينة».

فقلت لهم: «وماذا حلّ بكم؟ أين عيونكم اليمنى وأيديكم اليمنى؟» فرثى الشعب لحالتي وأشفقوا على جهالتي وقالوا: «تعال وانظر».

ثمِ قادني واحد من متقدميهم إلى داخل الهيكل القائم في وسط المدينة.

وعندما دخلت الهيكل رأيت في الصدر رابية من العيون والأيدي الذابلة، فقلت لهم، والدهش آخذ منّي كل مأخذ: «بربكم قولوا لي أيّ غازٍ سفّاح أغار عليكم فحكم بقطع أيديكم وقلع عيونكم؟»

فأنَّ الجميع بمرارة متعجبين من جهلي ودنا منّي أحد شيوخهم وقال لي: «يا ابني. إنما نحن الذين فعلنا ذلك بأنفسنا لأن الله سلطنا على الشر الذي كان حالاً بنا فاستأصلنا جرثومته». ثم قادني إلى مذبح عالٍ وجميع الشعب يتبعنا، وهناك أشار بإصبعه إلى آية محفورة فوق المذبح وطلب إليّ أن أقرأها فقرأت:

«إذا كانت عينك اليمنى تشكّكك فاقلعها وألقها عنك، فخير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كلّه في جهنم. وإذا شكّكتك يدك اليمنى فاقطعها وألقها عنك، لأنّه خير لك ان يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كلّه في جهنم».

فأدركتُ إذ ذاك سرّهم والتفت إليهم صارخاً: «أليس بينكم رجل أو امرأة بعينين أو يدين؟».

فأجابوا قائلين: «كلا، ليس بيننا أحدٌ سوى الصغار الذين لم يبلغوا بعد رشدهم ليقرأوا الكتاب ويعملوا بوصاياه».

وعندما خرجنا من الهيكل أسرعت فغادرت تلك المدينة المباركة، لأنّني كنت بالغاً رشدي وقادراً على قراءة الكتاب.

الإله الصالح والإله الشرير

اجتمع الإله الصالح مرة بالإله الشرّير على قمّة جبل. فقال الإله الصالح للشرير: «عِمْ صباحاً يا أخي!».

فلم ينبس الإله الشرّير ببنت شفة. فقال له الإله الصالح: «يلوح لي أيها الزميل أن مزاجك متعكّرٌ اليوم».

فأجاب الإله الشرير قائلاً: «نعم، أنا مستاء جداً لأن القوم في هذه المدّة الأخيرة صاروا لا يميزون بيني وبينك، وكثيراً ما أسمعهم ينادونني باسمك ولا أكره على نفسي منك ومن اسمك!».

فقال له الإله الصالح: «إن هذا هو ما يحدث لي أيضاً في كل يوم أيها العزيز، فإن كثيرين من الناس ينادونني باسمك ويحسبونني إياك».

فمضى الإله الشرير في سبيله وهو يحرق الأرّم في قلبه لاعناً حماقة الإنسان وجهله.

في خيبتي غلبتي

يا خيبتي، يا خيبة! يا وحدتي وانفرادي! إنّك لأعز لدّي من ألف انتصار، وأحلى على قلبي من كل أمجاد الأقطار.

يا خيبتي، يا خيبة!.

يا معرفتي لنفسي واحتقاري لذاتي، بكِ أعرف أنّني لا أزال فتيًّا سريع الخطى، فلا تغريني أكاليل الغار الذابلة الفانية. بكِ قد حظيت بوحدتي وانفرادي وتذوّقتُ لذة فراري واحتقاري.

يا خيبتي، يا خيبة!.
يا سيفي البتار وترسي البرّاق. قد قرأت في عينيكِ:
أن الإنسان متى جلس على عرش الملك فقد صار عبدا.

ومتى أدرك الناس أعماق روحه فقد طوي كتاب حياته.
ومتى بلغ أوجَ كماله فقد قضى نحبه.

بل هو كالثمرة إذا نضجت سقطت واندثرت.

يا خيبتي، يا خيبة!.

يا رفيقي الباسل الودود، أنتِ وحدكِ تسمعين إنشادي وصراخي وسكوتي، وليس غيرك بمحدثي عن خفقان الأجنحة وهدير البحار، وعن قذائف البراكين الثائرة في دوامس الليالي.

أنتِ وحدكِ تتسلّقين صخور نفسي الجلمودية الشامخة.

يا خيبتي، يا خيبة! يا شجاعتي التي لا تموت!

أنتِ تضحكين معي في العاصفة، وتحفرين معي قبوراً لما يموت مني ومنك، وتقفين معي أمام وجه الشمس بجلدٍ وثباتٍ، فنكون معاً هائلين رأعبين.

الليل والمجنون

المجنون: «أنا مثلك أيها الليل قاتمٌ عارٍ، أمشي على طريق ناريّ يمتدّ فوق أحلام نهاري. وحيثما تمسّ رجلي الأرض، فهناك تنبثق سنديانة جبارة».

الليل: «كلا، لست مثلي أيها المجنون، فإنّك ما زلت تتلفّت إلى ورائك لترى آثار قدميك على الرمال».

المجنون: «أنا مثلك أيها الليل صامت وعميق، وفي قلب وحدتي تتكئ إلاهة تتمخض بمولود عُلوي تأتلف بكيانه الجنّة والجحيم».

الليل: «كلا، لست مثلي أيها المجنون، فإنّك لا تزال ترتعش أمام الآلام فيهولك سماع أناشيد الهاوية».

المجنون: «أنا مثلك أيها الليل، آبِدٌ جبّار، فإنّ أذنيّ مثقلتان بنحيب الأمم المستعبدة والتحسّر على الممالك المهجورة».

الليل: «كلا، لست مثلي أيها المجنون، لأنك لاتزال تتخذ ذاتك الصغرى رفيقاً وفيًّا، ولا تستطيع أن تتّخذ لك من ذاتك الجبّارة صديقاً».

المجنون: «أنا مثلك أيها الليل صارمٌ وفظيع، فإن قلبي لا يطرب إلاّ لرؤية لهيب المراكب المحترقة في البحار، وشفتيّ لا تستلذّان سوى دماء الأبطال المصروعين في ساحات الوغى.

الليل: «كلا، لست مثلي أيها المجنون، لأن بك شوقاً إلى أخت روحك متسلطاً عليك يُسيّرك كيف شاء. ولم تصرْ بعدُ شريعةً لنفسك».

المجنون: «أنا مثلك أيها الليل، جذلٌ وطروب، فإن الرجل الذي يرافقني سكرانِ أبداً من الخمرة العذراء، والمرأة التي تصادقني ترتكب الإثم وهي منشرحة الصدر».

الليل: «كلا، لست مثلي أيها المجنون، لأن روحك مقنّعة بقناع ذي طيات سبع وأنت للآن لم تحمل قلبك على كفّك».

المجنون: «أنا مثلك أيها الليل، صبور وكئيب. فإن في صدري ألوفاً من قبور المحبين الذين ماتوا مخلصين فحنّطتهم الدموع وكفّنتهم القبلات الذابلة».

الليل: «وهل أنت مثلي؟ أحقاً أنت مثلي أيها المجنون؟ وهل تستطيع أن تمتطي العاصفة جواداً وتمتشق البرق حُساماً؟».

المجنون: «أنا مثلك أيها الليل. أنا مثلك قدير عظيم. وقد بنيتُ عرشي على آكام الآلهة الساقطة وجعلت الأيام تمر أمامي صاغرة تقبّل أهداب ثوبي من غير أن تجرؤ على التطلّع إلى وجهي».

_ الليل: « هل أنت مثلي يا ابن قلبي الدامس المدلهم؟ هل أنت مثلي؟ وهل تخطر لك أفكاري الجامحة أم تتكلم لغتي الواسعة البيان؟».

المجنون: «بلى، إنّنا أخوان توأمان أيها الليل، فأنت تكشف مكنونات اللانهاية، وأنا أكشف مكنونات نفسي».

الوجوه

رأيت وجهاً يظهر بألف مظهر. ووجهاً مظهره واحد أبداً كأنما قد سبك في قالب.

ورأيت وجهاً قدرت أن أقرأ تحت طلاوته الظاهرة بشاعته المستترة، ووجهاً ما رأيت روعة جماله المحتجب حتى رفعت قناعه الظاهر.

ورأيت وجهاً شيخاً قد تجعد ولكن على لا شيء، ووجهاً ناعماً قد ارتسمت على ملامحه جميع الأشياء.

أنا أعرف الوجوه لأنّني أنظر إليها من خلال ما ينسجه بصري فأرى الحقيقة التي وراءها بباصرتي.

البحر الأعظم

ذهبتُ ونفسي إلى البحر العظيم لنستحم بمائه، وعندما وصلنا إلى الساحل طفنا نبحث عن مكان مستور عن الأنظار.

وفيما نحن نمشي رأينا رجلاً جالساً على صخرة غبراء وفي يده كيس يأخذ منه حفنات من الملح ويرمي بها إلى البحر.

فقالت لي نفسي: هو ذا المتشائم الذي لا يرى من الحياة سوى ظلها. فلنترك هذا المكان لأننا لا نستطيع أن نستحم أمامه.».

فتركنا ذلك المكان وسرنا إلى أن بلغنا جوناً في الشاطئ، فإذا برجل

واقف على صخرة بيضاء وفي يده صندوقة مرصعة بالجواهر يتناول منها قطعاً من السكر ويرمي بها إلى البحر.

فقالت لي نفسي: «هو ذا المتفائل الذي يستبشر بما لا بِشر فيه. فيجب أن لا يرى جسدينا العاريين.»

فتابعنا مسيرنا إلى أن بلغنا إلى شاطئ قريب فرأينا رجلاً يلتقط أسماكاً ميتة ويعيدها إلى الماء بعطفٍ وحنان.

فقالت لي نفسي: «هو ذا الإنساني الشفيق الذي يحاول إرجاع الحياة لمن في القبور، فلنبتعد عنه.»

فعبرنا به وسرنا إلى موضع آخر فرأينا رجلاً يخطط ظله على المياه فتحيئ الأمواج وتمحو خطوطه، ثم يعود فيخططه مرة بعد مرة.

فقالت لي نفسي: «هذا هو المتصوف الذي يقيم من أوهامه صنماً يعبده. فلنتركه.»

فخلّفناه وراءنا إلى جونٍ صغير في مكان آخر فرأينا رجلاً يكشط الزبد عن سطح الماء ويضعه في كأس من العقيق.

فقالت لي نفسي: «هوذا الخيالي الذي يحوك من خيوط العناكب رداء يلبسه، وهو لا يستحق أن يرى جسدينا العاريين.»

ثم سرنا قليلاً فسمعنا بغتةً صوتاً يقول: «هذا هو البحر! هذا هو البحر العميق! هذا هو البحر الواسع الجبار!» فسعينا إلى حيث خرج الصوت، فإذا برجل قد ولّى ظهره شطر البحر ووضع على أذنيه صدفةً كالقرن وقعد يصغي إلى ما تُرجعه من الصدى.

فقالت لي نفسي: سر بنا، فهذا هو الدهري الذي ينصرف عن الكليات التي تتجاوز فهمه إلى الجزئيات التافهة التي لا طائل تحتها.».

فخلفناه وراءنا وانطلقنا إلى موضع آخر. فإذا برجل منحنٍ بين الصخور

وقد غمر رأسه بالرمل، فقلت لنفسي: «هلمي يا نفس لنستحم ههنا لأن هذا الرجل لا يستطيع أن يبصرنا.».

فهزّت نفسي رأسها وقالت: كلا وألف كلا! فإن هذا الذي تراه هو شر خلق الله. هو الرافضي الخبيث الذي يحجب نفسه عن مأساة الحياة فتحجب الحياة أفراحها عن قلبه.»

فبدت إذ ذاك على وجه نفسي أمارات الحزن والأسى، وبصوت تقطعه المرارة قالت: «هلم بنا ننصرف من هذه الشواطئ لأنّه ليس فيها مكان خفي آمن نستحم فيه. فلن أرضى أن تعبث هذه الريح بشعري الذهبي، ولا أن يكشف هذا الهواء عن صدري الناصع، ولا أن يظهر هذا النور عُريي المقدس».

حينئذٍ تركنا ذلك البحر ناشدين البحر الأعظم.

المصلوب

صرخت بالناس قائلاً: «أودّ لو تصلبونني». فقالوا: «ولماذا يكون دمك على رؤوسنا؟» فقلت لهم: «وكيف تفاخرون بأنفسكم إن لم تصلبوا المجانين؟».

فقبلوا قولي وصلبوني. وهدّأ الصلب ثورة نفسي. وعندما كنت معلّقاً بين الأرض والسماء رفعوا رؤوسهم وحدّقوا إلي وهم يتمايلون عجباً لأن رؤوسهم لم ترتفع قبلُ إلى ما فوق أقدامهم.

وفيما هم مجتمعون حول الصليب رفع واحدٌ منهم صوته وقال لي: «عن أيّ ذنب تكفّر يا هذا؟».

ثم قال آخر: «بربّك قل لنا ما الذي دعاك إلى التضحية بنفسك؟».

وتلاه ثالث فسألني قائلاً: «أوتظنّ أيها الجاهل أنّك تشتري مجد العالم بهذا الثمن البخس الذي تقدمه؟».

ثم قال رابع: «تأملوا ابتسامته الخرساء كأن لم يحل به شيء! وهل في استطاعة بشري أن يبتسم لمثل هذا الألم؟».

فالتفتُّ إليهم إذ ذاك وقلت لهم: «اذكروا ابتسامتي هذه ولا تذكروا شيئاً غيرها. فأنا لا أكفّر عن ذنب ولا أسعى إلى تضحية ولا أرغب في مجد وليس لي ما أصفح عنه. ولكنني قد عطشت فسألتكم دمي شراباً. وهل من شراب يبرد غلة المجنون سوى دمه؟ أجل! وكنت أبكم فسألتكم الجراح أفواهاً. وكنت سجيناً في ظلمة أيامكم ولياليكم فالتمست سبيلاً يؤدي بي إلى أيام أبهى من أيامكم وليالٍ أسعد من لياليكم.

«وها أنا ذا ماض الآن إلى حيث مضى كثيرون ممن صُلبوا قبلي. ولكن لا يخطر لكم أنّنا معاشر المصلوبين نعبأ بصلبكم، لأنّنا قُدر لنا أن نُصلب من قِبَل جبابرة أشدّ منكم قدرةً وبطشاً بين الأرضين الدنيا والسماوات العليا».

الفلكي

رأيت وصديقاً لي أعمى جالساً في ظلال الهيكل وحده، فقال لي صديقي: «هوذا أحكم رجل في قومنا».

فتركت إذ ذاك صديقي ودنوت من الأعمى فحييته وقعدت بجانبه أجاذبه أطراف الحديث. وبعد هنيهة سألته قائلا: «منذ كم أنت أعمى يا سيدي؟».

فأجابني وقال: «منذ ولادتي يا بني».

فقلت له: «وأي مذهب من مذاهب الحكمة تتّبع؟»
فأجاب قائلاً: «أنا فلكيّ منجّم».

ثم وضع يده على صدره وزاد قائلاً: «إنّني أرصد هذه الشموس وهذه الأقمار وهذه النجوم».

الحنين الأعظم

ها أنا جالس بين أخي الجبل وأختي البحر، ونحن الثلاثة واحد في عزلتنا تربطنا محبةٌ عميقةٌ قويةٌ غريبة.

محبةٌ أعمق من أعماق أختي وأقوى من قوة أخي وأغرب من غرائب جنوني.

وكم هنالك من دهور تقضّت قبل أن بدّد الفجر الأول دياجير الظلمة عنا فرأى أحدنا أخاه.

قد شاهدنا ولادة كثير من العوالم واكتمالها وانحلالها بيد أنّنا بعدُ أحداث توّاقون.

أجل، نحن أحداث توّاقون ولكننا وحيدون مهملون.

نتكئ متعانقين عناقاً أبدياً ولكننا غير مستريحين. وهل من راحة لشوق مستعبَد وشهوة لا تنفد؟

أين إله النار المتلهّب فيدفئ مضجع أختي؟
بل أين إلاهة الغيث الفياضة فتخمد براكين أخي؟
وأنا أشقى الاثنين. من أين لي المرأة التي تتسلّط على قلبي؟
في سكينة الليل تردّد أختي في أحلامها اسم إله النار المجهول لتدفئتها.
وينادي أخي إلاهة الغيث القصيّة لتبريد غلّته. أما أنا فمن ترى أنادي في غفلتي؟

لست والله أدري! لست والله أدري!

ها أنا ذا جالس بين أخي الجبل وأختي البحر،
ونحن الثلاثة واحد في عزلتنا،
تربطنا محبة عميقة قوية غريبة.

وريقة عشب وورقة خريف

قالت وريقة عشب لورقة خريف: «إنك تُحدثين بسقوطك جلبة فتبعثرين أحلام شتائي».

فأجابتها الورقة مغتاظة: «أيتها الدنيئة أصلاً وفصلاً الفظّة المعقودة اللسان، من أين لك الأحلام وأنت ملتصقة بقذارات الغبراء بعيدة عن موسيقى الفضاء لا تميزين بين الغناء والمواء؟».

قالت ورقة الخريف ذلك وهبطت على الأرض فنامت.
وعندما جاء الربيع أفاقت من نومها فإذا بها وريقة عشب.

ثم أقبل الخريف ووافتها هجعة الشتاء فنثر الهواء حواليها أوراق الأشجار الذابلة فتململت في ذاتها قائلة: «أف من أوراق الخريف الثقيلة! إنها تحدث بسقوطها جلبة وضجيجاً فتبعثر أحلام شتائي».

العيـــن

قالت العين يوماً لرفيقاتها الحواس: «إنّني أرى وراء هذه الأودية جبلاً مبرقعاً بالغيوم فما أجمله جبلاً!»

فأصغت الأذن هنيهة لحديثها ثم قالت لها: «أين ذلك الجبل الذي تنظرين؟ إنني لا أسمع صوته».

ثم قالت اليد: «أما أنا فعبثاً أحاول أن أشعر به أو ألمسه. فليس هنالك جبل البتة».

وقال لها الأنف: «إنني لا أستطيع أن أفهم كيف يوجد الجبل وأنا لا أقدر أن أشمّه. ألا إن وجوده لمستحيل».

فتحولت العين إلى جهة أخرى ضاحكة في ذاتها. أما الحواس الأخرى فعقدن مجلساً بحثن فيه عما دعا العين إلى مثل هذا الضلال. وبعد البحث الدقيق قررن بإجماع الآراء: «إن العين قد خرجت ولا شك عن صوابها».

العالمان

كان في مدينة أفكار القديمة عالمان. وكان كلّ منهما يمقت معرفة الآخر ويحتقرها. وكان الأول كافراً والثاني مؤمناً.

وحدث أنهما اجتمعا مرّة في ساحة المدينة وطفقا يتجادلان ويتحاجان أمام أنصارهما في وجود الآلهة أو عدم وجودها. وبعد أن حمي وطيس الجدال بينهما بضع ساعات مضى كلّ منهما في سبيله.

وفي ذلك المساء بعينه ذهب الكافر إلى الهيكل وجثا على ركبتيه أمام المذبح مستغفراً الآلهة عن جموح ماضيه وصار مؤمناً.

وفي الساعة نفسها أخذ المؤمن كتبه المقدسة فحرقها في ساحة المدينة وصار زنديقاً كافراً.

عندما ولدت كآبتي

عندما ولدت كآبتي أرضعتها حليب العناية وسهرت عليها بعين الحبّ والحنان.

فنمت كآبتي كما ينمو كلّ حيّ - قوية جميلة تفيض بهجة وإشراقاً.

فأحببت كآبتي وأحبتني كآبتي، وأحببنا معاً العالم المحيط بنا، لأن كآبتي كانت رقيقة القلب عطوفاً فصيّرت قلبي رقيقاً عطوفاً.

وعندما كنّا نتحادث معاً، أنا وكآبتي، كنا نتخذ الأحلام أجنحةً لأيامنا ومناطق لليالينا، لأن كآبتي كانت فصيحة طليقة اللسان فصيرت لساني فصيحاً طليقاً.

وعندما كنّا نغني معاً، أنا وكآبتي، كان جيراننا يجلسون إلى نوافذهم مصغين إلى غنائنا، لأن غناءنا كان عميقاً كأعماق البحر وغريباً كغرائب الذكرى.

وعندما كنا نمشي، أنا وكآبتي، كان الناس يرنون إلينا بعيون تشعّ حبّاً وإعجاباً متحدّثين بنا بأرقّ الألفاظ وأحلاها، غير أن بعضاً منهم كانوا ينظرون إلينا بعيون الحسد، لأن الكآبة كانت منقبة محمودة وأنا كنت متباهياً فخوراً بالكآبة.

ثم ماتت كآبتي كما يموت كلّ حيّ وبقيت أنا وحدي مفكّراً متأملاً.

وها أنا ذا أتكلم الآن فتستثقل أذناي صوتي، وأنشد فلا يصغي أحدٌ من جيراني لإنشادي، وأطوف في الشوارع فلا يعبأ أحدٌ بي، غير أنني أتعزّى إذ أسمع في منامي أصواتاً تقول متحسرة:

«انظروا! انظروا! فهنا يرقد الرجل الذي ماتت كآبته».

وعندما ولدت مسرتي

وعندما ولدت مسرّتي حملتها على ذراعي وصعدت بها إلى سطح بيتي أنادي قائلاً: «تعالوا يا جيراني ومعارفي، تعالوا وانظروا! فقد ولدت مسرّتي اليوم. تعالوا وانظروا فيض مسرتي الضاحكة أمام الشمس».

وشدّ ما كان دهشي لأنّه لم يأت أحدٌ من جيراني ليرى مسرتي.

وظللت سبعة أشهر أعلن مسرّتي للناس بكرة وأصيلاً من على سطح بيتي ولكن لم يُصغِ أحد قط لصوتي. فبقيت ومسرّتي وحيدين مهملين لا يعبأ أحد بنا.

وما مرّ على ذلك سنة حتى سئمت مسرّتي حياتها فامتقع لونها واعتلّت إذ لم ينبض بحبّها قلب سوى قلبي، ولم يقبّل فمها سوى فمي.

فقضت مسرتي في وحشتها وأمسيت لا أذكرها إلا عندما أذكر كآبتي.

وما الذكرى سوى ورقة خريف لا ترتعش في الهواء هنيهة حتى تكفّن بالتراب دهراً.

العالم الكامل

يا إله النفوس الضائعة، أيها الضائع بين الآلهة استمعني. أيها القدَرُ الرحيم الساهر على نفوسنا التائهة المجنونة اصغ إليّ: فإنّي وأنا ناقص أعيش بين الكاملين من البشر. أنا، أنا البشرية المشوشة، السديم المضطرب العناصر، أتخطّر بين عوالم تامّة من شعوب قد كملت شرائعهم وتنزّهت نظمهم وتنسقت أفكارهم وترتبت أحلامهم وتسجلت رؤاهم في الأسفار والدواوين.

ربّاه! إن هؤلاء الناس يقيسون فضائلهم بالمقاييس ويزنون خطاياهم بالموازين، ولديهم سجلات وفهارس لما لا يحصى من التوافه والنقائص التي

ليست بالخطايا فتُعرف ولا بالفضائل فتُنصف.

ويقسمون أيامهم ولياليهم إلى أقسام مقنّنة مرتّبة. فيفعلون كل شيء في حينه على وفق ما يخطر لهم. فالأكل والشرب والنوم وكساء العرية ثم السآمة والضجر ـ كلّ في حينه.

والعمل واللعب والغناء والرقص ثم الاستراحة عندما تحين ساعتها.

التفكير بهذا والشعور بذاك ثم العدول عن التفكير والشعور عندما يشرق نجم الأمل السعيد فوق الأفق البعيد.

سلبُ الجار بثغر باسم ومنح العطايا بيد تتوقع الثناء والشكر، ثم المديح بفطنة والملامة بتروّ، وقتل النفس وإحراق الجسد بقبلة، وغسل اليدين عند المساء كأن لم يكن هنالك من شيء.

المحبة بتقليد مطروق، والتسلية على منوال مسبوق، وعبادة الآلهة كما يحقّ ويليق، والاحتيال على الشياطين والمكر بالزنديق، ثم نسيان كل ما جرى وصار كأن الذاكرة حلم من أحلام الأغرار.

التصوّر لغاية والتأمل بعناية والمسرة بدراية والتألم بوقاية ثم إفراغ كأس الآمال ورجاء أن تملأها الأيام في المآل.

رباه، رباه! إن جميع هذه يسبق الفكر فيحبل بها والعزيمة فتلدها والدقة فتربيها والنظام فيسودها والعقل فيديرها، ثم تنحر وتلحد في زوايا سكينة النفوس فتبقى قبورها الموسومة بالعلامات والأرقام عظة لنا ولجميع الأنام.

أجل، هذا هو العالم الكامل الذي قد بلغ أوجه، عالم الغرائب والمعجزات، بل هو أنضج ثمرة في جنان الله وأسمى عالم بين عوالمه. ولكن لمَ أنا ههنا يا رب؟ لمَ أنا ههنا وأنا ثمرة عجراء لم تنلِ بعدُ شهوتها من النماء، وعاصفة صمّاء هوجاء لا شرقاً تبتغي ولا غرباً، وذرة هائمة تائهة من كوكب محترق ثائر؟

لمَ أنا ههنا؟ لمَ أنا ههنا يا إله النفوس الضائعة، أيها الضائع بين الآلهة؟

السابق

تعريب

الارشمندريت انطونيوس بشير

انت سابق نفسك

أنت سابق نفسك يا صاح، وما الأبراج التي أقمتها في حياتك سوى أساس لذاتك الجبارة. وهذه الذات في حينها ستكون أساساً لغيرها.

وأنا مثلك سابقٌ نفسي، لأن الظلّ المنبسط أمامي عند شروق الشمس سيتقلص تحت قدمي عند الظهيرة. وسيعقب هذا الشروقَ شروقٌ آخر، فيحدث ظلاًّ ثانياً أمامي، ولكن هذا الظلّ عينه سيتقلص تحت قدمي أيضاً في ظهيرة أخرى.

منذ البدء ونحن سابقو نفوسنا، وسنبقى سابقي نفوسنا إلى الأبد. وليس ما حشدنا ونحشدُ في حياتنا سوى بذور نُعدّها لحقول لم تُفلَح بعد. نحن الحقول ونحن الزارعون. نحن الأثمار ونحن المستثمرون.

عندما كنت يا صاح فكرةً هائمة في الضباب كنتُ هنالك فكرة هائمة مثلك، فنشدتُك ونشدتني، فكانت من تشوّقاتنا الأحلام، والأحلام كانت زماناً بلا قيود، والأحلام كانت فضاء بلا حدود.

وعندما كنت كلمة صامتة بين شفتي الحياة المرتعشتين، كنت أنا مثلك هنالك كلمة صامتة، وما تلفظت الحياة بنا حتى برزنا إلى الوجود وقلبانا

يخفقان بتذكارات الأمس والحنين إلى الغد. وما الأمس سوى الموت مطروداً ولا الغد سوى الميلاد مقصوداً.

وها نحن الآن في يدي الله، فأنت شمسٌ منيرةٌ في يمناه، وأنا أرض مستنيرة في يسراه، ولكن قوتك الى الإنارة ليست بأفضل من قوتي على الاستنارة.

وما نحن، الشمس والأرض، إلا بداءة لشمس أعظم وأرض أعظم، وسنبقى بداءة إلى الأبد.

أنت سابق نفسك أيها الغريب العابر بباب حديقتي، وأنا مثلك سابق نفسي، ولو كنت أجلس في ظلال أشجاري وأبدو ساكناً هادئاً.

البهلول

جاء في قديم الزمان رجل من البادية إلى مدينة الشريعة العظيمة، وكان بهلولاً خيالياً، ولم يكن له من متاع سوى ثوبه وعصاه.

فكان يطوف في شوارع المدينة ويتأمل هياكلها وأبراجها وقصورها بإعجاب وإجلال، لأن مدينة الشريعة كانت غاية في الجمال. وكان بين الآونة والأخرى يخاطب العابرين به مستفهماً عن مدينتهم وغرائبها، فلم يفهموا لغته كما أنّه لم يفهم لغة أحد منهم.

وعند انتصاف النهار وقف أمام فندق فسيح الأرجاء، بديع الهندسة والإتقان، وكان الناس يدخلون إليه ويخرجون منه من غير اعتراض.

فقال البهلول في ذاته: «لا شكّ أن هذا مزار مقدس» ودخل مع الداخلين.

وشدّ ما كانت حيرته عندما وجد نفسه في بهو عظيم، وكبراء القوم، من رجال ونساء، جالسون إلى كثير من الموائد الأنيقة، يأكلون ويشربون،

والموسيقيون يشنفون اذانهم باطرب العزف والغناء.

فقال البهلول إذ ذاك في ذاته: «قد ضللت، فما هذه بالعبادة التي توهمت، بل هذه مأدبة أعدّها الأمير لشعبه تذكاراً لحادث جلل».

وفي تلك الدقيقة دنا منه رجل، خُيّل إليه أنّه عبد الأمير، وسأله أن يجلس مع الجالسين، فجلس. فقدمت إليه اللحوم، والخمور، والحلوى أفخرها وأشهاها، فأكل هنيئاً وشرب مريئاً.

وعندما بلغ كفافه همّ بالانصراف، ولكنه ما وصل إلى الباب حتى دنا منه رجل بادنٌ متأنّق اللباس فأوقفه.

فقال البهلول في نفسه: «لا شك أن هذا هو الأمير بعينه». فانحنى أمامه وحياه باحترام وشكره بلغة قبيلته.

أما الرجل البادن فخاطبه بلغة المدينة، قائلاً له: «يا سيدي، إنّك لم تدفع بعد ثمن غدائك».

فلم يفهم البهلول شيئاً، ولكنه شكره ثانية من صميم قلبه. فتأمّله الرجل البادن جيداً، وبعد أن أنعم النظر في وجهه مليّاً، أدرك أنه غريب عن المدينة، وعرف من ثيابه الرثّة أنه فقير الحال وليس له ما يدفعه ثمن غدائه، فصفق منادياً، فجاء على الفور أربعة من حراس المدينة ومثلوا بين يديه، فقصّ عليهم قصّة البهلول، فألقوا القبض عليه في الحال، ومشوا به اثنين اثنين إلى جانبيه، أما البهلول فكان يتأمّل ملابسهم المزركشة، وهو يكاد يطير فرحاً، قائلا في سرّه: «لا شكّ في أن هؤلاء من أشراف المدينة».

فسار الحراس به إلى أن بلغوا دار القضاء، فدخلوا إلى قاعة المحاكمة، فرأى البهلول أمامه، في صدر تلك القاعة، رجلاً جليلاً، جالساً على منصة عالية، تجلله المهابة وتزيده لحيته البيضاء المسترسلة على صدره هيبةً ووقاراً. فخُيل إليه أنّه الملك بعينه، وطارت نفسه فرحاً لمثوله أمامه.

ثم بسط الحراس دعواهم إلى القاضي، فعيّن القاضي محاميين، واحداً ليدعي على البهلول، وآخر ليتولى الدفاع عنه. فنهض المحاميان الواحد تلو الآخر وأدلى كلّ بحججه.

أما البهلول فظنّ إنهما يرحبان به باسم الملك، فامتلأ قلبه بعواطف المنّة ومعرفة الجميل للملك، وللأمير، على كل ما جرى له.

وعند انتهاء المحاكمة حكم القاضي بما يأتي على البهلول: «يجب أن تكتب جريمته على لوحة، وتعلّق على صدره، ثم يركب حصاناً عارياً، ويطاف به في المدينة، ويسير المزمرون والمطبلون أمامه».

فنُفذ الحكم في الحال، وأُركب البهلول حصاناً عارياً وطيف به في شوارع المدينة، وسار المزمرون والمطبلون أمامه. وكان سكان المدينة يتراكضون على سماع الأصوات فينظرون إليه وهو على تلك الحالة، ويغربون في الضحك أفراداً وجماعات. وكان الأولاد يركضون وراءه من شارع إلى شارع زرافات زرافات.

أما البهلول فكان ينظر إليهم بعينين مشرقتين فرحاً والدهش آخذ منه مأخذه. لأنّه كان يعتقد أن اللوحة المعلقة على صدره إنما هي وسام قدمه له الملك عربون بركته ورضاه عن زيارته، وإن ذلك الموكب ما سار إلا احتفاء بحضرته.

وحدث أنّه فيما هو راكب والجمع يحشده، رأى بينهم بدويّاً من قبيلته، فاختلج قلبه طرباً، وهتف به بأعلى صوته قائلا: «بربك يا صاح! أين نحن الآن؟ أليست هذه المدينة التي يسميها شيوخنا مدينة رغائب القلب، وشعبها الأريحيون الفياضون، الذين يحتفون بعابر السبيل في قصورهم، ويرافقه أمراؤهم، ويشرّف ملكهم صدره بالنياشين فاتحاً له أبواب مدينته الهابطة من السماء؟».

فلم يقل البدوي الثاني كلمة قط، ولكنه تبسم وهزّ رأسه.

أما الموكب فاستمرّ في سيره. وكان وجه البهلول مرتفعاً أبداً والنور يفيض من عينيه.

المحبة

يقولون ان ابن آوى يشرب من الجدول الواحد الذي يشرب منه الأسد. ويقولون إن النسر والشوحة ينقدان الجيفة الواحدة وهما متفقان متسالمان. فيا أيتها المحبة العادلة، ويا من كبحت جماح رغائبي بيدك القديرة، وحولت مجاعتي وعطشي إلى إباء وشمم، لا تأذني للقوي العزوم فيّ أن يأكل الخبز، أو يشرب الخمر، اللذين يستهويان ذاتي الضعيفة.

ذريني بالأحرى فأقضي جوعاً بل دعي قلبي يتلهب عطشاً.

واتركيني أموت وأفنى، قبل أن أمدّ يدي لقدح لم تملإيه أو كأس لم تباركيها.

الملك الناسك

خبرّت أن فتى يعيش في غابة بين الجبال، وأنّه كان فيما مضى ملكاً على بلاد واسعة الأرجاء في عبر النهرين. وقيل لي أيضاً إن هذا الفتى قد تخلى، بملء اختياره، عن عرشه وعن أرض أمجاده، وجاء ليستوطن القفار. فقلت في نفسي: لأسعينّ إلى ذلك الرجل سعياً، وأقف على ما في قلبه من اسرار، لأن من يتنزل عن الملك فهو بلا شك أعظم من المُلك!!!

فذهبت على الفور إلى الغابة حيثما كان قاطناً. فوجدته جالساً في ظلال سروة بيضاء، وبيده قصبة كان ممسكاً بها كأنما هي صولجانه. فحييته تحية الملوك، وبعد أن ردّ التحيّة التفت إليّ وقال بلطف: «ما عساك تبتغي في هذا الغاب الأعزل يا صاحبي؟أجئتَ تنشد ذاتاً ضائعةً في الظلال الخضراء، أم هي

عودة إلى مسقط رأسك عند انقضاء شغل النهار؟

فأجبته قائلاً: « إنني ما نشدت إلاّك، ولا شاقني إلا الوقوف على ما حدا بك إلى استبدال مملكتك الكبيرة بهذه الغابة الحقيرة!»

فقال: « وجيزةٌ هي قصّتي، فقد انطفأت فقاقيع غروري فجأة وإليك حكايتي: بينما كنت جالساً إلى نافذة في قصري، كان وزيري يتمشى مع سفير أجنبي في حديقتي. وعندما صارا على مقربة من نافذتي سمعت الوزير يتكلم عن نفسه قائلاً: «أنا مثل الملك أتعطش للخمرة المعتقة، وأعشق جميع ضروب المقامرة، ويثور بي ثائر الغضب كسيدي الملك.» ثم توارى الوزير والسفير بين الأشجار. ولكنهما ما لبثا أن عادا بعد برهة، وإذا بالوزير يتكلم عنّي في هذه المرة قائلا: « إن سيدي الملك مثلي يحسن الرماية، ويتعشق الألحان، وهو مثلي يستحم ثلاثاً في النهار.»

وسكت لحظة ثم زاد قائلاً: «في عشية ذلك اليوم تركت بلاطي، ولا شيء معي سوى عباءتي، لأني لم أشأ بعد ذلك أن أكون ملكاً على قوم يدّعون نقائصي لأنفسهم ويعزون فضائلهم إليّ».

فقلت له: «ما أغرب قصتك، وما أعجب أمرك!».

فأجابني قائلاً: «ليس هنالك من غرابة يا صاحبي، فقد قرعت أبواب سكينتي طامعاً منها بالكثير، فلم يكن لك منها سوى اليسير. بربك قل لي: من لا يستبدل مملكة بغابةٍ تترنم فيها الفصول، وترقص طروباً أبداً؟ كثيرون هم الذين تركوا ممالكهم ليستبدلوا بها أدنى مراتب الوحدة والتمتّع بحياة العزلة السعيدة، وكم هنالك من نسور هبطت من جوها الأعلى، لتعيش مع المناجذ في أنفاقها الصامتة فتتفهم أسرار الغبراء! بل ما اكثر الذين يعتزلون مملكة الأحلام لئلاّ يظهروا للناس أنهم بعيدون عمن لا أحلام في نفوسهم، والذين يعتزلون مملكة العري، ساترين عري نفوسهم، حتى لا يستحي الأحرار من النظر إلى الحقّ عارياً والتأمل بالجمال سافراً. وأعظم من هؤلاء جميعهم ذاك الذي يعتزل مملكة الحزن، لكي لا يظهر للناس معجباً مفاخراً بكآبته».

ثم نهض متوكئاً على قصبته وقال: «ارجع الآن الى المدينة العظمى، وقف بأبوابها مراقباً جميع الداخلين والخارجين منها. واعنَ بأن تجدَ الرجل الذي على رغم أنه ولد ملكاً فهو بدون مملكة. والرجل الذي على رغم أنه مسودٌ بجسده فهو سائد بروحه، ولكنه لا يدري بذلك ولا رعاياه يدرون بسيادته. والرجل الذي يبدو للعيان حاكماً ولكنه في الحقيقة عبد لعبيد عبيده».

وبعد أن فرغ من كلامه نظر إليّ، فلاحت لي منه ابتسامة خلتها ألف فجرٍ وفجر.

ثم تحوّل عني متغلغلاً في قلب الغابة.

أما أنا فرجعت إلى المدينة، ووقفت بأبوابها أراقب العابرين بي، على نحو ما قال لي. وما أكثر الملوك الذين مرت ظلالهم فوقي، منذ ذلك اليوم حتى الساعة، وأقل الرعايا الذين مرّ فوقهم ظلّي!

الظلم مرتعه وخيم

هذه أغنية التنينة التي تحرس كهوف البحر السبعة:

«سيأتي قريني راكباً على الأمواج،

«وسيملأ الأرض رعباً بهديره العجاج،

«وستندلع نيران منخريه في أقاصي الفضاء.

«عند خسوف القمر سأزف إليه،

«وعند كسوف الشمس سألد جورجيوس آخر فيذبحني».

هذه أغنية التنينة التي تحرس كهوف البحر السبعة.

بنت الأسد

وقف أربعة عبيد يروّحون بمراوحهم لملكة حيزبون كانت نائمة على عرشها تغطّ غطيطاً غليظاً. وكان في حضن الملكة هرّةٌ متكئة تموء وهي تنظر إلى العبيد نظرة كره واشمئزاز.

فقال العبد الأول لرفقائه: «ما أبشع هذه الحيزبون نائمة! انظروا كيف تراخت شفتاها، وهي تصعّد أنفاسها كأنما الشيطان آخذ بخناقها».

فماءت الهرّة قائلة: «إن بشاعتها في رقدتها ليست جزءاً من بشاعتكم في عبوديتكم وأنتم مستيقظون».

ثم قال العبد الثاني: «ومن الغريب أن النوم لم يلطف ملامح وجهها، بل زادها تجعداً، فهي ولا شكّ حالمة حلماً شريراً راعباً».

فماءت الهرة قائلة لهم: «حبذا لو تنامون أنتم وتحلمون بحريتكم!»

فقال العبد الثالث لرفقائه أيضاً: «يلوح لي أنها ترى في منامها موكب جميع ضحاياها الذين قتلتهم ظلماً وعدواناً».

فماءت الهرة قائلة: «نعم، فهي ترى مواكب أجدادكم وحفدتكم».

ثم قال العبد الرابع: «ما أغباكم تتحدثون عن هذه الملكة وهي نائمة، وماذا يجديكم الحديث نفعاً أو يجديني؟ ألعلّه يخفف عني نصيبي في وقوفي وعنائي في ترويحي لها؟»

فقالت الهرة وهي تموء: «أجل، إنّكم ستروّحون إلى دهر الداهرين، لأنه كما على الأرض كذلك في السماء».

وفي تلك اللحظة تحركت الملكة في نومها فسقط تاجها على الأرض فقال واحدٌ من العبيد: «إن في ذلك لشؤماً!»

فماءت الهرة وقالت: «مصائب قوم عند قوم فوائد».

فقال العبد الثاني: «ماذا يحلّ بنا إذا أفاقت الآن من نومها ورأت تاجها ساقطاً على الأرض؟ والله إنها تذبحنا جميعنا!»

فماءت الهرة قائلة: «قد كانت تذبحكم منذ ميلادكم أيها الأغبياء وأنتم لاتعلمون».

وقال العبد الثالث: «إنها ولا شكّ تذبحنا، وتعتبر أنها بعملها هذا إنما تقرب عبادة لآلهتها».

فماءت الهرة قائلة: «لايُضحّي للآلهة إلا الضعفاء».

أما العبد الرابع فأسكت رفقاءه عن الكلام، والتقط التاج بتأنّ ووضعه على رأس الملكة من غير أن يوقظها.

فماءت الهرّة وقالت بصوت عال: «الحقّ أقول لكم إنّه لا يلتقط التيجان المتدحرجة سوى العبيد.» وبعد هنيهة استيقظت الملكة، وتلفتت حواليها متثائبة ثم قالت لعبيدها: «يخيلُ إلي أني حلمت بأني رأيت أربع حشرات يطاردها عقرب حول جذع سنديانة جبارة. قبّحه الله من حلم مزعج!»

وأطبقت عينيها فنامت ثانية بعد أن ملأت القاعة بغطيطها، فطفق العبيد الأربعة يروّحون لها على جاري عادتهم.

أما الهرّة فماءت قائلة: «روّحوا، روّحوا أيها العميان والأغبياء، فأنتم لا تروّحون إلاّ ناراً تلتهم وجودكم!».

القديس

زرت في حداثتي قديساً في صومعته الهادئة، القائمة بين التلال، وفيما كنا نبحث ماهية الفضيلة أطلّ علينا لصّ وهو يتعرّج على الجانبين فوق الروابي، والتعب قد أعياه. وعندما وصل إلى الصومعة جثا على ركبتيه أمام القديس وقال له: «أيها القديس الشفيق قد جئتك طالباً تعزية، فإن آثامي قد تعالت فوق رأسي».

فأجابه القديس قائلا: «يا ابني، إن آثامي أنا أيضاً قد تعالت فوق رأسي».

فقال له اللص: «عفوك يا سيدي! فأنا سارق، وقاطع طريق، ويستحيل أن تكون مثلي».

فأجابه القديس: «إنّك واهمٌ يا ابني، فإنني بالحقيقة مثلك سارق وقاطع طريق».

فقال له اللص: «ماذا تقول يا سيدي؟ فأنا قاتل ودماء الكثيرين من الناس تصرخ في أذني».

فأجابه القديس؛ «وأنا أيضاً قاتل يا ابني وفي أذني تصرخ دماء الكثيرين».

فقال له اللص : «يا سيدي أنا قد ارتكبت شروراً لاتحصى، وجرائم لا عداد لها، فكيف تساوي نفسك بي وأنت رجل الله البار؟»

فأجابه القديس وقال: «لو أنك عرفتَ كثرة شروري لما ذكرت شرورك».

فانتصب اللص إذ ذاك وحدّق إلى القديس طويلاً، وملء عينيه دهشة وغرابة، ومضى من غير أن ينبس ببنت شفة.

أما أنا فكنت صامتاً إلى تلك الدقيقة. فالتفتّ آنئذ إلى القديس، وسألته قائلاً: «ما دعاك إلى أن تنسب لنفسك شروراً لم ترتكبها قطّ يا سيدي؟ ألا ترى أن هذا الرجل قد مضى ولم يعد من المصدقين بدعوتك، والمؤمنين ببشارتك؟»

فأجاب القديس وقال: «أجل يابني، فإنّك بالصواب حكمت، بأنّه لم يعد من المصدقين بدعوتي، ولكن الحقّ أقول لك إنّه قد انصرف والعزاء يملأ فؤاده».

وفي تلك اللحظة سمعنا اللص يغني من بعيد، وكانت الأودية تردّد صدى صوته الممتلئ بالمسرة والتعزية.

الطمع

رأيت في جولاني في الأرض وحشاً على جزيرة جرداء له رأس بشري، وحوافر من حديد.

وكان يأكل من الأرض ويشرب من البحر بلا انقطاع. فوقفت أراقبه ردحاً، ثم دنوت منه وسألته قائلاً: «ألم تبلغ كفافك بعدُ؟ أليس لجوعك من شبع أو لظمإك من ارتواء؟»

فأجابني وقال: «نعم، نعم قد بلغت كفافي بل قد مَللت الأكل والشرب ولكنني أخاف أن لا تبقى إلى غد أرض لآكل منها وبحر لأرتوي من مائه».

الذات العظمى

حدث بعد تتويج نُفسيبعل، ملك جبيل، أنّه انصرف إلى مقصورته، وهي الغرفة التي بناها له عرّافو الجبل النساك، فنزع تاجه، وخلع «برفيره» ووقف في وسط المقصورة، مفكراً في عظمته المتناهية، كملك جبيل الواسع السلطان في ذلك الزمان.

وكان في صدر تلك المقصورة مرآة مفضضة الإطار، أهدتها إليه أمه، فالتفت إليها بغتة، وإذا برجل عارٍ قد خرج منها وتقدم إليه.

فأخذ الرعب بمجامع قلبه وصرخ بالرجل قائلاً: «ماذا تريد أيها الرجل؟»

فأجابه الرجل وقال: «أودّ شيئاً واحداً أيها الملك، وهو أن تخبرني لماذا توجوك ملكاً على هذه البلاد؟»

فقال له الملك: «قد توجوني مليكاً عليهم لأنّني أنبل رجل بينهم».

فقال له الرجل: «والله لو كنت أنبل مما أنت لما قبلت الملك».

فأجابه الملك: « بل إنما توجوني لأنّني أشدّهم بأساً وقدرة».

فقال له الرجل: «لو كنت بالحقيقة أشدّهم بأساً لما قبلت أن تكون مليكاً عليهم».

فقال له الملك: «ألا إنما توجني شعبي لأنّني أوفرهم حكمة».

فأجابه الرجل قائلاً: «والله لو كنت أوفر حكمة مما أنت الآن لما اخترتَ أن تكون ملكاً».

فسقط الملك حينئذ على الأرض وبكى بكاء مراً. أما الرجل العاري فكان ينظر إليه بشفقة وحنان آسفاً على جهله وغروره. ثم تناول تاج الملك المتدحرج على الأرض ووضعه بلطف على رأسه المنحني، وعاد فدخل في المرآة كما خرج وهو ينظر إلى الملك برقة وحسرة.

أما الملك فنهض بغتةً إلى المرآة. وتأملها جيداً فلم يرَ هنالك أحداً إلاه وتاجه على رأسه.

الحرب والامم الصغيرة

كان في أحد المروج نعجة وحمل يرعيان. وكان فوقهما في الجوّ نسرٌ يحوم ناظراً إلى الحمل بعين جائعة يبغي افتراسه. وبينما هو يهم بالهبوط لاقتناص فريسته، جاء نسر آخر وبدأ يرفرف فوق النعجة وصغيرها وفي أعماقه جشع زميله.

فتلاقيا وتقاتلا حتى ملأ صراخهما الوحشي أطراف الفضاء. فرفعت النعجة نظرها إليهما منذهلة، والتفتت إلى حملها وقالت: «تأمل يا ولدي، ما أغرب قتال هذين الطائرين الكريمين! أوَليس من العار عليهما أن يتقاتلا، وهذا الجو الواسع كافٍ لكليهما ليعيشا متسالمين؟ ولكن صلّ يا صغري، صلّ في قلبك إلى الله، لكي يرسل سلاماً إلى أخويك المجنحين!»

فصلّى الحمل من أعماق قلبه!

الناقدون

في عشية أحد الأيام كان المسافر راكباً حصانه وسائراً إلى الساحل، فوصل في طريقه إلى فندق. فترجل وربط حصانه إلى شجرة أمام الباب، لأنّه كان واثقاً بالليل وبالناس شأن أقرانه المسافرين إلى السواحل، ثم دخل إلى الفندق مع الداخلين.

وعند انتصاف الليل كان جميع من في الفندق نياماً، فجاء لصّ وسرق حصان المسافر فلم يدرِ به أحد.

وفي الصباح نهض المسافر من نومه، وجاء على الفور إلى حيث ربط حصانه فلم يجده. وبعد أن فتش عنه جيداً عرف أن لصاً سرقه في تلك الليلة، فتأثر كثيراً على فقد حصانه، ولكنه حزن بالاكثر على أن بين الناس من يغريه الشرّ فيعمد إلى السرقة.

وعندما عرف رفقاؤه المسافرون بما جرى له، تجمعوا حواليه، وبدأوا ينحون عليه باللائمة معنفين إياه.

فقال الأول: «ما أحمقك أيها الرجل! لماذ ربطت حصانك خارج الاصطبل؟»

ثم قال له الثاني: «إنّني أستغرب كيف أنّك لم تحجل(تقيّد) الحصان عندما ربطته. فما أوفر جهلك؟»

فقال الثالث لرفيقيه: «إنّ السفر إلى البحر على ظهور الخيول غباوةٌ من أساسه.

فقال الرابع: « أما أنا فأعتقد أنّه لا يقتني الخيول إلا كل بليد بطيء الخطى».

فدهش المسافر لبلاغتهم وفصاحتهم في الوعظ والإرشاد بعد فوات الأوان. ثمّ قال لهم وهو يتميز غيظاً: «أيها الأصحاب، عندما سرق حصاني جاءتكم الفصاحة عفواً، فأسرعتم الواحد تلو الآخر تعددون هفواتي وزلاتي

ولكن يدهشني كيف أنكم، مع ما أوتيتم من قوة البيان، لم يقل أحد منكم كلمة عمّن سرق الحصان!»

الشعراء

كان أربعة من الشعراء جالسين إلى خوان، وكان على الخوان إناء من الخمر.

فقال الشاعر الأول: «يخيل إليّ أني أرى عبير هذا الخمر مرفرفاً في الفضاء، كسحابة من الطيور في غاب مسحور».

فرفع الشاعر الثاني رأسه وقال: «أما أنا فإني أسمع بأذني الباطنة هذه الطيور تغرد فتأخذ ألحانها بمجامع قلبي فتأسره كما تأسر الزنبقة النحلة بين وريقاتها».

فأغمض الشاعر الثالث عينيه ورفع ذراعه وقال: «أما أنا فإني أكاد ألامسها بيدي، أشعر بحفيف أجنحتها يهبّ في وجهي كأنّه لهاثُ جنيّة نائمة».

فنهض الشاعر الرابع إذ ذاك، ورفع الإناء بيديه وقال: «عفوكم أيها الاخوان! فإني ضعيف البصر، ثقيل السمع، كليل اللمس، فليس في طاقتي أن أرى عبير هذه الخمرة، ولا أن اسمع غناءها، ولا أن أشعر برفرفة أجنحتها. أوّاه! إنّني لا أشعر بغير الخمرة ذاتها، ولذلك يجب أن أشربها لتوقظ حواسي الخاملة، وتشعل روحي بنار بركتكم العلويّة ووحيكم الطهور».

ثم وضع إناء الخمر على شفتيه وأتى على آخر نقطة فيه.

أما الشعراء الثلاثة رفقاؤه، فكانوا ينظرون إليه بدهشة، فاتحين أشداقهم. وفي عيونهم غُلّةٌ لا تُروى لهبتها وبغضة لا تخمد حدتها.

دوارة الريح

قالت دوّارة الريح للريح: «قبحك الله، ما أثقلك وما أملّك! أليس في وسعك أن تهبّي في وجه غير وجهي؟ ألا تعلمين أنّك بعملك هذا إنما تعكرين صفو ثباتي الذي أعطانيه الله؟»

فلم تجب الريح بكلمة قطّ، ولكنها ضحكت في الفضاء.

ملك اردوسة

مَثُل شيوخ مدينة«اردوسة» مرة في حضرة الملك، والتمسوا منه أمراً يقضي بمنع المسكرات في مدينتهم.

فلم يجب الملك سؤلهم، بل ولاهم ظهره وتركهم ومضى، ضاحكاً منهم في سرّه.

فانصرف الشيوخ من حضرته قانطين.

ولما بلغوا باب القصر رأوا وزير الملك، وكان هذا الوزير داهيةً، فلحظ اضطرابهم وعرف قصتهم.

فقال لهم: «أوّاه أيها الأصحاب! فإن الحظّ لم يسعدكم لأنكم لو أتيتم إلينا عندما يكون ملكنا سكران لكنتم حصلتم في الحال على ما طلبتم!»

طائر ايماني

من اعماق قلبي هبّ طائرٌ وصعد محلّقاً في الفضاء، وكان كلما حلّق في الجوّ،أكثر فأكثر، يزداد كبراً فكبراً فبدا أولاً كالخطاف، ثمّ صار كالقُبرة، فكالنسر، إلى أن أصبح كسحابة الربيع اتساعاً، فملأ السماوات المرصعة بالنجوم.

من أعماق قلبي هبّ، وحلق في الفضاء، وكان يزداد حجمه كلما طار.

ومع ذلك فإنّه ظلّ ساكناً في أعماق قلبي.

فيا إيماني، يا معرفتي الجامحة القديرة،

كيف أبلغ سموّك، فأرى وأياك ذات الانسان الفضلى المرسومة على أديم السماء؟

كيف أحوّل هذا البحر الذي في أعماق نفسي، إلى ضباب كثيف، وأهيم وإياك في فضاء اللانهاية؟

أوَهل يستطيع السجين في ظلمات الهيكل أن يرى قباب الهيكل المذهّبة؟

أم هل للّنواة أن تتمدّد فتتغلف الثمر كما كان يغلفها من ذي قبل؟

أجل يا إيماني الحليم! أجل. فإني مقيد بالسلاسل الحديدية في غيابات هذا السجن المحدود، تفصلني عنك هذه الحواجز المصنوعة من اللحم والعظم، وليس لي أن اطير معك الآن إلى عالم اللاحدود.

بيد أنّك من قلبي تنبثق محلّقاً في الفضاء الواسع، وأنت لا تزال قاطناً في أعماق قلبي الوجيع، وإني بذلك لراضٍ مستسلم قنوع.

الخلافات

حدث عندما كانت ملكة «عيشانا» في فراش مخاضها والملك وعيون بلاطه يترقبون نجاتها من آلامها الشديدة، وهم جالسون على أحرّ من الجمر في قاعة الثيران المجنحة[1] أن دخل عليهم فجأة رسول مستعجل، وركع عند

---

(١) كان عند قدماء الأشوريين إله له رأس إنسان وجسم ثور وأجنحة طائر، وكانوا يرمزون برأسه عن الفكر، وبجسمه عن العزم، وبأجنحته عن الخيال. وهذا ما عناه المؤلف بقوله «قاعة الثيران المجنحة».

قدمي الملك وقال: «أيها الملك المعظم، إنني احمل لكم بشائر الفرح، وللملكة، ولعبيد الملك أجمعين، وذلك أن محراب « الجائر» عدوك اللدود، ملك «البترون» قد قضى نحبه».

فلمّا سمع الملك وكبار رجال دولته هذه البشرى نهضوا منتصبين على أقدامهم، وهللوا فرحين لأنه لو طال أجل محراب الجبار سنةً واحدة، لغزا أرض« عيشانا» وقاد سكانها عبيداً إلى بلاده.

وفي تلك اللحظة دخل طبيب البلاط إلى قاعة الثيران المجنحة، ودخلت وراءه قابلة الملكة، فانحنى الطبيب احتراماً للملك وقال له: «ليعش سيدي الملك إلى الأبد، فها قد رزقك الله طفلاً ذكراً، سيخلفك على العرش، ويخلد حكمك على شعوب « عيشانا» عديد السنين!»

فتهلل الملك، وطارت روحه فرحاً، لانّه في اللحظة الواحدة هلك عدوّه، وتأصلت الخلافة في نسله.

وكان في مدينة«عيشانا» في ذلك العهد نبي حقّ، ولكنه كان فتى جريئاً باسل الروح، فأمر الملك أن يحضر النبي بين يديه في تلك الليلة، فأحضر في الحال.

فقال له الملك : «تنبأ ايها النبي، وقل لنا كيف سيكون مستقبل ابني الذي وُلد الآن للمملكة».

فأجابه النبيّ على الفور قائلا: «اصغ ايها الملك فأنبئك الصدق عن مستقبل ابنك الذي وُلد لك اليوم: فإن روح عدوك ـ عدوك اللدود الملك محراب ـ الذي مات في مساء الأمس ، لم تلبث على متن الأرياح سوى ليلة واحدة وقد هبطت إلى الأرض ثانية تطلب جسداً تأوي إليه، فلم ترَ أفضل من جسد ابنك هذا الذي وُلد لك اليوم فتقمصته».

فاستشاط الملك غيظاً، واستلّ سيفه، وقطع رأس النبي بيده والزبد يخرج من فمه غضباً.

وها قد مرت الأيام، وتصرمت حبال السنين على تلك الحادثة، وحكماء «عيشانا» يُسرّون واحدهم للآخر قائلين: «أما قيل لنا في القدم، وأثبتت الأيام ذلك القول، إن «عيشانا» يحكمها عدوها؟».

المعرفة ونصف المعرفة

جلس أربع ضفادع على قرمة حطب عائمة على حافة نهر كبير. فجاءت موجة هوجاء واختطفت القرمة إلى وسط النهر، فحملتها المياه وسارت بها ببطء مع مجرى النهر. فرقصت الضفادع فرحاً بهذه السياحة اللطيفة فوق المياه، لأنّه لم يسبق لهنّ أن أبحرن بعيداً من ذي قبل.

وبعد هنيهة صرخت الضفدعة الأولى قائلة: يا لها من قرمة عجيبة غريبة! تأملن أيتها الرفيقات كيف تسير مثل سائر الأحياء. والله إنني لم أسمع قط بمثلها».

فأجابتها الضفدعة الثانية وقالت: «إن هذه القرمة لا تمشي، ولا تتحرك أيتها الصديقة، وهي ليست عجيبة غريبة كما توهمت، ولكن مياه النهر المنحدرة بطبيعتها إلى البحر تحمل هذه القرمة معها وتحملنا نحن أيضاً بانحدارها».

فقالت الضفدعة الثالثة: «لا لعمري، فقد أخطأتما أيتها الرفيقتان في خيالكما الغريب. فإن القرمة لا تتحرك والنهر أيضاً لا يتحرك، وإنما الحقيقة أن فكرنا هو المتحرك فينا، وهو الذي يقودنا إلى الاعتقاد بحركة الأجسام الجامدة».

وتناظرت الضفادع الثلاث في ما هو متحرك بالحقيقة. وحمي وطيس الجدال وعلا الصراخ بينهن ولم يتّفقن على رأي واحد.

ثم التفتن إلى الضفدعة الرابعة التي كانت إلى تلك الساعة هادئة صامتة

تصغي إليهنّ بانتباه واستيعاب، وسألنها رأيها في الموضوع.

فقالت لهنّ: «كلكنّ محقات أيتها الرفيقات، ولا واحدة منكنّ على ضلال. فإن الحركة كائنة في القرمة وفي النهر وفي فكرنا في وقت واحد».

فلم يرقهنّ ذلك الكلام، لأن كلّ واحدة منهنّ كانت تعتقد أنها وحدها المصيبة وأن رفيقاتها لفي ضلال مبين.

وما أغرب ما حدث بعد ذلك! فإن الضفادع الثلاث تسالمن بعد العداء، وتجمّعن فرمينّ بالضفدعة الرابعة من على القرمة إلى النهر.

الصحيفة البيضاء

قالت صحيفة ورق بيضاء كالثلج: «قد بُرئتُ نقية طاهرة وسأظلّ نقيّة إلى الأبد. وإنني لأوثر أن أحرق وأتحول إلى رماد أبيض، على أن آذن للظلمة فتدنو مني وللأقذار فتلامسني».

فسمعت قنينة الحبر قولها وضحكت في قلبها القاتم المظلم ولكنها خافت ولم تدنُ منها.

وسمعتها الأقلام أيضاً على اختلاف ألوانها ولم تقربها قط.

وهكذا ظلت صحيفة الورق البيضاء كالثلج ـ نقية طاهرة ـ ولكن.. فارغة.

العالم والشاعر

قالت الحية للحسون: «ما أجمل طيرانك أيها الحسون! ولكن حبذا لو أنك تستطيع أن تنسلّ إلى ثقوب الأرض وأوكارها. حيث تختلج عصارة الحياة في هدوء وسكون!».

فأجابها الحسون وقال: «أي وربي! إنّكِ واسعة المعرفة بعيدتها، بل أنتِ أحكم جميع المخلوقات، ولكن حبذا لو أنك تطيرين».

فقالت الحيّة كأنها لم تسمع شيئاً: «مسكين أنت أيها الحسون! فإنك لا تستطيع أن تبصر أسرار العمق مثلي، ولا تقدر أن تتخطر في خزائن الممالك الخفية، فترى أسرارها ومحتوياتها. أما أنا فلا أبعد بك، فقد كنت في الأمس متكئة في كهف من الياقوت الأحمر أشبه بقلب رمانة ناضجة، وأضأل الأشعة تحوّلها إلى وردة من نور. فمن أعطي سواي في هذا العالم أن يرى مثل هذه الغرائب؟».

فقال لها الحسون: «بالصواب قد حكمتِ أيتها الحكيمة، فلا أحد إلاكِ يستطيع أن يفترش ما تبلور من تذكارات العصور، وآثار الدهور. ولكن وا أسفاه، فإنّك لا تغرّدين!».

فقالت الحية: «إنني أعرف نباتاً تمتدّ جذوره إلى أحشاء الأرض، وكل من يأكل من تلك الجذور يصير أجمل من «عشتروت».

فأجابها الحسون قائلاً: «لا أحد، لا أحد إلاّكِ قد اهتدى إلى حسر القناع عن فكر الأرض السحري. ولكن وا أسفاه، فإنّكِ لا تطيرين!».

فقالت الحية: «وأعرف جدولاً أرجوانياً يجري تحت جبل عظيم، وكلّ من يشرب من هذا الجدول يصير خالداً خلود الآلهة. وليس بين الطير أو الحيوان من اهتدى إلى ذلك الجدول سواي».

فأجاب الحسون وقال: بلى والله. فإن في منالك أن تكوني خالدة مثل الآلهة لو شئتِ. ولكن وا أسفاه، فإنّك لا تغرّدين!».

فقالت الحية: «وأعرف هيكلاً مطموراً تحت تراب الأرض، لم يهتدِ إليه باحثٌ أو منقّبٌ بعد، أزوره مرّة في الشهر. وهو من بناء جبابرة الأزمنة الغابرة. وقد نُقشت على جدرانه أسرار جميع الأزمنة والأمكنة، وكلّ من يقرأها ويفهمها يوازي الآلهة في العقل والمعرفة».

فأجابها الحسون قائلاً: «بلى أيتها الحكيمة العزيزة، فإنّك لو شئت لاستطعت أن تكتنفي بلين جسدك جميع معارف الأجيال. ولكنك وا أسفاه لا تقدرين أن تطيري!».

فاشمأزت الحية إذ ذاك من حديثه. وارتدّت عنه إلى وكرها، وهي تبربر في ذاتها قائلة: «قبحه الله من غرّيد فارغ الرأس!».

أما الحسون فطار وهو يغني بأعلى صوته قائلا: «وا أسفاه، إنك لا تغردين! واأسفاه، واأسفاه يا حكيمتي، إنك لا تطيرين!».

الأثمان

كان رجل يحفر في حقله. وفيما هو يحفر عثر على تمثال بديع من المرمر الجميل، فأخذه ومضى به إلى رجل كان شديد الولع بالآثار والعاديّات وعرضه عليه، فاشتراه منه بأبهظ الأثمان، ومضى كل منهما في سبيله.

وبينما كان البائع راجعاً إلى بيته أخذ يفكر في ذاته قائلاً: «ما أكثر ما في هذا المال من القوة والحياة! إنّه بالحقيقة ليدهشني كيف أن رجلاً عاقلاً ينفق مالاً هذا مقداره لقاء صخر أصم فاقد الحركة، كان مدفوناً في الأرض منذ ألف سنة ولم يحلم به أحد».

وفي الساعة عينها كان المشتري يتأمل التمثال مفكّراً وقائلاً في ذاته: «تبارك ما فيك من الجمال! تبارك ما فيك من الحياة! حلم أية نفس علوية أنت؟ هذه بالحقيقة نضارةٌ أعطيتها من نوم ألف سنة في سكينة الأرض! إنني والله لا أفهم كيف يمكن الإنسان أن يبيع مثل هذه الطرفة النادرة بمال جامد زائل.

البحار الأخرى

قالت سمكة لأختها: «يوجد فوق بحرنا هذا بحرٌ آخر، وفيه مخلوقات متنوعة تعيش وتسبح هنالك كما نعيش نحن ههنا ونسبح».

فأجابتها أختها وقالت: «تلك أوهام! تلك أوهام! ألا تعلمين أيتها العزيزة أن كل مخلوق يترك بحرنا قيد قيراط واحد، ويبقى خارجاً عنه، يموت في الحال؟ إذن، فما هي حجتك على وجود أحياء أخرى في بحار أخرى؟».

التوبة

دخل رجلٌ في ليلة ظلماء إلى حديقة جاره، فسرق أكبر بطيخة وصلت إليها يده وحملها وجاء بها إلى بيته.

وعندما كسرها وجد أنها عجراء لم تبلغ بعد نموها، فتحرك ضميره في داخله إذ ذاك، وأوسعه تأنيباً، فندم على أنه سرق البطيخة...

المحتضر والشوحة

مهلاً ولا تلجّي يا أختاه، مهلاً!
فعمّا قريب أترك لك هذه البقية التلفة،
فإنها تستفرغ صبرك بطول نزاعها.

إنّني أضنّ بجوعك أن يترقّب تصرم هذه الهنيهات، لأن هذه القيود وإن كانت من اللهاث، فإن كسرها لعسير. إن رغبتي في الموت، وهي أبعد رغائبي، مقيدة بسلاسل رغبتي في الحياة، وهي أدنى رغائبي.

عفوك أيتها الرفيقة، فإنّني متماهلٌ بطيء.

هي الذكرى تمسك بروحي فتعيد إليها تذكارات مضت فتريها مواكب الأيام الذاهبة،
ومرأى شباب غابر قضيته في حلم.

وتشخص أمامي وجهاً يأمر أجفاني بألا تغمض.

وتعيد إلى مسمعي صوتاً لا يزال صداه متردّداً في أذني،
ويداً تلامس يدي ولا أراها.
عفوكِ أيتها الرفيقة، فقد طال انتظارك.

ولكن ها قد دنت الساعة وكل شيء عابر زائل: الوجه والعينان واليدان، والضباب الذي جاء بها.

ها قد حُلّت العقدة،
قد تقطّع الحبل.
وذلك الذي ليس بالطعام ولا بالشراب قد تنحّى وراح.

تقدمي يا رفيقتي الجائعة، تقدمي فقد أعدّت المائدة والطعام حقير يسير ولكنه يقدم بمحبة.

هلمي واغرزي منقارك في جنبي الأيسر،
وأخرجي من بين قضبان قفصه هذا الطائر الأصغر،
الذي لن يرفرف جناحاه فيما بعد.
بربّك خذيه وحلّقي به في رحاب الفضاء.
هلمّي، هلمّي إليّ يا صديقتي،
فأنا مُضيفكِ الليلة، وأنتِ ضيفي العزيز، فأهلاً ومرحباً.

وراء وحدتي

إنّ وراء وحدتي وحدة أبعد وأقصى.
وما انفرادي للمعتزل فيها سوى ساحة تغص بالمزدحمين.
وما سكوني للساكنين فيها سوى جلبةٍ وضجيج.
إنّني حَدَثٌ مضطرب هائم بعد، فكيف أبلغ تلك الوحدة القاصية؟
إنّ ألحان ذلك الوادي تتموّج في أذنيّ،
وظلاله السوداء تحجب الطريق عن عينيّ،
فكيف أسير إلى تلك الوحدة العلوية؟
إن وراء هذه الأودية والتلال غابة حبّ وافتتان،
وما سكوني لمن فيها سوى عاصفة هوجاء صماء،
وما افتتاني لعاشقيها سوى انخداع وغرور.

إنّني حَدَثٌ مضطرب هائم بعد، فكيف أبلغ تلك الغابة القدسية؟
فإن طعم الدماء لا يزال في فمي،
وقوس أبي ونشابه ما برحا في يدي،
فكيف أسير إلى تلك الوحدة العلوية؟

إن لي وراء هذه الذات السجينة ذاتاً حرة طليقة،
وما أحلامي في عقيدتها سوى حرب في ظلام،
وما رغائبي تجاه رغائبها سوى قرقعة عظام.

إنني حدث مهان ذليل بعد،
فكيف أكوّن ذاتي الحرة الطليقة؟
أجل، كيف أكوّن ذاتي الحرة الطليقة ـ
قبل أن أثأر لنفسي فأذبح جميع ذواتي المستعبَدة،
أو قبل أن يصير جميع الناس أحراراً طلقاء؟

إذ كيف تطير أوراقي مترنمة فوق الريح ـ
قبل أن تذوي جذوري في ظلام الأرض؟

بل كيف يحلّق نسر روحي طائراً أمام وجه الشمس ـ
قبل أن تترك فراخي عشّها الذي بنيته لها بعرق وجهي؟.

اليقظة الأخيرة

في غلس الليل العميق، وقد هبّ النسيم معطراً بأنفاس الفجر الأولى، نهض «السابق ـ وهو صدى الصوت الذي لم تسمع به أذنٌ بعد ـ فترك مقصورته وصعد إلى سطح بيته. وبعد أن وقف هنالك طويلاً ينظر إلى المدينة الهاجعة في سكينة الليل، رفع رأسه، وكأنما قد تجمع حواليه أرواح أولئك النائمين المستيقظة، وفتح فاه وخاطبهم قائلاً:

«يا إخوتي وجيراني، ويا أيها المارّون ببابي في كل يوم، إنّني أودّ أن أناجيكم في نومكم، وفي وادي أحلامكم، أود أن أمشي مطلقاً عارياً، فإن ساعات يقظتكم أشدّ غفلة من نومكم، وآذانكم المثقلة بالضجيج كليلة صَمّاء.

«لقد أحببتكم كثيراً وفوق الكثير.
«قد أحببت الواحد منكم كما لو كان كلكم،
«وأحببتكم جميعاً كما لو كنتم واحداً.
«ففي ربيع قلبي كنت أترنّم في جنانكم،
«وفي صيف قلبي كنت أحرس بيادركم.

«أجل، قد أحببتكم جميعكم، جباركم وصعلوككم، أبرصكم وصحيحكم، وأحببت من يتلمّس منكم سبيله في الظلام، كمن يرقص أيامه على الجبال والآكام.

«أحببتك أيها القوي، مع أن آثار حوافرك الحديدية لا تزال ظاهرة في لحمي.

«وأحببتك أيها الضعيف على رغم أنّك جففت إيماني، وعطلت عليّ صبري.

«أحببتك أيها الغني، في حين أنَّ عسلك كان علقماً في فمي. وأحببتك أيها الفقير مع أنّك عرفت عوزي وفراغ ذات يدي.

«أحببتك أيها الشاعر المقلد، الذي يستعير قيثارة جاره ليضرب عليها بأصابعه العمياء، أحببتك كرماً ولطفاً. وأحببتك أيها العالم الدائب عمره في جمع الأكفان الرثة من حقل الخزّاف الممقوت.

«أحببتك أيها الكاهن الجالس في سكون أمسه متسائلاً عن مصير غده.

«وأحببتك أيها العابد الذي يتخذ له من أشباح رغائبه آلهة يعبدها.

«أحببتكِ أيتها المرأة، المتعطشة وكأسها مملوءة أبداً، لأنّني عرفت سرّكِ.

«وأحببتك أيتها المرأة الساهرة لياليها، مشفقاً عليكِ.

«أحببتكَ أيها الثرثار قائلاً في نفسي: «إنّ للحياة كثيراً فتقوله».

«وأحببتك أيها الأبكم قائلاً في سري: «حبذا لو أسمع نطقاً يعبر عمّا في صمته».

«أحببتك أيها القاضي والناقد، ولكنكما عندما رأيتماني مصلوباً قلتما: «ما ألطف نزف دمائه من عروقه، وما أجمل الخطوط التي ترسمها في مسيلها على جلده الناصع!».

أجل، أحببتكم جميعكم، فتاكم وشيخكم،
«وأحببت قصبتكم المرتجفة كسنديانتكم الجبارة الراسخة،
«ولكن وا أسفاه فإنّ قلبي الطافح بحبّكم قد حوّل قلوبكم عني،
«لأن في وسعكم أن ترتشفوا خمرة المحبة من القدح الصغير ولكنكم لا تقوون على شربها من النهر الفياض.

«إنكم تستطيعون أن تسمعوا صوت المحبة عندما تهمس في آذانكم،
«ولكنكم تصمون آذانكم عندما تصيح المحبة مهللة بأعلى صوتها.

«وعندما رأيتم أنّني قد أحببتكم جميعكم بالسويّة، تهكمتم قائلين: «ما أسهل انقياد قلبه، وما أبعد الفطنة عن مسالكه! إنّ محبّته هذه محبّة متسوّل جائع، قد تعوّد التقاط الفتات، ولو كان جالساً إلى موائد الملوك، بل هي محبة ضعيف حقير، لأن القوي لا يحب إلاّ الأقوياء».

«وعندما رأيتم أنني أحببتكم حبّاً مفرطاً قلتم: «إن محبته هذه محبة أعمى لا يميز بين جمال الواحد وبشاعة الآخر. بل هي محبة عديم الذوق، الذي يشرب الخل كأنّه يشرب الخمر. بل إنما هي محبة فضوليّ مدّعٍ، إذ أي غريب يستطيع أن يحبّنا كأبينا وأمّنا وأختنا وأخينا؟».

«وهذه أقوالكم وغيرها كثير، لأنّكم طالما أشرتم إليّ بأصابعكم في شوارع المدينة وساحاتها وقلتم بعضكم لبعض ساخرين:

«بربّكم انظروا الصغير الكبير، الذي لا يعبأ بالفصول والسنين، فهو عند الظهيرة يلاعب أولادنا، وعند المساء يجالس شيوخنا، مدعياً الحكمة والفهم».

«أما أنا فكنت أقول في قلبي: «لا بأس في ذلك، فإنّي سأحبهم أكثر فأكثر، ولكنني سوف أسدل على محبتي ستاراً من البغض، وأستر عطفي بشديد كرهي. وسأتبرقع ببرقع من حديد، ولا أسعى وراءهم إلا مسلحاً مدرعاً».

«وبعد ذلك ألقيت يداً ثقيلة على رضوضكم وجراحكم، وكما تعصف العاصفة في الليل رعدتُ في آذانكم،

«ومن على السطوح قد أذعتكم للملإ فرّيسيين مرائين خداعين، وفقاقيع أرض كاذبة فارغة.

«قد لعنت قاصري النظر فيكم كما تلعن الخفافيش العمياء،

«وشبّهت الملتصقين بالأرض والأدنياء منكم بالمناجذ (جمع خلد) العادمة النفوس.

«أما الفصحاء والبلغاء بينكم فدعوتهم متشعبي الألسنة، ودعوت الصامت الساكن فيكم متحجر القلب والشفتين، وقلت في البسيط الساذج: «إنّ الأموات لا يملّون الموت».

«قد حكمت على الساعين وراء المعرفة البشرية منكم ومن أبنائكم كمجدفين على الروح القدس،

«وحكمت أيضاً على المأخوذين والمجذوبين بحبّ الأرواح وما وراء الطبيعة كمصطادي أشباح، يرمون شباكهم في مياه راكدة، ولا يصطادون سوى ظلالهم البليدة.

«كذا شهّرتكم بشفتي، ولكن قلبي، والدماء تنزف منه، كان يدعوكم بأرقّ الأسماء وأحلاها.

«أجل أيها الأصحاب والجيران، فإن المحبة قد خاطبتكم مسوقةً بسياط ذاتها،

«والكبرياء قد رقصت أمامكم متعفّرة بغبار خيبتها مذبوحة بآلامها،
«وتعطشي لمحبتكم قد ثار ثائره على السطوح،
«ولكن محبتي كانت تسألكم صفحاً وهي راكعة صامتة.
«ولكن إليكم المعجزة يا قوم:
«إن تستّري قد فتح عيونكم، وبغضي قد أيقظ قلوبكم.
«والآن أنتم تحبونني!

«إنكم لا تحبون سوى السيوف التي تطعن قلوبكم والسهام التي تخرق صدوركم،

«لأنّكم لا تتعزّون إلا بجراحكم، ولا تسكرون إلا بخمرة دمائكم.

«وكما يتجمّع الفراش حول اللهيب، ساعياً وراء حتفه، تجتمعون أنتم كل يوم في حديقتي، وبوجوه مرتفعة، وعيون شاخصة، تراقبونني وأنا أمزّق نسيج أيامكم، فتتهامسون فيما بينكم قائلين:

«إنه يبصر بنور الله، ويتكلم كأنبياء المتقدمين، فيحسر القناع عن

نفوسنا، ويحطم أقفال قلوبنا، وكما يعرف النسر مسالك الثعالب، يعرف هو أيضاً طرقنا ومسالكنا».

«بلى، فإنّني بالحقيقة أعرف طرقكم، ولكن كما يعرف النسر طرق فراخه، وإنني، بمسرة قلب، قد كشفت لكم سري، ولكنني لحاجة بي إلى قربكم، أتظاهر بالجفاء، وخوفاً مني على دنو قضاء محبتكم أقوم على حراسة سدود محبتي».

وبعد أن فرغ السابق من كلامه غطّى وجهه بيديه وبكى بكاءً مراً، لأنّه أدرك في قلبه أن المحبة المحتقرة في عريها، لأعظم من المحبة التي تنشد الظفر في تسترها وتنكّرها، وخجل إذ ذاك من ذاته.

ثم رفع رأسه بغتةً، وكأنّه أفاق من نوم عميق، وبسط ذراعيه وقال: «ها قد ولّى الليل، ونحن أولاد الليل يجب أن نموت عندما يأتي الفجر متوكّئاً على التلال، وستبعث من رمادنا محبة أقوى من محبتنا، وستضحك في نور الشمس، وستكون خالدة».

النبـي

تعريب

الارشمندريت انطونيوس بشير

النبي

وظلّ المصطفى، المختار الحبيب، الذي كان فجراً لذاته، يترقب عودة سفينته في مدينة أورفليس اثنتي عشرة سنة ليركبها عائداً إلى الجزيرة التي ولد فيها.

وفي السنة الثانية عشرة، في اليوم السابع من أيلول شهر الحصاد، صعد إلى قنة إحدى التلال القائمة وراء جدران المدينة وألقى نظرة عميقة إلى البحر، فرأى سفينته تمخر عباب البحر مغمورة بالضباب.

فاختلج قلبه في أعماقه، وطارت روحه فوق البحر فرحاً، فأغمض عينيه. ثم صلّى في سكون نفسه.

* * *

غير أنّه ما هبط عن التلة حتى فاجأته كآبة صمّاء، فقال في قلبه:

كيف أنصرف من هذه المدينة بسلام، وأسير في البحر من غير كآبة؟ كلّا! إنّني لن أبرح هذه الأرض حتى تسيل الدماء من جراح روحي.

فقد كانت أيام كآبتي طويلة ضمن جدرانها، وأطول منها كانت ليالي وحدتي وانفرادي، ومن ذا يستطيع أن ينفصل عن كآبته ووحدته من غير أن يتألم في قلبه؟

كثيرةٌ هي أجزاء روحي التي فرقتها في هذه الشوارع، وكثير هم أبناء

حنيني الذين يمشون عراة بين التلال، فكيف أفارقهم من غير أن أثقل كاهلي وأضغط روحي!

فليس ما أفارقه بالثوب الذي أنزعه عني اليوم ثم أرتديه غداً، بل هو بشرة أمزّقها بيدي.

كلا، ولس فكراً أخلفه ورائي، بل هو قلب جمّلته مجاعتي وجعله عطشي رقيقاً خفوقاً.

* * *

بيد أنّني لا أستطيع أن أبطئ في سفري.

فإن البحر الذي يدعو كل الأشياء إليه يستدعيني، فيجب عليّ أن أركب سفينتي وأسير في الحال إلى قلبه.

ولو أقمت الليلة ههنا، فإنّني، مع أن ساعات الليل ملتهبة، أجمد وأتبلور وأتقيّد بقيود الأرض الثقيلة.

وإنني أودّ لو يتاح لي أن يصحبني جميع الذين ههنا. ولكن أنّى يكون لي ذلك؟

فإن الصوت لا يستطيع أن يحمل اللسان والشفتين اللواتي تسلحن بجناحيه. ولذلك فهو وحده يخترق حجب الفضاء.

أجل، والنسر، يا صاح، لا يحمل عشه بل يطير وحده محلقاً في عنان السماء.

وعندما بلغ المصطفى سفح التلة التفت ثانية إلى البحر فرأى سفينته تدنو من المرفإ، وأبناء بلاده يروحون ويجيئون على مقدّمتها.

فهتف لهم من صميم فؤاده وقال:

يا أبناء أمتي الأولى، أيها الراكبون متون الأمواج المذللون مدّها وجزرها.



«وجه النّبي»

كم من مرة أبحرتم في أحلامي! وها قد أتيتم ورأيتكم في يقظتي التي هي أعمق أحلامي.

إنني على أتم الأهبة للإبحار، وفي أعماقي شوق عظيم يترقب هبوب الريح على القلوع بفارغ الصبر.

ولكنني أودّ أن أتنفّس مرةً واحدةً في هذا الجوّ الهادئ وأن أبعث بنظرة عطف واحدة إلى الوراء.

وحينئذٍ أقف معكم، ملّاحاً بين الملّاحين.

أما أنت أيها البحر العظيم، أيها الأم الهاجعة.

أنت أيها البحر العظيم الذي فيك وحدك يجد النهر والجدول سلامهما وحريتهما.

فاعلم أن هذا الجدول لن يدور إلا دورة واحدة بعد، ولن يسمع أحد خريره على هذا المعبر بعد اليوم، وحينئذ آتي إليك، نقطة طليقة إلى أوقيانوس طليق.

* * *

وفيما هو ماشٍ رأى عن بعد رجالاً ونساء يتركون حقولهم وكرومهم ويهرولون إلى أبواب المدينة.

وسمعهم يصرخون بعضهم ببعض من حقل إلى حقل مردّدين اسمه وكلٌّ منهم يحدّث رفيقه بقدوم سفينته.

* * *

فقال في نفسه:

أيكون يوم الفراق يوم الاجتماع؟

أم يجري على الأفواه أن مسائي كان فجراً ليْ؟

وماذا يجدر بي أن أقدم للفلاح الذي ترك سكته في نصف تلمه، وللكرّام

الذي أوقف دولاب معصرته؟

أيتحوّل قلبي إلى شجرة كثيرة الأثمار فأقطف منها وأعطيهم؟

أم تفيض رغباتي كالينبوع فأملأ كؤوسهم؟

هل أنا قيثارة فتلامسني يد القدير، أم أنا مزمار فتمرّ بي أنفاسه؟

أجل، إنّني هائم أنشد السكينة، ولكن ما هو الكنز الذي وجدته في السكينة لكي أوزعه بطمأنينة؟

وإن كان هذا اليوم يوم حصادي ففي أية حقول بذرت بذاري، وفي أي فصل من الفصول المجهولة كان ذلك؟

وإن كانت هذه هي الساعة التي يجدر بي أن أرفع فيها مصباحي واضعاً إياه على منارتي، فإن النور الذي يتصاعد منه ليس منّي.

لأنّني سأرفع مصباحي فارغاً مظلماً.

ولكنّ حارس الليل سيملأه زيتاً، وسينيره أيضاً.

قال هذا معبراً عنه بالألفاظ. ولكن كثيراً مثل هذا حفظه في قلبه من غير أن يعلنه، لأنّه هو نفسه لم يقدر أن يوضح سرّه العميق.

* * *

وعندما دخل المدينة استقبله الشعب بأسره، وكانوا يهتفون له مرحبين به بصوت واحد.

فوقفه شيوخ المدينة وقالوا له:

بربك لا تفارقنا هكذا سريعاً.

فقد كنت ظهيرةً في شفقنا،

وقد أوحى شبابك الأحلام في نفوسنا.

وأنت لست بالغريب بيننا، كلاّ، ولا أنت بالضيف بل أنت ولدنا وقسيمُ أرواحنا الحبيب.

فلا تجعل عيوننا تشتاق إلى رؤية وجهك.

ثم قال له الكهّان والكاهنات:

لا تأذن لأمواج البحر أن تفصل بيننا، فتجعل الأعوام التي قضيتها بيننا نسياً منسيّاً.

فقد كنت فينا روحاً محيية، وكان خيالك نوراً يشرق على وجوهنا.
قد تعشّقتك قلوبنا، وعلقتك أرواحنا،
ولكن محبتنا تقنّعت بحجب الصمت، فلم نستطع أن نعبّر عنها.

بيد أنها تصرخ إليك الآن بأعلى صوتها، وتمزّق حجبها بيديها لكي تظهر لك حقيقتها.

فإن المحبة منذ البدء لا تعرف عمقها إلا ساعة الفراق.

* * *

ثم جاء إليه كثيرون متوسلين متضرعين. فلم يردّ على أحد جواباً. ولكنه كان يحني رأسه، وكان الواقفون حوله ينظرون عبراته تتساقط بغزارة على وجنتيه وصدره.

وظل يمشي مع الشعب حتى وصلوا إلى الساحة الكبرى أمام الهيكل.

المطـرة

وحدث إذ ذاك أن امرأة عرّافة خرجت من المقدس، اسمها المِطرة.

فنظر إليها نظرة ملؤها الحب والحنان، لأنها كانت أول من سعى إليه وآمن به مع أنه لم يكن له إلا ليلة وضحاها في مدينتهم.

فحيته باحترام وقالت له:

يا نبيّ الله، قد طالما كنت تسعى وراء ضالّتك المنشودة، مفتشاً عن سفينتك التي كانت بعيدة عنك.

وها قد وصلت سفينتك، ولم يبقَ من بد لسفرك.

عظيم هو حنينك إلى أرض أحلامك وتذكاراتك ومواطن الفائقات من رغباتك، ولذلك فإن محبتنا لا تقيدك، وحاجتنا إليك لا تُمسك بك.

ولكننا واحدة نسألك قبل أن تفارقنا:
أن تخطب فينا وتعطينا من الحقّ الذي عندك.

ونحن نعطيه لأولادنا، وأولادنا لأولادهم وحفدتهم، وهكذا يثبت كلامك فينا على ممر العصور.

ففي وحدتك كنت ترقب أيامنا، وفي يقظتك كنت تصغي إلى بكائنا وضحكنا في غفلتنا.

لذلك نضرع إليك أن تكشف مكنوناتنا لذواتنا، وتخبرنا بكلّ ما أُظهر لك من أسرار الحياة من المهد إلى اللحد.

فأجاب قائلا:
يا أبناء أورفليس، بماذا أحدثكم إن لم أظهر لكم ما يختلج في نفوسكم وتتحرك به ضمائركم حتى في هذه الساعة؟.

المحبة

حينئذٍ قالت له المطرة: هات لنا خطبة في المحبة.

فرفع رأسه ونظر إلى الشعب نظرة محبة وحنان، فصمتوا جميعهم خاشعين. فقال لهم بصوت عظيم:
إذا أشارت المحبة إليكم فاتبعوها،



«المحبة»

وإن كانت مسالكها صعبة متحدّرة.
وإذا ضمتكم بجناحيها فأطيعوها،
وإن جرحكم السيف المستور بين ريشها
وإذا خاطبتكم المحبة فصدّقوها،

وإن عطل صوتها أحلامكم وبددها كما تجعل الريح الشمالية البستان قاعاً صفصفاً.

* * *

لأنّه كما أن المحبة تكللكم، فهي أيضاً تصلبكم.

وكما تعمل على نموّكم، هكذا تعلّمكم وتستأصل الفاسد منكم.

وكما ترتفع إلى أعلى شجرة حياتكم فتعانق أغصانها اللطيفة المرتعشة أمام وجه الشمس،

هكذا تنحدر إلى جذورها الملتصقة بالتراب وتهزها في سكينة الليل.

* * *

المحبة تضمّكم إلى قلبها كأغمار الحنطة.

وتدرسكم على بيادرها لكي تظهر عريكم.

وتغربلكم لكي تحرركم من قشوركم.

وتطحنكم لكي تجعلكم أنقياء كالثلج.

وتعجنكم بدموعها حتى تلينوا،
ثم تعدّكم لنارها المقدسة، لكي تصيروا خبزاً مقدّساً يقرّب على مائدة الرب المقدّسة.

* * *

كل هذا تصنعه المحبة بكم لكي تدركوا أسرار قلوبكم، فتصبحوا بهذا الإدراك جزءاً من قلب الحياة.

غير أنكم إذا خفتم، وقصرتم سعيكم على الطمأنينة واللذة في المحبة:

فالأجدر بكم أن تستروا عريكم وتخرجوا من بيدر المحبة إلى العالم البعيد حيثما تضحكون، ولكن ليس كل ضحككم، وتبكون، ولكن ليس كلّ ما في مآقيكم من الدموع.

المحبة لا تعطي إلا نفسها، ولا تأخذ إلا من نفسها.

المحبة لا تملك شيئاً، ولا تريد أن يملكها أحد:
لأن المحبة مكتفية بالمحبة.

* * *

أما أنت إذا أحببت فلا تقل: «إن الله في قلبي»، بل قل بالأحرى: «أنا في قلب الله».

ولا يخطر لك البتة أنك تستطيع أن تتسلط على مسالك المحبة، لأن المحبة إن رأت فيك استحقاقاً لنعمتها، تتسلط هي على مسالكك.

والمحبة لا رغبة لها إلا في أن تكمل نفسها.

ولكن إذا أحببت، وكان لا بدّ من أن تكون لك رغبات خاصة بك، فلتكن هذه رغباتك:

أن تذوب وتكون كجدول متدفّق يشنف آذان الليل بأنغامه.

أن تخبر الآلام التي في العطف المتناهي.

أن يجرحك إدراكك الحقيقي للمحبة في حبة قلبك، وأن تنزف دماؤك وأنت راضٍ مغتبط.

أن تنهض عند الفجر بقلب مجنح خفوق، فتؤدي واجب الشكر ملتمساً يوم محبة آخر.

أن تستريح عند الظهيرة وتناجي نفسك بوجد المحبة.
أن تعود إلى منزلك عند المساء شاكراً:

فتنام حينئذٍ والصلاة لأجل من أحببت تتردّد في قلبك، وأنشودة الحمد والثناء مرتسمة على شفتيك.

الزواج

ثم قالت له المِطرة ثانية: وما رأيك في الزواج أيها المعلم؟
فأجاب قائلاً:
قد ولدتم معاً، وستظلون معاً إلى الأبد.

وستكونون معاً عندما تبدّد أيامكم أجنحة الموت البيضاء.

أجل، وستكونون معاً حتى في سكون تذكارات الله.

ولكن فليكن بين وجودكم معاً فسحات تفصلكم بعضكم عن بعض، حتى ترقص أرياح السموات فيما بينكم.

أحبوا بعضكم بعضاً، ولكن لا تقيدوا المحبة بالقيود، بل لتكن المحبة بحراً متموجاً بين شواطئ نفوسكم.

ليملأ كل واحد منكم كأس رفيقه، ولكن لا تشربوا من كأس واحدة.

أعطوا من خبزكم كل واحد لرفيقه ولكن لا تأكلوا من الرغيف الواحد.

غنوا وارقصوا معاً، وكونوا فرحين أبداً، ولكن فليكن كل منكم وحده،



«الزواج»

كما أن أوتار القيثارة يقوم كل واحد منها وحده ولكنها جميعاً تخرج نغماً واحداً.

* * *

ليعطِ كل منكم قلبه لرفيقه، ولكن حذارِ أن يكون هذا العطاء لأجل الحفظ،
لأن يد الحياة وحدها تستطيع أن تحتفظ بقلوبكم.

قفوا معاً ولكن لا يقرب أحدكم من الآخر كثيراً: لأن عمودي الهيكل يقفان منفصلين،
والسنديانة والسروة لا تنمو الواحدة منهما في ظلّ رفيقتها.

الأبنـــاء

ثم دنت منه امرأة تحمل طفلها على ذراعيها وقالت له: هات حدثنا عن الأولاد.

فقال:

إن أولادكم ليسوا أولاداً لكم.

إنهم أبناء وبنات الحياة المشتاقة إلى نفسها، بكم يأتون إلى العالم ولكن ليس منكم.

ومع أنّهم يعيشون معكم فهم ليسوا ملكاً لكم.

أنتم تستطيعون أن تمنحوهم محبتكم، ولكنكم لا تقدرون أن تغرسوا فيهم بذور أفكاركم، لأن لهم أفكاراً خاصة بهم.

وفي طاقتكم أن تصنعوا المساكن لأجسادهم.
ولكن نفوسهم لا تقطن في مساكنكم.



«الأبنـــاء»

فهي تقطن في مسكن الغد، الذي لا تستطيعون أن تزوروه ولا في أحلامكم.

وأن لكم أن تجاهدوا لكي تصيروا مثلهم.
ولكنكم عبثاً تحاولون أن تجعلوهم مثلكم.
لأن الحياة لا ترجع إلى الوراء، ولا تلذّ لها الإقامة في منزل الأمس.

أنتم الأقواس وأولادكم سهام حيّة قد رمت بها الحياة عن أقواسكم.

فإن رامي السهام ينظر العلامة المنصوبة على طريق اللانهاية، فيلويكم بقدرته لكي تكون سهامه سريعة بعيدة المدى.

لذلك فليكن التواؤكم بين يدي رامي السهام الحكيم لأجل المسرّة والغبطة.

لأنه كما يحبّ السهم الذي يطير من قوسه، هكذا يحبّ القوس التي تثبت بين يديه.

العطاء

ثم قال له رجل غني: هات حدّثنا عن العطاء.

فأجاب قائلاً:
إنك إذا أعطيت فإنما تعطي القليل من ثروتك.
ولكن لا قيمة لما تعطيه ما لم يكن جزءاً من ذاتك، لأنّه أي شيء هي ثروتك؟
أليست مادة فانية تخزنها في خزائنك، وتحافظ عليها جهدك خوفاً من أن تحتاج إليها غداً؟

والغد. ماذا يستطيع الغد أن يقدم للكلب البالغ الفطنة الذي يطمر

العظام في الرمال غير المطروقة وهو يتبع الحجّاج إلى المدينة المقدسة؟

أوَليس الخوف من الحاجة هو الحاجة بعينها؟

أوَليس الظمأ الشديد للماء عندما تكون بئر الظامئ ملآنة هو العطش الذي لا تروى غلته.

* * *

من الناس من يعطون قليلاً من الكثير الذي عندهم وهم يعطونه لأجل الشهرة، ورغبتهم الخفيّة في الشهرة الباطلة تضيع الفائدة من عطاياهم.

ومنهم من يملكون قليلاً ويعطونه بأسره.

ومنهم المؤمنون بالحياة وبسخاء الحياة. هؤلاء لا تفرغ صناديقهم وخزائنهم ممتلئة أبداً.

ومن الناس من يعطون بفرح، وفرحهم مكافأة لهم.

ومنهم من يعطون بألم، وألمهم معموديّة لهم.

وهنالك الذين يعطون ولا يعرفون معنى للألم في عطائهم، ولا يتطلّبون فرحاً، ولا يرغبون في إذاعة فضائلهم، هؤلاء يعطون مما عندهم كما يعطي الريحان عبيره العطر في ذلك الوادي.

بمثل أيدي هؤلاء يتكلم الله، ومن خلال عيونهم يبتسم على الأرض.

جميل أن تعطي من يسألك ما هو في حاجة إليه،

ولكن أجمل من ذلك أن تعطي من لا يسألك وأنت تعرف حاجته، فإن من يفتح يديه وقلبه للعطاء يكون فرحه بسعيه إلى من يتقبل عطاياه والاهتداء إليه أعظم منه بالعطاء نفسه.

وهل في ثروتك شيء تقدر أن تستبقيه لنفسك؟

فإن كل ما تملكه اليوم سيتفرق ولا شكّ يوماً ما،



«العطاء»

لذلك أعطِ منه الآن، ليكون فصل العطاء من فصول حياتك أنت دون ورثتك.

وقد طالما سمعتك تقول متبجّحاً: «إنّني أحبّ أن أعطي، ولكن المستحقين فقط».

فهل نسيت، يا صاحِ، أن الأشجار في بستانك لا تقول قولك، ومثلها القطعان في مراعيك؟

فهي تعطي لكي تحيا، لأنها إذا لم تعطِ عرّضت حياتها للتهلكة.

الحق أقول لك، إن الرجل الذي استحقّ أن يقتبل عطية الحياة ويتمتّع بأيامه ولياليه، هو مستحقّ لكل شيء منك.

والذي استحق أن يشرب من أوقيانوس الحياة يستحقّ أن يملأ كأسه من جدولك الصغير.

لأنّه أي صحراء أعظم من الصحراء ذات الجرأة والجسارة على قبول العطيّة بما فيها من الفضل والمنّة؟

وأنت، من أنت، حتى ان الناس يجب أن يمزقوا صدورهم ويحسروا القناع عن شهامتهم وعزة نفوسم لكي ترى جدارتهم لعطائك عارية وأنفتهم مجرّدة عن الحياء؟

فانظر أولاً هل أنت جدير بأن تكون معطاء، وآلة العطاء.

لأن الحياة هي التي تعطي للحياة، في حين أنّك، وأنت الفخور بأن قد صدر العطاء منك، لست بالحقيقة سوى شاهد بسيط على عطائك.

* * *

أما أنتم، الذين يتناولون العطاء والإحسان ـ وكلكم منهم ـ فلا تتظاهروا بثقل واجب معرفة الجميل، لئلا تضعوا بأيديكم نيراً ثقيل الحمل على رقابكم ورقاب الذين أعطوكم.

بل فلتكن عطايا المعطي أجنحة ترتفعون بها معه:

لأنّكم إذا أكثرتم من الشعور بما أنتم عليه من الدين، فإنّكم بذلك تظهرون الشكّ والريبة في أريحيّة المحسن الذي أُمّه الأرض السخية، وأَبوه الربّ الكريم.

الغـــذاء

وبعد ذلك جاء إليه فندقيّ شيخ وقال له: هات حدّثنا عن المأكل والمشرب.

فأجاب قائلاً:

أودّ لو أنّك تقدر أن تعيش على عبير الأرض.

تكتفي بالنور كنباتات الهواء.

غير أنّك مضطر أن تقتل لتعيش، وأن تسرق المولود الصغير من حضن أمّه مختطفاً حليبها لتبريد ظمإك.

لذلك فليكن عملك مظهراً من مظاهر العبادة.

ولتكن مائدتك مذبحاً تقرّب عليه التقادم النقية الطاهرة من الحقول والسهول ضحيّة لما هو أكثر منها نقاوة في أعماق الإنسان.

* * *

وإذا ذبحت حيواناً فقل له في قلبك:

«إن القوة التي أمرت بذبحك، ستذبحني نظيرك.

«وعندما تحين ساعتي سأحترق مثلك.

«لأن الشريعة التي أسلمتك إلى يديّ ستسلمني إلى يدي من هو أقوى مني.

«وليس دمك ودمي سوى عصارة قد أُعدّت منذ الأزل غذاء لشجرة السماء».

* * *

وإذا نهشت تفاحةً بأسنانك فقل لها في قلبك:
«إن بذوركِ ستعيش في جسدي،
«والبراعم التي ستخرج منها في الغد ستزهر في قلبي،
«وسيتصاعد عبيركِ مع أنفاسي،
«وسأفرح معكِ في جميع الفصول».

* * *

وإذا قطفت العنب من كرومك في أيام الخريف، وحملته إلى المعصرة، فقل له في قلبك:

«أنا كرمة مثلك، وستجمع أثماري وتحمل إلى المعصرة، وسيضعونني كالخمر الجديدة في زقاق جديدة».

وعندما تستقي الخمرة من زقاقها في أيام الشتاء، أنشد في قلبك أنشودة لكل كأس تشربها.

وليكن لك من أناشيدك أجمل التذكارات لأيام الخريف وللكرمة والمعصرة.

العمل

ثم جاء إليه فلّاح وقال له: هات حدّثنا عن العمل.
فأجاب قائلاً:
إنّكم تشتغلون لكي تجاروا الأرض ونفس الأرض في سيرها.
لأن الكسول غريب عن فصول الأرض، وهائم لا يسير في موكب

الحياة، السائرة بعظمة وجلال في فضاء اللانهاية إلى غير المتناهي.

* * *

فإذا اشتغلت فما أنت سوى مزمار تختلج في قلبك مناجاة الأيام فتتحول إلى موسيقى خالدة.

ومن منكم يودّ أن يكون قصبةً خرساء صماء، وجميع ما حولها يترنّم معاً بأنغام متفقة؟

قد طالما أخبرتم أن العمل لعنة؛ والشغل نكبة ومصيبة.

أما أنا فأقول لكم إنكم بالعمل تحقّقون جزءاً من حلم الأرض البعيد، جزءاً خصص لكم عند ميلاد ذلك الحلم.

فإذا واظبتم على العمل النافع تفتحون قلوبكم بالحقيقة لمحبة الحياة.

لأن من أحب الحياة بالعمل النافع تفتح له الحياة أعماقها، وتدنيه من أبعد أسرارها.

* * *

ولكن إذا كنتم وأنتم في الآلام تدعون الولادة كآبة، ودعامة الجسد لعنة مكتوبة على جباهكم، فإنّني الحقّ أقول لكم إنّه ما من شيء يستطيع أن يمحو هذه الكتابة ويغسل جباهكم من آثارها سوى سعيكم وجهادكم.

وقد ورثتم عن جدودكم القول إن الحياة ظلمة، فرحتم في عهد مشقتكم تردّدون ما قاله قبلكم جدودكم المزعجون.

فالحق أقول لكم إن الحياة تكون بالحقيقة ظلمة حالكة إذا لم ترافقها الحركة.

والحركة تكون عمياء لا بركة فيها إن لم ترافقها المعرفة.

والمعرفة تكون عميقة سقيمة إن لم يرافقها العمل.

والعمل يكون باطلاً وبلا ثمر إن لم يقترن بالمحبة، لأنكم إذا اشتغلتم بمحبة فإنما تربطون أنفسكم وأفرادكم بعضها ببعض، ويرتبط كل واحد منكم بربه.

* * *

وما هو العمل المقرون بالمحبة؟

هو أن تحوك الرداء بخيوط مسحوبة من نسيج قلبك مفكراً أن حبيبك سيرتدي ذلك الرداء.

هو أن تبني البيت بحجارة مقطوعة من مقلع حنانك وإخلاصك مفكّراً أن حبيبك سيقطن في ذلك البيت.

هو أن تبذر البذور بدقّة وعناية، وتجمع الحصاد بفرح ولذّة كأنّك تجمعه لكي يقدّم على مائدة حبيبك.

هو أن تضع في كل عمل من أعمالك نسمة من روحك،
وتثق بأن جميع الأموات الأطهار محيطون بك يراقبون ويتأملون.

* * *

وكثيراً ما كنت أسمعكم تناجون أنفسكم، كأنّكم في نوم عميق، قائلين: «إن الذي يشتغل بنحت الرخام فيوجد مثالاً محسوساً لنفسه في الحجر الأصمّ هو أشرف من الفلاّح الذي يحرث الأرض.

«والذي يستعير من قوس قزح ألواناً يحوّل بها قطعة النسيج الحقيرة إلى صورة إنسان، هو أفضل من الإسكاف الذي يصنع الأحذية لأقدامنا».

ولكنني أقول لكم، لا في نوم الليل، بل في يقظة الظهيرة البالغة، إن الريح لا تخاطب السنديانة الجبارة بلهجة أحلى من اللهجة التي تخاطب بها أحقر أعشاب الأرض.

والعظيم العظيم ذلك الذي يحوّل هينمة الرّيح إلى أنشودة تزيدها محبته حلاوة وعذوبة.

* * *

أجل، إنّ العمل هو الصورة الظاهرة للمحبة الكاملة.

فإن لم تقدر أن تشتغل بمحبة وكنت متضجراً ملولاً، فالأجدر بك أن تترك عملك وتجلس على درجات الهيكل تلتمس صدقة من العملة المشتغلين بفرح وطمأنينة.

لأنّك إذا خبزت خبزاً وأنت لا تجد لك لذة في عملك، فإنما أنت تخبز علقماً لا يشبع سوى نصف مجاعة الإنسان.

وإذا تذمرت وأنت تعصر عنبك، فإن تذمرك يدس لك سمّاً في الخمرة المستقطرة من ذلك العصير.

وإن أنشدت أناشيد الملائكة، ولم تحب أن تكون منشداً، فإنما أنت تصمّ آذان الناس بأنغامك عن الإصغاء إلى أناشيد الليل وأناشيد النهار.

الفرح والترح

ثم قالت له امرأة: هات لنا شيئاً عن الفرح والترح.

فأجاب قائلاً:

إن فرحكم هو ترحكم ساخراً.

والبئر الواحدة التي تستقون منها ماء ضحككم قد طالما ملئت بسخين دموعكم.

وهل في الإمكان أن يكون الحال على غير هذا المنوال؟



«الفرح والترح»

فكلما أعمل وحش الحزن أنيابه في أجسادكم، تضاعف الفرح في أعماق قلوبكم.

لأنه أليست الكأس التي تحفظ خمرتكم هي نفس الكأس التي أُحرقت في أتون الخزّاف قبل أن بلغت إليكم؟

أم ليست القيثارة التي تزيد في طمأنينة أرواحكم هي نفس الخشب الذي قطع بالمدى والفؤوس؟

فإذا فرحتم فتأمّلوا مليّاً في أعماق قلوبكم تجدوا أن ما أحزنكم قبلاً يفرحكم الآن.

وإذا أحاطت بكم جيوش الكآبة فارجعوا ببصائركم ثانية إلى أعماق قلوبكم وتأملوا جيداً، تروا هنالك بالحقيقة أنّكم تبكون لما كنتم تعتقدون أنّه غاية مسراتكم على الأرض.

* * *

ويخيّل إليّ أن فريقاً منكم يقول: «إن الفرح أعظم من الترح»، فيعارضه فريق آخر قائلاً: «كلا، بل الترح أعظم من الفرح».

أما أنا فالحقّ أقول لكم: إنهما توأمان لا ينفصلان، يأتيان معاً ويذهبان معاً، فإذا جلس أحدهما منفرداً إلى مائدتكم، فلا يغرب عن أذهانكم أن رفيقه يكون حينئذٍ مضطجعاً على أسرّتكم.

* * *

أجل، إنّكم بالحقيقة معلّقون ككفتي الميزان بين ترحكم وفرحكم.

وأنتم بينهما متحركون أبداً، ولا تقف حركتكم إلا إذا كنتم فارغين في أعماقكم.

فإذا جاء أمين خزائن الحياة يرفعكم لكي يزن ذهبه وفضته، فلا ترتفع كفة فرحكم ولا ترجح كفة ترحكم، بل تثبتان على حالة واحدة.

المساكن

حينئذٍ دنا منه بنّاء وقال له: هات حدّثنا عن البيوت.

فأجاب وقال:

ابنِ من خيالك مظلّة في الصحراء قبل أن تبني بيتاً في داخل أسوار المدينة.

لأنه كما أن لك بيتاً مقبلاً في شفق حياتك، كذلك للغريب الهائم فيك بيت كبيتك.

إن بيتك هو جسدك الأكبر.

ينمو في حرارة الشمس وينام في سكينة الليل. وكثيراً ما ترافق نومه الأحلام. أفلا يحلم بيتك؟ وهل يترك الحلم المدينة ويسير إلى الغابة أم إلى رأس التلة؟

أوّاه لو أستطيع أن أجمع بيوتكم بيدي، فأبدّدها في الأحراج والرياض كما يبذر الزارع زرعه في الحقول.

أودّ لو كانت الأودية شوارع لكم، ومسالك التلال الخضراء أزقّة تطرقها أقدامكم عوضاً عن أزقتكم وشوارعكم القذرة، ويا ليتكم تنشدون بعضكم بعضاً بين الدوالي والكروم ثم تعودون حاملين عطر الأرض في طيات أثوابكم.

ولكن هذه جميعها تمنيات لم تحن ساعتها بعد.

لأن آباءكم وجدودكم إذ خافوا عليكم الضياع والضلال جمعوكم معاً لكي تكونوا قريبين بعضكم من بعض. وسيبقى هذا الخوف مجمعاً لكم زمناً بعد. وستظلّ أسوار المدينة فاصلة مواقدكم عن حقولكم ولكن إلى حين.

* * *

بربكم أخبروني، يا أبناء أورفليس، ماذا تملكون في هذه البيوت؟ وأي شيء تحتفظون به في داخل هذه الأبواب الموصدة؟

هل عندكم السلام، وهو القوة الصامتة التي تظهر ذاتكم الشديدة العزم المستترة في أعماقكم؟

هل عندكم التذكارات، وهي القناطر اللامعة التي تصل قنن الفكر الإنساني بعضها ببعض؟

هل عندكم الجمال، الذي يرتفع بالقلب من مصنوعات الخشب والحجارة إلى الجبل المقدس؟

بربكم أخبروني، هل عندكم كل هذا في بيوتكم؟

أم عندكم الرفاهية فقط، والتحرق للرفاهية الممزوج بالطمع، الرفاهية التي تدخل البيت ضيفاً، ثم لا تلبث أن تصير مضيفاً، فسيِّداً عاتياً عنيفاً؟

ثم تتحوّل إلى رائض جبار يتقلّد السوط بيمينه والكلّاب بيساره متخذاً رغباتكم الفضلى ألعوبة يتلهّى بها.

ومع أن بنان هذه الرفاهية حريري الملمس فإن قلبها حديدي صلد.

فهي تهدئ من حدّتكم لكي تناموا، ثم تقف أمام أسرّتكم هازئة بكم وبجلال أجسادكم.

تضحك من حواسكم المدركة، وتطرح بها بين الأشواك كأنها أوعية سهلة الانكسار.

لأن التحرق للرفاهية ينحر أهواء النفس في كبدها فيرديها قتيلة، ثم يسير في جنازتها فاغراً شدقيه مرغياً مزبداً.

* * *

أما أنتم، يا أبناء الفضاء، العائشين في الراحة والنعيم وغير المستريحين، فإنّكم لن تؤخذوا بالأشراك ولن يقدر رائض على ترويضكم.

لأن بيتكم لن يكون مرساة ولكنه سيكون سارية.

كلا، ولن يكون غشاءً برّاقاً تغطى به الجراح، بل جفناً تحفظ به العين.

وأنتم لن تطووا أجنحتكم لكي تستطيعوا أن تدخلوا من الأبواب، ولن تحنوا رؤوسكم لئلا تنطح السقف، كلاّ، ولن تخشوا أن تتنفسوا خوفاً من أن تقوّض أساسات الجدران وتسقط على الأرض.

أجل، ولن تقطنوا في القبور التي بناها أبناء الموت لأبناء الحياة.

ومع كل ما يزين منازلكم من الجلال والجمال فإنها لن تستطيع أن تحتفظ بسرّكم أو أن تؤوي حنينكم:
لأن غير المحدود فيكم يقطن في منزل السماء، الذي بوّابته سحابة الصباح ونوافذه سكون الليل وأناشيده.

الثيـــاب

ثم قال له الحائك: هات حدثنا عن الثياب.
فأجاب قائلاً:
إن ثيابكم تحجب الكثير من جمالكم، ولكنها لا تستر غير الجميل.

ومع أنكم تنشدون بثيابكم حرية التستر والانفراد، فإنها تقيِّدكم وتستعبدكم.

ويا ليت في وسعكم أن تستقبلوا الشمس والريح بثياب بشرتكم عوضاً عن ثياب مصانعكم،

لأن أنفاس الحياة في أشعة الشمس، ويد الحياة تسير مع مجاري الرياح.

* * *

يقول بعضكم: «إن الريح الشمالية دون غيرها قد حاكت الثياب التي نلبسها».

وأنا أقول لكم: «نعم، إن الريح الشماليّة قد فعلت ذلك، ولكن العار كان نولاً لها؛ ولدونة العضلات كانت لها خيطاً.

وعندما فرغت من عملها ضحكت منكم وهي تعصف في قلب الغاب.

ولكن لا يغرب عن أذهانكم أن الحشمة هي ترسٌ منيعٌ متين للوقاية من عيون المدنسين.

فإذا زال المدنسون من الوجود، أفلا تصير الحشمة قيداً للفكر وتلويثاً له في حمأة العبودية؟

لذلك ضعوا نصب عيونكم أن الأرض تبتهج بملامسة أقدامكم العارية، والرياح تتوق إلى ملاعبة شعوركم المسترسلة.

البيع والشراء

ثم دنا منه تاجر وقال له: هات حدّثنا عن البيع والشراء.

فأجاب وقال:

إن الأرض تقدّم لكم ثمارها، ولو عرفتم كيف تملأون أيديكم من خيراتها لما خبرتم طعم الحاجة في حياتكم.

لأنكم بغير مبادلة عطايا الأرض لن تجدوا وفراً من الرزق ولن يشبع جشعكم.

فيجدر بكم أن تتموا هذه المقايضة بروح المحبة والعدالة، وإلاّ فإنها تؤدي بالبعض منكم إلى الشراهة وبغيرهم إلى الطمع والمجاعة.

* * *

وإذا ذهبتم إلى ساحة المدينة أيها الدائبون في خدمة البحر والحقول والكروم، فاجتمعوا بالحاكة والخزّافين وجامعي الحنوط والطيوب.

واضرعوا في تلك الساعة إلى الروح المتسلطة على الأرض، أن تحلّ عليكم وتبارك مقاييسكم وموازينكم التي تعيّنون بها مقدار ما تجري عليه مقايضاتكم.

ولا تأذنوا لذوي الأيدي العقيمة من ذوي البطالة أن يشتركوا في معاملاتكم، لأنه لا شيء لهم يتاجرون به سوى أقوالهم التي يبيعونها لكم بأعمالكم.

بل قولوا لأمثال هؤلاء:

«تعالوا معنا إلى الحقل، أو فاذهبوا مع أولادنا إلى البحر وألقوا هنالك شباككم،

«لأن الأرض والبحر يجودان عليكم، متى عملتم، كما يجودان علينا».

* * *

وإن جاءكم المغنون والراقصون والعازفون،

فاشتروا من عطاياهم ولا ترفضوهم،

لأنهم يجمعون الأثمار والعطور نظيركم، ومع أن ما يقدمونه لكم مصنوع من مادة الأحلام، فإنّه أجمل كساء وأفضل غذاء لنفوسكم.

* * *

وقبل أن تبرحوا ساحة المدينة انظروا ألا ينصرف أحد منها فارغ اليدين.

لأن الروح السيدة في الأرض لا تنام بطمأنينة وسلام على تموجات الرياح حتى تشاهد بعينيها أن الصغير فيكم قد نال كالكبير بينكم كل ما هو في حاجة إليه.

الجرائم والعقوبات

حينئذٍ وقف أحد قضاة المدينة وقال له: «هات لنا خطبةً في الجرائم والعقوبات.

فأجاب وقال:

عندما تسير أرواحكم هائمة فوق الرياح،

وتمسون منفردين، ليس لكم من يقيكم طوارئ السوء، حينئذٍ تقترفون الاثم ضد غيركم وضد أنفسكم.

ولأجل ذلك الاثم الذي تقترفونه يجب أن تقرعوا برهةً وتنتظروا على بوابة القدوس.

* * *

فإن ذاتكم الإلهية بحر عظيم،

كانت نقيّة منذ الأزل وستظلّ نقيّة إلى آخر الدهور.

وهي كالأثير لا ترفع إلّا ذوي الأجنحة.

أجل، إن ذاتكم الإلهية كالشمس،

لا تعرف طرق المناجذ[1] ولا تعبأ بأوكار الأفاعي.

غير أنها لا تقطن وحيدةً في كيانكم.

لأن كثيراً منكم لا يزال بشراً، وكثيراً غيره لم يصر بشراً بعد، بل هو مسخ لا صورة له يسير غافلاً في الضباب وهو ينشد عهد يقظته.

فلا أودّ أن أُحدّثكم الآن إلّا عن هذا الإنسان فيكم.

لأن هذا الإنسان ـ دون ذاتكم الإلهية ودون المسخ الهائم في الضباب ـ، هو الذي يعرف الجرائم والعقوبات على الجرائم في كيانكم.

* * *

(١) مناجذ: جمع خلد من غير لفظه.

قد طالما سمعتكم تتخاطبون فيما بينكم عمن يقترف إثماً كأنّه ليس منكم بل غريب عنكم ودخيل فيما بينكم.

ولكنني الحقّ أقول لكم: كما أن القديس والبار لا يستطيعان أن يتساميا فوق الذات الرفيعة في كل منكم،

هكذا الشرّير والضعيف لا يستطيعان أن ينحدرا إلى أدنى من الذات الدنيئة التي في كل واحد منكم.

وكما أن ورقة الشجرة الصغيرة لا تستطيع أن تحوّل لونها من الخضرة إلى الصفرة إلا بإرادة الشجرة ومعرفتها الكامنة في أعماقها،

هكذا لا يستطيع فاعل السوء بينكم أن يقترف إثماً بدون إرادتكم الخفيّة ومعرفتكم التي في قلوبكم.

فإنكم تسيرون معاً في موكب واحد إلى ذاتكم الإلهية.

أنتم الطريق وأنتم المطرقون.

فإذا عثر أحد منكم فإنما تكون عثرته عبرة للقادمين وراءه فيجتنبون الحجر الذي عثر به.

أجل، وتكون عثرته توبيخاً للذين يسيرون أمامه بأقدام سريعة ثابتة لأنّهم لم ينقلوا حجر العثار من طريقه.

* * *

وإليكم يا أبناء أورفليس هذه الكلمة التي، وإن حلّت ثقيلة على قلوبكم، فهي الحقيقة بعينها:

إن القتيل ليس بريئاً من جريمة القتل،

وليس المسروق بلا لوم في سرقته.

لا يستطيع البار أن يتبرأ من أعمال الشرير.

ولا الطاهر النقي اليدين بريء الذمة من قذارة المدنسين.

كثيراً ما يذهب المجرم ضحية لمن وقع عليه جرمه،
كما يغلب أن يحمل المحكوم عليه الأثقال التي كان يجب أن يحملها الأبرياء وغير المحكومين.

لذلك لا تستطيعون أن تضعوا حدّاً يفصل بين الأشرار والصالحين أو الأبرياء والمذنبين،
لأنهم يقفون معاً أمام وجه الشمس، كما أن الخيط الأبيض والخيط الأسود ينسجان معاً في نول واحد.

فإذا انقطع الخيط الأسود ينظر الحائك إلى النسيج بأسره ثم يرجع إلى نوله يفحصه وينظفه.

* * *

لذلك إذا جاء أحدكم بالزوجة الخائنة إلى المحاكمة، فليزن أولاً قلب زوجها بالموازين، وليقس نفسه بالمقاييس.

وكل من شاء أن يلطم المجرم بيمينه يجدر به أولاً أن ينظر ببصيرة ذهنه إلى روح من أوقع الجرم عليه.

وإن رغب أحد منكم في أن يضع الفأس على أصل الشجرة الشريرة باسم العدالة فلينظر أولاً إلى أعماق جذورها.

وهو لا شكّ واجد أن جذور الشجرة الشريرة وجذور الصالحة، وغير المثمرة، كلها مشتبكة معاً في قلب الأرض الصامت.

أما أنتم أيها القضاة الذين يريدون أن يكونوا أبراراً، أي نوع من الأحكام تصدرون على الرجل الأمين بجسده السارق بروحه؟

أم أيّ عقاب تنزلون بذلك الذي يقتل الجسد مرّة ولكن الناس يقتلون روحه ألف مرة؟

وكيف تطاردون الرجل الذي مع أنّه خدّاع ظالم بأعماله، فهو موجع القلب، ذليل، مهان بروحه؟.

* * *

أجل، كيف تستطيعون أن تعاقبوا الذين لهم من توبيخ ضمائرهم، وهو أعظم من جرائمهم، أكبر قصاص على الأرض؟

أليس توبيخ الضمير هو نفسه العدالة التي تتوخاها الشريعة التي تتظاهرون بخدمتها؟

فأنتم لا تستطيعون أن تسكبوا بلسم توبيخ الضمير في قلوب الأبرياء كما أنكم لا تقدرون أن تنزعوه من قلوب الأشقياء.

فهو يأتي لذاته في ساعة من الليل لا ننتظرها، داعياً الناس إلى النهوض من غفلتهم، والتأمل بحياتهم وما فيها من التعديات والمخالفات.

وأنتم، أيها الراغبون في سبر غور العدالة، كيف تقدرون أن تدركوا كنهها إن لم تنظروا إلى جميع الأعمال بعين اليقظة في النور الكامل؟

في مثل هذا النور تعرفون أن الرجل المنتصب والرجل الساقط على الأرض هما بالحقيقة رجل واحد واقف في الشفق بين ليل ذاته الممسوخة ونهار ذاته الإلهية.

وأن حجر الزاوية في الهيكل ليس بأعظم من الحجر الذي في أسفل أساساته.

الشرائــع

ثم قال له مشترع: وماذا تعتقد بشرائعنا أيها المعلم؟

فأجاب قائلاً:

إنّكم تستلذون أن تضعوا شرائع لأنفسكم،

بيد أنّكم تستلذون بالأكثر أن تكسروها وتتعدوا فرائضها

لذلك أنتم كالأولاد الذين يلعبون على الشاطئ - يبنون أبراجاً عظيمة من الرمل بصبر وثبات، ثم لا يلبثون أن يهدموها ضاحكين صاخبين.

فعندما تبنون أبراجكم الرملية يأتي البحر برمال جديدة إلى الشاطئ.

وعندما تهدمون أبراجكم يضحك البحر منكم في نفسه، لأن البحر يضحك من الأبرياء أبداً.

* * *

ولكن ماذا أقول في من ليست الحياة بحراً في عقيدتهم بل ليست الشرائع التي تسنها حكمة الإنسان البالغة أبراجاً من الرمال فحسب.

أولئك الذين يحسبون أن الحياة صخرة صلدة، وأن الشريعة إزميل حاد يأخذونه بأيديهم لكي ينحتوا هذه الصخرة على صورتهم ومثالهم؟

وماذا أقول في المُقعدين الذين يكرهون الراقصين؟

وفي الثور الذي يحب نيره ويتهم الوعل والإبل والظبي أنها حيوانات متمردة ناشزة؟

وفي الأفعى العتيقة الأيام التي لا تستطيع أن تخلع جلدها، ولذلك تنبري متهمة جميع الحيوانات بالعري وقلة الحياء؟

وفي ذلك الذي يسبق غيره إلى وليمة العرس، وعندما يملأ جوفه من الأطعمة ويبلغ حدّه من النهم والشراهة يترك الوليمة ويذهب في طريقه قائلاً إن جميع الولائم مخالفة للناموس وجميع الذين يجتمعون إليها متعدّو الشريعة؟

* * *

ماذا أقول في أمثال هؤلاء؟ إنهم كجميع الناس يقفون في أشعة الشمس، ولكنهم يولون الشمس ظهورهم.

فهم لذلك لا ينظرون سوى ظلالهم، وظلالهم هي عند التحقيق شرائعهم المقدسة.

وهل الشمس في اعتقادهم سوى منشئ الظلال؟
وهل اعترافهم بالشريعة سوى أنّهم ينحنون ويطأطئون رؤوسهم لكي يستقصوا ظلالهم على الأرض؟
أما أنتم، الذين يمشون وهم يحدقون إلى الشمس بأجفان غير مرتعشة، فهل في الأرض من صورة تستطيع أن تستوقفكم هنيهة؟

وأنتم، المسافرين مع الريح، أية صفحة من الصفحات الدالة على مجاري الرياح تقدر أن تقودكم في مسالككم؟

وما هي الشريعة البشرية التي تفيدكم إذا كنتم لم تحطموا نيركم على باب سجن من سجون الإنسان؟
وأية شرائع ترهبون إذا كنتم ترقصون ولكنكم لا تعثرون بقيد من قيود العالم الحديدية؟

ومن هو الرجل الذي يستطيع أن يأتي بكم إلى المحاكمة إذا مزّقتم أثوابكم ولكنكم لم تضعوها في طريق أحد من الناس؟.

* * *

أجل يا أبناء أورفليس، إنكم تستطيعون أن تخمدوا صوت الطبل، وتحلوا أوتار القيثارة، ولكن مَن مِن أبناء الإنسان يستطيع أن يمنع قبّرة السماء عن الغناء؟.

الحريـــة

ثم قال له خطيب: هات حدّثنا عن الحرية.

فأجاب قائلاً:

قد طالما رأيتكم ساجدين على ركبكم أمام أبواب المدينة وإلى جوانب المواقد تعبدون حريتكم.

وأنتم بذلك أشبه بالعبيد الذين يتذللون أمام سيدهم العسوف الجبار يمدحونه وينشدون له وهو يعمل السيف في رقابهم.

نعم، وفي غابة الهيكل، وظلّ القلعة، كثيراً ما رأيت أشدّكم حرية يحمل حريته كنير ثقيل لعنقه وغلّ متين ليديه ورجليه.

رأيت كل ذلك فذاب قلبي في أعماق صدري، ونزفت دماؤه، لأنّكم لا تستطيعون أن تصيروا أحراراً حتى تتحول رغبتكم في السعي وراء الحريّة إلى سلاح تتسلحون به، وتنقطعوا عن التحدث بالحرية كغايتكم ومحجّتكم.

* * *

إنّكم تصيرون أحراراً بالحقيقة إذا لم تكن أيامكم بلا عمل تعملونه ولياليكم بلا حاجة تفكرون بها، أو كآبة تتألمون لذكراها.

بل تكونون أحراراً عندما تمنطق هموم الحياة وأعمالها أحقاءكم بمنطقة الجهاد والعمل، وتثقل كاهلكم بالمصاعب والمصائب، ولكنكم تنهضون من تحت أثقالها عراةً طليقين.

لأنكم كيف تستطيعون أن ترتفعوا إلى ما فوق أيامكم ولياليكم إذا لم تحطّموا السلاسل التي أنتم أنفسكم في فجر إدراككم قيدتم بها ساعة ظهيرتكم الحرّة؟

الا إن ما تسمونه حرية إنّما هو بالحقيقة أشدّ هذه السلاسل قوّة، وإن كانت حلقاته تلمع في نور الشمس وتخطف أبصاركم.

* * *

وماذا يجدر بكم طرحه عنكم لكي تصيروا أحراراً سوى كسر صغيرة رثّة في ذاتكم البالية؟

فإن كانت هذه الكسر شريعة جائرة وجب نسخها، لأنها شريعة سطّرتها يمينكم وحفرتها على جبينكم.

بيد أنكم لا تستطيعون أن تمحوها عن جباهكم بإحراق كتب الشريعة التي في دواوينكم، كلا، ولا يتم لكم ذلك بغسل جباه قضاتكم، ولو سكبتم عليها كل ما في البحار من المياه.

وإن كانت طاغية تودون خلعه عن عرشه فانظروا أولاً إن كان عرشه القائم في أعماقكم قد تهدّم.

لأنّه كيف يستطيع طاغية أن يحكم الأحرار المفتخرين، ما لم يكن الطغيان أساساً لحرّيتهم والعار قاعدة لكبريائهم؟

وإن كانت همّاً ترغبون في التخلّص منه فإن ذلك الهمّ إنما أنتم اخترتموه ولم يضعه أحد عليكم.

وإن كانت خوفاً تريدون طرده عنكم فإن جرثومة هذا الخوف مغروسة في صميم قلوبكم وليست في يدي من تخافون.

الحق أقول لكم، إن جميع الأشياء تتحرك في كيانكم متعانقة على الدوام عناقاً نصفياً: كل ما تشتهون وما تخافون، ما تتعشقون وما تستكرهون، ما تسعون وراءه وما تهربون منه.

جميع هذه الرغبات تتحرك فيكم كالأنوار والظلال.

فإذا اضمحلّ الظلّ ولم يبق له من أثر، أمسى النور المتلألئ ظلاً لنور آخر سواه.

وهكذا الحال في حريتكم، إذا حلت قيودها أمست هي نفسها قيداً لحرية أعظم منها.

العقل والعاطفة

ثم طلبت إليه العرافة ثانية قائلة: هات حدّثنا عن العقل والهوى.

فأجاب وقال:

كثيراً ما تكون نفوسكم ميداناً تسير فيه عقولكم ومداركم حرباً عواناً على أهوائكم وشهواتكم.

وإنني أودّ أن أكون صانع سلام في نفوسكم،
فأحوّل ما فيكم من تنافر وخصام إلى وحدة وسلام.
ولكن أنّى يكون لي ذلك، إذا لم تصيروا أنتم صانعي سلام لنفوسكم ومحبين جميع عناصركم على السواء؟.

* * *

إن العقل والهوى هما سكان[1] النفس وشراعها وهي سائرة في بحر العالم.

فإذا انكسر السكان أو تمزّق الشراع فإن سفينة النفس لا تستطيع أن تتابع سيرها، بل ترغم على ملاطمة الأمواج يمنة ويسرة حتى تقذف بكم إلى مكان أمين تحفظون به في وسط البحر.

لأن العقل إذا استقلّ بالسلطان على الجسد قيّد أهواءه. ولكن الأهواء إذا لم يرافقها العقل كانت لهيباً يتأجج ليفني نفسه.

فاجعل نفسك تسمو بعقلك إلى مستوى أهوائك، وحينئذٍ ترى منها ما يطربك ويشرح لك صدرك.

وليكن لك من عقلك دليل وقائد لأهوائك لكي تعيش أهواؤك في كلّ

---

(١) سكان السفينة: ما يعرف بالدفة.

يوم بعد موتها وتنهض كالعنقاء[1] متسامية فوق رمادها.

وأرغب إليكم أن تعنوا بالعقل والهوى عنايتكم بطيفين عزيزين عليكم.

فإنكم، ولا شك، لا تكرمون الواحد أكثر من الثاني، لأن الذي يعتني بالواحد ويهمل الآخر يخسر محبة الاثنين وثقتهما.

* * *

وإذا جلستم في ظلال الحور الوارفة، بين التلال الجميلة، تشاطرون الحقول والمروج البعيدة سلامها وسكينتها وصفاءها، فقولوا حينئذٍ في قلوبكم: «إن الله يستريح في العقل».

وعندما تعصف العاصفة، وتزعزع الرياح أصول الأشجار في الأحراج، وتعلن الرعود والبروق عظمة السماوات، فقولوا حينئذٍ في أعماق قلوبكم متهيبين خاشعين: «إن الله يتحرك في الأهواء».

وما دمتم نسمةً من روح الله، وورقة في حرجه، فأنتم أيضاً يجب أن تستريحوا في العقل وتتحركوا في الأهواء.

الألم

ثم نهضت من بين الجمع امرأة وقالت له: هات حدثنا عن الألم.

فأجاب وقال:

إن ما تشعرون به من الألم هو انكسار القشرة التي تغلف إدراككم.

وكما أن القشرة الصلدة التي تحجب الثمرة يجب أن تتحطّم حتى يبرز قلبها من ظلمة الأرض إلى نور الشمس.

هكذا أنتم أيضاً يجب أن تحطم الآلام قشوركم قبل أن تعرفوا معنى

(١) العنقاء: مؤنث أعنق، وهو طائر معروف باسمه مجهول بجسمه، وفي الخرافات المصرية أنه طائر مقدس كان يأتي من بلاد العرب مرة في كل سنة إلى هليوبولس فيحرق نفسه على المذبح ثم لا يلبث أن ينهض من وسط الرماد المحترق حياً جميلاً كما كان. ولذلك كان عندهم رمزاً إلى الخلود.



«الألم ماء محيي»

الحياة. لأنكم لو استطعتم أن تعيروا عجائب حياتكم اليومية حقّها من التأمّل والدهشة، لما كنتم ترون آلامكم أقلّ غرابة من أفراحكم.

بل كنتم تقبلون فصول قلوبكم كما قد قبلتم في غابر حياتكم الفصول التي مرت في حقولكم.

وكنتم ترقبون وتتأملون بهدوء وسكون شتاء أحزانكم وآلامكم.

* * *

أنتم مخيرون في الكثير من آلامكم.

وهذا الكثير من آلامكم هو الجرعة الشديدة المرارة التي بواسطتها يشفي الطبيب الحكيم الساهر في أعماقكم أسقام نفوسكم المريضة.

لذلك آمنوا بطبيب نفوسكم، وثقوا بما يصفه لكم من الدواء الشافي. وتناولوا جرعته المرّة بسكينة وطمأنينة.

لأن يمينه وإن بدت ثقيلة قاسية، فهي مقودة بيمين غير المنظور اللطيفة. والكأس التي يقدمها إليكم، وإن أحرقت شفاهكم، فهي مصنوعة من الطين الذي جبلته يدا الفخاري الأزلي بدموعه المقدّسة.

معرفة النفس

ثم قال له رجل: هات حدّثنا عن معرفة النفس.

فأجاب قائلاً:

إن قلوبكم تعرف في السكينة أسرار الأيام والليالي.

ولكن آذانكم تتشوق لسماع صوت هذه المعرفة الهابطة على قلوبكم.

غير أنكم تودون لو تعرفون بالألفاظ والعبارات ما تعرفونه بالأفكار والتأملات.

وتتوقون إلى أن تلمسوا بأصابعكم جسد أحلامكم العاري.

* * *

وحسن أنكم تتوقون إلى جميع ذلك.

فإن الينبوع الكامن في أعماق نفوسكم سيتفجّر يوماً ما ويجري منحدراً إلى البحر.

والكنز المطمور في أعماقكم غير المتناهية سينقب في ساعة لا تعلمونها وتفتح أبوابه أمام عيونكم.

ولكن حذار أن تأخذوا معكم موازينكم لكي تزنوا بها كنزكم غير المعروف.

كلاَّ، ولا تسبروا غور معرفتكم بقياس محدود أو حبل مشدود. لأن الذات بحر لا وزن ولا قياس له.

* * *

أجل، ولا تقل في ذاتك: «قد وجدت الحق» بل قل بالأحرى: «قد وجدت حقاً».

ولا تقل: «قد وجدت طريق النفس» بل قل بالأولى: «قد رأيت النفس تمشي على طريقي».

لأنّ النفس تمشي على جميع المسالك والطرق.

النفس لا تمشي على حبل أو خيط، كلاّ ولا هي تنمو كالقصبة.

النفس تطوي ذاتها، كالبشنين[1] ذي البتلات التي لا يحصى عديدها.

---

(١) البشنين: نبات يقوم على ساق ولا ورق له، ويسميه المصريون عرائس النيل.

التعليم

ثم قال له معلم: هات لنا كلمة في التعليم.

فقال: ما من رجل يستطيع أن يعلن لكم شيئاً غير ما هو مستقر في فجر معرفتكم وأنتم غافلون عنه.

أمّا المعلم الذي يسير في ظل الهيكل محاطاً بأتباعه ومريديه، فهو لا يعطي شيئاً من حكمته، بل إنما يعطي من إيمانه وعطفه ومحبته.

لأنّه إذا كان بالحقيقة حكيماً فإنه لا يأمركم أن تدخلوا بيت حكمته، بل يقودكم بالأحرى إلى عتبة فكركم وحكمتكم.

فإن الفلكي يستطيع أن يقصّ عليكم شيئاً من معرفته لنظام السماء، ولكنه لا يقدر أن يعطيكم معرفته.

والموسيقي يستطيع أن ينشدكم أجمل ما في العالم من الأناشيد والأنغام، ولكنه لا يستطيع أن يمنحكم الأذن التي تضبط النظام في النغم ولا الصوت الذي يوجد الألفة في الألحان.

والرياضي النابغ في ضبط الأرقام يستطيع أن يوضح لكم عدد الموازين والمقاييس وخصائص كل منها، ولكنه لا يستطيع أن يمنحكم معرفته.

لأن الوحي الذي يهبط على رجل ما لا يعير جناحيه لغيره.

وكما أن لكلّ منكم مقاماً منفرداً في معرفة الله إياه، هكذا يجب عليه أن يكون منفرداً في معرفته لله وفي إدراكه لأسرار الأرض.

الصداقة

ثم قال له شاب: هاتِ حدِّثنا عن الصداقة.

فأجاب وقال:

إن صديقك هو كفاية حاجاتك.

هو حقلك الذي تزرعه بالمحبة وتحصده بالشكر.

هو مائدتك وموقدك.

لأنك تأتي إليه جائعاً، وتسعى وراءه مستدفئاً.

* * *

فإذا أوضح لك صديق فكره فلا تخش أن تصرّح بما في فكرك من النفي أو أن تحتفظ بما في ذهنك من الايجاب.

لأن الجبل يبدو للمتسلق له أكثر وضوحاً وكبراً من السهل البعيد.

وإذا صمت صديقك ولم يتكلم فلا ينقطع قلبك عن الإصغاء إلى صوت قلبه.

لأن الصداقة لا تحتاج إلى الألفاظ والعبارات في إنماء جميع الأفكار والرغبات والتمنيات التي يشترك الأصدقاء بفرح عظيم في قطف ثمارها اليانعات.

وإن فارقت صديقك فلا تحزن على فراقه.

لأن ما تتعشقه فيه، أكثر من كل شيء سواه، ربما يكون في حين غيابه أوضح في عيني محبتك منه في حين حضوره.

ولا يكن لكم في الصداقة من غاية ترجونها غير أن تزيدوا في عمق نفوسكم.

لأن المحبة التي لا رجاء لها، سوى كشف الغطاء عن أسرارها، ليست محبة، بل هي شبكة تلقى في بحر الحياة ولا تمسك إلاّ غير النافع.



«الصداقة»

وليكن أفضل ما عندك لصديقك.

فإن كان يجدر به أن يعرف جزر حياتك.

فالأجدر بك أيضاً أن تظهر له مدّها.

لأنّه ماذا ترتجي من الصديق الذي تسعى إليه لتقضي معه ساعاتك المعدودة في هذا الوجود؟.

فاسع بالأحرى إلى الصديق الذي يحيي أيامك ولياليك.

لأنّ له وحده قد أعطي أن يكمل حاجاتك، لا لفراغك ويبوستك. وليكن ملاك الأفراح واللذات المتبادلة مرفوعاً فوق حلاوة الصداقة.

لأن القلب يجد صباحه في الندى العالق بالصغيرات، فينتعش ويستعيد قوته.

الحديث

ثم قال له عالم: هاتِ حدّثنا عن الكلام.

فأجاب وقال:

إنّكم تتكلمون عندما توصد دونكم أبواب السلام مع أفكاركم.

وعندما تعجزون عن السكنى في وحدة قلوبكم. تقطنون في شفاهكم والصوت يلهبكم ويسليكم.

وفي الكثير من كلامكم يكاد فكركم يقضي ألماً وكآبة.

لأن الفكر طائر من طيور الفضاء. يبسط جناحيه في قفص الألفاظ ولكنه لا يستطيع أن يحلق طائراً.

* * *

إن بينكم قوماً يقصدون الثرثار المهذار، ضجراً من الوحدة والانفراد.

لأن سكينة الوحدة تبسط أمام عيونهم صورة واضحة لذواتهم العارية يرتعدون لدى رؤيتها فيهربون منها.

ومنكم الذين يتكلمون. ولكنهم عن غير معرفة. وبدون سابق قصد. يظهرون حقيقة لا يدركونها هم أنفسهم.

ومنكم الذين أودع الحقّ قلوبهم. ولكنهم يأبون أن يلبسوه حلة اللفظ وفي أحضان هؤلاء تقطن الروح في هدوء وسكون.

* * *

فإذا رأيت صديقك على جادة الطريق، أو جمعتك به ساحة المدينة، فدع الروح التي فيك تحرك شفتيك وتدير لسانك.

افسح المجال للصوت الذي في أعماق صوتك فيخاطب أذن أذنه.

لأن نفسه تحتفظ بسرّ قلبك كما يتذكر فمه طعم الخمرة الطيبة، وإن نسي الفكر لونها وتحطمت الكأس التي حملتها.

الزمان

ثم قال له فلكي: أيها المعلم، ماذا تعتقد بالزمان؟.

فأجابه قائلاً:

أنت تريد أن تقيس الزمان غير المحدود، الذي لا قياس له.

وتودّ أن تطبق سلوكك وتعين مسالك روحك على مقتضى الساعات والفصول.

بل أنت تريد أن تجعل الزمان جدولاً تجلس إلى حافته وتراقب انسجام مياهه وتصغي إلى خريرها.

* * *

بيد أن غير المقيّد فيك بالزمان يعرف حقيقة أن الحياة لا تعرف حدود الزمان.

وأن ليس أمس سوى ذكرى اليوم، وليس الغد سوى حلم اليوم.

وأن القوة التي تترنم وتتأمّل فيك لا تزال قاطنة ضمن حدود تلك الثانية الأولى التي فرّقت الكواكب في الفضاء.

وهل بينكم رجل لا يشعر أن قوته على المحبة فائقة الحدود؟.

بل من هو الذي لا يشعر بتلك المحبة، غير المحدودة، المحصورة في صميم كيانه، ولا ينتقل من فكر محبة إلى فكر محبة، ومن أعمال محبة إلى أعمال محبة غيرها؟.

والزمان، أليس الزمان، كالمحبة، لا ينقسم ولا يستقصى؟.

* * *

ولكن إذا شئتم أن تقسموا الزمان إلى فصول مختلفة في أفكاركم، فاجعلوا كل فصل من فصوله يحيط بجميع الفصول الأخرى.

واجعلو الحاضر يعانق الماضي بالتذكارات، والمستقبل بالحنين والتشوقات.

الخير والشر

ثم قال له أحد شيوخ المدينة: هات حدّثنا عن الخير والشر.

فأجاب قائلاً:

إنني أستطيع أن أحدثكم عن الخير، لا الشر الذي فيكم.

لأنّه أليس الشر هو بعينه الخير المتألم آلاماً مبرحة من تعطشه ومجاعته؟.

فإني الحق أقول لكم، إن الخير إذا جاع سعى إلى الطعام ولو في الكهوف المظلمة، وإن عطش فإنّه يشرب حتى من المياه الراكدة المنتنة.

أنت صالح، يا صاح، إذا كنت واحداً مع ذاتك.

وإذا لم تكُ واحداً مع ذاتك فأنت لست بالشرير.

لأن البيت المنقسم على ذاته ليس مغارة للصوص، ولكنه بيت منقسم على ذاته لا أكثر ولا أقلّ.

والسفينة التي تضيع سكانها وتهيم في البحار بين الجزائر تحدق بها الأخطار من كل جهة ولكنها لا تغرق إلى قعر البحر.

أنت صالح، يا صاح، إذا جاهدت لكي تعطي الناس من ذاتك، ولكنك لست بالشرير إذا سعيت وراء منفعة نفسك.

لأنك في سعيك وراء منفعة نفسك تشبه جذر الشجرة الذي يريق دموعه على الأرض ثم يمتص الحليب من ثدييها.

الحق أقول لك، إن الثمرة لا تستطيع أن تقول للجذر: «كن مثلي ناضجاً، جميلا، جواداً، يبذل كل ما فيه لأجل غيره.»

لأن العطاء حاجة من حاجات الثمرة لا تعيش بدونها، كما أن الأخذ حاجة من حاجات الجذر لا يحيا بغيرها.

* * *

أنت صالح، يا صاح، إذا كنت تبلغ كمال يقظتك في خطابك.

بيد أنّك لست بالشرير إذا نمت وكان لسانك يهذر من غير مرمى. لأن الكلام، وإن كان مجلبة للعثرات، لا بدّ أن يشدد لساناً ضعيفاً.

* * *

أنت صالح، يا صاح، إذا كنت تسير إلى محجتك راسخ العزم ثابت الخُطى.

غير أنك لست بالشرير إذا كنت تمشي إلى محجتك متلكئاً لأن العرج أنفسهم لا يسيرون إلى الوراء.

ولكنك، وأنت صحيح القدم قوي الجسد، أنظر ألا تعرج أمام العرج وأنت تحسب ذلك رقة وظرفاً!.

أنت صالح بطرق عديدة، يا صاح. وإذا لم تكن صالحاً فإنك لست بالشرير بل أنت كسول متراخٍ.

ويا ليت الظباء تستطيع أن تعلّم السلاحف البطيئة السرعة والرشاقة!.

* * *

أجل، إن الخير الذي فيك إنما هو في حنينك إلى ذاتك الجبّارة، وهذا الحنين فيكم جميعكم.

غير أنّه يشبه في البعض منكم سيلاً جارفاً يجري بقوة منحدراً إلى البحر، فيحمل معه أسرار التلال والأودية وأناشيد الأحراج والجنان.

وهو في غيرهم أشبه بجدول صغير يسير في منبسط من الأرض يريق ماءه في الزوايا والمنعرجات، ولذلك يطول به الزمان قبل أن يصل إلى الشاطئ.

ولكن لا يقل ذو الحنين الكثير إلى ذي الحنين القليل: «لماذا أنت كسيح بطيء؟».

لأن الصالح الصالح لا يسأل العراة: «أين ثيابكم؟» ولا الغرباء: «أين منازلكم؟».

الصلاة

ثم قالت له الكاهنة: هات حدثنا عن الصلاة.

فأجاب وقال: .

إنك تصلين في ضيقتك وفي حاجتك.

ولكن حبذا لو أنك تصلين في كمال فرحك ووفرة خيراتكِ؟.

وهل الصلاة غير اتساع ذاتك في الأثير الحي؟.

فإذا كنت تتعزّين في أن تسكبي كأس ظلمتك في الفضاء، فإنّك ولا شكّ تفرحين في أن تسكبي فيه فجر فؤادك.

وإذا كنت لا تستطيعين أن تمسكي عن البكاء عندما تدعوك نفسك إلى الصلاة، فالأجدر بنفسك أن تنخسك بمنخس حاد مرة بعد مرة، على رغم الدموع المتساقطة على وجنتيك، لكي تأتي إلى الصلاة فرحة باسمة.

وإذا صليت فإنت ترتفعين بروحك لكي تجتمعي في تلك الساعة بأرواح المصلين، الذين لا تستطيعين أن تجتمعي بهم بغير الصلاة.

لذلك فلتكن زيارتك لذلك الهيكل غير المنظور مدعاةً للهيام السماوي والشركة الروحية السعيدة.

لأنك إذا دخلت الهيكل ولا غاية لك سوى السؤال فإنّك لن تنالي شيئاً. وإن دخلت الهيكل لكي تظهري وفرة اتضاعك وخشوعك فإنك لن تجدي رفعة.

بل لو جئت الهيكل وأنت ترجين أن تلتمسي خيراً لغيرك من الناس فإنّك لن تجابي إلى سؤلك.

لأنّه يكفيك أن تدخلي الهيكل من غير أن يراك أحد.

* * *

لا أستطيع أن أعلمك الصلاة بالألفاظ.

لأن الله لا يصغي إلى كلماتك ما لم يضعها تعالى اسمه على شفتيك وينطق بها بلسانك.

ولا أقدر أن أعلمك صلاة البحار والأحراج والجبال، بيد أنك، وأنت ابنة الجبال والأحراج والبحار، تستطيعين أن تجدي هذه الصلاة محفورة على صفحات قلبك.



«الصلاة»

فإذا أصغيت في سكينة الليل سمعت الجبال والبحار والأحراج؛ تصلي بهدوء وخشوع:

«ربنا وإلهنا، يا ذاتنا المجنحة.
«إننا بإرادتك نرى،
وبرغبتك نرغب ونشتهي.
«بقدرتك تحوّل ليالينا، وهي لك، إلى أيام هي لك أيضاً.
«إننا لا نستطيع أن نلتمس منك حاجة،
«لأنك تعرف حاجاتنا قبل ن تولد في أعماقنا.
«أنت حاجتنا، وكلما زدتنا من ذاتك زدتنا من كل شيء».

اللذة

حينئذ دنا منه ناسك يزور المدينة مرةً في السنة، وقال له: هات حدثنا عن اللذة

فأجاب وقال:

اللذة أنشودة الحرية،
ولكنها ليست حرية بذاتها.
اللذة زهرة رغباتكم،
ولكنها ليست ثمرة لها.
اللذة عمق ينشد علواً،
ولكن لا هي بالعمق ولا هي بالعلو.
اللذة جناحٌ قد أفلت من قفصه،
ولكنها ليست فضاء حراً طليقاً.

أجل. إن اللذة بالحقيقة أنشودة الحرية.

وإنّه ليطربني أن تترنّموا بها في أعماق قلوبكم، ولكنني لا آذن لكم أن تستسلموا بقلوبكم للفناء.

* * *

إن فريقاً من أحداثكم يسعون وراء اللذة سعيهم وراء كل شيء، ولذلك يحكم عليهم بالقصاص والتأديب.

أما أنا فلا أدينهم، ولا أحكم عليهم، ولكنني أسألهم أن يفتشوا وينقبوا.

لأنهم سيجدون اللذة في تفتيشهم، ولكنهم لن يجدوها وحدها فقط:

فإن لها سبع شقيقات، أحقرهن أوفر جمالاً منها.

وأنتم ألم تسمعوا بذلك الرجل الذي كان يحفر الأرض لكي يستخرج الجذور من أعماقها فوجد كنزاً عظيماً؟.

* * *

وفريق آخر من شيوخكم يتذكرون لذات شبابهم آسفين، كأنما هي جرائم اقترفوها في أوقات السكر والجهالة.

ولكن الأسف هو بالحقيقة غمامة تغمّ الفكر ولا تؤدبه.

ولذلك يجدر بهم أن يتذكروا لذاته بالحمد والثناء كما يتذكرون حصاد الصيف.

ولكن إذا كان الأسف يعزيهم فلا بأس أن يتعزوا به.

وهنالك فريق ثالث ممن ليسوا بالأحداث لكي يجاهدوا مفتشين عن لذات جديدة. ولا بالشيوخ لكي يتذكروا لذات شبابهم.

ولكنهم لشدة خوفهم من عناء الجهاد في التفتيش والألم في التذكارات، يعرضون عن جميع اللذات، لئلاّ يهملوا الروح أو يجدفوا عليها.

غير أن لهم من هذا الإعراض بعينه لذة لأنفسهم.

ولذلك فهم أيضاً يجدون كنزاً لذواتهم مع أنهم يحفرون لأجل الجذور بأيدٍ مرتعشة.

ولكن هل لك أن تخبرني وأنت الناسك الحكيم، من هو الذي يستطيع أن يكدّر على الروح صفوها؟.

أيستطيع البلبل أن يعكر صفو سكينة الليل، أم الحباحب نور السماء؟ وهل يقدر لهيب نارك أو دخانها أن يثقل كاهل الريح؟.

أم هل تعتقد أن الروح بركة هادئة وفي استطاعتك كلما خطر لك أن تزعج هدوءها بعصاك؟.

كلما أنكرت على ذاتك التمتع بلذة ما تغلق بيديك على تلك اللـذة في مستودعات كيانك.

ومن يدري هل تعود اللذة التي ترفضها اليوم فتترقب عودتك إليها في الغد؟.

لأن جسدك يعرف حاجاته الضرورية وميراثه الحقيقي. فلا يستطيع أحد أن يخدعه.

أجل، إن جسدك هو قيثارة نفسك،

وأنت وحدك تستطيع أن تخرج منها أنغاماً فتانة أو أصواتاً مشوشة مضطربة.

* * *

ولعلك تسأل في قلبك قائلاً: «كيف نستطيع أن نميز بين الصالح والشرير من اللذات؟».

فاذهب إلى الحقول والبساتين وهنالك تتعلم أن لذة النحلة قائمة في امتصاص العسل من الزهرة.

ولكن لذة الزهرة أيضاً تقوم بتقديم عسلها للنحلة.

والنحلة تعتقد أن الزهرة ينبوع الحياة،

والزهرة تؤمن بأن النحلة هي رسول المحبة المحيية،
والنحلة والزهرة كلتاهما تعتقدان أن اقتبال اللذة وتقديمها حاجتان لا بدّ منهما وافتتان لا غنى للحياة عنه.

أجل، يا أبناء أورفليس، كونوا في لذاتكم كالنحل والأزهار.

الجمال

ثم قال له شاعر: هات لنا شيئاً عن الجمال.

فأجابه قائلاً:

أين تفتش عن الجمال، وكيف تقدر أن تهتدي إليه ما لم يكن هو نفسه طريقاً لك ودليلاً؟.

وكيف تستطيع أن تتحدث عن الجمال ما لم ينسج لك ثوباً لائقاً بخطابك؟.

* * *

فالحزين المتألم يقول: الجمال رقة ولطف، وهو يمشي بيننا كالأمّ الفتية الحيية من جلالها.».

والغضوب يقول: «كلا، بل الجمال قوة وبطش، فهو كالعاصفة يهز الأرض تحت أقدامنا والسماء فوق رؤوسنا».

والتعب الملول يقول: «إن الجمال لطيف المناجاة يتكلم في أرواحنا ويتموج صوته في سكون أذهاننا كما يرتعش النور الضئيل خوفاً من الظلّ الظليل.»

غير أن القلق المضطرب يقول: «قد سمعنا الجمال يصيح بأعلى صوته بين الجبال.

«يرافق صوته وقع الحوافر، وخفقان الأجنحة وزمجرة الأسود».

وعند انتصاف الليل يقول حارس المدينة: «سيبزغ الجمال مع الفجر من المشرق.»

وعند الظهيرة يقول العمال وعابرو السبيل: قد رأينا الجمال يطلّ على الأرض من نوافذ المغرب.»

* * *

وفي الشتاء يقول جامعو الثلوج: سيأتي الجمال مع الربيع وهو يقفز على التلال.».

وفي الصيف يقول الحصادون: قد رأينا الجمال يرقص مع أوراق الخريف، وشاهدنا كومة من الثلج على رأسه».

كل هذا سمعتكم تقولونه في الجمال،.

غير أنكم في الحقيقة لم تقولوا فيه كلمة، وإنما تحدثتم بحاجاتكم غير المكملة والجمال ليس بالحاجة غير المكملة بل هو انشغاف وافتتان.

أجل، وليس الجمال فماً متعطشاً أو يداً ممدودة.

بل هو قلب متلهب، ونفس مفتونة مسحورة.

وليس بالصورة التي ترغبون في رؤيتها أو الأنشودة التي ترجون سماعها.

بل هو صورة تبصرونها ولو أغمضتم عيونكم، وأنشودة تسمعونها ولو أغلقتم آذانكم.

وليس بالعصارة الجارية في عروق الأشجار، ولا بالجناح المتعلق بالمخالب، بل هو بستان تزينه الأزهار إلى الأبد، وجوقة من الملائكة ترفرف بأجنحتها إلى منتهى الدهور.

* * *

نعم يا أبناء أورفليس. إن الجمال هو الحياة بعينها سافرة عن وجهها الطاهر النقي.

ولكن أنتم الحياة وأنتم الحجاب.

والجمال هو الأبدية تنظر إلى ذاتها في مرآة ولكن أنتم الأبدية وأنتم المرآة.

الدين

ثم دنا منه كاهن شيخ وقال له: هات حدثنا عن الدين.

فأجاب قائلاً:

وهل تكلمتُ اليوم في موضوع آخر غير الدين؟

أليس الدين كل ما في الحياة من الأعمال والتأملات؟

أليس الدين كلّ ما في الحياة مما ليس هو بالعمل ولا بالتأمل بل غرابة وعجب ينبعان من جداول النفس أبداً وإن عملت اليدان في نحت الحجارة أو إدارة الأنوال؟.

من يستطيع أن يفصل أيمانه عن أعماله، وعقيدته عن مهنته؟

من يستطيع أن يبسط ساعات عمره أمام عينيه قائلاً:

«هذه لله، وهذه لي، هذه لنفسي، وهذه لجسدي؟»

فإن جميع ساعات الحياة أجنحة ترفرف في الفضاء منتقلة من ذات إلى ذات.

وإن من ينظر إلى فضيلته نظرته إلى أفضل حلة يلبسها فالأجدر به أن يسير بين الناس عارياً.

لأن الريح والشمس لا تمزقان بشرته.

وكل من يقيد سلوكه وتصرفه بقيود الفلسفة والتقليد إنما يحبس طائر نفسه الغريد في قفص من حديد.

لأن أنشودة الحرية لا يمكن أن تخرج من بين العوارض والقضبان.

وكل من يعتقد أن العبادة نافذة يفتحها ثم يغلقها فهو لم يبلغ بعد هيكل نفسه المفتوحة نوافذه من الفجر إلى الفجر.

* * *

إن حياتكم اليومية هي هيكلكم وهي ديانتكم

خذوا السكة والكور والمطرقة والطنبور، وكل ما لديكم من الآلات التي صنعتموها رغبة في قضاء حاجاتكم أو سعياً وراء مسراتكم ولذاتكم.

لأنّكم لا تستطيعون أن ترتفعوا بتأملاتكم فوق أعمالكم ولا تقدرون أن تنحدروا بتصرفاتكم إلى أدنى من خيباتكم.

وليرافقكم جميع معارفكم من أبناء الإنسان.

لأنكم لا تستطيعون في عبادتكم أن تحلّقوا فوق آمالهم ولا أن تضعوا ذواتكم إلى أحقر من يأسهم.

* * *

وإن شئتم أن تعرفوا ربكم فلا تعنوا بحلّ الأحاجي والألغاز.

بل تأملوا ما حولكم تجدوه لاعباً مع أولادكم.

وارفعوا أنظاركم إلى الفضاء الوسيع تبصروه يمشي في السحاب، ويبسط ذراعيه في البرق، وينزل إلى الأرض مع الأمطار.

تأمّلوا جيداً تروا ربّكم يبتسم بثغور الأزهار، ثم ينهض ويحرك يديه بالأشجار.

الموت

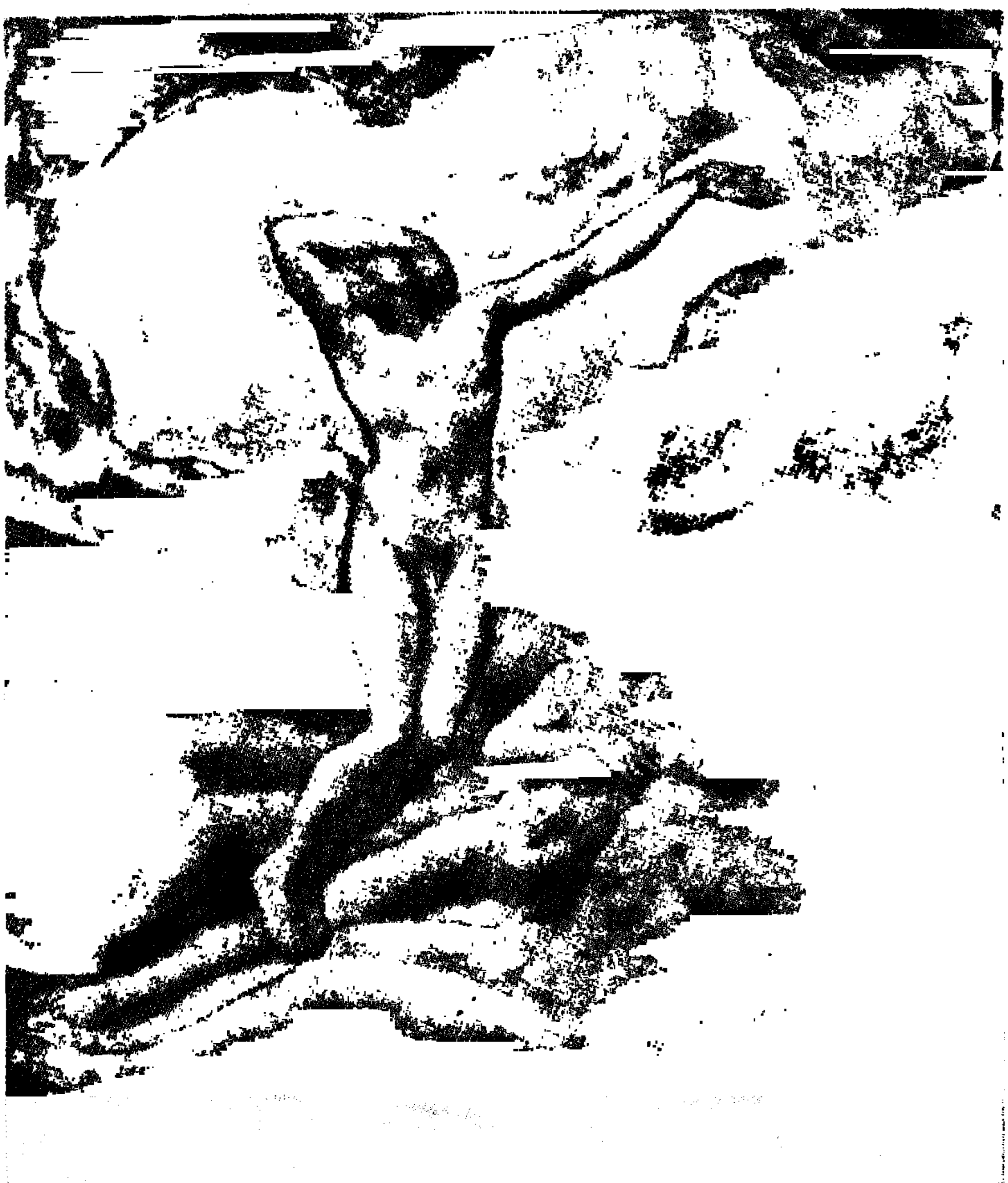
ثم قالت له المطرة: نود أن تحدثنا الآن عن الموت.

فقال لها: إنكم تريدون أن تعرفوا أسرار الموت

ولكن كيف تجدونها إن لم تسعوا إليها في قلب الحياة؟

لأن البومة التي لا تفتح عينيها إلا في الظلمة، البومة العمياء عن نور النهار، لا تستطيع أن تنزع الحجاب عن أسرار النور.

فإذا رغبتم بالحقيقة في أن تنظروا روح الموت، فافتحوا أبواب قلوبكم على مصاريعها لنهار الحياة.



«الموت»

لأن الحياة والموت واحد، كما أن النهر والبحر واحد أيضاً.

ففي أعماق آمالكم ورغباتكم تتكئ معرفتكم الصامتة لما وراء الحياة.

وكما تحلم الحبوب الهاجعة تحت الثلوج بالربيع، هكذا تحلم قلوبكم بربيعها.

لذلك فلتكن ثقتكم عظيمة بالأحلام، لأن بوابة الأبدية مختفية فيها.

أما خوفكم من الموت فهو أشبه بارتعاش الراعي الواقف أمام الملك الذي يريد أن يرفع يمينه فوقه لكي يكرمه وينعم عليه بوسام الرضى والفخر.

أفلا يفرح الراعي مع ارتعاشه لأن مليكه يقلده وسام الشرف والرضى؟ ولكن ألا يشعر مع ذلك بارتعاشه وخفقان قلبه؟.

وهل موت الإنسان هو أكثر من وقوفه عارياً في الريح وذوبانه في حرارة الشمس؟.

أم هل انقطاع التنفس غير تحرير النّفس من دورانه المتواصل، لكي يستطيع أن ينهض من سجنه ويحلق في الفضاء ساعياً إلى خالقه من غير قيد ولا عائق؟.

* * *

إنكم لا تستطيعون أن تترنموا بالأناشيد حتى تشربوا من نهر الصمت.

ولا تستطيعون أن تباشروا الصعود إلى الجبال حتى تبلغوا قننها.

ولن تقدروا أن ترقصوا حتى تتسلم الأرض جميع أعضائكم.

الوداع

وكان المساء.

فقالت العرافة المطرة: مبارك هذا اليوم وهذا المكان الذي جمعنا بك ومباركة روحك التي خاطبت أرواحنا.

فأجاب وقال: «وهل أنا الذي تكلمت؟ ألم أكن أنا سامعاً نظيركم؟».

* * *

ثم نزل عن درجات الهيكل ومشى، فتبعه الشعب بأسره.

وظلّ يجدّ في سيره والشعب يلحق به حتى وصل إلى المرفأ فصعد إلى سفينته ووقف على ظهرها.

حينئذ رفع صوته والشعب ينظر إليه وقال لهم:

يا أبناء أورفليس، إن الريح تأمرني أن أفارقكم.

ومع أنني لست كالريح عجولاً، فإنّني مرغم أن أطيع أوامرها.

لأنّنا نحن الهائمين، الذين ينشدون أبداً أشد الطرق وحدةً، لا نبدأ أعمال نهار ما عندما نفرغ من نهار غيره، ولا يجدنا شروق شمس حيث تركنا الغروب الذي تقدمه.

لأنّنا، وإن نامت الأرض، مستيقظون نوالي مسيرنا.

* * *

نحن بذور نبات غريب عجيب، وفي بلوغنا واكتمال نمو قلوبنا قد وُهبنا منحة للريح فتفرقنا على وجه الأرض.

* * *

قليلة كانت أيامي بينكم، وأقلّ منها كلماتي التي تركتها لكم. ولكن إذا تلاشى صوتي في آذانكم وزالت محبتي من قلوبكم فحينئذٍ آتي إليكم سريعاً .

وأخاطبكم ثانية بقلب أوفر عطفاً من قلبي وشفتين أجزل إثماراً للروح من شفتيّ.

أجل، إنّني سأرجع مع المدّ،

فـإن حجبنـي المـوت عنكـم الآن وضمَّني الصمـت العظيـم بيـن طيـات سكينته، فإنّني سأنشد إدراككم مرة أخرى ولن تذهب أتعابي في ذلك الحين عبثاً.

فإن كنت قد خاطبتكم اليوم بالحقّ الصريح، فإن هذا الحقّ سيظهر ذاته لكم في ذلك اليوم بصوت أنقى من صوته اليوم، وبكلمات أقرب إلى أفكاركم من كلماته اليوم.

* * *

إنّني ماضٍ مع الريح، يا أبناء أورفليس، ولكنني لن أهبط إلى العالم السفلي، إلى الفراغ المرعب.

فإذا لم يكن هذا اليوم قد أكمل حاجاتكم وأفعمكم من محبتي، فليكن موعداً ليوم آخر.

فإن حاجات الإنسان تتبدّل ولكن محبته لا تتغيّر ومثلها رغبته في أن تشبع المحبة حاجاته.

فاعلموا إذن أنّني سأرجع إليكم من عالم الصمت والسكينة.

لأن الضباب الذي يفارق الأرض عند بزوغ الفجر من غير أن يترك سوى قطرات صغيرة من الندى في الحقول إنما يرتفع في الجو لكي يتجمع هنالك فيؤلف السحاب الذي لا يلبث أن يعود إلى الأرض مطراً غزيراً.

وقد كنت بينكم مثل هذا الضباب.

ففي سكينة الليل كنت أمشي في شوارعكم وكنت أدخل بروحي إلى أعماق منازلكم.

وكانت نبضات قلوبكم تتردد في قلبي وسحائب لهاثكم تنتشر على وجهي، وقد عرفتكم بعجركم وبجركم.

نعم، قد عرفت فرحكم وحزنكم، وفي هجوعكم كانت أحلامكم أحلاماً لي.

وكثيراً ما كنت بينكم بحيرة بين الجبال.

فكانت ترتسم على صفحات مرآتي قننكم الشاهقة ومنحدراتكم المتعرجة حتى قطعان أفكاركم ورغباتكم العابرة عليها.

وكان ضحك أولادكم يجري إلى سكينتي مع مياه الجداول، وكان حنين شبانكم وشاباتكم يأتي اليّ مع مجاري الأنهار.

ومع أن الجداول والأنهار كانت تبلغ أعماقي فإنّها لم تكن تنقطع البتة عن الغناء.

ولكن هنالك ما هو أحلى من الضحك وأعذب من الحنين بين من جاء إليّ منكم،

ألا وهو الكائن غير المحدود فيكم،

الإنسان البالغ العظمة فيكم الذي لستم سوى أنسجة وعضلات في كيانه، والمرنّم الذي ليس غناؤكم أمام غنائه سوى اختلاج وهينمة.

وأنتم لا تعرفون العظمة إلا بهذا الإنسان العظيم الذي فيكم،
وعندما رأيته رأيت حقيقتكم، وأحببتكم.

لأنّه هل في الوجود علوّ أو بعد تصل إليهما المحبة ولا يحيط بهما في دائرة كيانه العظيمة الاتساع؟

أم هل هنالك تصورات أو تمنيات أو أحلام تستطيع أن تسمو فتبلغ أقصى ارتفاعه؟

أجل إنّ هذا الإنسان العظيم هو بالحقيقة كالسنديانة الجبارة المغطّاة ببراعم التفاح الجميلة.

فقدرته تقيدكم بالأرض، وشذاه يرفعكم إلى أعالي الفضاء، وفي عزمه وصبره على عواصف الطبيعة أنتم خالدون.

قد أخبرتم فيما مضى أنّكم كالسلسلة، ضعفاء كأضعف حلقة في كيانكم.

غير أن هذا إنما هو نصف الحقيقة، فأنتم أيضاً أقوياء كأقوى حلقة من سلسلتكم.

لأنّنا إذا حكمنا عليكم بأصغر أعمالكم كنّا كمن يحكم على قوة البحر بما في زبده من الضعف وسرعة الزوال.

وإن حكمنا عليكم بخيبتكم كنّا كمن يلوم الفصول لتعاقبها وعدم ثباتها.

* * *

أجل، إنّكم بالحقيقة كالأوقيانوس العظيم.

فمع أن سفناً عظيمة تنتظر مد البحر وجزره على شواطئكم فأنتم كالأوقيانوس، لا تستطيعون أن تعجلوا مدّكم وجزركم.

وأنتم كالفصول أيضاً يا أبناء أورفليس.

فإنّكم تنكرون ربيعكم في شتائكم،

ولكن الربيع لا ينكركم، بل يبتسم لكم في غفلته، من غير أن يغضب أو يتعكر صفوه.

ولا يخطر لكم أني أقول لكم هذا لكي أحملكم على أن تهمسوا بعضكم لبعض قائلين: «قد أجاد في مديحنا والثناء علينا، ولم يرَ سوى الصالح فينا.».

فإنّني أنقل إليكم بألفاظي ما تدركونه أنتم بأفكاركم.

وهل المعرفة اللفظية سوى ظل للمعرفة غير اللفظية؟

لأن أفكاركم وكلماتي ما هي عند التحقيق إلا أمواج تقذف بها بحيرة الذاكرة المختومة التي تحتفظ بدواوين ماضينا وماجرياته.

وحوادث الأيام المتصرمة عندما لم تكن الأرض تعرفنا، وكانت تجهل ذاتها أيضاً، .

وأحلام الليالي عندما كانت الأرض خربة خاوية خالية.

قد جاءكم الحكماء قبلي لكي يقدموا لكم من حكمتهم، أما أنا فقد أتيت إليكم لكي أغرف من معين حكمتكم.

وها أنذا قد وجدت ما هو أعظم من الحكمة. قد وجدت روحاً ملتهبة فيكم ما برحت تستزيد جمع مبعثرات ذاتها، غير أنكم كنتم وما زلتم غافلين عن اتساعها وتعاظمها تنوحون وتبكون على أيامكم الزائلة.

فإن الحياة تفتش عن الحياة في أجسام الذين يخافون القبور.

* * *

ولكن لا قبور ههنا.

لأن هذه الجبال والسهول إنما هي بالحقيقة سرير ومرقاة. فإذا قادتكم خطواتكم إلى الحقل الذي وضعتم فيه أسلافكم فتأمّلوا جيداً جميع جهاته، تروا ذواتكم ترقصون مع أولادكم جنباً إلى جنب.

فإنني الحق أقول لكم: إنّكم كثيراً ما تفرحون وأنتم لا تعرفون.

وآخرون جاؤوا إليكم وعللوكم بالمواعيد الذهبية التي تبنون عليها صروح إيمانكم، فوهبتم لهم ثروة وقوة وعظمة.

أما أنا فقد أعطيتكم أحقر موعد ولكنكم أظهرتم نحوي أريحيّة لم تظهروها لسواي.

فقد أعطيتموني تعطشي الشديد للحياة.

فإنّني أصارحكم القول إنّه ما من عطية في هذا العالم أجزل فائدة للإنسان من العطية التي تحوّل كل ما في كيانه من الميول والرغبات إلى شفتين محترقتين عطشاً، وتجعل حياته جميعها ينبوعاً حيّاً باقياً.

وهوذا فخري وأجري.

في أية ساعة جئت الينبوع متعطشاً أجد الماء الحي المتدفق من فم الينبوع متعطشاً أيضاً،

فيشربني هذا الماء كما أشربه.

وقد خيّل إلى البعض منكم أنني عيوفٌ حييٌ فلا أقبل عطية من عطاياكم.

على أنّني بالحقيقة أكره قبول الأجور ولكنني لا أرفض العطايا.

وإنّه غير خافٍ عليكم أنّني كنت أتقوت بأثمار العليق والتوت بين التلال في حين أنّكم كنتم ترغبون في أن أجالسكم حول موائدكم.

وكنت أنام في رواق الهيكل في حين أن كلاً منكم كان يفرح لو يتاح له أن يؤويني في بيته.

ولكن أليست محبتكم الشديدة الممزوجة بدموع العناية بأيامي ولياليّ هي التي جعلت الطعام حلواً في فمي وحفّت نومي بالوحي والأحلام؟

* * *

لأجل هذا أباركك من أعماق قلبي.

لأنكم تعطون كثيراً ولا تعرفون أنكم تعطون شيئاً.

الحق أقول لكم: إن اللطف الذي ينظر إلى ذاته في مرآة ينقلب حجراً. والعمل الصالح الذي يسميّ نفسه بأسماء جميلة يصير والداً للعنة كريهة.

وقد دعاني فريق منكم متوحداً ثملاً بمحبة وحدتي.

أمّا أنتم فقلتم بعضكم لبعض: لا تبالغوا في عذله وملامته، فإنّه يحب أن يؤلف مجلسه من أشجار الأحراج وليس من أبناء الإنسان وهو يستلذّ الجلوس على رؤوس التلال والنظر إلى مدينتنا.

وإنّني بالحقيقة قد تسلقت التلال ومشيت في أراضٍ بعيدة جداً.

لأنه كيف أمكنني أن أراكم من غير أن أكون في علو شاهق أو بُعد شاسع؟

أو كيف يستطيع أحدٌ أن يكون قريباً ما لم يكن بعيداً؟.

* * *

وغيركم من كان يناديني ولكن بغير الألفاظ، ويقول لي:

«أيها الغريب، أيها الغريب المتعشق ما لا يُبلغ من الشاهقات، لماذا تقطن بين قنن الجبال حيثما تبني النسور أعشاشها؟.

لماذا تسعى إلى ما لا سبيل للحصول عليه؟

أي نوع من العواصف تريد أن تصطاد لشبكتك،

وما هي الطيور البخارية التي تفتش عنها في السماء؟

هلمّ إلينا، وكن واحداً منّا،

اهبط من علوك، وسكن حدة مجاعتك بخبزنا، واخمد لظى عطشك بلذيذ خمرتنا!»

قالوا هذه الأقوال كلها في وحدة نفوسهم.

ولو كانت وحدتهم أعمق مما هي لأدركوا أنّني لم أكن أسعى إلا إلى إدراك سرّ أفراحكم وآلامكم.

ولم أكن أصطاد سوى ذواتكم الكبرى السائرة نحو السماء.

ولكن الصياد قد صار صيداً:

لأن كثيراً من سهامي لم تترك قوسي إلا لكي تسعى إلى صدري.

والطائر قد صار زحافة:

لأنني عندما بسطت جناحي في الشمس صار ظلهما على الأرض سلحفاة.

وأنا المؤمن صرت مرتاباً:

لأنّني كثيراً ما وضعت إصبعي في جنبي رجاء أن أبلغ كمال إيماني بكم ومعرفتي لحقيقتكم.

* * *

وبهذا الإيمان وهذه المعرفة أقول لكم.

إنكم لستم محصورين في سجون أجسادكم، كلا، ولستم مقيدين بجدران بيوتكم وحدود حقولكم.

فإن الذات الخفية التي تمثل حقيقتكم تقطن فوق الجبال وتهيم مع الرياح. لأنها لا تدب إلى الشمس مستدفئة ولا تتلمس طريقها في الظلمة مستنجدة، بل هي روح حرة طليقة تغلف الأرض وتركب دقائق الأثير.

* * *

وإن جاءت كلماتي هذه غامضة على أفهامكم فلا تسعوا وراء إيضاحها.
فإن الغموض والسديم هما بداءة كل شيء لا نهايته.
وإنّني بملء الرغبة أود أن تتذكروني كبداءة.

والحياة، وجميع الكائنات الحيّة، إنّما تتصور أولاً في الضباب وليس في البلور.

ومن يدري أن البلور لم يكن ضباباً متجمداً؟.

* * *

وهذا ما أودّ أن تحتفظوا به مع ذكراي:

إن ما يبدو لكم ضعيفاً فيكم هو أقوى وأثبت ما في كيانكم. لأنه أليس لهاثكم هو الذي يقيم بنيان عظامكم ويشدده؟.

بل أليس الحلم الذي لم يحلم به أحد منكم قط هو الذي بنى مدينتكم وعمل كل ما فيها؟

فلو كان لكم أن تنظروا مجاري ذلك اللهاث لما كانت لكم حاجة إلى أن تنظروا شيئاً آخر غيرها.

ولو استطعتم أن تسمعوا مناجاة ذلك الحلم لما كنتم ترغبون في سماع أي صوت آخر في العالم.

ولكنكم لا تنظرون ولا تسمعون، وحسناً تفعلون.
فإن الحجاب المسدول على عيونكم سترفعه اليد التي حاكته.

والطين الذي يسدّ آذانكم ستنتزعه الأصابع التي جبلته.
وحينئذ تبصرون،
وحينئذ تسمعون
بيد أنكم لن تتحسروا على أنّكم كنتم عمياً أو صماً.

لأنكم في ذلك اليوم ستعرفون المقاصد الخفية في كل شيء.
وستباركون الظلمة كما تباركون النور.

* * *

وعندما قال هذا نظر حواليه، فرأى ربّان سفينته منتصباً أمام السكان وهو ينظر تارة إلى الأشرعة وطوراً إلى البحر.

فقال:

إن ربان سفينتي واسع الصدر جزيل الصبر.
فإن الريح تهب بعنف. والأشرعة مضطربة.
حتى إن السكان نفسه يحتاج إلى من يديره.
ومع كل هذا فإن ربان سفينتي ينتظر سكوتي.

وهؤلاء الملاحون رفقائي الذين سمعوا جوق المنشدين في البحر الأعظم، قد أصغوا إليّ بطول أناة.

ولكنهم لن ينتظروا ثانية واحدة بعد.
فإنّني على أتم الأهبة للسفر.

فقد وصل الجدول إلى البحر، وأتيح للأم العظيمة أن تضم ابنها إلى صدرها مرة ثانية.

* * *

فالوداع، الوداع يا أبناء أورفليس.

قد غربت شمس هذا اليوم.

وأغلق علينا أبوابه كما تغلق زنبقة الغور أوراقها على غدها.

فكل ما أعطينا ههنا سنحتفظ به،

وإذا لم يكن كافياً لسدّ حاجاتنا. فإنّنا نأتي ثانية إلى هذا المكان ونمدّ أيدينا معاً لمن أعطانا.

ولا تنسوا أنني سآتي إليكم مرة أخرى.

فلن يمرّ زمن قليل حتى يشرع حنيني في جمع الطين والزبد لجسد آخر.

قليلاً ولا ترونني، وقليلاً وترونني.

لأن امرأة أخرى ستلدني.

* * *

أودعكم وأودع الشباب الذي قضيت بينكم.

فإنّنا في الأمس قد اجتمعنا كما في حلم.

قد أنشدتم لي في وحدتي. وبنيت لكم من أشواقكم برجاً في السماء.

ولكن عهد النوم قد انقضى والحلم قد مضى، ولسنا الآن عند بزوغ الفجر.

لأن الظهيرة ترقص فوق رؤوسنا، ويقظتنا الناقصة قد تحولت إلى نهار كامل، فيجدر بنا أن نفترق.

فإذا جمعنا شفق الذكرى مرة أخرى فإننا حينئذ نتكلم معاً، وحينئذٍ تنشدون لي أنشودة أوقع في النفس من أنشودة اليوم.

وإن اجتمعت أيدينا في حلم ثانٍ فهنالك سنبني برجاً آخر في السماء.

وعندما قال هذا أشار إلى الملاحين إشارة تؤذن بالسفر، فرفعوا مرساة السفينة في الحال وحلوا حبالها وساروا نحو الشرق.

فصرخ الشعب كله بصوت عظيم كأنّه صادر من قلب واحد، وتعالى صراخهم في الشفق فحملته دقائق الهواء فوق البحر كأنّه صوت بوق عظيم.

أما المطرة العرافة فكانت صامتة وحدها، تشيع السفينة بنظرها حتى توارت في الضباب.

ثم تفرّق الشعب كل في سبيله، بيد أنها ظلت وحدها واقفة على شاطئ البحر تردّد في قلبها كلمات المصطفى الأخيرة:

«قليلاً ولا ترونني، وقليلاً وترونني،
لأن امرأة أخرى ستلدني».

رمل وزبد

تعريب
الارشمندريت انطونيوس بشير

ليس هذا الكتاب الصغير بأكثر من اسمه ـ رمل وزبد ـ حفنة من الرمل وقبضة من الزبد.

وبالرغم عمّا ألقيت بين حباته وحبات قلبي، وبالرغم عمّا سكبت على زبده من عصارة روحي، فهو الآن وسيبقى أبداً أقرب إلى الشاطئ منه إلى البحر وأدنَى إلى الشوق المحدود منه إلى اللقاء الذي لا يحدّه البيان.

بين جانحي كل رجلٍ وكل امرأة قليل من الرمل وقليل من الزبد. ولكن بعضنا يبيّن ما بين جانحيه وبعضنا يخجل. أما أنا فلم أخجل. فاعذروني وسامحوني.

جبران خليل جبران

نيويورك في كانون الأول سنة ١٩٢٦

رمل وزبد

على هذه الشواطئ أتمشى أبداً،
بين الرمل والزبد.
إن المد سيمحو آثار قدمي، وستذهب الريح بالزبد.
أما البحر والشاطئ فيظلان إلى الأبد.

*

ملأت يدي مرة بالضباب. ثم فتحتها فإذا بالضباب قد صار دودة.
وأغلقت يدي وفتحتها ثانية فإذا هنالك عصفور.
ثم أغلقت يدي وفتحتها للمرة الثالثة، فإذا في راحتها رجل حزين الوجه ينظر إلى العلاء.

وأغلقت يدي راجعة، وعندما فتحتها لم أرَ فيها غير الضباب.
ولكنني سمعت أغنية بالغة الحلاوة.

*

خيل إليّ في الأمس أني ذرة تتموج مرتجفة في دائرة الحياة بغير انتظام.
واليوم أعرف كل المعرفة أني أنا الدائرة وأن الحياة بأسرها تتحرّك في بذرات منتظمة.

*

يقولون في يقظتهم: ما أنت والعالم الذي تعيش فيه سوى حبة رمل على شاطئ غير متناهٍ لبحرٍ غير متناهٍ.
وفي حلمي أقول لهم: أنا هو البحر غير المتناهي، وما جميع العوالم

سوى حبات من الرمل على شاطئي.

*

ما عييت إلا أمام من سألني: من أنت؟

*

فكر الله، فكان فكره الأول ملاكاً.

وتكلم الله، فكانت كلمته الأولى إنساناً.

*

كان الانسان مخلوقاً هائماً ينشد ذاته الضالة في الأحراج قبل أن منحه البحر والريح كلماته بألف ألف سنة.

فكيف يستطيع والحالة هذه أن يعبر عن العتيق من الأيام فيه بأصوات حقيرة لم يتعلمها إلا في الأمس القريب؟

*

تكلم أبو الهول مرة واحدة في حياته. وإليك ما قال: حبة الرمل صحراء، والصحراء حبة رمل. قال هذا وسكت ثانية ولم يفتح فاه.

قدسمعت ما قاله أبو الهول بيد أنّني لم أفهم.

*

رأيت وجه امرأة. فرأيت أولادها ولم يولدوا بعد.

ونظرت امرأة إلى وجهي. فعرفت آبائي وجدودي وقد ماتوا قبل أن تولد.

أودّ الآن لو يتاح لي أن أكمل ذاتي. ولكن أنّى لي ذلك إذا لم أتحول إلى سيادة يعيش عليها العاقلون من الأحياء

أليست هذه ضالة كل إنسان على الأرض؟

*

الدرّة هيكل بناه الألم حول حبّة رمل.

فما هو الحنين الذي بنى أجسادنا وما هي الحبوب التي بُنيت حولها؟

*

عندمارماني الله حصاة صغيرة في هذه البحيرة العجيبة أزعجت هدوءها بأن أحدثت على سطحها دوائر لايُحصى عديدها.

ولكنني عندما بلغت إلى أعماقها صرت هادئة مثلها.

*

أعطني الصمتَ أقتحم غمرات الليل.

قد ولدت ثانيةً عندما وقع جسدي بحب نفسي وتزوجا معاً.

*

عرفت في حياتي رجلاً حادّ السمع ولكنه كان أبكم. فقد خسر لسانه في معركة.

وأنا أعرف اليوم الحروب التي حاربها هذا الرجل قبل أن حل به قضاء الصمت العظيم. ويسرّني جدّاً أنّه قد مات.

لأن العالم على سعته لا يكفي لنا معاً.

*

طويلاً نمت في أرض مصر صامتاً غافلاً عن الفصول .

ثم ولدتني الشمس، فوقفت ومشيت على حافتي النيل مترنّماً مع الأيام حالماً مع الليالي.

والآن تعمش الشمس عليّ بألف قدم لكي أنام ثانية في أرض مصر.

ولكن هوذا الأعجوبة والاحجية.

فإن الشمس نفسها التي جمعتني لا تستطيع أن تفرقني.

لذلك ما برحت منتصباً أمشي بخطى ثابتة على حافتي النيل.

*

التذكار شكل من أشكال اللقاء.

*

النسيان شكل من أشكال الحرية.

*

نحن نقيس الزمان بمقتضى حركة الشموس التي لا تحصى وهم يقيسون الزمان بآلات صغيرة يحملونها في جيوبهم.

فقل لي، رعاك الله، كيف يمكن أن نجتمع معاً في مكان واحد وفي وقت واحد؟

ليس الفضاء فضاءً بين الأرض والشمس لمن ينظر إليه من نوافذ المجرّة.

*

الانسانيّة نهر من النور يسير من أودية الأزل إلى بحر الأبد.

*

ألا تحسد الأرواح القاطنة في الأثير الانسان على كآبته؟

*

في طريقي إلى المدينة المقدسة لقيت حاجّاً آخر، فسألته: أهذه حقيقة الطريق إلى المدينة المقدسة؟

فأجابني: هلمّ ورائي تصل إلى المدينة المقدسة في يوم وليلة.

فتبعته للحال. وسرنا أياماً وسرنا ليالي ولكننا لم نبلغ إلى المدينة المقدسة.

وشدّ ما كانت دهشتي عظيمة إذ عرفت أنّه غضب لأنّه لم يسر بي في الصراط المستقيم.

*

اجعلني يا الله فريسة الأسد قبل أن تجعل الأرنب فريستي.

*

قال لي منزلي: لا تهجرني لأن ماضيك يقطن فيّ.

وقالت لي الطريق: هلم ورائي. فأنا مستقبلك.

أما أنا فأقول لمنزلي والطريق معاً: ليس لي ماضٍ ولا مستقبل. فإذا أقمت هنا ففي إقامتي ذهاب، وإذا ذهبت فهنالك إقامة في ذهابي، فإن المحبة والموت وحدهما يغيّران كل شيء.

*

كيف أخسر إيماني بعدل الحياة، وأنا أعرف أن أحلام الذين ينامون على الريش ليست أجمل من أحلام الذين ينامون على الأرض؟

*

ما أغربني عندما أشكو ألماً فيه لذتي!

*

سبع مرات احتقرت نفسي:

أولاً ـ عندما رأيتها تتلبّس بالضعة لتبلغ إلى الرفعة.

ثانياً ـ عندما رأيتها تقفز أمام المخلصين.
ثالثاً ـ عندما خُيرتْ بين السهل والصعب فاختارت السهل.
رابعاً ـ عندما اقترفت إثماً ثم جاءت تعزي ذاتها بأن غيرها يقترف الإثم مثلها.
خامساً ـ عندما احتملت ما حلّ بها لضعفها. ولكنها نسبت صبرها للقوة.
سادساً ـ عندما احتقرت بشاعة وجه ما هو عند التحقيق سوى برقع من براقعها.
سابعاً ـ عندما أنشدت أغنية ثناء ومديح، وحسبتها فضيلة.
أنا لا أعرف الحقيقة المجردة، ولكنني أركع متضعاً أمام جهلي، وفي هذا فخري وأجرى.

*

بين خيال الانسان وإدراكه مسافة لا يجتازها سوى حنينه.

*

الفردوس قائم هناك، وراء ذلك الباب، في الغرفة المجاورة، ولكنني أضعت مفتاح الباب.
ولعلي لم أضعه بل وضعته في غير موضعه.

*

أنت أعمى، وأنا أصم أبكم، إذن ضع يدك بيدي فيدرك أحدنا الآخر.

*

ليست قيمة الانسان بما يبلغ إليه، بل بما يتوق للبلوغ إليه.

*

بعضنا كالحبر وبعضنا كالورق.
فلولا سواد بعضنا لكان البياض أصم.
ولولا بياض بعضنا لكان السواد أعمى.

*

أعطني أذناً أعطِك صوتاً.
العقل إسفنجة، والقلبُ جدول.
أفليس بالغريب أن أكثرنا يؤثرون الامتصاص على الانطلاق؟

*

إذا تقت إلى البركات التي لا تعرف لها اسماً،
وإذا حزنت وأنت لا تعرف سبباً لحزنك،

فأنت حينئذ تنمو بالحقيقة مع جميع الناميات، وترتفع متسامياً إلى ذاتك العظمى.

*

إذا سكر الانسان برأي حسب أضعف تعبير عنه خمرة طيبة.

أنتم تشربون الخمر لتسكروا، وأنا أشربها لأصحومن خمرة غيرها.

إذ فرغت كأسي رضيت بفراغها، وإذا لم يكن فيها سوى نصفها اعترضت على نصف امتلاكها.

*

ليست حقيقة الانسان بما يظهره لك، بل بما لا يستطيع أن يظهره. لذلك إذا أردت أن تعرفه، فلا تصغ إلى ما يقوله بل إلى ما لا يقوله.

*

نصف ما أقوله لك لامعنى له. ولكنني أقول ليتمّ معنى النصف الآخر.

تعرف الفكاهة إذا عرفت اغتنام الفرص السانحة.

*

لم أشعر بألم الوحشة حين مدح الناس عيوبي الثرثارة وطعنوا في عيوبي الخرساء.

*

عندما لا تجد الحياة مغنّياً يتغنّى بقلبها تلد فيلسوفاً يتكلم بعقلها.

يجب أن تعرف الحقيقة أبداً وتقولها بعض المرات.

الحقيقي فينا صامت ولكن الاكتسابي ثرثار.

*

لايستطيع صوت الحياة الذي فيّ أن يصل إلى أذن الحياة التي فيك، ولكن فلنتكلم على كل حال لئلا نشعر بوحشة الانفراد.

*

إذا تكلمت امرأتان فهما لا تعُلنان شيئاً.

وإذا تكلمت امرأة واحدة فإنها تعلن الحياة كلها.

قد يكون للضفادع أصوات أعلى من أصوات البقر.

*

ولكن الضفادع لا تستطيع أن تجرّ السكة في الحقل، ولا أن تدير دولاب

المعصرة، ولايمكنك أن تصنع من جلودها أحذية.

*

لايحسد الثرثار إلا الاصم.

*

إذا قال الشتاء: إن الربيع في قلبي، فمن ذا يصدق الشتاء؟

*

في كل بزرة حنين.

*

افتح عينيك جيداً وانظر. تجد صورتك في كل الصور.
وافتح أذنيك جيداً وأصغ، تسمع صوتك في كل الأصوات.

*

يحتاج الحق إلى رجلين: الواحد لينطلق به والآخر ليفهمه.

*

مع أن أمواج الألفاظ تغمرنا أبداً، فإن عمقنا صامت أبداً.

*

كثير من المذاهب كزجاج النافذة، نرى الحقيقة من خلالها، ولكنها تفصلنا عن الحقيقة.

*

هلم بنا نلعب لعبة «تخبأ مليح» ونفتش بعضنا عن بعض، فإذا اختبأت في قلبي فليس بالصعب عليّ أن أجدك، ولكن إذا اختبأت وراء صدفتك فحينئذ عبثاً يحاول الناس أن يهتدوا إليك.

*

تستطيع المرأة أن تقنّع وجهها بابتسامة.

*

ما أنبل القلب الحزين الذي لا يمنعه حزنه عن أن ينشد أغنية مع القلوب الفرحة .

ما أشبه الراغب في فهم المرأة أو تحليل العبقرية أو حلّ سر الصمت

بذلك الرجل الذي يفيق من حلم جميل ليأكل طعام الصباح .

*

سأمشي مع جميع الماشين، ولا ولن أقف بلا حراك لأراقب موكب العابرين بي.

*

أنت مدين لمن يخدمك بما هو أثمن من الذهب. فأعطهِ من قلبك أو فاخدمه.

*

ألا إنّنا لم نعش عبثاً. أفلم يبنوا الأبراج من عظامنا؟.

*

تكثر التحقيق ولا تبالغ في التدقيق. فإنّ فكر الشاعر وذنب العقرب يرجعان في مجدهما إلى الأرض الواحدة.

*

كل تنين يلد مار جرجس يقتله.

*

الأشجار أشعار تكتبها الأرض على السماء، ونحن نقطعها ونصنع الورق منها لندون فيه فراغنا وبلادتنا.

*

إذا وجدت في نفسك ميلاً للكتابة ـ ولا يعلم سرّ هذا الميل إلاّ القديسون ـ فلتكن فيك المعرفة والفنّ والسحر: معرفة موسيقى الألفاظ، وفن البساطة والسذاجة، وسحر محبة قرائك.

*

يغمسون أقلامهم في دماء قلوبنا ثم يدّعون الوحي والإلهام.

*

لو استطاعت الشجرة أن تدون ترجمة حياتها لما اختلفت ترجمتها عن تاريخ أية أمة من الأمم.

*

لو خُيّرْتُ بين القوّة على كتابة الشعر وما في الشعر غير المكتوب من

الهيام، لاخترت الهيام فهو خير من الشعر.

ولكنك وجميع جيراني ومعارفي واثقون أبداً بجهلي، وبأني أختار الرديء دون الصالح.

*

ليس الشعر رأياً تعبّر الألفاظ عنه، بل هو أنشودة تتصاعد من جرحٍ دامٍ أو فم باسم.

*

الألفاظ لا تتقيد بقيود الزمان. فيجدر بك إذا تكلمت أو كتبت أن تضع هذه الحقيقة نصب عينيك.

*

الشاعر ملك خُلع عن عرشه فجلس بين رماد قصره يعمل في صنع صورة من الرماد.

إنما الشعر كثير من الفرح والألم والدهشة مع قليل من القاموس.

عبثاً يحاول الشاعر أن يهتدي إلى أم أناشيد قلبه.

*

قلت مرة لشاعر: إننّا لا نعرف قيمتك حتى تموت.

فأجاب قائلاً: أجل، إن الموت يسدل النقاب عن وجه الحقيقة أبداً. وإذا كنتم بالحقيقة تودّون أن تعرفوا قيمتي عن طريق الموت فما ذلك إلا لأن في قلبي أكثر مما على لساني، وفي رغباتي أكثر مما في يدي.

*

إذا ترنّمت بأناشيد الجمال تجد من يصغي لإنشادك ولو كنت في قلب الصحراء.

الشعر حكمة تسحر القلب.

والحكمة شعر يترنّم بأناشيد الفكر.

ولو استطعنا أن نسحر قلب الانسان ونترنّم في الوقت نفسه بأناشيد فكره، لقدر إذ ذاك أن يعيش في ظلّ الله.

*

الوحي ينُشد أبداً، الوحي لا يفسّر البتّة.

*

كثيراً ما نغني لأولادنا لننام نحن أنفسنا.

جميع كلماتنا فتات يتساقط عن مائدة الفكر.

*

التفكير عقبة دائمة في سبيل الشعر.

*

إنما المنشد العظيم ذلك الذي يترنم بأناشيد صمتنا.

*

كيف تستطيع أن تغني إذا كان فمك ممتلئاً طعاماً؟
وكيف ترتفع يدك بالبركة إذا كانت ممتلئة ذهباً؟

*

يقولون إن البلبل ينخز صدره بمنخز عندما يغني أغنية محبته .
ونحن جميعاً مثله. إذ بغير هذا كيف نستطيع أن نغني؟

*

العبقرية أنشودة طائرفي بدء ربيع متأخر.

*

إن الروح المجنّحة نفسها لا تستطيع أن تتخلّص من الحاجات الطبيعية.

*

المجنون موسيقي مثلك ومثلي، ولكن الآلة التي يضرب عليها لا تخرج ألحاناً.

*

الأنشودة الكامنة في صمت قلب الأم تتردّد على شفتي طفلها.

*

ليس في العالم شهوة لا تتحقق.

*

لم أتفق قطّ مع ذاتي الثانية كل الاتفاق. ويلوح لي أن سر القضية كائن بيني وبينها.

*

إن ذاتك الثانية حزينة من أجلك أبداً. ولكن ذاتك الثانية تعيش وتنمو على الحزن. ولذلك فإن حزنها يؤول إلى فرح.

لا قتال بين النفس والجسد إلا في أفكار الذين نفوسهم هاجعة وأجسادهم خانعة.

*

إذا بلغت إلى قلب الحياة تجد الجمال في كل شيء، حتى في العيون المتعامية عن الجمال.

الجمال ضالتنا المنشودة في حياتنا كلها، وكل ما سوى ذلك أشكال من الانتظار.

*

ابذر بذرة تنبت لك الأرض زهرة، انشُدْ أحلامك في السماء تعطِك السماء من تحبه نفسك.

*

مات الشيطان يوم ميلادك.
فليس عليك الآن أن تجتاز الجحيم لكي تجد ملاكاً.

*

ما أكثر النساء اللواتي يستعرن قلب الرجل!
ولكن ما أقل اللواتي يستطعن الاحتفاظ به!.

إذا شئت أن تملك شيئاً فلا تدعه لنفسك.

عندما يلمس الرجل بيده يد امرأة، يلمس كلاهما قلب الأبدية:

المحبة قناع بين محب ومحب.
كل رجل يحب امرأتين: واحدة يخلقها خياله، والثانية لم تولد بعد.

الرجل الذي لا يغتفر للمرأة هفواتها الصغيرة لن يتمتع بفضائلها الكبيرة.

الحب الذي لا يتجدد في كل يوم وليلة يتحول إلى شكل من قوة الاستمرار وهذه في وقتها لا تلبث أن تنقلب عبودية.



«المتحابان في النشوة الروحية»

يعانق المحبان ما بينهما أكثر مما يعانق أحدهما الآخر.

المحبة والشك لا يجتمعان.

المحبة كلمة من نور، كتبتها يد من نور، على صحيفة من نور.

*

الصداقة مسؤولية لذيذة أبداً وليست الصداقة فرصة للنفعيين.

إذا كنت لا تفهم صديقك في جميع الظروف فأنت لا ولن تفهمه.

*

إن أجمل أثوابك قد نُسِجَ في نول ذاتك الأخرى.

وأطيب مآكلك تتناولها على مائدة ذاتك الأخرى.

وأفضل سرير لراحتك هو في بيت ذاتك الأخرى.

فقل لي بربك كيف تستطيع أن تفصل نفسك عن ذاتك الأخرى؟.

لن يتفق فكرك وقلبي حتى ينقطع فكرك عن أن يعيش بالأرقام ويقف قلبي عن الحياة بالضباب.

*

لن نفهم بعضنا بعضاً حتى نحول اللغة إلى سبع كلمات.

كيف تُفَضّ أختام قلبي إذا لم ينسحق؟.

*

لا يظهر الحق الذي فيك إلا الألم العظيم أو الفرح العظيم.

فإذا شئت أن تعلن حقيقة ذاتك وجب عليك إمّا أن ترقص عارياً في الشمس أو أن تحمل صليبك.

*

لو أصْغت الطبيعة إلى مواعظنا في القناعة لما جرى فيها نهر إلى البحر ولما تحوّل شتاءٌ إلى ربيع.

ولو أصْغت إلى كل نصائحنا في وجوب الاقتصاد، فكم كان بيننا الذين يتنشقون هذا الهواء؟

*

إنك لا ترى سوى ظلك وأنت تدير ظهرك للشمس.

*

أنت حر أمام شمس النهار.
وأنت حرّ أمام قمر الليل وكواكبه.
وأنت حرّ حيث لا شمس ولا قمر ولا كواكب.
بل أنت حرّ عندما تغمض عينيك عن الكيان بكليته.
ولكن أنت عبد لمن تحب لأنّك تحبه.
وأنت عبد لمن يحبك لأنه يحبك.

*

جميعنا متسولون نقف على بوابة الهيكل، وكل منا ينال قسطه من عطية الملك وهو يدخل إلى الهيكل ويخرج منه.

ولكننا جميعاً نحسد بعضنا بعضاً، فنظهر بهذا تصغيرنا للملك.

*

إنك لا تستطيع أن تأكل أكثر من حاجتك. فإن نصف الرغيف الذي لا تأكله يخصّ الشخص الآخر، ويجب أن تحفظ غيره قليلاً من الخبز لضيف ربما يمر بك على بغتة.

*

لولا الضيوف لكانت البيوت قبوراً.

قال ذئب مضياف لحمل مسكين: هل تريد أن تشرف منزلنا بزيارة؟ فأجابه الحمل: كم كان فخري بزيارتك عظيماً لو لم يكن منزلك في معدتك.

أوقفت ضيفي على عتبة بابي وقلت له: بربك لا تمسح قدميك وأنت تدخل، بل امسحهما وأنت تخرج.

ليس السخاء بأن تعطيني ما أنا في حاجة إليه أكثر منك، بل السخاء بأن تعطيني ما تحتاج إليه أكثر مني.

أنت رحوم إذا أعطيتَ، ولكن لا تنسَ وانت تعطي أن تدير وجهك عمن تعطيه لكي لا ترى حياءه عارياً أمام عينيك.

*

الفرق بين أغنى الأغنياء وأفقر الفقراء يوم جوع وساعة عطش.

*

نستدين في الغالب من غدنا لكي ندفع ديون أمسنا.

*

كثيراً ما تزورني الملائكة والشياطين، ولكنني أتخلص منهم. فإذا كان الزائر ملاكاً فإني أصلي صلاة قديمة فيملها ويترك منزلي. وإذا كان شيطاناً فإنّي أرتكب أمامه خطيئة قديمة فيمرّ بي مجتازاً.

ليس هذا بالسجن الرديء على كل حال، ولكنني لا أحب هذا الجدار الذي يفصلني عن السجين في الغرفة الثانية.

على أنني أؤكد لك أنّني لا أريد أن أقرب من السجان ولا من الذي بنى السجن.

*

إن الذين يعطونك حية وأنت تسألهم سمكة ربما ليس لديهم ما يعطونه غير الحيات. ولذلك يحسب عملهم أريحية وسخاء.

ينجح الخداع حيناً، ولكنه يسير أبداً إلى الانتحار.

أنت بالحقيقة صفوح غفور: إذا كنت تصفح عن القتلة الذين لم يسفكوا دماً، واللصوص الذين لم يسرقوا، والمنافقين الذين لم يكذبوا.

إن الذي يستطيع أن يضع إصبعه على الخط الفاصل بين الخير والشر يستطيع بالحقيقة أن يلامس هدب ثوب الله.

إذا كان قلبك بركاناً فكيف تتوقع أن تزهو الأزهار في يديك؟.

أليس غريباً أنّني كثيراً ما أحب أن يخدعني الناس ويغشوني لكي أضحك على حساب الذين يفكرون أنّني لا أعرف أنهم يخدعونني؟ .

ماذا أقول في المطارد الذي يمثل دور المطارَد؟ .

أعط ثوبك لمن يمسح يديه الوسختين به، لأنّه ربما يحتاج إليه، أما أنت فلا تحتاج إليه.

*

يا للأسف الشديد كيف أن الصيرفي لا يستطيع أن يكون بستانياً!

*

بربك لا تغط هفواتك الأصلية بفضائلك الاكتسابية، فأنا أتمسك بهفواتي الصغيرة فهي ملك خاص بي.

كم من مرة عزوت لنفسي جرائم لم أرتكبها قط لئلا أظهر أرفع ممن يجالسني من المجرمين.

*

إنّ براقع الحياة نفسها هي براقع لسر أعمق من الحياة.

*

تستطيع أن تدين الآخرين بحسب معرفتك لذاتك.

فهل لك أن تقول لي من هو المجرم بيننا ومن هو البريء؟ .

إن البار بالحقيقة هو ذلك الذي يشعر بأنّه سبب لنصف الجرم الذي أجرمته أنت.

*

لا يكسر الشرائع البشرية إلا اثنان: المجنون والعبقري، وهما أقرب الناس إلى قلب الله.

مطاردة بعضم وهبتْ قدمي السرعة.

ليس لي أعداء يا رب، ولكن إذا كان لا بدّ من وجود عدوّ لي، فاجعل يا ربّ قوته مضارعة لقوتي، لكي لا تكون الغلبة إلا للحقّ.

ستكون على ولاء تام مع عدوك بعد موتكما.

كثيراً ما ينتحر الإنسان في الدفاع عن نفسه.

عاش في قديم الزمان رجل صلبه الناس لأنّه كان يحبّ كثيراً وكان يحبه الناس كثيراً.

ولعلك تدهش إذ اخبرك أنني رأيته ثلاث مرات في الأمس القريب. ففي المرة الأولى رأيته يسأل الشرطي أن لا يأخذ زانية إلى السجن؛ وفي المرة الثانية رأيته يشرب الخمر مع أحد السكيرين؛ وفي المرة الثالثة رأيته يصارع رجلاً أراد أن يتخذ الكنيسة وسيلة للإعلان والتدييع.

*

إذا كان كل ما يقولونه في الخير والشر حقيقياً فإن حياتي كلها سلسلة من الجرائم.

ليست الرحمة سوى نصف العدالة.

ما ظلمني إلا الذي ظلمت أخاه.

إذا رأيتَ رجلاً يقاد إلى السجن فقل في قلبك: لعله يهرب من سجن اضيق وأظلم من السجن الذي يسير إليه.

*

وإذا رأيت سكيراً فقل في قلبك: من يدري إذا كان هذا الرجل لم يسكر لكي يتخلص مما هو شر من السكر؟.

*

كثيراً ما حملني الدفاع عن النفس إلى البغضاء، ولكن لو كنت أوفر قوة لما لجأت إلى مثل هذه الوسيلة.

ما أبلد من يرقع نظرات البغض في عينيه بخرق ابتسامة في شفتيه!.

لا يحسدني ولا يبغضني إلا الذين دوني.

ولكن لم يحسدني ولم يبغضني أحد قط، فأنا إذن لست فوق أحد.
ولا يمدحني ولا يصغرني إلا الذين فوقي.
ولكن لم يمدحني ولم يصغرني أحد قط، فأنا إذن لست فوق أحد.

*

قولك إنك لا تفهمني مديح لا أستحقه أنا وإهانة لا تستحقها أنت.

*

ما أحقرني عندما تعطيني الحياة ذهباً فأعطيك فضة ثم أحسبني سخياً!.

*

عندما تبلغ إلى قلب الحياة تجد أنك لست أرفع من المجرمين ولا أدنى من الأنبياء.

*

غريب أنك تقصر شفقتك على بطيء القدمين دون بطيء الفكر، وأعمى العينين دون أعمى القلب.

*

تقضي الحكمة على الأعرج ألا يكسر عكازه على رأس عدوه.

*

ما أعمى الذي يعطيك من جيبه ليأخذ من قلبك!.

*

الحياة موكب عظيم، ينظر إليه بطيء الخطى فيحسبه سريعاً جداً ولذلك يهرب منه، وينظر إليه سريع الخطى فيحسبه بطيئاً ويهرب منه.

*

إذا كان لا بد من وجود الخطيئة فإن فريقاً منا يرتكبونها بالتفاتهم إلى الوراء لاقتفاء خطوات آبائنا وجدودنا.

ويقترفها الفريق الآخر بتحديقهم إلى الأمام للمبالغة في السيادة على أبنائنا.

*

الصالح الصالح هو ذلك الذي لا يفصل ذاته عن جميع الذين يحسبهم العالم أشراراً.

*

جميعنا سجناء ولكن بعضنا في سجون ذات نوافذ وبعضنا في سجون بدون نوافذ.

*

عجيب غريب أننا ندافع عن خطإنا بأكثر قوة مما ندافع عن صوابنا.

لو اعترفنا بعضنا لبعض بخطايانا لضحكنا جميعنا بعضنا على بعض لشدة فقرنا إلى الابتكار.

ولو أظهرنا جميعنا فضائلنا بعضنا لبعض لأغربنا في الضحك للسبب عينه.

*

يظل الفرد فوق الشرائع البشرية حتى يقترف إثماً ضد المجامع البشرية وبعد ذلك لا يكون فوق أحد ولا دون أحد.

*

الحكومة اتفاق بينك وبيني. وأنت وأنا في الغالب على ضلال.

*

الجريمة اسم من أسماء الحاجة أو مظهر من مظاهر المرض.

*

هل هنالك خطأ أعظم من الشعور بخطإ الاخرين؟

*

إذا ضحك امرؤ منك تستطيع أن تشفق عليه، ولكن إذا ضحكت عليه فربما لم تستطع أن تصفح عن نفسك.

وإذا أساء امرؤ إليك فأنت تقدر أن تنسى الإساءة، ولكن إذا أسأت إليه فأنت ذاكر إساءتك أبداً.

لذلك ثق بأن هذا الشخص الثاني هو ذاتك الأكثر إحساساً ولكن في جسد غير جسدك.

*

ما أحمقك وأنت تطلب من الناس أن يطيروا بجناحيك ولكنك لا تقدر أن تعطيهم ريشة!.

*

جلس رجل مرة إلى مائدتي فأكل خبزي وشرب خمرتي وذهب ضاحكاً منّي.

ثم جاءني بعدئذ يطلب خبزاً وخمراً، فرددته خائباً فضحكت الملائكة منّي.

*

البغض جثة راقدة فمن منكم يريد أن يكون قبراً؟

*

حسب القتيل فخراً أنّه ليس بالقاتل.

*

منبر الإنسانية قلبها الصامت لا عقلها الثرثار.

*

يحسبونني مجنوناً لأنني لا أبيع أيامي بدنانيرهم.

وأحسبهم مجانين لأنّهم يظنون أن أيامي تباع بالدنانير.

يبسطون أمامنا ثروتهم من الذهب والفضة، ونبسط أمامهم القلب والأرواح، ومع ذلك يحسبون نفوسهم المضيفين ويحسبوننا الأضياف.

أحب أن أكون الأصغر بين ذوي الأحلام، الراغبين في تحقيق أحلامهم، ولا أكون الأعظم بين من لا أحلام ولا رغبات لهم.

أدعى الناس إلى الشفقة ذلك الذي يحول أحلامه إلى الفضة والذهب.

جميعنا نتسلق المرتفعات إلى قنة رغبات قلوبنا. فإذا سرق المتسلق إلى جانبك جرابك وكيسك فسمن بالأول وازداد ثقله بالثاني، فخذه بحلمك وأشفق عليه: لأن السمن يجعل الصعود صعباً عليه، والثقل الذي أضافه إلى أحماله يطيل الطريق أمامه.

فإذا رأيته وأنت في نحافتكَ وهزالك، بطيئاً رازحاً تحت حمله، فلا تتأخر عن مساعدته، لأن ذلك يزيد في سرعتك.

*

لا تستطيع أن تحكم على رجل بأكثر مما تعرف عنه، وما أحقر معرفتك! .

*

لا أحب أن أصغي إلى غازٍ يعظ الذين فتح بلادهم.

*

الحر الحقيقي هو الذي يحمل أثقال العبد المقيد بصبر وشكر.

*

منذ ألف سنة قال لي جاري: إنّني أكره الحياة لأنه ليس فيها سوى الألم.

وقد مررت في الأمس بالمقبرة فرأيت الحياة ترقص على قبره.

*

ليس الجهاد في الطبيعة سوى شوق عدم النظام إلى النظام.

*

الوحدة عاصفة صماء تحطم جميع الأغصان اليابسة في شجرة حياتنا، ولكنها تزيد جذورنا الحية ثباتاً في القلب الحيّ للأرض الحيّة.

*

حدّثت مستنقعة عن البحر فحسبتني خياليّاً يبالغ، وحدّثت البحر عن المستنقعة فظنّني مفترياً يهجو.

*

ما أضيق عيش من يؤثر اجتهاد النمل على إنشاد الجنادب!.

*

أسمى الفضائل في هذا العالم ربما تكون أدناها في العالم الثاني.

*

العميق والعالي ينزلان إلى الأعماق أو يصعدان إلى الأعالي ولا يتحرك في الدوائر إلا الفسيح الرحيب.

*

لولا مقاييسنا وأوزاننا المحدودة لتهيّبنا أمام الحباحب مثلما نتهيّب أمام الشموس.

*

العالم بدون خيال جزّار تعطّلت سكاكينه وموازينه.

ولكن ماذا نعمل ونحن لا نستطيع أن نكون نباتيين بأجمعنا؟

إذا غنيت للجائع سمعك بمعدته.

*

ليس الموت بأقرب إلى الشيخ منه إلى الطفل الرضيع، والحياة كالموت.

إذا كنت تريد أن تكون مخلصاً فكن مخلصاً بجمال، وإلا فاصْمُتْ، لأن في جوارنا رجلاً يحتضر.

*

من يدري إذا لم تكن الجنازة بين الناس عرساً بين الملائكة؟.

*

تستطيع الحقيقة المنسية أن تموت وتترك في وصيتها سبعة آلاف حقيقة لتنفق في جنازتها وبناء قبرها.

*

نحن نتكلم لنخاطب ذواتنا فقط، ولكن كثيراً ما نرفع أصواتنا أكثر مما ينبغي فيسمعنا الآخرون.

*

الواضح هو ذلك الذي لا يراهُ أحدٌ حتى تعبّر عنه بملء البساطة.

*

لو لم تكن المجرّة في أعماقي فكيف كان يمكن أن أراها أو أعرفها؟.

*

إذا لم أصر طبيباً بين الأطبّاء فلا يصدقون أنّني منجّم.

*

ليس اللؤلؤ سوى رأي البحر في الصدف.

وليس الماس سوى رأي الزمن في الفحم.

*

الشهرة شبح الهوى الواقف في النور.

الجذر زهرةٌ تحتقر الشهرة.

*

لا دين ولا علم بدون الجمال.

*

لم أعرف رجلاً عظيماً لم يكن في الأساس الذي وضع عليه صرح عظمته بعضُ الأشياء الصغيرة، وهذه الصغيرات بعينها هي التي حالت بين جميع العظماء وبين الخمول والجنون والانتحار.

*

إنما الرجل العظيم ذلك الذي لا يسود ولا يساد.

*

لم يعمل البشر إلا بمقتضى قول القائل: «خير الأمور الوسط» ولذلك تراهم يقتلون المجرمين والأنبياء.

*

المتساهل مريض بحبّ داء الادّعاء.

*

ربما كان عدم الاتفاق أقصر مسافة بين فكرين.

*

أنا اللهيب وأنا الهشيم اليابس وبعضي يأكل بعضي. فهلاَّ حولت وجهك عني لكي لا يعميك دخاني!.

*

جميعنا نسعى إلى قنة الجبل المقدس، أفلا تكون طريقنا إذا اعتبرنا

الماضي خريطة أقصر مما إذا اتخذناه دليلاً؟.

*

لا تكون الحكمة حكمةً إذا ترفّعت عن البكاء، وتكبرت عن الضحك، وتلهّت بنفسها فلم تنشد نفس غيرها.

*

إذا اكتفيتُ بكل ما تعرفه أنت فأين أضعُ الذي لا تعرفه؟.

*

قد تعلمت الصمت من الثرثار، والتساهل من المتعصب، واللطف من الغليظ، والأغرب من كل هذا أنّني لا أعترف بجميل هؤلاء المعلمين.

*

المتعصب بالدين خطيبٌ بالغ الصمم.

*

سكوت الحسود كثير الضوضاء.

*

إذا بلغت إلى غاية ما يجب أن تعرِفَهُ، فأنت على عتبة ما يجب أن تشعر به.

*

المبالغة حقيقة لا تملك طباعها.

*

إذا كنت لا ترى إلاّ ما يظهره النور ولا تسمع إلاّ ما تعلنه الأصوات، فأنت بالحقيقة لا ترى ولا تسمع.

*

الحقيقة لا تتجزأ.

*

لا تستطيع أن تضحك وتكون قاسياً في وقت واحد.

*

أقرب الناس إلى قلبي ملك لا مملكة له وفقير لا يعرف كيف يتسوّل.

*

الفشل في حياته خير من النجاح في ادّعائه.

*

احفر أين شئت في الأرض تجد كنزاً، ولكن عليك أن تحفر بإيمان الفلاح.

*

قال ثعلبٌ يطارده عشرون صياداً على خيولهم المطهّمة وأمام كل صياد كلبه النبيه: سيقتلونني ولا شك. ولكن ما أحمقهم وما أبلدهم! فإنني لا أعتقد أن عشرين ثعلباً تحمُقُ إلى درجة أنها تركب عشرين حماراً وتصحب معها عشرين ذئباً لتفترس رجلاً واحداً.

*

فكر الإنسان دون روحه، يخضع للشرائع التي يسنّها الإنسان.

*

إنّني سائح وملاّح في وقت واحد وفي كل صباح أكتشف قارّة جديدة في نفسي.

*

قالت امرأة: كيف لا تكون الحرب مقدسة وقد مات فيها ابني؟.

*

قلت مرةً للحياة: أودّ لو أسمع الموت متكلّماً.

فرفعت الحياة صوتها قليلاً وقالت لي: إنك تسمعه الآن.

*

إذا فرغت من حلّ جميع أسرار الحياة تتوق إلى الموت لأنّه سرّ من أسرار الحياة.

*

الولادة والموت مظهران من أنبل مظاهر الشجاعة.

*

يا صاحبي، إنّني سأظلّ وإياك غريبين عن الحياة.

غريبين أحدنا عن الآخر، وكل عن نفسه.

إلى اليوم الذي تتكلم فيه فأصغي إليك حاسباً صوتك صوتي، وأقف أمامك كأنّني أقف أمام مرآة.

*

يقولون لي: لو عرفت نفسك لعرفت جميع الناس.

*

فأقول لهم: لن أعرف نفسي حتى أعرف جميع الناس.

*

أنت اثنان: واحد متيقظ في الظلمة والثاني غافل في النور.

*

الناسك الحق هو ذلك الذي يهجر عالم الذرّات ويتمتّع بعالم الكليات غير المتجزئة.

*

بين العالِم والشاعر مرجٌ أخضر، فإذا اجتازه العالِم صار حكيماً، وإذا اجتازه الشاعر صار نبيّاً.

*

رأيت في مساء الأمس فلاسفة يحملون رؤوسهم في سلال ويطوفون في ساحات المدينة وهم ينادون بأعلى الصوت: الحكمة! الحكمة للبيع!.

مساكين الفلاسفة! فهم يبيعون رؤوسهم ليطعموا قلوبهم.

*

قال فيلسوف لكنّاس الشوارع: إنّني أشفق عليك لأن عملك امضنك قذر.

فأجاب كنّاس الشوارع وقال: أشكرك يا سيدي، ولكن قل لي ما هو عملك؟

فأجاب الفيلسوف متبجّحاً: إنّني أدرس أخلاق الناس وطبائعهم وأبحث في أعمالهم ومنازعهم.

فضحك كناس الشوارع وسار في عمله قائلاً للفيلسوف: يا مسكين! يا مسكين!.

*

ليس من يصغي للحق بأصغر ممن ينطق بالحق.

*

ما من رجل يستطيع أن يفصل بين الضروري وغير الضروري من الحاجات، لأن هذا العمل من ميزات الملائكة، والملائكة حكماء أذكياء.

ومن يدري إذا لم تكن الملائكة أفكارنا الفضلى في الفضاء؟.

*

إنما الأميرُ كل الأمير ذلك الذي يجد عرشه في قلوب الدراويش.

*

الجود أن تعطي أكثر مما تستطيع، والإباء أن تأخذ أقلّ مما تحتاج إليه.

*

لست مديناً بشيء لإنسان عند التحقيق، ولكنك مدين بكل شيء لجميع الناس.

*

جميع الذين عاشوا في الماضي يعيشون معنا اليوم، فهل بيننا من لا يريد أن يكون مُضيفاً مضيافاً؟

*

كثير الرغبات طويل الحياة.

*

يقولون لي: عصفور في اليد ولا عشرة على الشجر.

أما أنا فأقول لهم: إنّ عصفوراً واحداً على الشجر خير من عشرةٍ في اليد.

*

في الوجود عنصران لا ثالث لهما، وهما الجمال والحق. الجمال في قلوب المحبين، والحق في سواعد الذين يحرثون الأرض.

*

الجمال العظيم يأسرني، ولكن الجمال الأعظم يحرّرني من أسر ذاته.

*

يشرق الجمال أكثر لمعاناً في قلب المشتاق إليه مما في عيني الذي يراه.

*

إنني أعجب بالرجل الذي يظهر لي فكره، وأُمجّد الرجل الذي يحسر القناع عن أحلامه، ولكن لماذا أنا خجول حيي أمام الذي يخدمني؟.

*

كان الموهوب في الماضي يفاخر بخدمة الملوك.
أما اليوم فإنه يدّعي خدمة المساكين.

*

تعرف الملائكة أن كثيرين من الرجال العمليين يأكلون خبزهم بعرق جبهة الخيالي الكثير الأحلام.

*

الذكاء في الغالب قناع إذا قدرت على تمزيقه رأيت إما عبقرية ثائرة أو حذاقة ماكرة.

*

الفهيم ينسب إليّ الفهم والبليد ينسبني إلى البلادة. ويلوح لي أنهما كلاهما مصيبان.

*

لا يدرك أسرار قلوبنا إلا من امتلأت قلوبهم بالأسرار.

*

إن الذي يشاركك في ملذاتك دون آلاماك سيخسر المفتاح لواحدة من سبع بوابات في الجنة.

*

أجل، إن النيرفانا[1] موجودة، وهي تقوم بقيادة خرافك إلى المراعي الخضراء، ووضع طفلك في سرير لينام، وكتابة السطر الأخير من قصيدتك.

*

نختار أفراحنا وأحزاننا قبل أن نختبرها بزمن طويل.

*

الكآبة جدار بين(بستانين.

*

إذا تعاظم حزنك أو فرحك صَغُرَت الدنيا في عينيك.

*

الرغبة نصف الحياة، أما عدم الاكتراث فنصف الموت.

*

أمرّ ما في أحزان يومنا ذكرى أفراح أمسنا.

*

يقولون لي: يجب أن تختار بين ملذات هذا العالم وسلام العالم الثاني.

فأقول لهم: قد اخترت أفراح هذا العالم وسلام العالم الثاني معاً. فإنّني

---

(١) النيرفانا في اعتقاد البوذيين انقطاع الوجود الشخصي وبلوغ النفس إلى وحدة الكمال العامة.

أعرف في قلبي أن الشاعر الأعظم لم يكتب سوى قصيدة واحدة، وهي تامة الوزن تامة القوافي.

*

الإيمان واحةٌ مخضلّة الجوانب في صحراء القلب لا تبلغ إليها قوافل الفكر.

*

إذا بلغت إلى ملء رفعتك فأنت لا ترغب إلا في الرغبة، ولا تجوع إلا للجوع، ولا تعطش إلا للعطش الأعظم.

*

إذا بُحت بأسرارك للريح فلا تلم الريح إذا باحت بها للأشجار.

*

إن أزهار الربيع هي أحلام الشتاء تقرَّب على مائدة الملائكة عند الصباح.

*

السلاحف أكثر خبرة بالطرق من الأرانب.

*

أليس من الغريب أن المخلوقات التي بدون سلسلة فقرية تعيش في أصداف آمن من ذوات الفقرات؟.

*

أكثر الناس كلاماً أقلّهم ذكاء، وبين الخطيب والدلّال بون شاسع.

*

كن شكوراً لأنّك لست مرغماً على الحياة بصيت أبيك أو مال عمك.

ولكن كن شكوراً أكثر من هذا إذا لم يكن لك من يعيش بصيتك أو بثروتك.

*

إذا أخطأ المشعوذ في القبض على كرته جاءني مستغيثاً مسترحماً.

*

يمدحني الحسود وهو لا يعلم.

*

كنتَ حلماً في نوم أمك العميق زمناً طويلاً، وعندما أفاقت من نومها ولدتك.

*

إن خميرة الجنس كائنة في حنين أمّك.

*

شاق أبي وأمي ولد فولداني. وشاقني أن يكون لي أب وأُم فولدت البحر والليل.

*

بعض أبنائنا كالأعذار وبعضهم كالذنوب.

*

إذا جاء الليل وكنت مظلماً مثله، فاذهب إلى فراشك وكن مظلماً باختيارك.

وإذا جاء الصباح وأنت لا تزال مظلماً فانهض وقل للنهار بإرادتك الكاملة: إنّني ما برحت مظلماً.

فإن من البلادة أن تقف في وجه الليل والنهار، فهما يضحكان منك لو قلت.

*

ليس الجبل المقنّع بالضباب تلّة، وليست السنديانة تحت المطر بالصفصافة الباكية.

*

إليك هذه الأحجية: إن العميق أو العالي هما أقرب أحدهما إلى الآخر من المتوسط لأحدهما.

*

عندما وقفتُ أمامك مرآة نقيّة، تأمّلتَ فيّ مليّاً فرأيتَ صورتك.
ثم قلت لي: إنّني أحبك.
ولكنك بالحقيقة أحببت ذاتك فيّ.

*

إذا تلذّذت بمحبّة قريبك زالت فضيلتك من محبتك.

*

المحبة التي لا تنبع في كل يوم، تموت في كل يوم.

*

لا تستطيع أن تمتلك الشباب ومعرفة الشباب في الوقت الواحد.

لأن الشباب تلهيه المعيشة عن المعرفة، والمعرفة يلهيها البحث عن ذاتها عن المعيشة.

*

قد تنظر من نافذة منزلك فترى بين عابري الطريق راهبة تسير إلى يمينك ومومساً تسير إلى يسارك.

وفي سذاجتك وطهارة قلبك تقول لذاتك: ما أنبل هذه وما أقبح تلك!

ولكنك لو أغمضت عينيك وأصغيت هنيهة لسمعت صوتاً يتردد في الأثير قائلاً بلسانك: إن الواحدة تنشدني بالصلاة والثانية بالألم، وفي روح كل منهما مظلة لروحي.

*

مرة في كل مائة سنة يلتقي يسوع الناصري بيسوع النصارى في حديقة بين جبال لبنان، فيتحادثان طويلاً، وفي كل مرة ينصرف يسوع الناصري وهو يقول ليسوع النصارى: أخشى يا صاحبي أنّنا لن نتفق أبداً أبداً.

*

ليشبع الربّ المُتْخَمين!.

*

للرجل العظيم قلبان: قلب يتألم وقلب يتأمل.

*

إذا كذب الإنسان كذبة لا تؤذيك ولا تؤذي أحداً سواك فلماذا لا تقول في قلبك: إن بيت حقائقه لا يسع خيالَه ولذلك يتركه إلى فضاء أرحب؟.

*

وراء كلّ باب موصد سرّ مختوم بسبعة أختام.

*

الانتظار سنابك الزمن.

ماذا يهمك إذا كان الهمّ نافذة جديدة في الجدار الشرقي لبيتك؟.

*

قد تنسى الذي ضحكت معه، ولكنك لن تنسى الذي بكيت معه.

*

لا شك أن في الملح قوة مقدسة عجيبة. فهو كائن في دموعنا وفي البحر.

*

إن إلهنا في عطشه المبارك سيشربنا جميعاً: قطرة الندى والدمعة معاً.

*

ما أنت إلا ذرة من ذاتك الجبارة: فمٌ ينشد خبزاً، ويد عمياء تمسك قدحاً لفم عطشان.

*

إذا ارتفعت عن التعصّب لجنسك أو بلادك أو ذاتك ذراعاً واحدة صرت بالحقيقة مثل ربّك.

*

لو كنت في موضعك لما أنحيت باللائمة على البحر في وقت الجزْر.

*

السفينة جيدة والربان ماهر، ولكن التشويش في معدتك أنت.

*

إن ما نتوق إليه ونعجز عن الحصول عليه أحبّ إلى قلوبنا مما قد حصلنا عليه.

*

لو جلست على السحابة لما رأيت الحدّ الفاصل بين بلاد وبلاد ولا الحجر الفاصل بين حقل وحقل.

ولكن يا للأسف إنك لا تستطيع أن تجلس على السحابة!.

*

من سبعة قرون طارت سبع حمامات بيضاء من وادٍ عميق وحلّقت قاصدة قنة جبل عالٍ تغطيه الثلوج. فقال أحد الرجال السبعة الذين كانوا يراقبون الطيران: إنّني أرى نقطة سوداء على جناح الحمامة السابعة.

واليوم يتحدث الناس في ذلك الوادي بسبع حمامات سوداء طارت في قديم الزمان إلى قنة الجبل المغطاة بالثلوج.

*

جمعت كل أحزاني في الخريف ودفنتها في بستاني.

وعندما رجع نيسان وجاء الصيف ليتزوج الأرض، نبتت في بستاني أزهارٌ بالغة الجمال تختلف عن جميع الأزهار الأخرى.

فجاء جيراني لكي ينظروا أزهار بستاني، وقالوا لي جميعهم: إذا جاء الخريف وجاء معه وقت البذار أفلا تعطينا من بذار هذه الأزهار لكي نزرعها في بساتيننا؟.

*

التعاسة في أن أمدّ يدي فارغة للناس فلا يضع فيها أحدٌ شيئاً، أمّا القنوط ففي أن أمدّها ملآنة فلا يأخذ الناس منها شيئاً.

*

أتوق إلى الأبدية لأنّني سأجتمع فيها بقصائدي غير المنظومة، وصوري غير المرسومة.

*

الفنّ خطوة تخطوها الطبيعة نحو الأبدية.

*

عمل الفن ضباب مسكوب في صورة.

*

إن الأيدي التي تصنع أكاليل الشوك هي أفضل من الأيدي الكسولة.

*

إن أقدس دموعنا لمّا تعرف الطريق إلى مآقينا.

*

كل إنسان هو ابن لكلّ ملك ولكلّ عبد عاش قبله في العالم.

*

لو أنّ جدّ يسوع عرف ما كان مستتراً فيه أفما كان يقف وقفة الخشية والخشوع أمام نفسه؟.

*

هل كانت محبّة أُمّ يهوذا لابنها أقلّ من محبة مريم ليسوع؟.

*

لأخينا يسوع ثلاث عجائب لم تُكتَب بعد في الكتاب: الأولى أنّه كان إنساناً مثلي ومثلك. والثانية أنّه كان ذا كياسة وظرف. والثالثة معرفته أنّه غالب مع أنه غُلب.

أيها المصلوب، إنّك مصلوب على قلبي، والمسامير التي ثقبت يديك تخترق جدران قلبي.

وغداً عندما يمرّ غريب بهذه الجلجلة لن يظنّ أن دم اثنين نازف هنا، بل يظنّه دمَ واحدٍ فقط.

*

لعلك سمعت بالجبل المبارك، فهو أعلى جبل في العالم.

فلو بلغت قمّته لم يكُن لك سوى أمنية واحدة وهي أن تهبط نازلاً وتقيم مع النازلين في أعمق وادٍ.

ولذلك دُعي الجبل المبارك.

*

كلّ فكر حبسته عن الظهور بالكلام يجب أن أُطلقه بالأعمال.

يسوع ابن الانسان

تعريب
الارشمندريت انطونيوس بشير

يعقوب بن زبدى

ممالك العالم

في يوم من أيام الربيع وقف يسوع في ساحة المدينة في أورشليم وشرع يخاطب الجموع عن ملكوت السماء.

فاتهم الكتبة والفريسيين بإقامتهم فخاخاً وحفرهم حفراً في طريق الراغبين في الملكوت، موبخاً وزاجراً.

وكان بين الجموع رجال يدافعون عن الفريسيين والكتبة، ففكروا في أن يقبضوا على يسوع وعلينا جميعاً.

ولكنه تجنبهم وأعرض عنهم سائراً إلى البوابة الشمالية للمدينة.

وهناك نظر إلينا وقال: لم تأتِ ساعتي بعد، ان هنالك كثيراً سأقوله لكم وكثيراً سأفعله بينكم قبل أن أسلم نفسي للعالم.

ثم قال وفي صوته رنة الفرح والضحك: هلم بنا إلى الشمال لنلاقي الربيع، تعالوا معي إلى التلال، لأن الشتاء قد ولّى وثلوج لبنان تنحدر إلى الأودية لتترنّم مع الجداول.

قد قضت الحقول والكروم على النوم، واستيقظت لتحيي الشمس بتينها الأخضر وعنبها الرقيق.

وكان يمشي أمامنا ونحن نتبعه كل ذلك اليوم والذي تلاه.

وفي مساء اليوم الثالث وصلنا إلى قنة جبل حرمون، وهنالك وقف ينظر إلى مدن السهول.

فأشرق وجهه كأنّه الذهب المحترق، وبسط ذراعيه وقال لنا: انظروا إلى الأرض في ثوبها السندسي وتأملوا كيف طرزت السواقي أهدابه بالفضّة اللامعة.

حقاً إن الأرض جميلة، وكلّ ما عليها جميل.

ولكن وراء كل ما تنظرون ملكوت سأحكمه وأسود فيه، فإذا شئتم ورغبتم من قلوبكم فأنتم أيضاً ستذهبون إليه وتحكمون معي.

إن وجهي ووجوهكم لن تتقنّع فيه، ولن تحمل يدنا سيفاً ولا صولجاناً، وسيحبنا رعايانا وسيعيشون بسلام من غير أن يعرفوا خوفاً منّا.

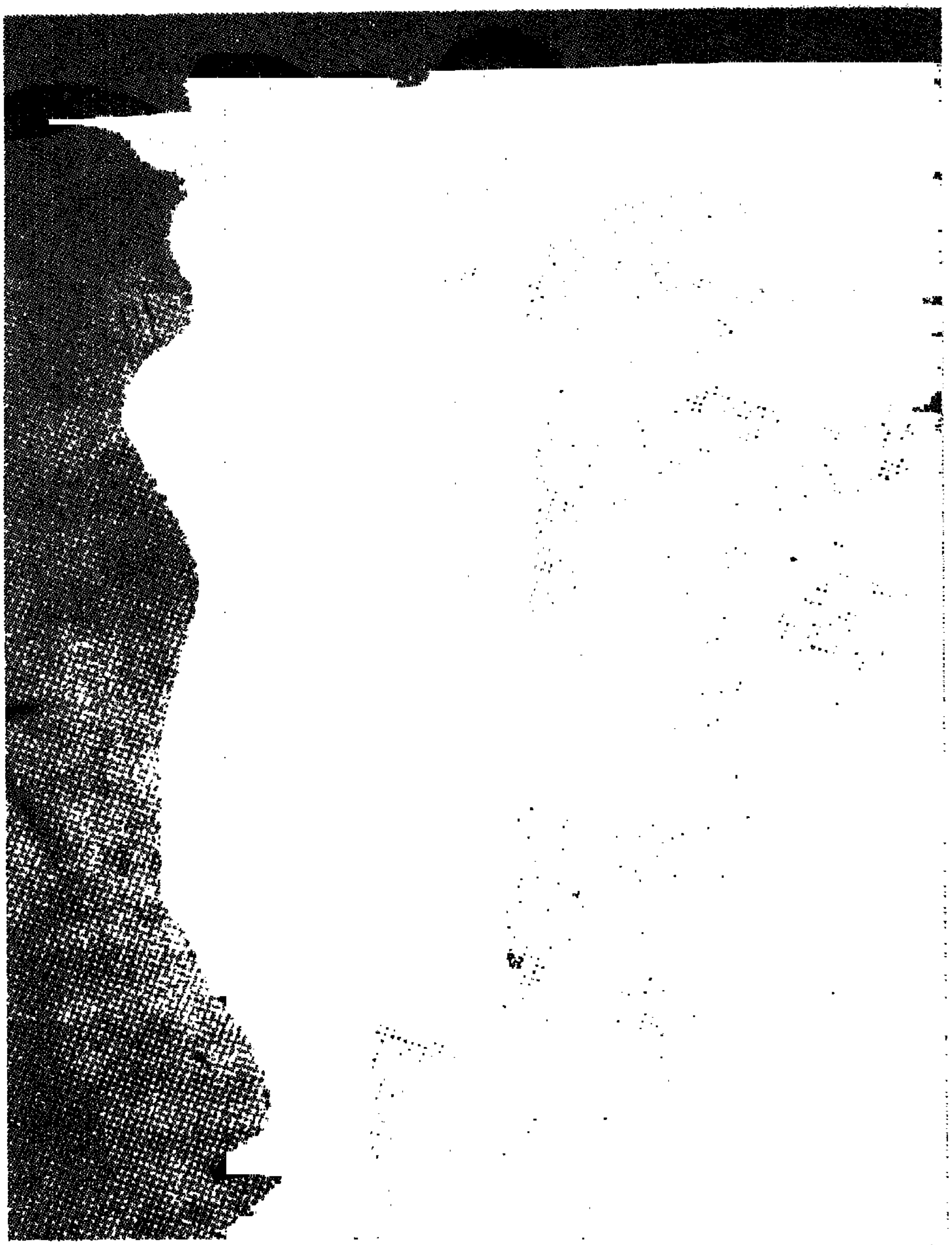
هكذا تكلم يسوع، أما أنا فإنّني كنت أعمى عن جميع ممالك الأرض وكل المدن ذات الأسوار والقلاع، ولم تكن في قلبي سوى رغبة واحدة: أن أتبع المعلم إلى ملكوته.

وفي تلك اللحظة تقدم يهوذا الاسخريوطي ودنا من يسوع وقال له: تأمل، إن ممالك العالم واسعة، ومدن داود وسليمان ستغلب الرومانيين. فإذا شئت أن تكون ملك اليهود فإنّنا نقف سيوفنا ورماحنا لتأييدك وفوزك على الغرباء.

ولما سمع يسوع هذا التفت إلى يهوذا وأمائر الغضب تملأ محياه، وخاطبه بصوت راعب كرعد السماء قائلاً له: تخلف عني يا شيطان! وهل يخطر لك أنّني جئت في مواكب السنين لأحكم ثلة من النمل يوماً واحداً؟

إن عرشي يفوق بصيرتك. وهل يمكن أن الذي يحوط الأرض بجناحيه ينشد ملجأ في عش مهجور منسي؟

أم هل يتشرف الحي ويرتفع بواسطة لابسي الأكفان؟



«المصلوب»

إنّ مملكتي ليست من هذه الأرض، ومجلسي لم يبنَ على جماجم أسلافكم.

فإذا كنتم تنشدون مملكة غير مملكة الروح فالأجدر بكم أن تتركوني ههنا، وتنحدروا إلى مغاور أمواتكم حيث يعقد ذوو الرؤوس المتوجة منذ القديم مجالسهم في قبورهم ليعطوا مجداً لعظام جدودكم وآبائكم.

كيف تجرؤ أن تجربني بتاج من نفاية المادة في حين أن جبهتي تنشد إمّا الثريا وإما أشواككم؟

إلا أنّني لولا حلم حلمهُ جنس منسي لما كنت آذن لشمسكم أن تشرق على صبري ولا لقمركم أن يبسط ظلي في طريقكم.

ولولا رغبة نقية اختلجت في قلب أم طاهرة لكنت جردت نفسي من أقمطتي وهربت راجعاً إلى الفضاء.

ولولا الكآبة التي في أعماقكم جميعاً لما كنت أقمتُ هنا للبكاء والنواح.

فمن أنت وما شأنك يا يهوذا الاسخريوطي؟ ولماذا تجربني؟

هل وزنتني في الميزان فوجدتني جديراً بأن أقود جيشاً من الأقزام، وأدير مراكب من لا شكل له ضد عدو لا يجتمع إلا في بغضكم ولا يهجم إلا في مخاوفكم وأوهامكم؟

كثير هو الدود المجتمع حول قدمي، ولكنني لن أصليه ضرباً. قد مللت الهزل والمجون وسئمت نفسي الشفقة على الدبابات التي تحسبني جباناً لأنّني لا أتخطر بين أسوارها وقلاعها الحصينة.

إن من دواعي الشفقة أن أكون محتاجاً إلى الرحمة حتى النهاية. وكم أودّ لو كنت قادراً على أن أدير خطواتي إلى عالم أكبر من هذا العالم حيث يعيش رجال أعظم من رجاله، ولكن كيف أفعل ذلك؟

إن كاهنكم وامبراطوركم يريدان دمي، وسينالان ضالتهما قبل سفري إلى ذلك العالم. إنّني لن أغير سير الشريعة ولن أقيّد الجهالة.

دع الجهل يستثمر ذاته حتى يملّ ذريته.

دع العميان يقودون العميان إلى الحفرة.

ودع الموتى يدفنون الموتى حتى تختنق الأرض بأثمارها المريرة.

إن مملكتي ليست من هذه الأرض. مملكتي ستكون حيث اجتمع اثنان أو ثلاثة منكم بمحبة، وباحترام لجمال الحياة، وبغبطةٍ وبهجة لتذكاري.

ثم التفت إلى يهوذا فجأة وقال: تخلّف عني أيها الرجل، إن ممالككم لن تكون في مملكتي.

* * *

وكان الشفق فنظر إلينا وقال: فلننزل من هنا، لأن الليل يدنو منا. فلنسر في النور ما دام لنا النور.

ثم انحدر من التلال ونحن نتبعه. وكان يهوذا يتبعنا من بعيد.

وعندما وصلنا إلى السهول خيم الظلام.

فقال له توما بن ثيوفانس: يا معلم قد دنا الظلام ونحن لا نرى الطريق، فإذا شئت سر بنا إلى أنوار تلك القرية لعلنا نجد طعاماً ومأوى.

أما يسوع فأجاب توما قائلاً: قد قدتكم إلى الأعالي عندما كنتم جياعاً، وها قد أنزلتكم إلى السهول وقد تضاعف جوعكم، ولكنني لا أقدر أن أقيم معكم في هذه الليلة، لأنّني أودّ أن أكون وحدي.

فتقدم سمعان بطرس وقال: يا معلم، لا تتركنا نمشي وحدنا في الظلام، بل ائذن لنا أن نقيم معك في هذه الطريق الضيقة، فالليل وأشباحه لن تطيل إقامتها معنا، لأن الصباح سيجدنا قريباً إذا كنت تتعطف وتظلّ معنا.

فأجاب يسوع وقال: في هذه الليلة ستكون للثعالب أوجارها ولطيور السماء أعشاشها، ولكن ابن الإنسان ليس له على الأرض موضع يسند إليه رأسه. وأنا بالحقيقة أريد الآن أن أكون وحدي، فإذا تقتم إليّ فإنّكم ستجدونني ثانية على البحيرة حيث وجدتكم.

* * *

فانصرفنا عنه وقلوبنا تتمزّق ألماً لأننا لم نشأ أن نفارقه بطوعنا.

وكنّا بين الهنيهة والأخرى نقف ونتلفت إلى الوراء لنراه في عظمة وحدته سائراً نحو الغرب.

أما الرجل الوحيد فينا الذي لم يلتفت إلى الوراء ليرى المعلم في كمال وحدته فهو يهوذا الاسخريوطي.

ومن تلك الساعة ساء خلق يهوذا وكثر اضطرابه وأظلمت عيناه بسحب كثيفة من الغدر والشرّ.

حنة أم مريم

ميلاد يسوع

وُلد يسوع حفيدي هنا في الناصرة في شهر كانون الأول. وفي الليلة التي ولد فيها يسوع زارنا رجال من المشرق، فقد كانوا أعجاماً جاؤوا إلى اسدريلون مع قوافل الميديين في طريقهم إلى مصر، وإذ لم يجدوا مكاناً في الفندق طلبوا ملجأ في بيتنا.

وقد رحبت بهم وقلت لهم: إن ابنتي ولدت صبياً في هذه الليلة، وأنتم ولا شكّ تغضون الطرف عن قصوري إذا لم أقم بواجب الضيافة كما يليق بكم.

فشكروني على قبولهم في منزلي. وبعد العشاء قالوا لي: نود أن نرى الطفل الجديد.

وكان ابن مريم جميل الصورة، وهي أيضاً كانت جميلة.

وعندما رأى الأعجام مريم وطفلها أخرجوا ذهباً وفضة من أكياسهم، ومرّاً ولباناً، وطرحوها كلها عند قدمي الطفل.

ثم سجدوا وصلوا بلغة غريبة لم نفهمها.

وعندما ذهبت بهم إلى غرفة النوم التي أعددتها لهم دخلوا بملء الاحترام مما رأوا وشاهدوا.

وعند الصباح تركونا وساروا في طريقهم إلى مصر.

ولكن قبل انصرافهم قالوا لي: إن هذا الطفل وإن كان ابن يوم واحد فإنّنا قد رأينا نور إلهنا في عينيه وابتسامة إلهنا على شفتيه.

فنرجو منكم أن تحرسوه بعنايتكم ليحرسكم بعنايته.

وإذ قالوا هذا ركبوا جمالهم ولم نرهم بعد ذلك.

أما مريم فلم يكن فرحها ببكرها ليضاهي شدة دهشتها وذهولها أمامه.

فكانت تحدّق إليه طويلاً ثم تدير وجهها إلى النافذة وتتأمل السماء البعيدة منذهلة كأنها ترى رؤى سماوية.

وكان بين قلبها وقلبي أودية بعيدة العمق.

وكان الصبي ينمو بالجسد والروح، وكان يختلف كل الاختلاف عن جميع أترابه، فكان محبّاً للوحدة، يصعب الحكم عليه، ولم أقدر أن أضع يدي عليه قطّ.

بيد أنّه كان محبوباً من جميع أهل الناصرة، وفي أعماق قلبي عرفت السبب في ذلك.

وكثيراً ما كان يأخذ طعامنا ويعطيه لعابري السبيل. وكلما أعطيته شيئاً من الحلوى كان يعطيه للأولاد رفقائه قبل أن يذوقه بفمه.



«مريم أم يسوع»

وكان يتسلق أشجار البستان ويقطف أثمارها ليحملها إلى غيره ممن لا أثمار في بساتينهم.

وكثيراً ما رأيته بعيني وهو يتسابق مع الأولاد، وإذ يرى أنّه أسرع خطى منهم، يتباطأ في سيره حتى يسبقوه إلى المحجة قبل أن يصل هو إليها.

وكان في بعض الليالي عندما أقوده إلى فراشه يقول لي: أخبري أمّي وغيرها أن جسدي فقط ينام، ولكن فكري سيظلّ رفيقاً لهم حتى يأتي فكرهم إلى صباحي.

وغير هذا كثير من الآيات العجيبة التي كان يقولها لي في صبوته، ولكن ضعف ذاكرتي في شيخوختي يحول دون تذكرها.

واليوم يقولون لي إنني لن أراه فيما بعد، ولكن كيف أستطيع أن أصدق ما يقولون؟

إنني ما زلت أسمع ضحكه، وصوت وقع قدميه على أرض الدار لا يفارق أذني، وكلما قبلت وجنة ابنتي أشعر بعطر قبلاته يفوح في قلبي، وأحسّ بجسده الجميل يتموج بين ذراعيّ.

ولكن، أليس من الغرابة العجيبة أن ابنتي لا تتكلم عن ابنها البكر أمامي أبداً؟

وكثيراً ما يخطر لي أن شوقي إليه أعظم من شوقها، لأنّها تقف شاخصة أمام نور النهار كأنها تمثال من النحاس الصامت في حين أن قلبي يذوب في صدري ويجري منسكباً كالجدول، ومن يدري، فلعلها تعلم ما لا أعلم. ويا ليتها تحدّثني بما تعرف من الأسرار الغامضة عليّ.

عساف الملقب بخطيب صور

خطاب يسوع

ماذا أقول عن خطابه؟ لا شكّ أن قوة خفية في شخصيّته كانت تسلح كلماته بسحر عجيب فتأخذ بمجامع قلوب سامعيه، لأنّه كان جميل الصورة بهيّ المحيّا.

وكان الرجال والنساء يحدقون إلى صورته الكاملة أكثر مما يصغون إلى مباحثه. ولكنه كثيراً ما كان يتكلم بقوة روح عجيبة، وتلك الروح كان لها السلطان الكامل على كل من سمعه.

قد سمعت في حداثتي خطباء روما وأثينا والاسكندرية، ولكن الناصري النذير كان يختلف كل الاختلاف عن جميعهم.

حصر أولئك همهم بترتيب الكلام بصورة تسحر الآذان، ولكنك إذ تسمع الناصري تشعر بأن قلبك يفارقك في الحال ويسير هائماً في أصقاع لم يزرها أحد بعد.

فهو يقص عليك قصة أو يخاطبك بمثل، ولكن سورية لم تسمع بمثلِ قصصهِ وأمثاله في كل تاريخها، لأنّه كان يحوك أمثاله وقصصه من خيوطَ الفصول كما يحوك الزمان نسيجه من خيوط السنين والأجيال.

وإليك مثالاً من طريقته في بدء قصصه: خرج الزارع ليزرع زرعه.

أو كان لرجل غني كروم عديدة.

أو راعٍ عدَّ خرافه عند المساء فوجد خروفاً ناقصاً...

ومثل هذه الكلمات تحمل سامعيه إلى ذواتهم الساذجة وإلى أيامهم القديمة الهادئة.

كلنا عند التحقيق زارع. وجميعنا نعشق الكرمة. وفي مراعي ذاكرتنا يوجد راع وقطيع وخروف ضال.

وهنالك أيضاً محراث ومعصرة وبيدر.

أجل، قد عرف الناصري ينبوع ذاتنا القديمة وخبر الخيوط التي حاك القدير نسيجنا منها.

إن خطباء اليونان والرومان خاطبوا الناس عن الحياة في نظر الفكر، ولكن الناصري تكلم عن حنين كائن في أعماق القلب.

أولئك رأوا الحياة بعيون قد تكون أنقى قليلاً من عينيك وعينيّ، أما هو فقد رأى الحياة بنور الله.

وكثيراً ما أفكر في أنّه خاطب الجموع كما يخاطب الجبل السهل الوسيع. وكان في خطابه قوة لم تصل إليها أفكار أثينا وروما.

مريم المجدلية
اجتماعها بيسوع لأول مرّة

رأيته لأول مرة في شهر حزيران. كان يمشي بين الزروع عندما مررت مع جواريّ، وكان وحيداً.

وكان انتظام وقع خطواته في الأرض مختلفاً عن جميع الرجال، وحركة جسمه لم أرَ مثلها قطّ في حياتي.

إن الرجال لا يمشون على الأرض كما مشى هو. وإلى هذه الساعة لا أدري إذا كان يسير بسرعة أو ببطء.

وكانت جواري يشرن إليه بأصابعهن ويتهامسن فيما بينهن والحياء يخيم فوقهنّ. أما أنا فوقفت لحظة ورفعت يدي لأحييه، ولكنه لم يلتفت، ولم ينظر إليّ فأبغضته جداً، وشعرت بأن الدم يجمد في عروقي من شدة الغيظ، وفارقتني حرارة جسدي حتى صرت باردة كأنما أنا في عاصفة من الثلج هوجاء، وكنت أرتجف بكليتي.

وفي تلك الليلة رأيته في منامي، وقد أخبروني فيما بعد أنني كنت أصرخ

صراخاً شديداً في نومي، ولم أعرف طعم الراحة في فراشي في تلك الليلة..

ثم رأيته ثانية في شهر آب، وكان ذلك من خلال نافذتي. فكان جالساً في ظلّ سروة أمام بستاني، وكان هادئاً كأنه تمثال منحوت من الحجارة، كالأنصاب التي رأيتها قبلاً في إنطاكية وغيرها من مدن الشمال.

في تلك الدقيقة جاءت خادمتي المصرية وقالت لي: إن ذلك الرجل هو هنا ثانية، وهو جالس هنالك أمام بستانك.

فحدقت إليه طويلاً. فارتعشت نفسي في أعماقي لأنه كان جميلاً.

كان جسمه فريداً. وقد تناسبت أعضاؤه. حتى خيل إليّ أن كلاًّ منها مسحور بحب رفيقه.

وفي الحال لبست أفخر أثوابي الدمشقية، وتركت بيتي وسرت إليه.

هل دفعتني وحدتي أم طيب شذاه حملني إليه؟ وهل مجاعة عيني الراغبة في الجمال، أم جماله الذي كان يفتش عن النور في عيني؟.

إنّني حتى الساعة لا أعلم.

مشيت إليه بأثوابي المعطرة وحذائي الذهبي، الذي أعطانيه القائد الروماني. نعم ذلك الحذاء بعينه! وعندما وصلت إليه قلت له: أنعمت صباحاً.

فقال: نعمت صباحاً يا ميريام.

ثم نظر إليّ، فرأتْ فيَّ عيناه السوداوان ما لم يره رجل قبله، فشعرت فجأة كأنني عارية وخجلت في ذاتي.

بيد أنّه لم يقل سوى: نعمت صباحاً.

حينئذ قلت له: أفلا تريد أن تدخل إلى بيتي؟.

فقال: أما أنا الآن في بيتك؟.

إنني لم أعلم ما عناه آنئذ، ولكنني أعلم الآن.

فقلت له: أفلا تريد أن تشرب الخمر وتكسر الخبز معي؟



«مريم المجدلية»

فأجاب: نعم يا ميريام، ولكن ليس الآن.

ليس الآن. ليس الآن، هكذا قال لي، وكان صوت البحر في هاتين الكلمتين، وصوت الريح والأشجارِ، وعندما قالهما لي تكلمت الحياة مع الموت.

فاذكر يا صاح ولا تنس أنني كنت ميتة. فقد كنت امرأة طلقت نفسها. وكنت أعَيش بعيدة عن هذه الذات التي تراها الآن. فقد اختصصت بجميع الرجال، ولم أختصّ بأحد، فكانوا يدعونني عاهرة، وامرأة فيها سبعة شياطين. كنت ملعونةً من الجميع ومحسودة من الجميع.

ولكن عندما نظر فجر عينيه إلى عينيّ غابت جميع كواكب ليلي وصرتُ ميريام، ميريام فقط، امرأة ضاعت عن الأرض التي عرفتها ووجدت نفسها في أماكن جديدة.

ثم قلت له ثانية: هلم إلى بيتي وشاركني بخمرتي وخبزي.
فقال: لماذا تلحين على أن أكون ضيفك؟.
فقلت: أتوسل إليك أن تدخل إلى بيتي. وكان كل ما بي من الأرض وكل ما بي من السماء يناجيه ويدعوه ويطلبه.

حينئذ نظر إليّ، فأشرقت ظهيرة عينيه على روحي، وقال: إن لك كثيرين من المحبين، بيد أنني أنا وحدي أحبك، فإن بقية الرجال يحبون أنفسهم في قربك، أما أنا فأحبك في نفسك، إن بقية الرجال ينظرون فيك إلى جمال يذوي قبل انتهاء سنيهم، أما الجمال الذي أراه أنا فيك فإنّه لن يزول، وفي خريف أيامك لن يخاف ذلك الجمال أن ينظر إلى ذاته في مرآة، ولن يقدر أحد أن يعيبه.

أنا وحدي أحب ما لا يُرى فيك.

ثــم قال بصوت واطئ: امضي في طريقك الآن وإذا كانت هذه السروة لك ولا تريدين أن أجلس في ظلها، فأنا أيضاً أسير في طريقي.

فتوسلت إليه بدموع قائلة: يا معلم؛ ادخل إلى بيتي. إن لديّ بخوراً أحرقه أمامك، وطستاً من الفضة لغسل قدميك. أنت غريب ولكنك لست بالغريب، لذلك أتضرع إليك أن تدخل إلى بيتي.

في تلك اللحظة وقف ونظر إليّ كما تنظر الفصول إلى الحقل وتبسم وقال ثانية: إن جميع الرجال يحبونك لأجل ذواتهم أما أنا فأحبك لأجل ذاتك.

قال هذا وسار في طريقه.

* * *

ولكن ما من رجل مشى مشيته قط. هل ولدت في بستاني نسمة علوية ثم سارت إلى الشرق؟ أم هي عاصفة جاءت تزعزع كل شيء لترده إلى أسسه الأصلية؟.

إنّني لم أعلم. ولكن في ذلك اليوم ذبح غروب عينيه الوحش الذي كان فيّ، فصرتُ امرأةً، صرتُ ميريام، مريم المجدلية.

فيليمون الصيدلي اليوناني
يسوع أمير الأطباء

كان الناصري سيد الأطباء في شعبه. وما من رجل غيره عرف ما عرفه هو عن أجسادنا وعناصرها ومحتوياتها.

فقد أبرأ من أمراض غريبة لم يعرفها اليونانيون ولا المصريون. يقولون إنّه أقام الأموات من القبور، وإذا كان هذا حقيقياً أم لا فأنه يظهر قوته، لأن أعاظم الأمور لا يمكن أن تنسبَ إلاّ لمن يستطيع أن يقوم بالأمور العظيمة.

ويقولون أيضاً إن يسوع زار الهند وبلاد ما بين النهرين. وإن الكهنة الذين كانوا في تلك البلاد أعلنوا له المعرفة المخفية في أعماقنا.

ولكن من يدري، فقد تكون الآلهة منحته تلك المعرفة مباشرة وليس بواسطة الكهنة. لأن الذي تخفيه الآلهة عن جميع الناس جيلاً كاملاً كثيراً ما تعلنه لرجل واحد في لحظة واحدة، وأبولو إذ وضع يده على قلب الجهول الوضيع جعله حكيماً رفيعاً.

إن أبواباً كثيرة قد فتحت لأبناء صور وتيبت؛ وهنالك كثير من الأبواب التي كانت موصدة ومختومة فانفتحت أمام هذا الرجل. فقد دخل إلى هيكل النفس، الذي هو الجسد، ورأى الأرواح الشريرة التي تتآمر على قوتنا وبأسنا، كما رأى الأرواح الصالحة التي تغزل خيوطها.

وفي عقيدتي أنّه كان يشفي المرضى على سبيل المقاومة والمعارضة، ولكن الطريقة التي اتخذها لنفسه لم تكن معلومة لدى فلاسفتنا، فكان يدهش الحمى بملامسته الجليدية فترتدّ هاربة، ويذهل الأعضاء اليابسة بقوة هدوئه العجيب فتطيعه وتعود إلى سلامتها.

أجل، قد عرف الناصري العصارة الزائلة في قشرة شجرتنا المتشققة ـ ولكن كيف اتصل بتلك العصارة بأصابعه؟ ذلك ما لا أعرفه! وعرف الفولاذ الصحيح تحت الصدإ ـ ولكن ما من رجل يقدر أن يحدثنا كيف حرّر السيف من صدإه وأعاد إليه بريقه.

كثيراً ما يخطر لي أنه كان يصغي إلى أعمق الآلام التي في جميع الكائنات الحية أمام الشمس. فيعمد في الحال إلى رفعها ومساعدتها. ليس بمعرفته فقط بل بإظهار طريق قوتها لتنهض من آلامها صحيحة سالمة.

بيد أنّه لم يعبأ قط بمقدرته كطبيب. بل كان جلّ همه معالجة المواضيع الدينية والسياسية في هذه البلاد، وأنا متألم لأجل هذا، لأننا قبل جميع الأشياء يجب أن نكون أصحاء الأجساد.

ولكن هؤلاء السوريين إذا أصابهم مرض لا يفتشون عن الدواء بل ينشدون المباحثة والمجادلة. ومصيبتهم الكبرى أن أعظم أطبائهم أعرض عن فنّه المفيد واختار أن يكون خطيباً في ساحة المدينة.

سمعان بطرس
دعوته مع أخيه

كنت على شاطئ البحيرة عندما رأيت يسوع، ربي ومعلمي، لأول مرّة.

كان أخي اندراوس معي، وكنّا نلقي شبكتنا في المياه.

وكانت الأمواج طاغية هائجة ولذلك لم نمسك إلا قليلاً من السمك وكان الحزن يملأ قلبينا.

فوقف يسوع بقربنا فجأة كأنه تكوّن في تلك اللحظة لأنّنا لم نرَه يدنو منّا.

ثم دعانا كلاًّ باسمه وقال: إذا تبعتماني فإني أقودكما إلى مدخل في الشاطئ حافل بالأسماك.

وإذ نظرت إلى وجهه سقطت الشبكة من يديّ، لأن نوراً أشرق في أعماقي فعرفته.

فتكلم أخي اندراوس وقال له: نحن نعرف جميع مداخل هذه الشواطئ ونعرف أيضاً أن الأسماك في مثل هذا اليوم الكثير الرياح تنشد أعماقاً لا تصل إليها شباكنا.

فأجاب يسوع وقال: اتبعاني إذن إلى شواطئ البحر الأعظم فأجعلكما صيادي الناس. ولن تكون شباككما فارغة.

فتركنا سفينتنا وشباكنا وتبعناه.

أما أنا فقد تبعته مسوقاً بقوة غير منظورة كانت تسير معه جنباً إلى جنب.

كنت أمشي إلى جانبه منقطع النفس والعجب آخذ منّي كل مأخذ، وكان أخي اندراوس وراءنا متحيراً منذهلاً.

وفيما نحن نمشي على الرمل تشجعت وقلت له: يا سيد؛ أنا وأخي سنتبعك، وحيث سرت فنحن نسير معك، ولكن إذا حسن لديك أن تذهب

معنا إلى منزلنا في هذه الليلة فإنّنا نتبارك بزيارتك. إن بيتنا ليس كبيراً وسقفنا ليس عالياً، وستأكل طعاماً حقيراً فيه. بيد أنك إذا دخلت إلى كوخنا فإنه يصير قصراً في عقيدتنا، وإذا كسرت الخبز معنا فإن أمراء الأرض يحسدوننا على جلوسنا في حضرتك.

فقال لي: نعم سأكون ضيفكم في هذه الليلة.

فطار قلبي فرحاً من جوابه. وهكذا سرنا وراءه صامتين حتى وصلنا إلى البيت.

وعندما وقفنا على عتبة الباب قال يسوع: سلام لهذا البيت والساكنين فيه.

ثم دخل ونحن نتبعه.

وهنالك رحّبت به زوجتي وحماتي وابنتي وخررن ساجدات أمامه، وقبلن أطراف أكمامه.

كنّ متحيرات كيف أنّه وهو المختار الحبيب يأتي ليكون ضيفنا، لأنهن كنّ رأينه قبلاً في نهر الأردن عندما أعلنه يوحنا للشعب.

وفي الحال شرعت زوجتي وحماتي في تهيئة العشاء.

أما أخي اندراوس فكان حيياً بطبيعته، ولكن إيمانه بيسوع كان أعمق من إيماني.

وأما ابنتي التي كانت آنئذ في الثانية عشرة من العمر فإنها وقفت إلى جانبه وأمسكت طرف ثوبه خوفاً منها أن يتركنا ويسير في الليل ثانية، فكانت متعلقة به كأنها خروف ضال وجد راعيه.

وعندما أعد العشاء جلسنا إلى المائدة فكسر الخبز وسكب الخمر، والتفت إلينا وقال: أيها الأصدقاء باركوني الآن وشاركوني في هذا الطعام كما أن الأب قد باركنا بإعطائه لنا.

قال هذه الكلمات قبل أن يتناول كسرة واحدة، لأنه أراد أن يحافظ على العادة القديمة: إن الضيف المحترم يصير رب المنزل.

وإذ جلسنا معه حول المائدة شعرنا في أعماقنا بأننا جالسون إلى وليمة الملك العظيم.

وكانت ابنتي بترونيلة، الصغيرة الساذجة. تتأمل وجهه وتتبع بنظراتها حركات يديه، وكانت سحابة من الدموع تغشي عينيها.

وعندما ترك المائدة تبعناه وجلسنا حواليه تحت مظلة الدوالي.

كان يخاطبنا ونحن نصغي إليه وقلوبنا تخفق في أعماقنا كالعصافير.

فقد تكلم عن المجيء الثاني للإنسان، وعن فتح أبواب السماء، وعن الملائكة النازلين لحمل السلام والمسرة لجميع الناس، وعن الملائكة الصاعدين لحمل تشوقات الناس للرب الإله.

في تلك الدقيقة نظر إلى عيني وحدق إلى أعماق قلبي وقال: قد اخترتك أنت وأخاك، فيجب أن تذهبا معي. قد اشتغلتما وتعبتما وها أنا أريحكما. احملا نيري وتعلما مني. لأن قلبي ممتلئ بالسلام، وستجد فيه نفسكما موطنها وكمال حاجاتها.

وعندما قال هذا وقفت أنا وأخي أمامه وقلتُ له: يا معلم سنتبعك إلى أقاصي الأرض. ولو كان حملنا ثقيلاً كالجبال فإنا سنحمله في طريقنا إلى السماء، ونقبل كل هذا برضى وقناعة.

ثم قال له أخي اندراوس: يا معلم نودّ أن نكون خيوطاً بين يديك ونولك، فلك إذا شئت أن تحوك منا قماشاً، لأننا نعلم أننا نكون في ثوب الكلي الرفعة.

فرفعت زوجتي رأسها وقالت والدموع تملأ وجنتيها من شدة الفرح: مبارك أنت الآتي باسم الرب! طوبَى للبطن الذي حملك والشدي الذي أرضعك!.

كانت ابنتي جالسة عند قدميه تضمهما إلى صدرها.

أما حماتي التي كانت جالسة إلى عتبة الباب فإنّها لم تقل كلمة قط، ولكنها كانت تبكي بهدوء حتى امتلأ وشاحها من الدموع.

فمشى يسوع إليها ورفع رأسها وحدق إلى عينيها وقال لها: أنت أم جميع هؤلاء الأصحاب، إنك تبكين الآن من الفرح ولذلك سأحفظ دموعك في ذاكرتي.

حينئذ طلع البدر الجميل علينا فنظر إليه يسوع هنيهة وقال لنا: قد تأخرنا في سمرنا، فاذهبوا إلى فراشكم وليرافق الربّ راحتكم، أما أنا فأظل في هذه المظلة حتى الفجر. قد ألقيت شبكتي في هذا اليوم فاصطدت رجلين، وأنا راضٍ عن صيدي، فاستودعكم الآن وأرجو لكم ليلة سعيدة.

فقالت له حماتي: قد أعددنا لك فراشاً في المنزل فأتوسل إليك أن تدخل وتستريح.

فأجابها قائلاً: إنني حقاً أريد الراحة. ولكن ليس تحت السقوف، فاسمحوا لي أن أنام الليلة تحت مظلة الدوالي والنجوم.

فأسرعت وأخرجت الفراش والوسادة واللحاف، فنظر إليها مبتسماً وقال: ها أنا اتكئ على فراش قد أُعِدّ مرّتين!.

حينئذ تركناه ودخلنا إلى البيت، وكانت ابنتي آخر من تركه ودخل وكانت عيناها تنظران إليه حتى أغلقت الباب.

هكذا عرفت ربي ومعلمي لأول مرة.

ومع أنه مرّ على هذا أعوام عديدة فإنني أذكره كأنما حدث لي في هذا اليوم.

قيافا رئيس الكهنة
قد قتلناه بضمير نقي

يجدر بنا إذ نتكلم عن ذلك الرجل يسوع وعن موته أن نذكر حقيقتين بارزتين: سلامة التوراة في أيدينا، وسلامة المملكة في أيدي الرومانيين.

ولكن ذلك الرجل كان خطراً علينا وعلى رومة، فقد سمم أفكار الشعب البسيط وقاد بسحر عجيب إلى الثورة علينا وعلى القيصر.

إن عبيدي أنفسهم، الرجال منهم والنساء، بعد أن سمعوه يخطب في ساحة المدينة، امتلأوا بروح التمرد والعصيان. وكثيرون منهم تركوا منزلي ورجعوا إلى الصحراء التي قدموا منها.

ولا تنسَ أيها القارئ أن التوراة هي أساس قوتنا وقبة نصرنا. وما من رجل يقدر أن يهلكنا طالما أن هذ القوة بأيدينا لنغلّ يده. وما من رجل يستطيع أن يخرب أورشليم وجدرانها قائمة على الحجر القديم الذي وضعه دواد بيده.

فإذا كان لزرع إبراهيم أن يعيش وينمو فإن هذه الأرض يجب أن تظلّ نقية.

وذلك الرجل يسوع كان يريد أن ينجسها بالمعصية، لذلك قتلناه بضمير نقي بصير بالعواقب، وسنقتل كل من يجرؤ أن ينجس شريعة موسى أو يضلل ميراثنا المقدس.

نحن وبيلاطس البنطي عرفنا الخطر الذي كان في ذلك الرجل، ولذلك رأينا من الحكمة أن نضع حداً لحياته.

وأنا باذل قصاراي لأنزل بأتباعه وبتعاليمه نفس ما أنزلته به.

إذا كانت اليهودية تود أن تعيش، فإن كل من يقاومها يجب أن يصير إلى التراب. وقبل أن تموت اليهودية سأغطي رأسي الأبيض بالرماد كما فعل صموئيل النبي، وسأمزق هذه الحلة المقدسة التي كانت لهرون، وألبس المسوح حتى أسير من هنا إلى الأبد.

يونا امرأة حافظ هيرودس
في الأولاد

لم يتزوج يسوع قط ولكنه كان صديقاً للنساء، فقد عرفهن كما يجب أن يعرفهن الجميع، في الصداقة النقية.

وكان يحب الأولاد كما يجب أن يحبهم الناس بالإيمان والفهم.

وكان في نور عينيه حنان الأب ومحبة الشقيق ولهفة الابن.

فهو يحمل صبياً صغيراً ويضعه على ركبتيه ويقول: بمثل هذا قوتكم وحريتكم، وبمثل هذا يتكون ملكوت الروح.

يقولون إن يسوع لم يعبأ بشريعة موسى، وإنه كان كثير الصفح عن الزواني في أورشليم والبلاد المحيطة بها.

وأنا نفسي كنت في ذلك الوقت زانية في نظر الناس، لأنني أحببت رجلاً لم يكن زوجاً لي، وكان صدوقياً.

وفي أحد الأيام جاء الصدوقيون إلى بيتي وكان عشيقي معي، فقبضوا عليّ وحبسوني. أما عشيقي فهرب وتركني.

ثم قادوني إلى ساحة المدينة حيث كان يسوع يعلم الجموع.

وكانوا يرغبون في تقديمي إليه ليجربوهَ ويصطادوه بفخاخهم.

ولكن يسوع لم يحكم عليّ. فقد ألبس العار لمن جاؤوا بي إليه ليلبسوني ثوب العار، وأوسعهم لوماً وتوبيخاً.

أما أنا فإنّه أطلقني بسلام.

وبعد ذلك صارت جميع أثمار الحياة التي لا طعم لها لذيذة في فمي، والورود التي لا عطر لها صارت منبعاً للعطر الجميل في منخري. فصرت امرأة لا تعرف الذكرى الفاسدة، أجل، صرت حرة، مرتفعة الرأس، كسائر بني البشر.

رفقة

عروس قانا

حدث هذا قبل أن عرفه الشعب.

كنت في بستان أمي أتعهد الورود عندما وقف يسوع أمام بوابتنا.

فقال: أنا عطشان، أتتفضلين عليّ بقليل من ماء بئركم؟

فركضت وأحضرت الكأس الفضية وملأتها ماء وسكبت فيها بضع نقط من قارورة الياسمين.

فشرب وارتوى وكان مسروراً.

ثم نظر في عيني وقال لي: فلتحلّ عليك بركتي.

وعندما قال هذا شعرت بأن ريحاً علوية تسير في جسدي، ففارقني ما تولاني من الحياء عند رؤيته فقلت: يا سيدي، إنني مخطوبة لرجل من قانا الجليل، وسأزف إليه في اليوم الرابع من الأسبوع المقبل. أفلا تريد أن تحضر إلى عرسي فتبارك زواجي بحضورك؟

فأجاب وقال: سأحضر يا ابنتي.

وما أنسى قوله لي: يا ابنتي؟ في حين أنه كان شاباً بعد، وأنا كنت في نحو العشرين من العمر.

ثم سار في طريقه. أما أنا فبقيت واقفة أمام بوابة البستان حتى دعتني أمي إلى البيت.

وفي اليوم الرابع من الأسبوع التالي أخذني أهلي إلى بيت عريسي وزفوني إليه.

وجاء يسوع تصحبه أمه وأخوه يعقوب.

وكانوا جالسين حول مائدة العرس مع ضيوفنا؛ ورفيقات صباي ينشدن لي أغاني الأعراس التي نظمها سليمان الملك، وكان يسوع يأكل من طعامنا

ويشرب من خمرتنا ويتبسم لجميع الحاضرين. وكان يصغي إلى جميع أناشيد المحب الذي يحضر محبوبته إلى خيمته، وأغاني الكرام الشاب الذي أحب ابنة رب الكرم وقادها إلى بيت أمه، والأمير الذي رأى الفتاة الفقيرة فحملها إلى مملكته وتوجها بتاج آبائه.

ويلوح لي أنه كان يصغي إلى أناشيد أخرى غير هذه لم أقدر أنا أن أسمعها.

وعند غروب الشمس جاء والد العريس إلى أم يسوع وأسر إليها قائلاً: لم يبق عندنا خمر لضيوفنا، ويوم العرس لم ينته بعد. فسمع يسوع ما أسرّ به الرجل إلى أمه وقال: إن ساقي الخمرة يعرف أنّه لا يزال عندكم خمر كثير.

وهكذا كان بالحقيقة. فإن الخمر وجدت بكثرة طيلة إقامة الضيوف في منزلنا.

حينئذ شرع يسوع يخاطبنا، فكان يحدثنا بعجائب الأرض والسماء، ويشرح لنا عن ورود السماء التي تزهر عندما يمد الليل بساطه على الأرض، وعن ورود الأرض التي تزهر عندما تختفي الكواكب في نور النهار.

وكان يقص علينا قصصاً وأمثالاً فيأخذ سحر صوته بمجامع قلوبنا، فنحدق إلى عينيه كأننا نرى رؤى سماوية متناسين الكأس والصحفة أمامنا.

وكنت أشعر وأنا أصغي إليه أنني في أرض قصية مجهولة.

وبعد هنيهة قال أحد الضيوف لوالد عريسي: قد أبقيت الخمر الجيدة إلى آخر الوليمة، وغيرك من المضيفين لا يفعلون هذا.

وجميع الذين كانوا في البيت آمنوا أن يسوع اجترح أعجوبة وأنه يجب أن تكون لهم خمرة في آخر وليمة العرس أطيب من الخمرة التي تقدم في بداءته.

أنا أيضاً ظننت أن يسوع سكب الخمرة الجيدة، ولكنني لم أتعجب، لأنني كنت قد أصغيت إلى كثير من العجائب في صوته.

وقد ظلّ صوته بعد ذلك قريباً من قلبي حتى ولدت ابني البكر.

وحتى اليوم يتحدث الناس في قريتنا وفي القرى المجاورة بكلام ضيفنا العزيز. وهم يقولون أبداً: إن روح يسوع الناصري هي أفضل خمرة وأعتقها.

فيلسوف فارسي في دمشق

الآلهة قديماً وحديثاً

إنني لا أقدر أن أنبئ بمصير هذا الرجل، ولا أستطيع أن أتنبأ بما سيحدث لتلاميذه.

فإن البذرة المختفية في قلب التفاحة هي شجرة غير منظورة، ولكن إذا سقطت تلك البذرة على صخرة فإنها ولا شك صائرة إلى لا شيء.

ولكنني أقول هذا: إن إله إسرائيل العتيق الأيام قاسٍ لا يعرف الرحمة، ولذلك يجب أن يكون لإسرائيل إله جديد: إله لطيف رحوم ينظر إليهم باللين والشفقة، إله ينحدر مع أشعة الشمس ويسير على طريق حدودهم الضيقة، عوضاً عن إلههم القديم الجالس أبداً في كرسي القضاء يزن أغلاطهم ويقيس هفواتهم.

يجب أن يكون لإسرائيل إله لا يعرف الحسد سبيلاً إلى قلبه، ولا يحتفظ في ذاكرته بالكثير من سيئاتهم، إله لا ينتقم منهم بافتقاد ذنوب الآباء في الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع.

فالإنسان في سورية كأخيه الإنسان في كل مكان، فهو ينظر إلى مرآة فهمه وهنالك يجد إلهه. وهو يصنع الآلهة على صورته ومثاله، ويعبد كل ما تنعكس فيه صورته.

إلا أن الإنسان بالحقيقة يصلي إلى حنينه العميق لينهض ويكمل مجموع رغباته.

ليس في الوجود شيء أعمق من نفس الإنسان، والنفس هي العمق الذي ينشد ذاته، لأنّه ليس ثمة صوت آخر ليتكلم ولا آذان أخرى لتسمع.

ونحن أنفسنا في بلاد فارس ننظر إلى وجوهنا في قرص الشمس ونرى أجسادنا راقصة في النار التي نشعلها على مذابحنا.

وفي عقيدتي أن إله يسوع، الذي دعاه أباً، لن يكون غريباً بين شعب هذا المعلم، ولذلك سيحقق رغباتهم.

إن آلهة مصر قد ألقوا عنهم أحمال الحجارة وهربوا إلى برية النوبة ليكونوا أحراراً بين الذين ما برحوا أحراراً من المعرفة.

وآلهة اليونان ورومة تسير شمسهم إلى الغروب، فقد كانوا كثيري الشبه بالناس ولذلك لم يقدروا أن يعيشوا في تأمّلات الناس. والغابات التي نشأ فيها سحرهم قطعتها فؤوس الاثينائيين والاسكندريين.

وفي هذه الأرض نرى الأماكن الرفيعة تتحول رفعتها إلى ضعة متشرعي بيروت ونسّاك انطاكية.

فلا ترى غير الشيوخ والمتعبين من النساء والرجال يسيرون إلى هياكل آبائهم وأجدادهم، ولا ينشد بداءة الطريق إلا الذين ضلوا في آخرها.

ولكن هذا الرجل يسوع، هذا الناصري العجيب، قد تكلم عن إله يسع في ملئه جميع النفوس، وقد تعاظمت معرفته حتى سمت عن العقوبة، وتسامت محبته حتى ترفّعت عن ذكر خطايا خلائقه، وإله الناصري هذا سيجوز بعتبة جميع أبناء الأرض، وسيجلس إلى مواقدهم، وسيكون لهم بركة داخل جدرانهم ونوراً في طريقهم.

بيد أنّ لي إلهاً هو إله زورستر، الإله الذي هو شمس في السماء، ونارٌ على الأرض، ونورٌ في حضن الإنسان، وأنا راض به، ولا حاجة بي إلى إله سواه.

داود أحد أتباعه

يسوع العملي

إنّني لم أعرف معنى خطبه وأمثاله حتى فارقنا. نعم أنا لم أفهم شيئاً من أقواله حتى اتخذت كلماته أشكالاً حية أمام عيني وكونت ذواتها بأجساد تمشي في مواكب أيامي.

وإليكم ما حدث لي: كنت في إحدى الليالي جالساً في بيتي أتأمل وأتذكّر كلماته وأعماله لأدوّنها في كتاب، فدخل ثلاثة لصوص إلى بيتي، ومع أنّني عرفت أنهم جاؤوا ليسرقوا ما عندي فإنّني كنت مأخوذاً بالإيمان بما كنت أفكر فيه إلى هذه الدرجة حتى إنّني لم أقاومهم بالسيف ولا سألتهم ماذا تفعلون ههنا!

ولكني واظبت على كتابة مذكراتي عن المعلم.

وعندما انصرف اللصوص ذكرت قوله: من طلب رداءك فأعطه الثوب أيضاً، وفهمت معناه.

وعندما جلست أدون أقواله لم يكن في الأرض رجل يستطيع أن يحولني عن عملي ولو سرق كل مقتنياتي.

لأنّني مع شدة حرصي على مقتنياتي، واهتمامي بحماية ذاتي، فإني أعرف أين أجد هذا الكنز الأعظم.

لوقا

في المرائين

قد احتقر يسوع المرائين، وبالغ في تعنيفهم، وكان غضبه ينقض عليهم انقضاض الصاعقة. وكان صوته رعداً في آذانهم ترتعش لهوله قلوبهم.

وقد طلبوا موته لشدة خوفهم منه، وكانوا كالمناجذ في ظلمة الأرض

يعملون على هلاك خطواته، ولكنه لم يسقط في فخاخهم.

فكان يضحك منهم، لأنه عرف جيّداً أن الروح يجب ألاّ يهزأ بها، وألاّ يُسار بها إلى الحفرة.

وكان يمسك مرآة بيده وهنالك يرى الكسالى والعرج والعابرين والساقطين في جوانب الطريق وهم يسيرون إلى القنة.

فأشفق على الجميع، ورغب في أن يرفعهم إلى ملء قامته ويحمل أثقالهم، أجل، فقد تمنى كثيراً لو يتكئ ضعفاؤهم على ذراع قوته.

لم يكن شديد الوطأة في حكمه على الكذاب أو اللصّ أو القاتل، ولكنه قضى قضاءً مبرماً على المرائين الذين يبرقعون وجوههم ويغطون أيديهم.

كثيراً ما وقفت مفكراً في ذلك القلب الذي كان يقتبل جميع القادمين من صحراء الحياة إلى مقدسه العظيم فيهبهم راحة وملجأ، ولم يغلق بابه إلا في وجوه المرائين فقط.

حدث مرة فيما نحن جالسون معه في بستان الرمان أنّني قلت له: يا معلم، أنت تصفح عن الخطأة، وتعزي جميع الضعفاء والسقماء ولا ترفض إلا المرائين.

فقال لي: قد وضعت كلماتك في مواضعها عندما دعوت الخطأة ضعفاء وسقماء. نعم أنا أصفح عن ضعف أجسادهم وسقم أرواحهم، لأن قصورهم عن القيام بواجبهم قد وضع حملاً على أكتافهم إمّا من آبائهم أو من جيرانهم.

غير أنّني لا أحتمل المرائين، لأنّهم يضعون النير الثقيل على رقاب المخلصين والطائعين.

أما الضعفاء الذين تسميهم خطاة، فهم كالفراخ التي لا ريش لها الساقطة من العش. ولكن المرائي نسرٌ جالس على صخرة يتوقع فريسة بريئة لينقضّ عليها.

الضعفاء هم رجال ونساء ضائعون في صحراء. ولكن المرائي غير ضائع. فهو يعرف الطريق ولكنه يضحك بين الرمال والرياح.

لأجل هذا لا أقبل المرائين في شركتي.

هكذا تكلم معلمنا، فلم أفهم معنى كلامه في ذلك الوقت ولكنني أفهم اليوم.

لذلك اجتمع المراؤون في البلاد، وألقوا القبض عليه، وحكموا بقتله، ظانين أنّهم مبرَّرون بعدائه لهم. وكانوا يقرّبون شريعة موسى في مجمع اليهود شهادة وبيّنة ضدّه.

إن الذين يكسرون الشريعة عند بزوغ كل فجر، ثم يكسرونها ثانية عند غروب كل شمس، هم الذين عملوا على موته.

متــى

العظة على الجبل

في أحد أيام الحصاد دعانا يسوع وفريقاً من أصدقائه الآخرين إلى التلال. وكانت الأرض تفوح بعطرها وقد تزينت بأبهى حلاها كأنّها ابنة ملك عظيم في يوم زفافها. وكانت السماء عروساً لها.

وعندما وصل إلى الأعالي وقف في غابة الغار والهدوء يجلل طلعته البهيّة وقال: استريحوا هنا وافتحوا نوافذ أفكاركم ودوزنوا أوتار قلوبكم لأن لديّ كثيراً أقوله لكم.

فاتكأنا على بساط العشب تحيط بنا ورود الصيف، وجلس يسوع في وسطنا.

فقال يسوع:

طوبَى للرصينين بالروح.

طوبَى لمن لا تقيدهم مقتنياتهم، لأنهم سيكونون أحراراً.

طوبى لمن يتذكرون آلامهم، وفي آلامهم يرقبون أفراحهم.

طوبَى للجياع للحق والجمال، لأن مجاعتهم ستحمل لهم خبزاً، وعطشهم ماءً عذباً.

طوبَى للرؤوفين، لأنهم سيتعزون بلطفهم ورأفتهم.
طوبَى لأنقياء القلب، لأنّهم سيكونون واحداً مع الله.

طوبَى للرحماء، لأن الرحمة ستكون في نصيبهم.
طوبَى لصانعي السلام، لأن أرواحهم ستقطن فوق المعركة وسيحوّلون حقل الخزّاف إلى جنّة غنّاء.

طوبى للمطاردين، لأن أقدامهم ستكون سريعة وسيكونون مجنّحين.

افرحوا وابتهجوا، لأنّكم قد وجدتم ملكوت السماوات في أعماقكم. إن مرنمي القدماء قد اضطهدوا عندما تغنّوا بذلك الملكوت. وأنتم أيضاً ستضطهدون، وفي هذا شرفكم وفيه أجركم.

أنتم ملح الأرض، فإذا فسد الملح فبماذا يصلح الطعام لقلب الإنسان؟
أنتم نور العالم، فلا تضعوا هذا النور تحت المكيال، بل فليشرق نوركم من الأعالي لجميع الذين ينشدون مدينة الله.

لا تظنوا أني جئت لأبطل شرائع الكتبة والفريسيين، لأن أيامي بينكم معدودة وكلماتي محدودة، وليس لديّ سوى بضع ساعات سأكمل فيها شريعة ثانية وأوضح عهداً جديداً.

قد قيل لكم ألاّ تقتلوا، أما أنا فأقول لكم لا تغضبوا لغير سبب.

قد قضى عليكم القدماء أن تحملوا عجولكم وحملانكم وحمامكم إلى الهيكل وأن تذبحوها على المذبح، لتتغذى مشامّ الرب برائحة دهنها، وتُغفر بذلك زلاتكم.

أما أنا فأقول لكم: هل تقدرون أن تعطوا الرب ما كان له منذ البدء؛ أم

هل تسكّنون غضبه، وعرشه يسمو على الأعماق الصامتة، وهو يحوّط الفضاء بذراعيه؟

فتشوا بالأحرى عن أخيكم وتصالحوا معه قبل أن تجيئوا إلى الهيكل، وأعطوا جاركم بمحبة مما عندكم، لأنّه في نفس هؤلاء قد بنى الله هيكلاً لن يخرب، وفي قلبهم قد أقام مذبحاً لن ينقض.

قيل لكم: عين بعين وسنّ بسنّ: أما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشرّ، لأن المقاومة تغذّي الشرّ وتزيده قوة. ولا ينتقم لنفسه غير الضعيف. أما الأقوياء بالروح فإنهم يسامحون ولمن تقع عليه الأذية شرف سامٍ بصفحه وسماحه.

الشجرة المثمرة وحدها يهزها الناس ويضربونها بالحجارة.

لا تهتموا بالغد بل تأمّلوا باليوم لأنّه يكفي اليوم أعجوبته.

لا تبالغوا في الاعتداد بأنفسكم عندما تعطون مما هو لكم وانظروا بالأولى إلى حاجة من تعطون، لأن كل من يعطي غيره من المحتاجين يعطيه الآب نفسه بأوفر غزارة.

اعطوا كل محتاج حسب حاجته، لأن الأب لا يعطي ملحاً للعطشان، ولا حجراً للجائع، ولا حليباً للمفطوم.

ولا تعطوا القدسات للكلاب، ولا تطرحوا درركم للخنازير، لأنّكم بهذه العطايا تهزأون بها، وهي أيضاً ستهزأ بعطاياكم، وقد يحملها بغضها إلى إهلاككم.

لا تكنزوا لكم كنوزاً تفسد أو يسرقها اللصوص، بل اكنزوا لكم كنوزاً لا تفسد ولا تسرق، ولكنها تزداد جمالاً كلما ازدادت العيون الناظرة إليها. لأنّه حيث يكون كنزك فهنالك قلبك أيضاً.

قد قيل لكم: إن القاتل يجب أن يسلم للسيف، وإن اللصّ يجب أن يصلب، والزانية يجب أن ترجم. أما أنا فأقول لكم إنّكم لستم أبرياء من

جريمة القاتل واللصّ والزانية؛ وإذا حلّ العقاب بأجسادهم فإن أرواحكم تظلم في أعماقكم.

بالحقيقة إنّه ما من جريمة يرتكبها رجل فرد أو امرأة وحدها. إن جميع الجرائم يشترك الجميع في ارتكابها، أما الذي يدفع الجزاء فإنّه يقطع حلقةً من السلسلة المعلقة حول كعابكم. وقد يكون يدفع بكآبته ثمن أفراحكم الزائلة.

هكذا تكلم يسوع؛ وقد رغبت في السجود أمامه احتراماً وإجلالاً، ولكن خجلي من ذاتي الحقيرة كان يمسك بي فلم أقدر أن أتحرك من مكاني ولا أن أتلفظ بكلمة واحدة.

بيد أنني تشجعت أخيراً وقلت له: إنني أودّ أن أصلي في هذه الدقيقة، ولكن لساني ثقيل. فعلمني كيف أصلي.

فقال يسوع: إذا صليتم فلينطق حنينكم بكلمات الصلاة، وفي أعماقي الآن حنين يود أن يصلي هكذا:

أبانا الذي في الأرض والسماوات، ليتقدس اسمك.
لتكن مشيئتك معنا كما هي في الفضاء.
أعطنا من خبزك كفاية ليومنا.
برأفتك اصفحْ عنّا، ووسّع مداركنا لنصفح بعضنا عن بعض.
سر بنا إليك، ومدّ يدك إلينا في الظلمة.
لأن لك الملك، وبك قوّتنا وكمالنا.

* * *

وكان المساء، فنزل بنا يسوع من التلال ونحن نتبعه جميعاً. أما أنا فكنت أتبعه وأنا أردّد صلاته، متذكّراً جميع أقواله، لأنّني عرفت أن الكلمات التي تساقطت في ذلك اليوم كقطع الثلج يجب أن تستقرّ وتتحجر كالبلور، وأن الأجنحة التي كانت تخفق فوق رؤوسنا يجب أن تضرب الأرض كالحوافر الحديدية.

يوحنا بن زبدى

في أسماء يسوع المختلفة

قد أشرتم إلى أن فريقاً منّا يدعون يسوع «بالمسيح» وغيرهم «الكلمة» وآخرون يسمونه «الناصري» وغيرهم «ابن الإنسان».

وها أنا آت لأوضح لكم معاني هذه الأسماء كما أعطي لي أن أفهمها.

فالمسيح، الذي كان في قديم الزمان، هو شعلة الألوهية التي تقيم في روح الإنسان، هو نسمة الحياة التي تزورنا، وتتخذ جسداً كأجسادنا.

هو مشيئة الله.

هو الكلمة الأولى التي تتكلم بأصواتنا وتقطن في آذاننا لنفهم ونعلم. وكلمة الرب إلهنا قد بنت بيتاً من اللحم والعظم وصارت إنساناً مثلك ومثلي.

لأنّنا لم نقدر أن نسمع أنشودة الريح التي لا جسد لها، ولم نرَ ذاتنا العظمى سائرة في الضباب.

مراراً كثيرة جاء المسيح إلى العالم وقد مشى في بلاد كثيرة بيد أنّه حُسب غريباً بين الناس ومجنوناً أبداً.

ولكن صدى صوته لم يذهب عبثاً، لأن ذاكرة الإنسان كثيراً ما تحتفظ بما لا يعبأ له فكره ليحتفظ به.

هذا هو المسيح، أبعد أعماقنا وأرفع أعالينا، الذي يرافق الإنسان إلى الأبدية.

ألم تسمعوا به على مفارق الطرق في الهند، وفي أرض المجوس، وعلى رمال مصر؟

وهنا في بلادكم الشمالية قد تغنى شعراؤكم القدماء ببروميثيوس حامل النار، الذي تحققت فيه رغبات الإنسان، وتحطمت به قضبان القفص الذي قيد رجاء الناس فأطلق وصار حراً؛ وبأورفيوس الذي تجسد مع الصوت والقيثارة لينعش الروح في الحيوان والإنسان.

أولا تعرفون شيئاً عن سيصر الملك، وزورروستر النبي الفارسي، اللذين استيقظا من نوم الإنسان القديم ووقفا على فراش أحلامنا؟

إلا أنّنا نحن أنفسنا نصير مسحاء عندما نجتمع في الهيكل غير المنظور، في ألف سنة، حينئذ يخرج أحدنا متجسداً.

بيد أن آذاننا لا تتحول دائماً للسماع، ولا عيونتًا للنظر.

قد وُلد يسوع الناصري ونشأ مثلنا، وكان أبوه وأمّه كوالدينا وكان هو إنساناً مثلنا.

ولكن المسيح، الكلمة، الذي كان في البدء، الروح التي ترجو لنا أن نحيا حياةً كاملة، كل هذا قد جاء إلى يسوع واتحد معه.

فالروح كانت يد الرب الشعرية، ويسوع كان قيثارة لها. الروح كانت مزموراً، ويسوع كان لحناً له.

ويسوع، رجل الناصرة، كان المضيف والممثل للمسيح، الذي مشى معنا في الشمس ودعانا أصدقاءه.

إن تلال الجليل وأوديته لم تسمع في تلك الأيام سوى صوته، وعلى رغم حداثتي في ذلك العهد كنت أسير في طريقه وأقتفي خطواته.

أجل، قد اقتفيت خطواته وسرت في طريقه لأسمع كلمات المسيح من شفتي يسوع الجليلي.

إنكم تودون بلا شك أن تعلموا لماذا يدعوه فريق منا ابن الإنسان.

فهو نفسه قد رغب في أن نسميه بهذا الاسم، لأنه عرف مجاعة الإنسان وعطشه؛ ورأى الإنسان يفتش عن ذاته العظمى.

إن ابن الإنسان هو المسيح الرؤوف الذي يريد أن يكون مع الجميع.

هو يسوع النذير الذي يرغب في قيادة جميع إخوته إلى المختار الحبيب

الذي مسحه الله بزيت قدسه، هو الكلمة التي كان في البدء مع الله.

إن يسوع الجليلي مقيم في قلبي، وهو الإنسان المتسامي على الناس، والشاعر الذي يصنع الشعراء من جميعنا، بل هو الروح التي تقرع على أبواب أرواحنا لنستيقظ وننهض ونخرج لملاقاة الحقيقة العارية الواثقة بنفسها.

كاهن شاب في كفرناحوم

يسوع الساحر

كان ساحراً متلوياً معوجّاً، وعرافاً يضلل البسطاء بسحره وتعزيمه. وكان يشعوذ بكلمات أنبيائنا ومقادس أجدادنا.

وكان يطلب شهوده حتى من الأموات، ويتخذ سلطانه وأعوانه من القبور الصامتة.

وكان يفتش عن نساء أورشليم وبنات المزارع بدهاء العناكب التي تفتش عن الذباب، وكان يصطادهنّ بفخاخه.

لأن النساء ضعيفات فارغات الرؤوس، وهن يتبعن الرجل الذي تطمئن إلى كلماته العذبة أهواؤهنّ الباقية. ولولا هؤلاء النساء، السقيمات العقول، والمأخوذات بروحه الشريرة، لكان اسمه قد انمحى من ذاكرة الإنسان.

ومن هم الرجال الذين تبعوه؟

كانوا من الطبقة المكدونة والمدوسة بالأقدام. ولم يكن يخطر لهم قطّ أن يثوروا على أسيادهم وهم على ما كانوا عليه من الجهل والخوف. ولكنه عندما وعدهم بالمراكز العالية في ملكوت سرابه استسلموا لأوهامه كما يستسلم الطين للخزّاف.

أولا تعلمون أن العبد لا يرى غير السيادة في أحلامه؛ والضعيف الخامل لا يرى نفسه إلا أسداً؟

فالجليلي كان مشعوذاً خداعاً، وقد صفح عن خطايا جميع الخطاة ليسمع التهليل والهتاف «باوصنا» من أفواههم القذرة، وقد أطعم قلوب اليائسين والبؤساء ليكون له آذان كافية لسماع صوته وجيش يأتمر بأوامره.

وقد كسر السبت مع الذين يكسرونه ليكسب معاضدة الخارجين على الشريعة، وتكلم بالسوء على رؤساء كهنتنا ليلفت أنظار المجلس الأعلى إليه، ويزيد في شهرته عن طريق المعارضة.

طالما صرحت بأنني أبغض ذلك الرجل، نعم أبغضه أكثر من بغضي للرومانيين الذين يحكمون بلادنا. حتى إن مجيئه كان من الناصرة، وهي القرية التي لعنها أنبياؤنا، فصارت مزبلة للأمم، ولا يمكن أن يخرج منها شيء صالح.

لاوي غني بجوار الناصرة

يسوع النجار الماهر

كان نجاراً ماهراً، فالأبواب التي صنعها لم يستطع لصّ أن يخلعها. والنوافذ التي عملها كانت حاضرة أبداً لتنفتح للريح الشرقيّة والغربية.

كان يصنع الصناديق من خشب الأرز فتأتي صقيلة متينة، والمحاريث والسفافيد من السنديان فتجيء قوية سهلة الانقياد في يد الفلاح.

كان يحفر المقارئ (جمع مِقْرأ) لمجامعنا من خشب التوت الذهبيّ، وعلى جانبي الخشبتين اللتين يوضع عليهما الكتاب المقدس كان يضع جناحين منبسطين، وتحتهما رؤوس ثيران وحمام وغزلان ذات عيون كبيرة.

كل هذا كان يتحدى في صنعه طريقة الكلدانيين واليونان، ولكن كان في فنّه شيء لم يكن لا كلدانيّاً ولا يونانيّاً.

قد اشتغلت في بناء بيتي هذا أيدٍ كثيرة منذ ثلاثين سنة، لأني فتشت عن البنائين والنجارين في جميع قرى الجليل، وكانت لكل منهم مهارة البنّاء وفنّه، وكنت راضياً قانعاً بكلّ ما صنعوه لي.

ولكن، هلمّ وانظر هذين البابين وتلك النافذة التي صنعها يسوع الناصري، فهي بدقة صنعها وثباتها تهزأ بكلّ ما في بيتي.

أفلا ترى أن هذين البابين يختلفان عن جميع الأبواب التي في البيت؟ وهذه النافذة المفتوحة للشرق، ألا تختلف عن بقية النوافذ؟

إن جميع أبوابي ونوافذي تستسلم لشريعة السنين، ما خلا هذه التي عملها هو، فهي وحدها ثابتة أمام عناصر الطبيعة.

تأمل هذه العوارض المتقاطعة، كيف وضع إحداها فوق الأخرى، وهذه المسامير كيف أنزلت من الوجه الواحد في العارضة فخرجت من الوجه الثاني وهنالك لويت بدقة حتى لا تتزحزح من موضعها.

والعجيب الغريب في هذه القضية أن ذلك العامل الذي كان يستحقّ أجرة رجلين لم يقبض إلا أجرة رجل واحد فقط، وذلك العامل نفسه هو في عقيدة البعض نبي في بني إسرائيل.

فلو عرفت في ذلك الحين أن هذا الشاب الحامل المنشار والفأرة هو نبي لكنت طلبت إليه أن يتكلم عوضاً عن أن يشتغل، ولكنت دفعت له الأجرة مضاعفة على كلماته.

وحتى الساعة لا يزال عمال كثيرون يشتغلون في بيتي وحقولي، ولكن كيف أقدر أن أميز بين الرجل الذي يده على محراثه والرجل الذي يد الله على يده؟

نعم، كيف أستطيع أن أعرف يد الله؟.

راع في جنوب لبنان

مثل

رأيته لأول مرة في آخر الصيف يمشي على تلك الطريق مع ثلاثة رجال من رفاقه، وكان الوقت عند المساء، فوقف هنالك يتأمل الطريق في آخر المرج.

أما أنا فكنت أنفخ في مزماري، وقطيعي يرعى حواليّ.

وعندما وقف نهضت وسرت إليه ووقفت أمامه.

فسألني قائلاً: أين قبر اليشع؟ أليس قريباً من هذا المكان؟.

فأجبته: هو هناك يا سيدي، تحت تلك الرجمة. وما برح عابرو الطريق حتى اليوم يحمل كل منهم حجراً ويضعه في هذه التلة.

فشكرني وسار في طريقه ورفقاؤه يسيرون وراءه.

وبعد ثلاثة أيام قال لي غملائيل الذي كان راعياً مثلي: إنّ الرجل الذي مرّ بك هو نبي في اليهودية. ولكنني لم اصدقه. بيد أن ذكرى ذلك الرجل لم تفارق ذاكرتي. وعندماجاء الربيع مرّ يسوع بهذا المرج ثانية، وكان في هذه المرة وحده.

أما أنا فلم أكن أنفخ في مزماري في ذلك اليوم، لأنني كنت قد أضعت خروفاً وكنت حزيناً تملأ غيوم الكآبة سماء قلبي.

وعندما رأيته مشيت ووقفت أمامه صامتاً، لأني أردت أن أتعزّى. فنظر إلي وقال: أنت لا تنفخ في مزمارك اليوم، فمن أين جاءت الكآبة في عينيك؟

فأجبته: قد ضاع خروف من خرافي، وقد فتشت عنه في كل مكان فلم أجده ولا أعلم ماذا أعمل.

فسكت هنيهة ثم نظر إلي مبتسماً وقال: انتظرني هنا ريثما أجد لك خروفك. وسار في طريقه حتى اختفى بين التلال.

وبعد ساعة من الزمان رجع، وخروفي يمشي إلى جانبه، وفيما هو واقف أمامي كان الخروف ينظر إلى وجهه كما نظرت أنا.

فأقبلت على الخروف أضمه إلى صدري بفرح عظيم.

فوضع يده على كتفي وقال: إنك منذ اليوم ستحبّ هذا الخروف أكثر من جميع الخراف في قطيعك. لانّه كان ضالاً فوُجد.

ثم ضممت خروفي ثانية إلى صدري بفرح عظيم، وكان الخروف يدنومني وأنا صامت لا أنبس ببنت شفة.

وعندما رفعت راسي لأشكر يسوع رأيته بعيداً عني فلم أجسر على أن أتبعه.

يوحنا المعمدان

لواحد من تلاميذه

إنّني لستُ صامتاً في هذا السجن المظلم في حين أن صوت يسوع يتعالى في ساحة الحرب، ولا يقدر أحد أن يلقي عليّ يداً أو يقيّد حرّيتي طالما أنّه هو حر.

يقولون لي إن الأفاعي تنساب حول حقويه، ولكنني أجيب أن الأفاعي ستوقظ قوته ليسحقها بقدميه.

إنني لست سوى رعد في برقه. ومع أنّني تكلمت أولاً فإن الكلمة التي نطقت بها هي كلمته، والغاية التي سعيتُ إليها هي غايته.

قد قبضوا عليّ بدون إنذار. ولعلهم يلقون أيديهم عليه أيضاً ولكنهم لن يفعلوا ذلك قبل أن يتلفظ بكل أقواله. وسيغلبهم.

ستمرّ عربته فوقهم، وستدوسهم حوافر خيوله، وسيكون منتصراً، سيخرجون إليه بسيوف وحراب، ولكنه سيجابههم بقوة الروح.

سيجري دمه على الأرض، ولكن قاتليه أنفسهم سيعرفون جراحه وآلامها، وسيتعمدون بدموعهم حتى يتطهروا من خطاياهم.

إن جيوشهم ستهجم على مدنه بالمجانق الحديدية، ولكنهم سيغرقون في طريقهم في نهر الأردن.

أما أسواره وأبراجه فستزداد ارتفاعاً، ودروع محاربيه سيتضاعف بريقها في أشعة الشمس.

يقولون إنّني متواطئ معه لنحض الشعب على النهوض للثورة ضدّ مملكة اليهودية.

وها أنا أجيب. ويا ليت لي نيرانا أصوغ منها كلماتي: إذا كانوا يحسبون بؤرة الاثم هذه مملكة، إذا فلتخرب ولتصر إلى لا شيء، وليحل بها ما حل بصادوم وعمورة، ولينسَ الرب هذا الجنس، ولتتحول هذه الأرض إلى رماد.

نعم أنا حليف يسوع الناصري وراء هذه الجدران الغليظة في سجني، وهو سيقود جيوشي بما فيها من الفرسان والمشاة. وأنا نفسي، وإن كنت قائداً في معسكر الرب، فإنني لست أهلا لأن أحل سيور حذائه.

اذهبوا إليه. وأعيدوا كلماتي على مسمعيه، واطلبوا إليه باسمي أن يعزّيكم ويبارككم.

إنّني لن أقيم طويلاً في هذا المكان، لأنّني في كل ليلة بين اليقظة واليقظة أشعر بأقدام بطيئة تدوس على الجسد بخطوات متناسقة، وعندما أصغي جيداً أسمع قطرات المطر تتساقط على جسدي.

اذهبوا إلى يسوع وقولوا له: يوحنا الكدورني الذي تمتلئ نفسه من الأشباح ثم يفرغها ثانية، يصلي من أجلك، في حين أن حفار القبور يقف قريباً منه، والسيّاف يمدّ يده لقبض أجرته.

يوسف الذي من الرامة
المطالب الأولية ليسوع

تودون أن تعرفوا المطلب الأول ليسوع وها أنا بفرح أخبركم، ولكن ما من رجل يستطيع أن يلامس بأصابعه حياة الكرمة المباركة، أو ينظر بعينيه العصارة المقدسة التي تغذي أغصانها.

ومع أنّني تذوقت عنب هذه الكرمة. وشربت الخمرة الجديدة من المعصرة، فأنا عاجز عن أن أخبركم بكل شيء.

ولكنني أقدر أن أحدثكم بما أعرفه عنه: إن معلمنا وحبيبنا لم يعش سوى ثلاثة فصول من فصول الأنبياء، وأنا أعني ربيع إنشاده، وصيف وجده، وخريف آلامه، وكل فصل من هذه الفصول كان عبارة عن ألف سنة.

فربيع إنشاده قضاه مترنّماً في الجليل، فهنالك كان يجمع محبيه حواليه. وعلى شواطئ البحيرة الخضراء تكلمّ أولاً عن الاب. وعن العتق والحريّة.

على بحيرة الجليل خسرنا أنفسنا لنجد طريقنا إلى الاب. أواه؛ ما أتفه ما خسرنا بالنسبة إلى ما ربحنا!

هنالك ترنم الملائكة في آذاننا وأمرونا أن نهجر الأرض المجدبة لنحظى بفردوس رغبات القلب.

هنالك كان يتكلم عن الحقول والمراعي الخضراء وعن منحدرات لبنان حيث تختبئ الزنابق الخضراء لكي لا تفطن لها القوافل المارّة في غبار الوادي.

وهنالك كان يخاطبنا عن العوسج البريّ الذي يبتسم في الشمس ويقرب بخوره للريح المجتازة به.

وكان يقول: إن الزنابق والعوسج تعيش يوماً واحداً، ولكن ذلك اليوم هو الأبدية التي تُقضى بالحرية.

وفي أحد الأمساء، وقد جلسنا إلى حافة جدول صغير، قال لنا: انظروا إلى الجدول واصغوا إلى موسيقاه، فهو ينشد أبداً، ومع أنّه ينشد البحر أبداً فهو يترنم بأسراره من الظهيرة إلى الظهيرة.

أودّ لو أنّكم تنشدون الاب كما ينشد هذا الجدول بحره.

ثم جاء صيف وَجْدِهِ، وبلغت إلينا حرارة محبته، فحصر كل كلامه بالآخرين ـ بالجار، وعابر السبيل، والغريب، ورفقاء الصبوة.

فخاطبنا عن السائح المسافر من الشرق إلى مصر، والفلاح الراجع بثيرانه إلى بيته عند المساء، وضيف الساعة الذي يقوده غَلَسُ الظلام إلى بابنا.

وكان يقول: إن جاركم هو ذاتكم غير المعروفة، تتجسد أمامكم لتصير منظورة. فمياهكم الهادئة ستعكس لكم وجهه، وإذا تأملتم بها جيداً فأنتم ولا شكَّ ستنظرون وجوهكم.

وإذا أصغيتم في سكينة الليل فإنكم ستسمعوه متكلّماً وسيكون خفقان قلوبكم في كلماته.

فاعملوا به نفس ما تودون أن يعمله هو بكم.

هذه هي شريعتي، وأنا أقولها لكم ولأولادكم، وهم يقولونها لأولادهم حتى تنفق كنوز الزمان وتضمحلّ خزائن الأجيال.

وفي يوم ثانٍ قال لنا: لا تكن وحدك في جياتك لأنّك تعيش في أعمال الآخرين، وهم وإن جهلوا يعيشون معك سحابة أيامك.

إنهم لا يقترفون جريمة من غير أن تكون يدك مع أيديهم.

وهم لا يسقطون من غير أن تسقط معهم، ولا ينهضون إلا وأنت تنهض معهم.

إن طريقهم إلى المقدس هي طريقك، وإذا نشزوا إلى قفر السقوط فأنت أيضاً ناشز معهم.

أنت وقريبك بزرتان مزروعتان في حقل واحد. وأنتما تنموان معاً وتتموجان معاً أمام الريح. ولكن لا يستطيع أحدكما أن يدعي ملكية الحقل. لأن البزرة السائرة إلى النماء لا تقدر أن تدعي حتى ولا ملكية وجدها وافتتانها.

اليوم أنا معكم، ولكنني غداً أمضي إلى الغرب، غير أنّني قبل أن أمضي أقول لكم: إن جاركم هو ذاتكم غير المعروفة، تتجسد أمامكم لتصير منظورة. فانشدوه بمحبة لتعرفوا أنفسكم؛ لأنكم بهذه المعرفة فقط تستطيعون أن تكونوا إخوة لي.

ثم جاء خريف آلامه.

فخاطبنا عن الحرية، كما كان يخاطبنا في الجليل في ربيع إنشاده، ولكن كلماته في هذه المرة كانت تنشد أعمق أعماق فهمنا.

فكان يتكلم عن الأوراق التي لا تنشد أناشيدها إلا إذا حركتها الرياح. وعن الانسان مشبهاً إياه بكأس يملأها ملاك الخدمة اليوم لتبرد عطش ملاك آخر. ومع ذلك فسواء كانت هذه الكأس ممتلئة أو فارغة فإنّها تظلّ لامعة ببلورها على مائدة العليّ القدير.

ومن أقواله: أنتم الكأس وأنتم الخمرة. فاشربوا من خمرة أنفسكم حتى الثمالة، أو تذكروني فتروي غلة عطشكم.

وفي طريقنا إلى الجنوب قال لنا: إن أورشليم، الجالسة بكبرياء على قنة مجدها، ستنحدر إلى أعماق جهنم الوادي المظلم وفي وسط خرابها سأقف وحيداً.

وسيتحول الهيكل إلى غبار ورماد، وحول أروقته ستسمعون صراخ الأرامل والأيتام، والناس في عجلتهم للهرب سيتعامون عن رؤية وجوه إخوتهم، لان الخوف سيشملهم جميعاً.

ولكن حتى في ذلك الوقت، إذا اجتمع اثنان منكم وتلفظا باسمي ونظرا

إلى الغرب، فإنكم تبصرونني فتتراجع أصداء كلماتي هذه إلى آذانكم.

وعندما وصلنا إلى تلة بيت عنيا قال: لنمضِ إلى أورشليم. فإن المدينة تنتظرنا. سأدخل البوابة راكباً على جحش. وسأخاطب الجموع.

إن الراغبين في تقييدي كثيرون، وأكثر منهم النافخون في النّار ليحرقوني، ولكنكم بموتي ستجدون حياة وستكونون أحراراً.

إنهم يطلبون نسمة الحياة الحائمة بين القلب والفكر كما يحوم الخطاف بين الحقل وعشه، ولكن نسمة حياتي قد هربت منهم ولذلك لن يغلبوني.

إن الأسوار التي بناهاالاب حولي لن تسقط، والأرض التي قدسها في كياني لن تتنجس.

فإذا جاء الفجر فإن الشمس ستتوج رأسي فأجتمع بكم لمجابهة النهار. وذلك النهار سيكون طويلاً ولن يرى العالم مساءه.

يقول الكتبة والفريسيون إن الأرض متعطشة لدمي، ويسرني أن أبرد عطش الأرض بدمي، ولكن نقط هذا الدم ستنهض بأغصان السنديان والقيقب، وستحمل الرياح الشرقيّة بلّوطها إلى جميع البلدان.

ثم قال أيضاً: إن اليهودية تريد ملكاً لتهجم على جيوش رومة.

إنّني لا أريد أن أكون ملكاً لها، لأن تيجان صهيون قد صنعت للجباه الصغيرة، وخاتم سليمان صغير على هذه الاصبع. تأملوا يدي؛ ألا ترون أنها أقوى من أن تحمل صولجاناً، وأقدر من أن تمتشق حساماً؟

ألا إنّني لا أريد أن أثير السوري ضدّ الروماني. ولكن أنتم بكلماتي ستوقظون المدينة الغافلة، فتخاطبها روحي في فجرها الثاني.

إن كلماتي ستؤلف جيشاً لا تراه العيون، حافلاً بالخيول والعربات؛ وبغير فأس ولا حربة سأغلب كهنة أورشليم، وانتصر على القياصرة.

إنّني لا أجلس على عرش قد جلس عليه العبيد ليحكموا غيرهم من

العبيد، كلاّ؛ ولا أريد أن أثور على أبناء إيطاليا.

ولكنني سأكون عاصفة في سمائهم، وأنشودة في نفسهم.

وسيذكرني الجميع، سيدعوني الجميع يسوع الممسوح.

جميع هذه الأقوال قالها يسوع خارج أسوار أورشليم قبل أن دخل المدينة.

وقد انطبعت كلماته على صفحات القلوب كأنما حُفرت بالأزاميل.

نثنائيل
لم يكن يسوع وديعاً

يقولون إنّ يسوع الناصري كان وضيعاً وديعاً.

ويقولون إنّه كان رجلاً بارّاً عادلاً، ولكنه كان ضعيفاً، وإنّه كثيراً ما كان يتحيّر وينذهل أمام الأقوياء والأشدّاء، وانّه عندما كان يقف أمام ذوي السلطان لم يكن سوى حمل أمام سباع.

أما أنا فأقول: إن يسوع كان له سلطان فوق جميع الناس، وإنّه عرف قوته وأعلنها بين تلال الجليل، وفي مدن اليهودية وفينيقية.

فإيّ رجل ضعيف مستسلم يقول: أنا الحياة، وأنا طريق الحق؟ وأيّ رجل وديع وحقير يجرؤ أن يقول: أنا في الله أبينا وإلهنا الاب فيّ؟

وأيّ رجل لا يعرف قوته يقول: إن من لا يؤمن بهذه الحياة ولا بالحياة الأبدية؟

وأيّ رجل لا يثق بالغد ويقدر أن يصرح بمثل هذا الاعلان: إن عالمكم سيزول ويتحول إلى رماد تذريه الريح قبل أن تزول كلمة من كلماتي؟

أم هل شكّ في قوته عندما قال للذين حملوا الزانية إليه ليجربوه: من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر؟

وهل خاف ذوي السلطان عندما طرد الصيارفة من ساحة الهيكل مع أنهم كانوا من الكهنة؟

وهل كان مقصوص الجناحين عندما صرخ قائلاً: إن مملكتي فوق ممالكم الأرضية؟ أم هل كان يختبئ بالألفاظ عندما قال المرة بعد المرة: انقضوا هذا الهيكل وأنا أعيد بناءه بثلاثة أيام؟

وهل يستطيع الجبان أن يهزّ يمينه في وجه ذوي السلطان فيدعوهم: كذبة أدنياء وقذرين منجسين؟

إن رجلاً كانت له الجرأة على قول مثل هذا لأسياد اليهودية لا يمكن أن يكون وديعاً إلا أن النسر لا يبني عشّه في الصفصاف الباكي، والسبع لا يفتش عن عرينه بين الأدغال.

قد سئمتُ والتهبت أحشائي من قول ضعفاء القلوب إن يسوع كان وضيعاً وديعاً ليبرروا ضعتهم وصغارة قلوبهم، وخصوصاً عندما أسمع المدوسين بالأقدام ينشدون تعزيتهم بوضع المعلم في صفوفهم.

نعم، قد ضجر قلبي من أمثال هؤلاء، فأنا أبشر بصياد قدير وروح جبلية لا تعرف الغلبة.

سابا الانطاكي
يصف شاوول الطرسوسي

سمعت في هذا اليوم شاوول الطرسوسي يبشر بالمسيح لليهود في هذه المدينة.

فهو يسمي نفسه بولس الان، رسول الأمم.

قد عرفت هذا الرجل في حداثتي، وكان في تلك الأيام يضطهد أصدقاء الناصري. وأنا ما زلت أذكر جيداً مسرّته ورضاه إذ كان يتأمل أصحابه وهم يرجمون الشاب النوراني استفانوس.

إن بولس هذا رجل عجيب غريب . إن نفسه ليست بنفس الرجل الحر. فهو كثيراً ما يبدو كالحيوان في الغابة، طارده الصيادون وجرحوه فجاء ينشد كهفاً يخفي ألمه عن العالم.

وهو لا يتكلم عن يسوع ولا يعيد أقواله، بل يعظ عن ماسيّا الذي أنبأت عنه الأنبياء.

ومع أنّه من علماء اليهود فهو يخاطب أصحابه اليهود باليونانيّة ويونانيته عرجاء ، وهو لا يحسن اختيار ألفاظه لمواضعها. بيد أنّه رجل ذو قوة خفية، والناس يؤيدونه بإقبالهم على سماعه. وكثيراً ما يؤكّد لهم أموراً هو نفسه لا يثق بها.

فنحن الذين عرفنا يسوع وسمعنا خطبه نقول إنّه علّم الانسان كيف يحطّم قيود عبوديته ليتحرر من سجون أمسه.

ولكن بولس هذا يصنع قيوداً جديدة لرجل الغد. فهو يضرب بمطرقته على السندان باسم رجل هو نفسه لا يعرفه.

فالناصري يرغب إلينا أن نعيش الساعة بوجد وشوق.

أما رجل طرسوس هذا فإنّه يأمرنا بالمحافظة على الشرائع المكتوبة في الكتب القديمة.

قد منح يسوع من نسمة روحه للميت الفاقد النسمة. وفي وحدة لياليّ أؤمن وأفهم.

وعندما كان يجلس إلى المائدة كان يقص على الجالسين معه قصصاً تزيد في بهجتهم وسعادتهم ولذة طعامهم وشرابهم.

ولكن بولس يحدّد لنا رغيفنا وكأسنا.

فاسمحوا لي الآن أن أدير عينيّ إلى الطريق الأخرى.

سالومه إلى صديقة لها
رغبة لم تتحقق

كانِ كالحور اللامع في الشمس ، وكالبحيرة بين التلال الوحيدة مشرقاً في الشمس، وكان كالثلج على رؤوس الجبال أبيض أبيضَ في الشمس . نعم، كان مثل هذه جميعها وقد أحببته. بيد أنّني كنت أخاف أن أجلس في حضرته.

وكنت أودّ أن أقول له: قد قتلت صديقك في ساعة هوًى في نفسي، فهل تغفر لي خطيئتي وأنت الرحوم الصفوح؟ أفلا تحلّ قيود شبابي من عماوة عملي لأمشي حرة طليقة في نورك العظيم؟

إنّني واثقة بأنّه كان يصفح عن رقصتي للحصول على رأس صديقه البارّ. إنّني واثقة بأنّه كان رأى فيّ موضوعاً من مواضيع تعاليمه، لأنّه لم يكن في العالم من وادي مجاعة لم يعبره، ولا صحراء عطش لم يقطعها.

بلى، قد كان كالحور الجميل، وكالبحيرات بين التلال، وكالثلج على الجبال. وكنت أتوق لتبريد عطش شفتيّ في ثنايا ثوبه.

بيد أنّه كان بعيداً عني، وأنا كنت خجولة. وكانت أمّي تمنعني عن الذهاب إليه كلما دعاني حنيني إلى السير وراءه.

وكلما مرّ بنا كان قلبي يذوب من جماله، ولكن أمي كانت تقطّب حاجبيها احتقاراً وتأمرني بالتحوّل عن النافذة إلى غرفتي، وكانت تصرخ بأعلى صوتها قائلة: ومن يكون هذا سوى أكول جراد آخر من الصحراء!

إن هو إلا مستهزئ خائن، ومشاغب يتعيش بإثارة نيران العصيان، لسلب صولجاننا وتاجنا؛ وحمل الثعالب وبنات آوى من بلاده اللعينة لتعوي في قصورنا وتجلس على عرشنا. اذهبي واحجبي وجهك من هذا النهار، وانتظري يوم يسقط رأسه ولكن ليس على طبقك.

كل هذا قالته والدتي ولكن قلبي لم يحفظ كلامها، فقد أحببته سرّاً وكان حبّه يمنطق نومي باللهيب.

قد مضى اليوم. وقد ذهب بذهابه شيء عظيم كان فيّ، ومن يدري، فقد يكون شبابي قد ذهب مني لأنه لم يطق أن يقيم هنا بعد أن رأى إله الشباب قتيلاً.

راحيل إحدى التلميذات

هل كان يسوع رجلاً أم مفكراً؟

كثيراً ما أفكر منذهلة فيما إذا كان يسوع رجلاً ذا لحمٍ ودمٍ نظيرنا، أو فكراً بغير جسد، في العقل، أو فكرةً تزور خيال الإنسان.

وكثيراً ما يخطر لي أنّه لم يكن سوى حلم حلمه رجال ونساء لا عديد لهم؛ وقد رآه جميعهم في نوم أعمق من النوم، وفجرٍ أهدأ من كل فجر.

ويظهر أنّنا إذ كنا نقص هذا الحلم بعضنا لبعض شرعنا نتخيله حقيقة وقعت بالفعل، وإذ منحناه جسداً من خيالنا وصوتاً من حنيننا جعلناه أخيراً جوهراً حقيقياً لمادة وجودنا.

ولكن بالحقيقة إنّه لم يكن حلماً. فقد عرفناه ثلاث سنين ورأيناه رأي العين في نور الظهيرة اللامع.

قد لمسنا يديه وتبعناه من مكان إلىمكان. قد سمعنا خطبه ورأينا أعماله. وهل يخطر لكم أنّنا كنّا فكرا ينشد غيره من الأفكار أو حلماً هائماً في منطقة الأحلام؟

إن الحوادث العظيمة تظهر دائماً غريبة عن حياتنا اليوميّة وإن كانت طبيعتها مغروسة في طبيعتنا، وهي وإن أقامت فجأة في مجيئها وفجأة في مرورها بنا فإن جوهرها الحقيقي يرافق السنين والأجيال.

ويسوع الناصري هو نفسه الحادثة العظمى. فإن ذلك الرجل الذي نعرف أباه وأمّه وإخوته كان نفسه أعجوبة حدثت في اليهودية. بلى، وكل عجائبه إذا وضعت عند قدميه لا تعلو إلى مساواة عقبيه.

وجميع الأنهار في جميع السنين لا تقدر أن تذهب بذكراه من قلوبنا.

فقد كان جبلا محترقاً في الليل ومع ذلك كان حرارة لطيفة وراء التلال، وكان عاصفة في الجو، ومع ذلك كان يتحرك بلطف في ضباب البحر.

كان يسوع سيلاً جارفاً منحدراً من الأعالي إلى السهول ليهدم كل شيء في طريقه. وكان في الوقت نفسه لطيفاً كابتسامة الاطفال.

في كل سنة أنتظر زيارة الربيع لهذا الوادي، وفي كل سنة أنتظر الزنابق وبخور مريم، ولكن نفسي تكتئب في أعماقي كلّ سنة، لأنّني طالما تقت لأفرح مع الربيع فلم أقدر.

ولكن عندما جاء يسوع إلى فصولي كان بالحقيقة ربيعاً لأحلامي وقد تحققت فيه مواعيد جميع السنين المقبلة. فقد ملأ قلبي فرحاً، فنمَوت كالبنفسج خجولة في نور مجيئه.

واليوم لا تستطيع تقلبات فصول العالم التي لم تصر لنا بعدُ أن تمحو جماله من عالمنا هذا.

إلا أن يسوع لم يكن حلماً ولا فكرة تمخضت بها أحلام الشعراء، بل كان رجلاً مثلك ومثلي بالبصر والسمع واللمس، وفي جميع ما تبقى كان يختلف كل الاختلاف عن جميعنا.

فقد كان رجل أفراح. وعن طريق الفرح تعرّف إلى كآبة جميع الناس ومن أعالي سطوح كآبته رأى فرح جميع الناس.

إن الرؤى التي رآها لم نرَها نحن، والأصوات التي سمعها لم نسمعها، وكان يتكلم مخاطباً جموعاً غير منظورة، بل كثيراً ما تكلم بواسطتنا لأقوام لم يولدوا بعد.

وكان يسوع وحده في أكثر الأحيان ، فقد كان بيننا ولكنه لم يكن واحداً منا. وكان على وجه من السماء. ونحن لانقدر أن نرى أرض وحدته إلا في وحدتنا.

قد أحبنّا حبّاً ممتلئاً بالعطف والحنان. وكان قلبه معصرة. وأنت وأنا كان في منالنا أن نتقدم إليه بكؤوسنا فنشرب حتى نرتوي.

إن أمراً واحدا لم أكن أفهمه في يسوع، وهو أنّه كان كثيرالمجون مع سامعيه، فهو يخبرهم ملحةً ويلعب بالالفاظ، ثم يضحك من أعماق قلبه حتى في الأوقات التي كانت ترتسم فيها الكآبة على عينيه وتمتزج بدقائق صوته، كل هذا لم أفهمه في ذلك الوقت ولكنني أفهمه الآن.

كثيراً ما أفكر في الأرض فأتمثلها امرأة حبلى ببكرها. وعندما وُلد يسوع كان ابنها البكر، وعندما مات كان أول رجل يموت.

لأنه، ألم يظهر لك أن الأرض كانت صامتة في تلك الجمعة المظلمة، والسماوات كانت في حرب شديدة ضدّ السماوات؟

بل، ألم تشعر عندما اختفى وجهه عن أبصارنا بأنّنا لم نكن سوى تذكارات هائمة في الضباب؟

كلاوبا البتروني

الشريعة والانبياء

عندما تكلم يسوع صمت العالم كله ليصغي. إن كلماته لم تكن لآذاننا بل بالأحرى للعناصر التي صنع الله منها هذه الأرض.

فقد خاطب البحر، الأمّ المتسعة الصدر التي ولدتنا. وخاطب الجبل، أخانا الأكبر الذي قنّته وعدٌ ورجاء.

وخاطب الملائكة الذين وراء البحر والجبل، الذين استودعناهم أحلامنا قبل أن جفّ الطين الذي فينا في أشعة الشمس.

ولا يزال خطابه هاجعاً في صدرنا كأغنية الحب نصف المنسية، وفي بعض المرات يخترق طريقه إلى ذاكرتنا.

كان خطابه بسيطاً فرِحا، وكانت رنّة صوته كالماء العذب في أرض ناشفة.

وقد رفع يده مرة نحو السماء فبدت أصابعه كأغصان الجميزة وقال بصوت عظيم: قد خاطبكم أنبياء القدماء، وآذانكم ممتلئة من خطبهم، أما أنا فأقول لكم: افرغوا آذانكم مما سمعتم.

وهذه الكلمات التي قالها يسوع: أما أنا فأقول لكم. . . لم يتلفظ بها رجل من قومنا، ولا من العالم أجمع، بل حملها إلينا جوق من الساروفيم في مروره بسماء اليهودية.

وكان يقتطف أقوال الشريعة والأنبياء مثنى وثلاث ورباع ثم يضيف إليها في كل مرة قائلاً: أما أنا فأقول لكم.

يا لها من كلمات ناريّة، يا لها من أمواج بحر لم تعرفها شواطئ أفكارنا، أما أنا فأقول لكم! يا لها من كواكب لامعة تنشد ظلمة النفس، ونفوس مستيقظة تنتظر جلال الفجر!



«الفجر»

إن من يودّ أن يتكلم عن خطاب يسوع يجب أن يكون له خطابه أو صدى خطابه، أما أنا فليس لي خطابه ولا صداه، فأرجو من فضلكم عذراً عن الشروع في قصة لا أقدر أن أكملها. ولكن النهاية ليست على شفتيّ بعد. فإنها ما زالت أغنية حبّ في الريح.

نعمان الغداريني

موت استفانوس

قد تفرق تلاميذه، لأنّه وصّى لهم بالألم قبل أن سيق إلى الموت. وأعداؤهم يصطادونهم صيد الغزلان وثعالب الحقول، ولا تزال جعبة الصياد ممتلئة بالسهام.

ولكن عندما يقبض العدو عليهم ويسوقهم إلى الموت يفرحون وتشرق وجوههم كوجه العروس في وليمة العرس. فقد ترك لهم أيضاً وصية الفرح.

كان لي صديق من أهل الشمال اسمه استفانوس، وبما أنّه نادى بيسوع ابن الإنسان قادوه إلى ساحة المدينة ورجموه.

وعندما سقط استفانوس على الأرض بسط ذراعيه كأنه يود أن يموت كما مات معلّمه. وقد انبسطت ذراعاه كجناحين على أهبة الطيران. وقبل أن يضمحلّ آخر بريق في عينيه رأيت بأم عيني ابتسامة قدسية ترتسم على شفتيه. وما أشبه تلك الابتسامة بالنسيم الذي يأتي قبل نهاية الشتاء واعداً ومبشراً بقدوم الربيع! كيف أستطيع أن أصفها؟

يلوح لي أن استفانوس كان يودّ أن يقول: إذا كان لي أن أمضي إلى عالم آخر، وهناك قبض عليّ قوم آخرون وساقوني إلى ساحة مدينتهم ليرجموني، فإنّني حتى في ذلك العالم سأعلنه للناس من أجل الحق الذي كان فيه، ومن أجل الحقّ نفسه الذي هو فيّ الآن.

وقد لاحظت بين المتفرّجين على رجم استفانوس رجلاً واقفاً أمامه ينظر بملء الفرح إلى الحجارة المتساقطة عليه.

وكان اسم ذلك الرجل شاوول الطرسوسي، وهو الذي سلم استفانوس للكهنة والرومانيين والجموع ليرجموه.

كان شاوول أصلع الرأس قصير القامة. وكان معوجّ الكتفين ولا تناسب في قوامه، ولم أكن أحبه.

وقد أخبروني أنّه يبشّر اليوم بيسوع من على السطوح، ولكن هذا الكلام صعب التصديق.

ولكن القبر لا يستطيع أن يقف في طريق سير يسوع إلى معسكر أعدائه ليروض شراستهم ويأسر أعظمهم.

بيد أنّني لا أحب ذلك الرجل الطرسوسي، على رغم ما عرفته أنّه بعد موت استفانوس قد خمدت حدة شراسته وغلب على أمره في طريقه إلى دمشق. ولكن رأسه أكبر من قلبه. فهو لا يقدر أن يكون تلميذاً أميناً ومع كل هذا فقد أكون مخطئاً في حكمي، لأنّني في الغالب مخطئ في أحكامي.

توما

يصف جده وشكوكه

قال لي جدي مرة، وكان متشرّعاً: لنحتفظ بالحق عندما يظهر الحقّ لنا.

وعندما دعاني يسوع لبّيت دعوته، لأن أمره كان أقوى من إرادتي ولكنني لم أنسَ نصيحةَ جدي، رحمه الله.

وعندما كان يخاطبنا فيتحرك غيري من السامعين كأغصان الأشجار

المتمايلة أمام هبوب الرياح، كنت أصغي إليه من غير أن أتحرك ولكنني على رغم ذلك أحببته.

قد تركنا منذ ثلاث سنوات جماعة متفرقة تترنم باسمه، وتشهد له في جميع الأمم.

وقد دُعيت في ذلك الوقت بتوما المُشكك، لأن خيال جدّي كان ألزم لي من ظلي، وكنت ألتمس إظهار الحقيقة لألمسها بيدي أبداً.

في ذلك العهد المظلم بالشك كنت أضع يدي في جرحي لأرى الدماء تنزف منه قبل أن أصدّق ما بي من الألم.

ولكنني قد عرفت الآن أن الرجل الذي يحبّ بقلبه ويحتفظ بالشكوك في فكره، هو عبد محكوم عليه بالتجذيف في سفينة مظلمة، ينام أمام مجاذيفه ويحلم بحريته حتى توقظه سياط سيّده.

فأنا كنت مثل هذا العبد، وقد حلمت بالحرية، ولكن نوم جدّي كان يثقل أجفاني، وقد احتاج جسدي إلى سياط يومي.

إنّني حتى في حضرة الناصري كنت أغمض عينيّ لأرى يديّ مربوطتين إلى المجذاف.

الشكّ ألمٌ أنستهُ وحدتهُ أنّهُ والإيمان توأمان.

الشك فرخ من الطير ضالّ وشقي، ومع أن أمه التي ولدته ستجده وتضمه إلى صدرها، فإنه يهرب منها حذراً خائفاً.

ولن يعرف الشكّ سبيله إلى الحقّ حتى تشفى جراحه وتعود صحته.

فأنا شككت في يسوع حتى أظهر لي ذاته، ووضعت يدي في جراحه، حينئذٍ آمنت بالحقيقة، وبعد ذلك تحررت من أمسي ومن جميع شكوك الأمس التي ورثتها عن جدودي.

فقد دفن الميت فيّ موتاه، والحيّ فيّ سيعيش للملك الممسوح، ذلك الذي دُعي ابن الإنسان.

فقد أخبروني في الأمس أنّه يجب أن أسير مبشراً باسمه بين أبناء فارس والهند.

إنّني ماضٍ إلى عملي. ومن هذا اليوم إلى آخر أيامي، في الفجر وفي المساء، سأرى ربي قائماً بجلال وسأسمعه متكلماً.

المقدم المنطقي

يسوع الخارجي

تطلبون إليّ أن أتكلم عن يسوع الناصريّ، ولديّ عنه حديث مستفيض، ولكن لم يأت الوقت بعد، ولكن مهما قلت عنه الآن فهو الحقّ بعينه، لأنّ كل قول لا قيمة له ما لم يوضح الحقيقة.

إنّه رجل مختلّ، يثور على النظام، ومتسوّل يقاوم المقتنيات، وسكّير لا يفرح إلاّ مع المحتالين والمرذولين.

لم يكن ابن الولاية الفخور، ولا ابن الامبراطورية المتمتّع بحمايتها كسائر المواطنين النافعين، ولذلك كان يحتقر الولاية والامبراطورية.

كان يعيش حرّاً لا يعرف الواجب كطيور الهواء، ولذلك أنزله الصيادون إلى الأرض بسهامهم.

ما من رجل يدك قباب الأمس وينجو من حجارتها المتساقطة.

وما من رجل يفتح أبواب طوفان أسلافه من غير أن يختنق.

هي الشريعة. وبما أن ذلك الناصري كسر الشريعة صار هو وأتباعه البلداء إلى لا شيء.

وقد عاش في العالم كثيرون مثله من الرجال الذين أرادوا أن يغيروا مجرى حياتنا.

ولكنهم هم أنفسهم تغيروا، وكانوا خاسرين.

توجد دالية لا عنب فيها تنمو عند أسوار المدينة، وهي تمتدّ وتعرّش على حجارة السور، فإذا قالت هذه الدالية في قلبها: إنّي سأخرب هذه الجدران بقوّتي وثقل أغصاني، فماذا تقول لها بقية النباتات؟ إنها ولا شكّ تضحك من جنونها.

لأجل هذا تراني يا سيدي مضطراً إلى الضحك من هذا الرجل ومن تلاميذه المخدوعين به.

إحدى المريمات

كآبة وابتسامة

كان رأسه مرتفعاً أبداً، ونور الربّ كان في عينيه.

كان في الغالب كئيباً، ولكن كآبته كانت بلسماً لجراح الحزانى والمستوحشين.

وعندما كان يبتسم كانت ابتسامته كمجاعة المشتاقين إلى غير المعروف، بل كانت كغبار الكواكب المتساقط على أجفان الأولاد، وكقطعة الخبز في الحلق.

كان كئيباً، ولكن كآبته كانت من النوع الذي ينهض إلى الشفتين ويتحوّل إلى ابتسامة.

فقد كانت كقناع ذهبي في الحرج عند دنوّ الخريف. وفي بعض المرّات كانت تبدو لنا كأشعّة القمر على شواطئ البحيرة.

فكان يبتسم كأنّ شفتيه تودّان الغناء في وليمة عرس.

بيد أنّه كان كئيباً بكآبة ذي الجناحين الذي لا يريد أن يحلّق فوق رفيقه.

رومانوس الشاعر اليوناني

يسوع الشاعر

كان يسوع شاعراً. وكان يرى لعيوننا ويسمع لآذاننا، وكلماتنا الصامتة كانت على شفتيه، وأصابعه كانت تلامس ما لم نقدر نحن أن نحسّ به.

وكانت تطير من قلبه عصافير مغرّدة لا عديد لها بعضها إلى الشمال وبعضها إلى الجنوب، وكانت الأزهار اللطيفة في جوانب التلال تسدّد خطواته نحو السماوات.

كثيراً ما رأيته ينحني ليلامس أوراق الأعشاب، وفي قلبي كنت أسمعه يخاطبها قائلاً: أيتها المخلوقات الصغيرة الخضراء، أنت ستكونين معي في ملكوتي كما سيكون معي سنديان بيسان وأرز لبنان.

وكان يحبّ كل ما هو جميل في الوجود، الوجوه الخجولة في الأولاد، والمر واللبان من الجنوب.

قد أحبّ رمانة أو كأساً من الخمر تقرّب إليه بمودة، ولم يهمّه أجاءت من غريب في الفندق أو من مضيف غني.

وكان يحبّ أزهار اللوز. وقد رأيته مرة يجمعها بيديه ويغطي وجهه بأوراقها كأنه يودّ أن يعانق بمحبته كلّ أشجار العالم. قد عرف البحر والسماوات، وتكلم عن الدرر التي لم تتخذ نورها من هذا النور، والكواكب القائمة فوق ليلنا.

وعرف الجبال كما تعرفها النسور، والأودية كما تعرفها السواقي والجداول، وكان في صمته صحراء، وفي كلامه جنّة غنّاء.

نعم كان يسوع شاعراً قد أقام قلبه في مظلة تسمو على أعلى أعالينا، ومع أن ترانيمه أنشدت لآذاننا فقد أنشدت أيضاً لآذان أخرى، وسمعها الناس في بلاد أخرى حيث الحياة كلها شباب دائم والزمان كله فجر مقيم.

قد حسبت نفسي شاعراً فيما مضى، ولكنني عندما وقفت أمامه في بيت عنيا عرفت للحال ما مقام الضارب على آلة ذات وتر واحد أمام الذي يأمر جميع الآلات وجميع الأوتار فتطيعه، فقد اجتمع في صوته ضحك الرعود، ودموع الأمطار، ورقص الرياح والأشجار.

ومذ عرفت هذا صارت قيثارتي ذات وتر واحد، ولم يعد لصوتي أن يحوك لا تذكارات الأمس ولا آمال الغد، ولذلك رميت بقيثارتي جانباً وعوّلت على الاعتصام بالصمت. ولكنني عند كل شفق أصغي بجماع نفسي، لأسمع الشاعر الذي هو أمير جميع الشعراء.

لاوي التلميذ

في المجربين والمرائين

في أحد الأمساء مرّ يسوع ببيتي، فاستيقظت نفسي في أعماقي.

فخاطبني قائلاً: هلمّ يا لاوي واتبعني.

فتبعته في ذلك اليوم.

وفي مساء اليوم التالي طلبت إليه أن يدخل بيتي ويشرفني بضيافته، فعبر فوق عتبتي هو وأصدقاؤه وباركني مع امرأتي وأولادي.

وكان في بيتي ضيوف غيره من الكتبة والعلماء ولكنهم كانوا ضدّه في قلوبهم.

وعندما جلسنا إلى المائدة سأله أحد الكتبة قائلاً:

أحقيقة أنك أنت وتلاميذك تكسرون الشريعة بإيقادكم ناراً يوم السبت؟

فأجابه يسوع قائلاً: نحن بالحقيقة نوقد ناراً يوم السبت، فإنّنا نودّ أن ننير يوم السبت، ونحرق بمشعلنا كل القش اليابس المتجمع في جميع الأيام.

فقال له كاتب آخر: وقد أخبرونا أنك تشرب خمراً مع غير الأنقياء في الفندق.

فأجاب يسوع وقال: نعم وهذه أيضاً نتنعم بها. أفهل جئنا إلى هنا إلاّ لنشاطر غير المتوّجين فيكم رغيفهم وكأسهم؟

قليلون، بل أقلّ من القليلين هم الذين لا ريش لهم ولكنهم يجرؤون على مقاومة الريح، وكثيرون هم المجنّحون والمريّشون الذين ما برحوا في أعشاشهم.

ونحن نطعم الجميع بمنقارنا، الكسالى والمجتهدين بالسوية.

فقال كاتب ثالث: ألم أسمع أنّك تحامي عن زواني أورشليم؟

حينئذ رأيت بعيني كأنّ أعالي لبنان الصخرية قد ارتسمت على وجه يسوع، فقال: نعم، كل ما سمعتموه حقيقي.

ففي يوم الحساب ستقف هؤلاء النساء أمام عرش أبي وسيتنقين بدموعهن، أما أنتم فسيحكم عليكم بقيود دينونتكم.

إن بابل لم تخربها الزواني، ولكن بابل تحوّلت إلى رماد لكي لا تنظر عيون المرائين فيها نور النهار فيما بعد.

وكان كتبة آخرون يودون أن يسألوه أيضاً، غير أنّني أشرت عليهم بالصمت، لأنني عرفت أنّه سيخذلهم، وبصفتهم ضيوفاً في بيتي لم أشأ أن تلحقهم إهانة.

وعند انتصاف الليل ترك الكتبة منزلي وقد تخلعت نفوسهم.

حينئذٍ أغمضت عينيّ فرأيت، كما لو كنت في رؤيا، سبع نساء بثياب

بيضاء واقفات حول يسوع. وكنّ واقفات بخشوع وقد صلّبن أذرعهنّ على صدورهنّ وحنينَ رؤوسهنّ. وإذ تأمّلت مليّا بضباب حلمي نظرت وجه واحدة منهنّ فأشرق لامعاً في ظلمة خيالي.

وكان ذلك الوجه وجه الزانية التي عاشت في أورشليم.

ثم فتحت عينيّ ونظرت إلى يسوع، فإذا هو يبتسم وينظر إليّ وإلى جميع الذين لم يتركوا المائدة.

فأغمضت عينيّ ثانية، وهنالك رأيت في النور سبعة رجال بثياب بيضاء واقفين حول المعلم وإذا تأملتهم عرفت وجهاً من وجوههم.

وكان ذلك الوجه وجه اللصّ الذي صلب فيما بعد عن يمينه وبعد ذلك ترك يسوع وأصحابه منزلي وساروا في طريقهم.

أرملة الجليل

يسوع القاسي

كان ابني بكراً لي وكان الولد الوحيد الذي ولدته. وكان يشتغل في حقلنا، وكان راضياً بعمله حتى سمع الرجل المدعو يسوع يخاطب الجموع، حينئذٍ تغير ابني فجأة، كأن روحاً غريبة غير صحيحة عانقت روحه.

فترك الحقل والبستان، وتركني أنا أيضاً، وصار خاملاً يعيش بين رعاع الطريق.

إن ذلك الرجل، المدعو يسوع الناصري، شرير، لأن أي رجل صالح يفصل ابناً عن والدته؟

وكان آخر ما قاله لي ابني هكذا: أنا ماضٍ مع أحد تلاميذه إلى البلاد الشمالية، لأنّني قد جدّدت بناء حياتي على صخرة الناصري، أنت قد ولدتني

وأنا شاكر لك صنيعك، ولكن الواجب الأسمى يدعوني إلى الذهاب، أما أنا تارك لك أرضنا الغنية وكل ما لنا من الفضة والذهب؟ إنّني لن أحمل معي شيئاً إلا هذا الثوب وهذه العصا.

هكذا خاطبني ابني وفارقني.

واليوم قد قبض الرومانيون والكهنة على يسوع وصلبوه، وحسناً فعلوا.
فإن الرجل الذي يفرّق الابن عن أمّه لا يمكن أن يكون من الله.
والرجل الذي يرسل أولادنا إلى مدن الأمم لا يقدر أن يكون لنا صديقاً.

إنّني أعرف أنّ ابني لن يرجع إليّ، فقد رأيت ذلك في عينيه، ولأجل هذا أبغض يسوع الناصري الذي سبب وحدتي في هذا الحقل غير المفلوح وهذا البستان الذابل.

وقد أبغضت كل من يمدحه.

قيل لي منذ أيام إن يسوع قال مرة: إن أبي وأمي وإخوتي هم الذين يسمعون كلامي ويتبعونني.

ولكن لماذا يجب على الأبناء أن يتركوا أمهاتهم ويتبعوا خطواته؟
ولماذا يجب أن ينسى حليب ثدييّ في سبيل ينبوع لم يذق بعد؟ وحرارة ذراعيّ يعرض عنها من أجل بلاد الشمال الباردة والممتلئة بالعداء؟

إلا أنني أبغض ذلك الناصري، وسأبغضه إلى آخر أيامي، لأنّه سرق بكري وحرمني وحيدي.

يهوذا نسيب يسوع

موت يوحنا المعمدان

حدث في ليلة من ليالي آب أنّنا كنّا مع المعلم في مرج قريب من البحيرة، وقد أطلق القدماء على هذا المرج اسم مرج الجماجم.

وكان يسوع مضطجعاً على العشب يتأمل النجوم.

وحدث فجأة أن رجلين ركضا إلينا بأنفاس متقطّعة، وكانت أمائر الألم مرتسمة على ملامحهما، فركعا على قدمي يسوع.

فوقف يسوع وقال لهما: من أين جئتما؟

فأجابه أحدهما: من ماخاروس.

فنظر إليه يسوع مضطرباً وقال: وما حلّ بيوحنّا؟

فأجابه الرجل: قد قتلوه اليوم، وقد قطعوا رأسه في سجنه، فرفع يسوع رأسه، ثم مشى بعيداً عنّا قليلاً، وبعد هنيهة رجع ووقف في وسطنا.

فقال لنا: كان في منال الملك أن يقتل النبي قبل اليوم، بالحقيقة إن الملك قد جرب كل ملذات رعاياه، ولكن ملوك القدماء لم يكونوا بطيئين هكذا بإعطاء رأس نبي لصيادي الرؤوس.

إنّني لست حزيناً من أجل يوحنا، بل أنا حزين من أجل هيرودوس الذي سمح بسقوط السيف، مسكين هو الملك! فهو كالحيوان الذي يقبضون عليه ويقودونه بحلقة وحبل.

ما أشقى رؤساء الربع هؤلاء! فإنهم إذ يتيهون في ظلمتهم يعثرون ويسقطون. وهل ترجون من البحر القذر إلا أسماكاً ميتة؟

أنا لا أبغض الملوك، فليحكموا الناس، ولكن على شرط أن يكونوا أحكم من الناس.

ثم نظر المعلم إلى وجهي الرسولين الكئيبين وإلى وجوهنا وخاطبنا ثانية وقال: قد ولد يوحنا مجروحاً. وكان دم جرحه يفيض مع كلامه. فقد كان

حرية لم تتحرّر بعد من ذاتها، وصبراً لا يعرف إلا المستقيمين والأبرار.

بالحقيقة إنّه كان صوتاً صارخاً في أرض الذين لهم آذان ولا يسمعون، وقد أحببته في كآبته ووحدته.

وأحببت كبرياءه التي قدمت رأسها للسيف قبل أن تسلمه للتراب.

الحق أقول إن يوحنا بن زكريا هو آخر أبناء جنسه، وقد قتل كأسلافه بين عتبة الهيكل والمذبح.

ثم مشى ثانية بعيداً عنا قليلاً.

وبعد دقيقة من الزمان رجع وقال: هكذا كان وهكذا سيكون. إن الذين يحكمون ساعة سيقتلون الذين يحكمون أعواماً، وهكذا سيكون أبداً انهم يعقدون مجالسهم ويحكمون على الرجل الذي لم يولد بعد، ويقضون بموته قبل أن يرتكب الجريمة.

إن ابن زكريا سيعيش معي في ملكوتي وسيكون نهاره طويلاً.

ثم التفت إلى تلميذي يوحنا وقال: لكل عمل غده، وأنا نفسي قد أكون غداً لهذا العمل، فاذهبا إلى أصدقاء صديقي وقولا لهم إنّني سأكون معهم.

فانصرف الرجلان في طريقهما، وكانا أقلّ كآبة من الوقت الذي وصلا فيه.

أما يسوع فاضطجع على العشب ثانية وبسط ذراعيه وعاد إلى التأمل بالنجوم.

وكانت ساعة متأخرة من الليل، وكنت متكئاً بجانبه، أتوق إلى الراحة من كل قلبي، ولكن يداً خفية كانت تقرع على بوابة نومي، ولذلك بقيت مستيقظاً حتى دعاني يسوع والفجر إلى الطريق.

رجل من الصحراء

في الصيارفة

كنت غريباً في أورشليم، وقد أتيت إلى المدينة المقدّسة لأنظر الهيكل العظيم، وأقدم ذبيحتي على المذبح، لأن زوجتي ولدت صبيين توأمين لقبيلتي.

وبعد أن قدّمت ذبيحتي وقفت في رواق الهيكل أنظر إلى الصيارفة وبائعي الحمام، وأصغي إلى الضجيج العظيم المتصاعد من الدار.

وفيما كنت واقفاً دخل رجل فجأة ووقف في وسط الصيارفة وبائعي الحمام. وكان رجلاً وقوراً عظيماً، وقد دخل بسرعة عجيبة.

وكان يحمل بيده حبلاً مصنوعاً من جلود التيوس، فشرع يقلب موائد الصيارفة ويضرب بائعي الطيور بحبله.

وقد سمعته يقول بصوت عظيم: أطلقوا هذه الطيور في الجو الذي هو عشّها.

وكان الرجال والنساء يهربون من أمام وجهه، وهو يتحرك بينهم كما تتحرك زوبعة الرياح على تلال من الرمل.

كل هذا حدث بلحظة واحدة، ففرغت دار الهيكل من الصيارفة. ولكن الرجل وقف هناك وحده، وكان أتباعه يقفون بعيداً عنه.

ثم أدرت وجهي فرأيت رجلاً آخر في رواق الهيكل. فسرت إليه وقلت له: هل لسيدي أن يخبرني من هو هذا الرجل الواقف وحده كأنّه هيكل ثانٍ؟ فأجابني وقال: هذا هو يسوع الناصري، النبي الذي ظهر أخيراً في الجليل، ولكن جميع الناس هنا في أورشليم يبغضونه.

فقلت: إن في قلبي من القوة ما يحملني لأن أكون مع سوطه، وفيه من الاستسلام ما يحملني للسجود عند قدميه.

أما يسوع فإنّه رجع إلى رفقائه الذين كانوا ينتظرونه، ولكن قبل أن يصل إليهم رجعت ثلاث حمامات من حمام الهيكل فحطت واحدة على كتفه اليسرى والاثنتان عند قدميه، فوضع يده بلطف عجيب على كل منها، ثم تابع سيره، وكان في كل خطوة من خطواته فراسخ عديدة.

بربّكم أخبروني بأية قوة ضرب المئات من الرجال والنساء وفرّقهم من غير أقل مقاومة؟ فقد قيل لي إنهم كلّهم أبغضوه، ولكن لم يجرؤ أحد أن يقف أمامه في ذلك اليوم، فهل قلع أنياب البغض في طريقه إلى دار الهيكل؟

بطرس
في مستقبل التلاميذ

ذهب بنا يسوع مرةً عند غروب الشمس إلى قرية بيت صيدا. وكان التعب آخذاً مأخذه من جماعتنا، وكان غبار الطريق محيقاً بنا. فأتينا إلى منزل كبير في وسط بستان جميل، وكان رب البيت واقفاً أمام البوابة.

فقال له يسوع: إن هؤلاء الرجال تعبون، وقد تقرحت أقدامهم من المشي، فدعهم ينامون في بيتك، فإن الليلة باردة وهم في حاجة إلى الدفء والراحة.

فأجاب الغني وقال: إنهم لن يناموا في بيتي.

فقال له يسوع: فاسمح لهم إذاً أن يناموا في بستانك.

فأجاب الرجل: كلاّ ولا أسمح لهم بالنوم في بستاني.

ثم التفت يسوع إلينا وقال: إن هذا مثال مما ستصيرون إليه في الغد، وهذا الحاضر يشبه مستقبلكم، إن جميع الأبواب ستقفل في وجوهكم، حتى أن البساتين المتكئة تحت النجوم ستقفل أبوابها دونكم.

فإذا صبرت أقدامكم على عناء الطريق وثبتم، تتبعوني، فإنكم قد تجدون طستاً وفراشاً، وربما خبزاً وخمراً أيضاً. ولكن إذا حدث ولم تجدوا شيئاً من هذا فلا تنسوا في ذلك الوقت أنكم قد عبرتم صحراء واحدة من صحارى معلمكم.

هلم بنا نمضي من هنا.

أما الرجل الغني فإنّه كان مضطرباً، وقد تغير لون وجهه، وكان ينطق بكلمات لم أسمعها، فتحول عنّا وارتد إلى بستانه.

وهكذا تبعنا يسوع على الطريق.

ملاخي الفلكي البابلي
في عجائب يسوع

تسألونني عن عجائب يسوع.

في كل ألف ألف سنة تجتمع الشمس والقمر وهذه الأرض وجميع شقيقاتها السيارات في خطّ مستقيم، ويتباحثن معاً هنيهة واحدة.

ثم يتفرقن ببطء وينتظرن مرور ألف ألف سنة أخرى.

لا عجائب في الوجود وراء الفصول، ولكن أنت وأنا لا نعرف كلّ الفصول، وما قولك في فصل كامل يتجسد بشكل رجل واحد؟.

في يسوع اجتمعت كل عناصر أجسادنا وأحلامنا طبقاً للشريعة. وكل ما كان من قبله سابقاً لأوانه قد وجد فيه أوانه.

يقولون إنّه كان يعطي العميان بصراً والمقعدين مقدرةً على المشي، وإنه كان يخرج الشياطين من المجانين.

قد لا يكون العمى إلا فكرةً مظلمة يمكن التغلب عليها بفكرة ملتهبة. وقد لا يكون العضو المشلول إلا خمولاً يمكن إيقاظه بالقوة المتحركة.

وقد يكون أن الشياطين، وهي العناصر القلقة في حياتنا، تخرجهم منّا ملائكة السلامة والطمأنينة.

ويقولون إنّه أعاد الموتى إلى الحياة. فإذا كنت تقدر أن تخبرني ما هو الموت فأنا حينئذ أخبرك ما هي الحياة.

نظرت مرة في أحد الحقول بلوطة هادئة لا قيمة لها ولا شأن. وعدت في الربيع فرأيت تلك البلوطة تمدّ جذورها في الأرض وتنهض لتصير سنديانة جبارة أمام وجه الشمس.

أنت ولا شك تحسب هذا أعجوبة، ولكن هذه الأعجوبة تصنع ألف ألف مرة في غفلة كل خريف وشوق كل ربيع.

فماذا يمنع حصولها في قلب الإنسان؟ أفلا تقدر الفصول أن تجتمع في يد إنسان ممسوح أو على شفتيه؟.

فإذا كان إلهنا قد منح الأرض أن تحتضن البذور في حين أن البذور ميتة بحسب الظاهر، فلماذا لا يمنح قلب الإنسان أن ينفخ نسمة الحياة في قلب آخر، وإن كان هذا القلب ميتاً بحسب الظاهر؟.

قد تكلمت عن هذه العجائب التي لا أعيرها سوى القليل من الانتباه تجاه الأعجوبة الكبرى، التي هي الرجل نفسه، العابر السبيل، الرجل الذي حوّل نفاية الصدإ فيّ إلى ذهب وهّاج، وعلمني كيف أحبّ الذين يبغضونني، وبعمله هذا حمل إليّ التعزية الكاملة وكلل نومي بالأحلام اللذيذة.

هذه هي الأعجوبة في حياتي.

كانت نفسي عمياء، وكانت نفسي عوجاء، وكان في أعماقي كثير من الأرواح القلقة، وكنت ميتاً.

أما اليوم فأنا أرى بوضوح، وأمشي مستقيماً، وقد عاودتني سلامتي وأنا

أعيش لأشهد وأعلن عجائب كياني في كلّ ساعة من النهار.

وأنا لست من أتباعه، بل أنا فلكي شيخ أزور حقول الفضاء مرة في كل فصل، وأحترم الشريعة وأصدق بعجائبها.

أنا الآن في شفق زماني، ولكنني كلما فتشت عن فجره إنما أفتش بالحقيقة عن شباب يسوع.

إن العمر ينشذ الشباب أبداً، ولكن بي تفتش المعرفة عن الرؤيا.

فيلسوف
في العجب والجمال

عندما كان معنا كان ينظر إلينا وإلى أعمالنا بعين العجب، لأن عينيه لم تتقنّعا ببرقع السنين، وكل ما رآه كان واضحاً في نور شبابه.

ومع أنّه سبر غور الجمال فقد كان ينذهل أبداً أمام سلامه وجلاله، وقد وقف أمام الأرض كما وقف الإنسان الأول أمام اليوم الأول.

أما نحن الذين تخدرت حواسنا فإننا ننظر في نور النهار الكامل ولكننا لا نرى شيئاً. فنحن نحجم آذاننا ولكننا لا نسمع، ونمد أيدينا ولكننا لا نلمس، ولو احترق أمامنا كل بخور العربية فإننا نسير في طريقنا من غير أن نشتمّ رائحة.

نحن لا نرى الزارع عائداً من حقله عند المساء، ولا نسمع مزمار الراعي وهو يقود قطيعه إلى العلف، ولا نمدّ أذرعنا لنلامس غروب الشمس، ومشامنا لا تجوع فيما بعد لعبير زهور شارون.

أجل، نحن لا نكرم ملوكاً بدون ممالك، ولا نسمع أنغام القيثارة ما لم نضع أوتارها بأيدينا، ولا نرى الولد الذي يلعب في بستان زيتوننا كما لو كان

هو نفسه شجرة من الزيتون. وجميع الأقوال يجب أن تخرج من شفاه من اللحم، وإلا فنحن نحسب بعضنا بعضاً خرساً وصُمّاً.

بالحقيقة إنّنا ننظر ولا نبصر، ونصغي ولا نسمع، ونأكل ونشرب ولكننا لا نذوق. وفي جميع هذا يقوم الفرق الأولي بين يسوع الناصري وبيننا.

فقد كانت جميع حواسه تتجدّد فيه أبداً، وكان العالم في نظره جديداً دائماً.

ولم يكن نظره إلى تمتمة الطفل بأقلّ من نظره إلى صراخ الإنسانية بكاملها، في حين أنها في نظرنا تمتمة طفل لا أكثر ولا أقل.

وكان جذرالشقيق الأصفر في عقيدته حنيناً إلى الله، ولكنه ليس في نظرنا سوى جذر بسيط.

أوريا الشيخ الناصري
كان غريباً في وسطنا

كان غريباً في وسطنا، وكانت حياته مستوزة تحت نقاب مظلم. لم يسر في طريق إلهنا، ولكنه اتبع طرق الأشرار والأردياء.

قد ثارت صبوته ورفضت حلاوة الحليب الذي في طبيعتنا.
وكان شبابه ملتهباً كالقش اليابس المحترق في الليل.
وعندما صار رجلاً حمل السلاح ضدنا جميعاً.

إن أمثال هؤلاء الرجال يحبل بهم في جزر اللطف البشري ويولدون في العواصف الشريرة، وفي العواصف الهوجاء يعيشون يوماً ثم يهلكون إلى الأبد.

ألا تتذكرونه جيداً وهو في عهد الفطام، يجادل شيوخنا العلماء ويهزأ

بجلالهم ووقارهم؟.

أفلا تذكرون شبابه، إذ عاش بين المنشار والإزميل رافضاً أن يرافق أبناءنا وبناتنا في أيام الأعياد ومختاراً العزلة لنفسه؟.

ولم يكن يردّ تحية لمن يحيّيه من المارة كأن طينته أرفع من طينتنا. قد رأيته أنا نفسي مرةً في الحقل فحييته، فابتسم فقط، فرأيت في ابتسامته غطرسة واحتقاراً.

وبعد ذلك بقليل من الزمن ذهبت ابنتي إلى الكرم مع رفيقاتها لتقطف العنب، وهي أيضاً خاطبته فلم يردّ عليها جواباً.

بيد أنّه وجه خطابه لجميع العاملات في الكرم، كأن ابنتي لم تكن معهن.

وعندما ترك أهله وهام في البلاد خسر كل شيء وصار ثرثاراً، وكان صوته كالمخلب ينشب في أجسادنا، ولا يزال صدى صوته ألماً في ذاكرتنا.

إنّه لم يتكلم بغير الشر عنّا وعن آبائنا وأجدادنا. وكان لسانه كالسهام المسمومة في قلوبنا.

هذا هو يسوع.

ولو كان هذا ابناً لي لكنت أرسلته مع جيوش الرومانيين إلى بلاد العرب. ولكنت طلبت إلى القائد أن يضعه في مقدمة المقدمة من الجيش في ساحة الحرب لتذهب به سهام العدو وتحررني من غطرسته ووقاحته.

ولكن لا ابن لي. وأنا شاكر ربي على ذلك، لأنّه ماذا كان يصيبني لو أن ابني كان عدواً لشعبه، وكان شعري الأبيض اليوم يطلب الرماد في عاره ولحيتي البيضاء تحتقر وتهان؟.

نيقوذيموس الشاعر
أصغر الشيوخ في السنهدريم

كثيرون هم الأغنياء الذين يقولون إن يسوع وقف في طريق نفسه وقاوم ذاته، وإنّه لم يعرف فكره، وفي ضياع هذه المعرفة عمل على تضليل ذاته.

بالحقيقة ما أكثر البوم التي لا تعرف من الأغاني غير ما شابه نعيبها.

أنا وأنت نعرف مشعوذي الكلام الذين لا يحترمون إلاّ من كان أكبر شعوذة منهم، هؤلاء هم الذين يحملون رؤوسهم في سلال إلى السوق ويبيعونها بأول ثمن يعرض عليهم.

نحن نعرف الأقزام الذي يتحاملون على من تلمس رؤوسهم السماء، ونعرف ما يقوله العوسج عن السنديانة والأرزة.

إنني أشفق عليهم لأنهم لا يقدرون أن يصعدوا إلى الأعالي.

إنني أشفق على الشوكة الجافة في حسدها للدردار الذي يجرؤ على الفصول.

ولكن الشفقة، ولو أحاط بها أسف جميع الملائكة، فهي لا تحمل لهم نوراً.

إنّني أعرف اللعين الذي يتمايل بأثوابه الرثة على أدنات الزرع ولكنه ميت أمام الزرع وأمام الريح المترنّمة.

وأعرف العنكبوت التي لا جناح لها تحوك الشباك لاصطياد كل ذي جناح.

وأعرف الماكرين، ونافخي الأبواق، وضاربي الطبول، الذين لا يستطيعون في وفرة ضجيجهم أن يسمعوا قنبرة السماء ولا الريح الشرقية في الغابة.

وأعرف الذي يجذّف في جميع الجداول ولكنه لا يجد الينبوع، ويركض

مع جميع الأنهار ولكنه لا يجرؤ على السير إلى البحر.

وأعرف الذي يقدّم يديه البليدتين إلى رئيس البنّائين في الهيكل، وعندما ترفض يداه البليدتان ينبري قائلاً في ظلمة قلبه: سأهدم كل ما سيبني.

إنني أعرف جميع هؤلاء. فهم الذين يعترضون على أن يسوع قال مرّة: إنني أحمل سلاماً لكم. وفي مرة ثانية قال: إنّني أحمل سيفاً.

فهم لا يقدرون أن يفهموا أنّه نطق بالحقيقة عندما قال: إنّني أحمل سلاماً لأبناء السلامة، وأضع سيفاً بين من يحبّ السلام ومن يحب السيف.

ويتعجبون كيف أن الذي قال: إن مملكتي ليست من هذا العالم، قال أيضاً: أعطوا ما لقيصر لقيصر. ولكنهم لا يعلمون أنهم إذا رغبوا حقاً في أن يكونوا أحراراً ليدخلوا ملكوت رغبات قلوبهم، فالواجب يقضي عليهم ألا يقاوموا الحارس الواقف على بوابة حاجتهم. ففي مصلحتهم أن يدفعوا ذلك الرسم الحقير ليدخلوا إلى تلك المدينة.

هؤلاء هم القائلون: قد علّم باللطف والحنان والمحبة العائلية ولكنه لم يحفل بأمه وبأخوته عندما كانوا يفتشون عنه في شوارع أورشليم.

وهم لا يعلمون أن أمه وأخوته كانوا يودون في مخاوف رغبتهم أن يرجعوه إلى مصنع النجار، أما هو فكان يريد أن يفتح عيوننا لنبصر فجر يوم جديد.

إن أمه وأخوته) كانوا يريدون أن يعيش في ظل الموت، أما هو فقد استنهد الموت على تلك التلة ليظل حياً في ذاكرتنا التي لا تنام.

إنني أعرف هذه المناجذ التي تحفر الأنفاق بدون غاية معروفة. أليسوا هم الذين يتحاملون على يسوع بقولهم إنه كان يعظم نفسه عندما قال للجموع: أنا الطريق والباب للخلاص، وإنه دعا نفسه الحياة والقيامة؟

ولكن يسوع لم يدعِ لنفسه أكثر مما يدعي شهر أيار في مدِّه.

أفما كان له أن يعلن الحقيقة اللامعة لأن لمعانها كان شديداً؟

فقد قال بالحقيقة إنه الطريق والحياة والقيامة للقلب، وأنا نفسي أشهد بصحة هذا القول.

أفلا تتذكرونني أنا نيقوذيموس، الذي لم يؤمن بغير الشريعة وأوامر الناموس، وكان في مقدمة الطائعين للقانون؟

فانظروا إلي الآن، تروا رجلاً يمشي مع الحياة، ويضحك مع الشمس من ابتسامتها الأولى للجبال حتى تسلم نفسها إلى فراشهاوراء التلال.

لماذا تتوقفون أمام كلمة الخلاص؟

فأنا نفسي بواسطته حصلت على خلاصي.

فلا يهمني اليوم ما سيصيبني في الغد، لأنني أعرف أن يسوع أنعش منامي وجعل لي من أحلامي البعيدة رفقاء وأصدقاء للطريق.

فهل أصير أصغر من إنسان إذا آمنت بمن هو أعظم من إنسان؟.

إن حواجز اللحم والدم قد سقطت عندما خاطبني شاعر الجليل. وقد قبضت عليّ روح، فارتفعت إلى الأعالي، وفي وسط الهواء جمعت أجنحتي أغنية الهواء النقي.

وعندما نزلت عن متن الريح وظهرت غرابة آرائي في السنهدريم، فإنني حتى في ذلك المجلس الأعلى لم أخسر أغنيتي، لأن ضلوعي، التي هي أجنحتي بغير ريش، قد احتفظت بالأغنية وحرستها. وكل ما في الأرض الحقيرة من الفقر المدقع الن يستطيع أن يسلبني كنزي.

قد تكلمت بما فيه الكفاية. دع الطرش يدفنون تمتمة الحياة في آذانهم الميتة. فأنا راضٍ بأنغام قيثارته التي كان يحملها ويضرب على أوتارها عندما سمّروا يدي جسده على الصليب ونزفت منهماالدماء.

يوسف الذي من الرامة

بعد عشر سنوات

الجدولان النابعان من قلب يسوع

كان في قلب الناصري جدولان يجريان: جدول القرابة مع الله الذي سماه أباً. وجدول الهيام الذي دعاه ملكوت العالم العلوي. وفي عزلتي طالما فكرت فيه، وتبعت هذين الجدولين النابعين من قلبه. فعلى حافة الجدول الأول وجدت نفسي. وكانت نفسي تارة متسولة وهائمة، وطوراً أميرة في بستانها.

ثم تبعت الجدول الثاني في قلبه، وفي طريقي وجدت رجلاً ضربه اللصوص وسرقوا ذهبه. ولكن الابتسامة لم تفارق شفتيه. ولكنني لم أبعد قليلاً حتى وجدت اللصوص الذين سرقوه. وبعد أن تأملت وجوههم رأيت على وجناتهم دموعاً لم تذرفها عيونهم بعد.

ثم سمعت خرير هذين الجدولين في أعماقي أنا أيضاً، فامتلأت بهجة.

عندما زرت يسوع قبل أن قبض عليه بيلاطس البنطي والشيوخ بيوم واحد، تكلمنا ملياً. وسألته أسئلة كثيرة. وقد أجاب على جميع مسائلي بكمال المسرة. وعندما تركته عرفت أنه هو الرب والسيد لهذه الأرض التي نعيش فيها.

وقد سقطت الأرزة منذ عهد طويل ولكن عطرها سيقيم أبداً.

وسينشد زوايا الأرض الأربع إلى الأبد.

جاورجيوس البيروتي

في الغرباء

كان يسوع مع أصدقائه في حرج الصنوبر وراء سياجي، وكان يخاطبهم.

فوقفت قريباً من السياج أتسمع على كلامه. فقد عرفته من هو، لأن شهرته وصلت إلى هذه الشواطئ قبل أن زارها هو.

وعندما فرغ من كلامه تقدمت إليه وقلت له: هلم يا سيدي مع هؤلاء الرجال وشرف منزلي بزيارتك.

فنظر إليّ مبتسماً وقال: ليس في هذا اليوم، يا صاح، ليس في هذا اليوم.

وكان في كلماته بركة، وشعرت بأن صوته يضمني كالرداء الصوفي في ليلة باردة.

ثم التفت نحو أصدقائه وقال: انظروا رجلاً لا يحسبنا غرباء ، ومع أنه لم ينظرنا قبل اليوم فهو يدعونا إلى بيته.

بالحقيقة إنه لا يوجد غرباء في ملكوتي. إن حياتنا هي حياة جميع الناس، وقد أعطيناها لنعرف جميع الناس، وبتلك المعرفة نحبهم.

إن أعمال جميع الناس هي أعمالنا بعينها الخفية والظاهرة.

استحلفكم ألا تكونوا ذاتاً واحدة، بل ذوات عديدة ـ مالك البيت ومن لا بيت له، الزارع والزرزور الذي يلتقط الحبوب قبل أن تنام في الأرض، المعطي الذي يعطي بشكر والمستعطي الذي يأخذ بكبرياء ومعرفة.

إن جمال النهار لا يقتصر على ما ترونه أنتم، بل يشمل ما يراه غيركم أيضاً.

لأجل هذا قد اخترتكم من بين الكثيرين الذين اختاروني.

ثم نظر إلي وتبسم ثانية وقال: إنني أقول كل هذا لك أنت أيضاً، وانت أيضاً ستذكر كلماتي.

ثم توسلت إليه قائلاً: يا سيدي أفلا تزورني في بيتي؟

فأجاب: إنني أعرف قلبك وقد زرت بيتك الأكبر.

وعندما مشى قليلاً مع تلاميذه قال: أسعد الله مساءك وليكبر الله بيتك حتى يؤوي جميع الهائمين في هذه الأرض.

مريم المجدلية
كان فمه كقلب الرمانة

كان فمه كقلب الرمانة، وكانت ظلال عينيه عميقة.

كان لطيفاً كالرجل الذي يعرف قوته.

قد رأيت في أحلامي ملوك الأرض واقفين احتراماً في حضرته.

إنني أود أن أتكلم عن وجهه، ولكن كيف أستطيع ذلك؟
فقد كان كالليلة التي لا ظلمة فيها، وكالنهار الذي لا يعرف ضجيج النهار. كان وجهاً كئيباً، ولكنه كان ممتلئاً فرحاً.

إنني أتذكر جيداً كيف رفع يده مرة نحو السماء، فبدت أصابعه المتفرقة كأغصان الدردار.

وأذكره جيداً وهو يقيس الماء بخطواته، إنه لم يكن يمشي. فهو نفسه كان طريقاً فوق الطريق. كما أن السحابة التي فوق الأرض تنحدر لتنعش الأرض.

بيد أنني عندما وقفت أمامه وخاطبته كان رجلاً، وكان وجهه يملأ عين الناظر إليه بقوة. وقد قال لي: ماذا تريدين يا ميريام؟

إنني لم أجاوبه، ولكن أجنحتي احتضنت سري، فسرت الحرارة في جسدي.

وإذ لم أقدر على احتمال نوره تركته وسرت في طريقي، ولكن عاري فارقني. ولم يبقَ لي سوى الحياة فقط، والرغبة في أن أكون وحدي لتضرب أصابعه على أوتار قلبي.

يوثام الناصري إلى أحد الرومانيين
في الحياة والوجود

أنت يا صديقي كجميع الرومانيين، تود أن تتصور الحياة أكثر من أن تحياها. وتفضل أن تحكم الأرض ولا تكون محكوماً من الروح.

أنت تفضل أن تقهر الشعوب فيلعنك أبناؤهم، على أن تبقى في روما مباركاً سعيداً.

أنت لا تفكر إلا في الجيوش الزاحفة والسفن الماخرة في البحر.

إذن كيف تستطيع أن تفهم يسوع الناصري، الرجل البسيط الوحيد الذي جاء بغير الجيوش والسفن، ليؤلف مملكة في القلب وامبراطورية في حرية فضاء النفس؟.

كيف تقدر أن تفهم هذا الرجل الذي لم يكن محارباً لكنه جاء بقوة الأثير القدير؟.

فهو لم يكن إلهاً، بل كان إنساناً مثلنا، ولكن فيه نهض مرّ الأرض ليلاقي لبان السماء، وفي كلماته تعانقت تمتمتنا مع همس غير المنظور، وفي صوته سمعنا انشودة لا يسبر غورها.

نعم، كان يسوع إنساناً ولم يكن إلهاً. وفي هذا منتهى عجبنا ودهشنا.

ولكن أنتم الرومانيين لا تتعجبون إلا أمام الآلهة. وما من رجل يدهشكم، لأجل ذلك لا تفهمون الناصري.

فقد اختص هو بشباب الفكر. أما أنتم فقد اختصصتم بشيخوخته.

أنتم تحكموننا اليوم. ولكن فلننظر يوماً آخر.

من يدري إذا كان هذا الرجل الذي لا جيوش ولا سفن لديه سيحكم الغد؟.

نحن الذين نتبع الروح ستنسكب أعراقنا دماء في سفرنا وراءه. ولكن رومة ستضطجع كالهيكل العظمي في الشمس.

نحن سنتألم كثيراً، ولكننا سنصبر. وسنعيش، ولكن رومة يجب أن تصير إلى التراب.

ولكن إذا كانت رومة، بعد أن توضع من رفعتها وتصير إلى ضعتها. تتلفظ باسمه. فإنه يصغي إلى صوتها وينفخ في عظامها نسمة حياة جديدة. لتنهض ثانية مدينة حية بين مدن الأرض.

كل هذا سيفعله بغير جيوش ولا عبيد يجذفون في قواربه، لأنّه سيكون وحيداً.

أفراييم من أريحا
وليمة العرس الثاني

عندما جاء ثانية إلى أريحا ذهبت إليه وقلت له: يا معلّم، غداً يتخذ ابني لنفسه زوجة. فأرجو من فضلك أن تحضر إلى وليمة العرس وتشرفنا بحضورك، كما شرفت العرس في قانا الجليل.

فأجاب وقال: بالحقيقة إنني كنت ضيفاً في وليمة عرس مرةً ولكنني لن أكون ضيفاً ثانيةً، فأنا نفسي اليوم عروس.

فقلت له: أتوسل إليك يا معلم أن تأتي إلى وليمة عرس ابني.

فتبسم كأنه يريد أن يوبخني، وقال: لماذا تتوسل إليّ؟ ألا يوجد عندك كفاية من الخمر؟.

فقلت له: إن زقاق الخمر ممتلئة يا معلم، بيد أنّني أتضرع إليك أن تحضر إلى وليمة عرس ابني.

حينئذ قال لي: من يدري؟ فقد أحضر. نعم قد أحضر إذا كان قلبك مذبحاً في هيكلك.

وفي الغد تزوج ابني، ولكن يسوع لم يأتِ إلى وليمة العرس.

ومع أنه جاءنا ضيوف كثيرون فقد شعرت بأنّه لم يأت أحد.

بالحقيقة إنني أنا نفسي الذي استقبل الضيوف لم أكن هناك.

ومن يدري؟ فلعلّ قلبي لم يكن مذبحاً عندما دعوته. وقد أكون رغبت في أعجوبة ثانية.

برقا التاجر الصوري
في البيع والشراء

في عقيدتي أنّه لا اليهود ولا الرومانيون فهموا يسوع، حتى ولا تلاميذه أنفسهم الذين يبشرون اليوم باسمه.

فالرومانيون قتلوه، وهذه كانت زلّة لهم. والجليليون أحبوا أن يصنعوا منه إلهاً. وهذه كانت غلطة لهم.

كان يسوع من قلب الإنسان.

قد قطعت البحار السبعة بمراكبي، وتعاملت مع الملوك والأمراء والمحتالين والخداعين في ساحات المدن القصية، ولكنني لم أرَ رجلاً يفهم التجار كما فهمهم يسوع.

سمعته مرّة يضرب هذا المثل قال:

سافر أحد التجار من بلاده إلى بلاد غريبة. وكان له خادمان فأعطى كلاً منهما قبضة من الذهب وقال لهما: كما أنني أمضي إلى بلاد الغربة وراء الربح هكذا يجدر بكما أن تطلبا الربح من أموالكما. فاعتصما بالدقة في معاملة الناس أخذاً وعطاء.

وبعد سنة رجع التاجر، فسأل خادميه عما فعلاه بذهبه، فقال له الخادم الأول: تأمّل يا سيدي، فقد بعت واشتريت وربحت. فأجابه التاجر قائلاً: الربح هو لك، لأنّك تصرفت حسناً وكنت أميناً لي ولنفسك.

ثم وقف الخادم الثاني وقال له: يا سيدي قد خفت أن أخسر أموالك ولذلك لم أشترِ ولم أبع. وهوذا مالك كلّه في هذا الكيس. فأخذ التاجر ذهبه وقال له: يا قليل الإيمان. إنّك لو تاجرت وخسرت لكان ذلك خيراً لك من أن تكون كسولاً، لأنّه كما أن الريح تفرق البذور وتنتظر الأثمار هكذا يجب أن يفعل كل التجار. لذلك كان الأجدر بك أن تخدم الآخرين.

وعندما تكلم يسوع بهذا، فإنه وإن لم يكن تاجراً، فقد كشف القناع عن سرّ التجارة.

وفوق هذا. فإن أمثاله كثيراً ما كانت تحمل إلى فكري بلداناً أبعد من أسفاري، ولكنها أقرب من بيتي ومقتنياتي.

ولكن الناصري الشاب لم يكن إلهاً. ويؤلمني أن أرى أتباعه يسعون أن يعملوا من هذا الحكيم إلهاً.

فومية

رئيسة كاهنات صيدا

إلى رفيقاتها الكاهنات

احملن أعوادكنّ لأغنّي.

اضربن على الأوتار الفضية والذهبية، فإنّي أريد أن أترنم بذكرى الرجل الشجاع الذي قتل وحش الوادي ثم جلس ينظر إلى ما قتل بعين الشفقة.

احملن أعوادكنّ لنغني معاً للسنديانة الرفيعة على الأعالي.

لنترنم بذكرى الرجل الذي يلمس قلبه السماء وتحيط يده بالأوقيانوس.

الذي قبّل شفتي الموت الشاحبتين، ولكنه يرتجف الآن أمام فم الحياة..

احملن أعوادكنّ لنغني معاً للصياد الجريء على التلة، الذي اهتدى إلى الحيوان وأطلق سهمه غير المنظور، فأسقط القرن والناب إلى الأرض.

احملن أعوادكنّ لنغني معاً للشاب الباسل الذي غلب مدن الجبال، ومدن السهول المتجمعة كالأفاعي في الرمال. فهو لم يحارب ضدّ الأقزام بل ضدّ الآلهة الجائعة للحمنا والمتعطشة لدمنا.

وكالصقر الذهبي الأول لم يزاحم غير النسور، لأن أجنحته كانت كبيرة وفخورة، فلم تشأ أن تضرب من هو أضعف منها جناحاً.

احملن أعوادكن لنغني معاً أغنية البحر والجرف.

فالآلهة قد ماتوا، وهم مضطجعون بهدوء في الجزيرة المنسية في البحر المهجور. أما الذي قتلهم فإنّه جالس على عرشه. قد كان في شرخ شبابه، لأن الربيع لم يكن قد أعطاه لحية، وكان صيفه فتياً في حقله.

احملن أعوادكن لنغني معاً للعاصفة في الغابة، التي تحطم الغصن اليابس والفرع العاري من الورق، بيد أنها ترسل الجذر الحيّ ليمعن في امتصاص حليبه من ثدي الأرض.

احملن أعوادكن لنترنم معاً بأنشودة حبيبتنا الخالدة.

مهلاً يا رفيقاتي، ولا تضربن على أوتاركنّ.
اتركن أعوادكن، فنحن لا نقدر أن نغني الآن.

لأن الهمس الضعيف الذي تبعثه ألحاننا لا يقدر أن يصل إلى عاصفة، ولا قوّة له على اختراق عظمة صمته.

اتركن أعوادكنّ وتجمعن حواليّ لأعيد أقواله على مسامعكنّ وأخبركن بأعماله، لأن صدى صوته هو أعمق من محبتنا.

بنيامين الكاتب
دع الأموات يدفنون موتاهم

يقولون إن يسوع كان عدواً لرومة ولليهودية.

أما أنا فأقول إن يسوع لم يكن عدواً لإنسانٍ ولا لجنس من الناس.

فقد سمعته يقول إن طيور الجو وقنن الجبال لا تهتم بالأفاعي في أجحارها وأنفاقها.

دع الموتى يدفنون موتاهم، والبس أثواب ذاتك بين الأحياء. وحلق رفيعاً. لم أكن من تلاميذه. ولكنني تبعته مع الجماهير الكثيرة التي تبعته للتأمل بوجهه.

وكان ينظر إلىٰ رومة وإلينا نحن عبيد رومـة كما ينظر الأب إلى أولاده اللاعبين بلعبهم وهم يتخاصمون فيما بينهم على اللعبة الكبيرة. وكان يضحك من أعاليه.

أجل. كان يسوع أعظم من الولاية والأمة، بل كان أعظم من الثورة.
كان وحيداً منفرداً. وكان يقظةً كاملة.
وقد بكى كلَّ ما لم نسكبه من الدموع وتبسّم كل ثورتنا وتمردنا..

ونحن قد عرفنا أنه كان في طوقه أن يولد مع جميع غير المولودين بعد. فيساعدهم على أن يروا. ليس بعيونهم. بل ببصيرته.

كان يسوع بداءة لمملكة جديدة على الأرض. ولن يكون لتلك المملكة انتهاء.

فقد كان ابناً وحفيداً لجميع الملوك الذين بنوا مملكة الروح.

ولم يحكم عالمنا أحدٌ قطّ إلا ملوك الروح.

زكا
في مصير يسوع

أنتم تؤمنون بما تسمعونه يقال أمامكم، فآمنوا بالأحرى بما لا يقال، لأن صمت الناس أقرب إلى الحقيقة من أقوالهم.

وتسألون إذا كان يسوع قادراً أن يتخلص من عار موته وينقذ أتباعه من الاضطهاد.

وأنا أجيب أنّه بالحقيقة كان قادراً أن يتخلص من الموت لو أراد، بيد أنّه لم يطلب السلامة، ولم يهمه أن يحمي قطيعه من ذئاب الليل.

فقد عرف قسمته، وعرف ما يحمله الغد لمحبيه المخلصين، ولذلك سبق فأنبأ بما سيصيب كل واحد منا. إنه لم ينشد موته ولكنه قَبِلَ الموت، كما أن الفلاح الذي يواري حنطته في قلب الأرض يقبل الشتاء، ثم ينتظر الربيع والحصاد، وكما يضع البناء أكبر الحجارة في الأساس.

إن جماعته قد تألفت من رجال من الجليل ومن منحدرات لبنان. وكان في منال معلمنا أن يرجع بنا إلى بلادنا فنعيش مع شبابه في بساتيننا حتى تأتي الشيخوخة فتردنا إلى قلب السنين.

هل قام في طريقه حاجز يردّه إلى هياكل ضياعنا حيث كان الناس يقرأون الأنبياء ويحسرون القناع عن قلوبهم؟.

ألم يقدر أن يقول: ها أنا ماضٍ إلى الشرق مع الريح الغربية، وبقوله هذا يصرفنا بابتسامة على شفتيه؟.

نعم كان قادراً أن يقول لنا: ارجعوا إلى أهلكم لأن العالم غير مستعدّ لاستقبالي، ولذلك سأرجع بعد ألف سنة. فعلّموا أولادكم أن ينتظروا عودتي فقد كان قادراً على كل هذا لو أراده.

ولكنه عرف أنه لكي يبني الهيكل غير المنظور يجب عليه أن يضع نفسه حجر زاوية في أساسه، ويضعنا حواليه حصى صغيرة تلتصق به لقوام البناء.

وعرف أيضاً أن عصارة شجرته الممتدة أغصانها في السماء لا تأتي إلا من جذورها، ولذلك سكب دمه على جذورها، ولم يحسب ذلك ضحية بل ربحاً.

الموت يكشف الأسرار، وقد كشف موت يسوع سر حياته.

فلو أنّه هرب منكم وأنتم أعداؤه لكنتم غلبتم العالم، ولذلك لم يهرب. لأنه ما من رجل يربح الكل إلا إذا أعطى الكل.

نعم، نعم كان في مقدرة يسوع أن يهرب ويعيش إلى شيخوخة كاملة. ولكنه عرف مرور الفصول، ورغب في ترنيم أنشودة نفسه.

أي رجل يجابه عالماً متسلحاً ولا يفضل أن ينغلب لحظة لكي يسود على جميع الأجيال؟.

والآن أتريدون أن تعرفوا من قتل يسوع بالحقيقة، الرومانيون أم كهنة أورشليم؟.

فاعلموا أنه لا الرومانيون قتلوه، ولا الكهنة، ولكن العالم بأسره وقف على تلك التلة ليعطيه حقه من الاحترام.

يوناثان

بين زنابق المياه

كنت مع حبيبتي نجذف في أحد الأيام في بحيرة من الماء العذب، وكانت تلال لبنان تحيط بنا.

وكنا نمر بالصفصاف الباكي، وكنا نتمتع بظلاله الجميلة المرتسمة حوالينا.

وفيما أنا أجذف سائراً بالقارب في المياه، أخذت حبيبتي قيثارتها وشرعت تغني هكذا:

أي زهر غير عرائس النيل يعرف المياه والشمس؟.

وأي قلب غير قلبها سيعرف الأرض والسماء؟.

تأمل يا حبيبي هذه الزهرة الذهبية العائمة بين العلو والعمق كما نسبح أنت وأنا بين المحبة التي كانت منذ الأزل وستظلّ إلى منتهى الدهور.

حرك مجذافك يا حبيبي لأضرب على أوتار قيثارتي، لنتبع الصفصاف ولا نهمل زنابق المياه.

في الناصرة شاعر قلبه كقلب عرائس النيل، وقد زار هذا الشاعر نفس المرأة، وهو يعرف عطشها المتفجر من المياه، ويعرف مجاعتها للشمس في حين أن كل شفاهها شبعانة.

يقولون إنّه يعيش في الجليل.
أما أنا فأقول إنه يجذف معنا.
أفلا تقدر أن تنظر وجهه يا حبيبي؟.

أفلا تستطيع أن ترى أنّه حيث ينحني الصفصاف وتجتمع ظلاله في المياه فهناك يتحرك هذا الشاعر كما نتحرك نحن؟.

جميل أن نعرف شباب الحياة أيها الحبيب.

جميل أن نعرف أفراحه المترنمة.

أودّ لو أنّ مجاذيفك تظلّ أبداً في يدك، وأن تظلّ لي قيثارتي ذات الأوتار، حيث تضحك عرائس النيل في الشمس ويغتسل الصفصاف في المياه، ويرافق صوته حركات أوتاري.

حرك مجذافك يا حبيبي لأضرب على أوتار قيثارتي.

حنة من بيت صيدا سنة ٧٣
عمتي في صباها

قد تركتنا عمتي في صباها لتعيش في كوخ قريب من كرم قديم لوالدها.

وكانت تعيش وحدها، وكان أبناء المزارع المجاورة يأتون إليها في أمراضهم، وكانت تشفيهم بالأعشاب الخضراء، وبالجذور والأزهار اليابسة في الشمس.

وكانوا يحسبونها نبية، ولكن فريقاً من الناس دعوها عرّافة ومشعوذة. وفي أحد الأيام قال لي والدي: خذي هذه الأرغفة من خبز الحنطة إلى أختي، وهذه الجرة من الخمر والسلة من الزبيب.

فوضعت كل هذا على ظهر حمار، وسرت في طريقي حتى بلغت الكرم، ووصلت إلى كوخ عمتي، ففرحت برؤيتي جداً.

فيما نحن جلوس في فيء النهار مرّ بنا رجل على الطريق، وحيّا عمّتي قائلاً: نعمت مساء، ولتحلّ عليك بركة الليل.

فنهضت للحال ووقفت أمامه إجلالاً واحتراماً وقالت: ونعمتَ مساء يا سيد جميع الأرواح الصالحة وغالب جميع الأرواح الشريرة.
فنظر إليها الرجل بعينين تذوبان رقةً وسار في طريقه.

أما أنا فضحكت في قلبي، لأني ظننت أن عمتي مجنونة. ولكنني أعرف اليوم أنها لم تكن مجنونة، لأنني أنا هي التي لم تفهم.

وقد علمت بضحكي، مع أنه كان مخفياً في قلبي.

ولذلك قالت لي بغير غضب: اسمعي يا بنيتي، واصغي وتذكري كلامي، إن هذا الرجل الذي مرّ بنا الآن، كخيال الطير الطائر بين الشمس والأرض، سيتغلب على القياصرة وامبراطورية القياصرة، وسيبارز الثور المجنّح في بلاد الكلدان والسبع ذا الرأس البشري في مصر، وسيقهرهما، وسيحكم العالم بأسره.

ولكن هذه الأرض التي يمشي عليها الآن ستصير إلى لا شيء، وأورشليم الجالسة بغطرسة على تلتها ستطرد مخزية في الدخان أمام ريح الخراب.

وعندما تلفظت بهذه الكلمات تحول ضحكي إلى هدوء وسكون فقلت لها: ومن هو هذا الرجل، ومن أي بلاد وأية قبيلة جاء! وكيف سيغلب الملوك العظماء، وممالك الملوك العظماء!.

فأجابت: قد ولد في هذه البلاد، ولكننا رأيناه بأحلام حنيننا منذ بداءة السنين، وهو من جميع القبائل، ولذا فإنّه لا يختص بواحدة منها، وسيغلب بكلمة فمه ولهيب روحه.

ثم نهضت فجأة ووقفت كالصخرة الراسخة وقالت: فليسامحني ملاك الرب على التلفظ بهذه الكلمة أيضاً: وسيقتل، ويدرج شبابه بالأكفان. ويضجع بصمت إلى جانب قلب الأرض الصامت، ستنوح عليه بنات اليهودية.

ثم رفعت يديها نحو السماء وتكلمت ثانية وقالت: ولكنه سيقتل بالجسد فقط.

وسينهض بالروح ويخرج بجيوشه من هذه الأرض التي تولد فيها الشمس إلى الأرض التي تُقتل فيها الشمس عند المساء.

وسيكون اسمه مقدماً بين جميع الأمم.

كانت عمتي نبية طاعنة في السنة عندما قالت هذه الأقوال، أما أنا فكنت فتاة صغيرة، حقلاً لم يفلح بعد، وحجراً لم يوضع بعد في حائط .

بيد أن كل ما نظرتُه في مرآة فكرها قد حدث أمام عينيّ.

قد نهض يسوع الناصري من الموت، وقاد رجالاً ونساءً إلى بلاد غروب الشمس،والمدينة التي أسلمته للمحاكمة صارت إلى الخراب. وفي قاعة المحاكمة حيث جرت محاكمته وحكم عليه بالموت، ينعق البوم بمراثيه، والليل يذرف ندى قلبه دموعاً على الرخام المتحطم.

وأنا اليوم شيخة حنت السنون ظهرها. وقد مات أهلي وصارت أمتي إلى الفناء.

وقد رأيته مرة واحدة بعد ذلك اليوم، وسمعت صوته ثانية، وكان ذلك على رأس تلة عندما كان يخاطب أصدقاءه وأتباعه.

وعلى رغم شيخوختي الحاضرة ووحدتي المريرة فهو يزورني في أحلامي. فهو يأتي كملاك أبيض ذي جناحين، فيخرس بنعمته رعب ظلمتي، ويرفعني إلى عالم رفيع من الأحلام العلوية.

إنني مازلت حقلة غير مفلوحة، وثمرة ناضجة لم تسقط عن أمها.

وأعظم ما أملكه في هذا العالم هو حرارة الشمس وذكرى ذلك الرجل.

وأنا أعرف أنه لن يقوم في أمتي ملك ولا نبي ولا كاهن كما أنبأت عمتي من قبل.

لأنّنا سنسير من الوجود مع مجاري الأنهار ولن يُعرف اسمنا.

ولكن الذين عبروا مياهه في وسط مجاريها ستظلّ ذكراهم في العالم، لأنهم عبروا مياهه في وسط مجاريها.

منسى المحامي الأورشليمي

خطاب يسوع وحركاته

نعم، قد سمعته غير مرة متكلماً، فقد كان الكلام حاضراً على شفتيه في كل وقت.

وقد أعجبت به كرجل وليس كزعيم، لأن مواعظه كانت تفوق ذوقي، أو لعلها كانت تفوق أفكاري، لأنني لا أحب أن يعظني أحد.

والذي سحرني فيه هو صوته وإشاراته وليس مادة خطابه، نعم قد سحرني ولكنه لم يقنعني، لأنه كان كثير الإبهام، بعيد الخيال، وافر التلبس، ولذلك لم يصل إلى فكري.

قد عرفت كثيرين من أمثاله، ولكنهم لم يكونوا مثابرين على أعمالهم ثابتين في جهادهم نظيره. فقد سحرت فصاحتهم آذان الناس وأفكارهم الظاهرة، ولكنهم لم يبلغوا إلى هياكل القلوب.

ومن الأسف أن نرى أعداءه يحيطون به ويبالغون في اضطهاده حتى الموت، لأن موته لم يكن ضرورياً. فالعداء الذي أظهره له الناس سيضيف إلى عزمه عزماً، وسيحول لطفه إلى قوة قاهرة.

أفليس بالغريب أنك بمقاومتك لأي إنسان تمنحه شجاعة لم تكن له قبل مقاومتك، وأنك بتتبعك لخطواته تسلحه بالأجنحة؟.

إنني لا أعرف أعداءه، ولكنني واثق بخوفهم من رجل لا يعرف الأذية قد أعاروه قوة وجعلوا حياته خطراً عليهم جميعاً.

يفتاح من قيصرية
رجل يكره ذكر يسوع

إن هذا الرجل الذي يملأ ذكره أيامكم، ويلزم ظله لياليكم، هو العلقم في فمي. ومع ذلك فأنتم تخدشون أذنيّ بأقواله، وتزعجون أفكاري بأعماله.

قد سئمت سماع أقواله وكل ما فعل، حتى أن مجرد ذكر اسمه يزعجني ومثله اسم بلاده، إنني لا أريد أن أسمع شيئاً يختص به.

لماذا تصنعون نبياً من رجل لم يكن سوى خيال؟ لماذا ترون برجاً من تلة الرمل هذه، وتتصورون بحيرة من نقط المطر المتجمعة في الحفرة الصغيرة الناشئة عن نعل الفرس؟.

إنني لا أحتقر الصدى الذي ترجعه كهوف الأودية، ولا الظلال الطويلة التي يرسمها غروب الشمس، ولكنني لا أريد أن أصغي إلى الأخاديع المترددة في رؤوسكم، ولا أرغب في درس تأثيراتها في عيونكم.

أية كلمة قالها يسوع ولم يقل مثلها هلال؟ وأية حكمة أعلنها ولم يعلنها غملائيل؟ وما هي نسبة تمتمته لصوت فيلو؟ وما هي الصنوج التي ضرب عليها ولم يضرب عليها قبل ميلاده؟.

إنّني أصغي إلى الصدى الذي ترجعه الكهوف إلى الأودية الصامتة، وأتأمل الظلال الطويلة التي ترسمها شمس الغروب على الأرض، ولكنني لا أطيق أن أرى قلب هذا الرجل يرفع صدى قلب آخر ، ولا أقبل أن أسمع خيال العرافين يسمي نفسه نبياً.

من يقدر على الكلام بعد أشعيا؟ ومن يجسر على الإنشاد بعد داود؟ وهل تولد الحكمة اليوم بعد أن انضم سليمان إلى آبائه؟ وماذا نقول في أنبيائنا الذين كانت ألسنتهم سيوفاً وشفاههم ألسنة لهيب؟ هل تركوا سنبلة واحدة لهذا اللقّاط في الجليل؟ أو ثمرة ساقطة لهذا المتسوّل القادم من الشمال؟ إنه لم يجد لنفسه عملاً سوى كسر الخبز الذي خبزه أسلافنا قبله، وسكب الخمرة التي حصرتها أقدامهم المقدسة من عنب القدماء.

إنني أحترم يد الخزاف دون الرجل الذي يشتري الخزف. إنني أكرم الجالسين أمام النول دون الكسالى الذين يلبسون الأثواب.

فمن كان يسوع الناصري هذا؟ ومن هو؟ إنّه رجل لم يجرؤ أن يعيش بأفكاره ولذلك صار إلى العدم الذي هو نهايته.

فالمرجو من فضلكم ألا تخدشوا مسامعي بما قال وما فعل. إن قلبي ممتلئ بوحي الأنبياء القدماء، وهذا يكفيني.

يوحنا التلميذ الحبيب في شيخوخته
يسوع الكلمة

ترغبون إليّ أن أتكلم عن يسوع، ولكن كيف أخدع أنشودة الوجد الإلهي في الوجود بهذه القصبة المجوفة؟.

ففي كل مظهر من مظاهر النهار كان يسوع يرى الآب ماثلاً أمامه، فقد رآه في السحب، وفي ظلال الغيوم المارة فوق الأرض، ورأى وجه الآب منعكساً على البرك الهادئة، وآثار وقع قدميه مرتسمة على الرمال، وكثيراً ما كان يغمض عينيه ليتأمل العينين المقدستين.

وكان الليل يخاطبه بصوت الآب، وفي الوحدة كان يسمع ملائكة الرب تناديه. وعندما كان يطلب الراحة في النوم كان يسمع همس السموات في أحلامه.

وكان في الغالب سعيداً في صحبتنا، وكان يدعونا إخوة.

فتأملوا كيف أن الكلمة الأولى عند الآب يدعونا إخوة وما نحن إلا مقاطع حقيرة لم يُتلفظ بها إلا في الأمس القريب.
ولعلكم تسألون: لماذا سميته الكلمة الأولى؟.

فاصغوا لأجيبكم: في البدء تحرك الله في الفضاء، ومن حركته التي لا قياس لها ولدت الأرض وفصولها.

ثم تحرك الله ثانية: فانبثت الحياة، فصار حنين الحياة ينشد العلو والعمق، ليكون له الأكثر فالأكثر من ذاته.

ثم تكلم الله، فكان الإنسان من كلماته، وكان الإنسان روحا مولودة من روح الله.

وعندما تكلم الله هكذا كان المسيح كلمته الأولى، وكانت تلك الكلمة كاملة. وعندما جاء يسوع الناصري إلى العالم سمع العالم به الكلمة الأولى الخارجة من فم الله، وصار صوت تلك الكلمة لحما ودماً.

إن يسوع الممسوح هو الكلمة الأولى التي خاطب بها الله العالم كما لو أن شجرة من التفاح في بستان تزهر وتعقد قبل بقية الأزهار بيوم واحد، وكان في بستان الله في ذلك اليوم عصر كامل.

نحن جميعاً أبناء العلي وبناته، ولكن الممسوح كان ابنه البكر، الذي قطن في جسد يسوع الناصري، وسار بيننا ورأيناه بعيوننا.

كل هذا أقوله لكم لكي تفهموا ليس فقط بالفكر بل بالروح. إن الفكر يزن ويقيس، ولكن الروح تصل إلى قلب الحياة وتعانق أسرارها، وبذرة الروح لا ولن تموت.

إن الريح قد تهب ثم ينقطع هبوبها، والبحر يتمدد ثم يتقلص، ولكنّ قلب الحياة دائرة هادئة ساكنة والكواكب التي تنيرها ثابتة إلى الأبد.

مانوس من بومبي إلى يوناني
في آلهة الساميين

إن اليهود كجيرانهم الفينيقيين والعرب لا يأذنون لآلهتهم أن تستريح هنيهة على متون الرياح.

فهم كثيرو الاهتمام بآلهتهم وكثيرو الملاحظة بعضهم على بعض في شأن الصلاة والعبادة والتضحية.

فيما نكون نحن الرومانيين نبني هياكل الرخام البديعة لآلهتنا ترى هؤلاء الشعوب يتجادلون في طبيعة إلههم. نحن في ساعات وجدنا بآلهتنا نغني ونرقص حول مذابح المشتري ونبتون والمريخ والزهرة، أما هم ففي ساعة وجدهم يلبسون المسوح ويغطون رؤوسهم بالرماد. وكثيرون منهم يبكون ويندبون اليوم الذي ولدوا فيه.

أما يسوع، الرجل الذي أعلن الله للناس كائناً يعشق المسرة والفرحِ، فقد عذبوه وقتلوه.

إن هؤلاء الناس لا يريدون أن يسعدوا مع إله سعيد، فهم لا يعرفون غير الهة الامهم.

وأغرب من هذا أن كل أصدقاء يسوع وتلاميذه الذين عرفوا فرحه وسمعوا ضحكه يضعون صورة لكآبته ويعبدون تلك الصورة.

وفي مثل هذه الصورة لا يرتفعون إلى إلههم، بل ينزلون إلههم إلى مستوى أنفسهم.

وعلى كل فأنا أعتقد أن الفيلسوف يسوع، الذي لم يكن مختلفاً عن سقراط، ستكون له السلطة على أمته، وربما على غيرها من الأمم.

لأنّنا جميعاً مخلوقات كئيبة ولها شكوكها التافهة. فإذا قال لنا رجل: فلنفرح مع الآلهة، فنحن لا نتردّد في الخضوع لصوته. عجيب كيف أنّ كآبة هذا الرجل قد تحوّلت إلى طقس.

إن هؤلاء الناس يريدون أن يهتدوا إلى أدونيس آخر، إله يُقتل في الغابة، ليحتفلوا بقتله، ويا للأسف كيف يعرضون عن ضحكه!

ولكن لنعترف. كروماني إلى يوناني: هل نصغي نحن أنفسنا إلى ضحك سقراط في شوارع أثينا! وهل يقدر أحد منّا أن ينسى كأس الشوكران حتى ولو كنّا في مسرح ديونيسيوس؟

أفلا يقف آباؤنا حتى اليوم على زوايا الشوارع ليتحادثوا عن همومهم، ويتمتعوا بلحظة من السعادة بذكرى النهاية الكئيبة التي سار إليها جميع رجالنا العظماء؟.

بيلاطس البنطي
في الطقوس والخرافات الشرقية

قد حدثتني امرأتي عنه غير مرة قبل أن أحضروه إليّ ولكنني لم أهتمّ للأمر.

إن امرأتي كثيرة الأحلام، وهي، كالكثيرات من النساء الرومانيات في طبقتها، قد استسلمت للطقوس والخرافات الشرقية.

ولكن هذه الطقوس كثيرة الخطر على الامبراطورية، وكلما وجدت مثل هذه الخرافات سبيلاً إلى قلوب نسائنا تضاعفت الأخطار الناتجة عنها والتي قد تؤدي إلى خرابنا.

إن مصر قد صارت إلى الزوال عندما حمل إليها مهاجرو العرب الإله الواحد من صحرائهم. واليونان انقلبت وسقطت إلى الحضيض عندما جاءت إليها عشتروت ووصيفاتها السبع من شواطئ سورية.

أما يسوع هذا فإنّني لم أره قبل أن أسلم إليّ كفاعل إثم، وعدوّ لأمته ولرومة. فقد أحضروه إلى دار المحاكمة رابطين يديه إلى جسده بحبل غليظ.

كنت جالساً في سرادقي، فمشى إليّ بخطوات طويلة ثابتة ثم وقف منتصباً وظلّ رأسه مرتفعاً.

إنّني لا أستطيع أن أتصوّر ما الذي نزل عليّ في تلك اللحظة، ولكنني شعرت فجأة برغبة خفية، مع أنّه لم يكن لها أثر في إرادتي، كانت تدفعني إلى النهوض من سرادقي والسجود أمامه.

نعم قد شعرت كما لو أن القيصر نفسه دخل داري، لأن الواقف أمامي كان أعظم من رومة نفسها.

ولكن هذا الشعور لم يقم في قلبي غير لحظة واحدة، وللحال رأيت أمامي رجلاً بسيطاً تتهمه أمته بالخيانة، وكنت أنا حاكماً وقاضياً عليه.

فسألته عن أمره فلم يجب، ولكنه نظر إليّ، وكان في نظرته كثير من الشفقة، كأنما هو الحاكم والقاضي عليّ.

ثم تصاعد من الخارج صراخ الشعب. أما هو فظلّ صامتاً ينظر إليّ والشفقة ملء عينيه.

فخرجت ووقفت على درجات القصر، وعندما رآني الشعب انقطع عن الصراخ. فقلت لهم: ماذا تريدون من هذا الرجل؟

فصرخوا بصوت واحد: نريد أن نصلبه لأنّه عدونا، وعدو رومة.

وكان قوم منهم يقولون: ألم يقل إنّه ينقض الهيكل؟ بل ألم يدّع المملكة لنفسه؟ إنّنا لا نريد ملكاً غير قيصر.

فتركتهم ورجعت إلى دار المحاكمة أيضاً. فرأيته لا يزال واقفاً هناك وحده، وما برح رأسه مرتفعاً.

فتذكرت في الحال ما كنت قد سبقت فقرأته لأحد فلاسفة الإغريق: إن الرجل المعتزل هو أقوى الرجال. ففي تلك الدقيقة كان الناصري أعظم من كل أمتّه.

ولم أشعر برأفة عليه، لأنّه كان فوق رأفتي.
فسألته: هل أنت ملك اليهود؟ولكنه لم يقل كلمة.
فسألته ثانية: ألم تقل إنّك ملك اليهود؟

فنظر إليّ. ثم أجابني بصوت هادئ: أنت نفسك أعلنتني ملكاً. ولعلني لهذا ولدت، ولهذا أتيت لأشهد للحق.

تأملوا رجلاً يتكلم عن الحق في مثل هذا الموقف.

ولكنني تجلدت وقلت بصوت مرتفع لنفسي وله: وما هو الحقّ وماذا ينتفع البريء من الحقّ ويد منفذ حكم القتل على عنقه؟

حينئذ قال يسوع بقوة: ما من رجلٍ يستطيع أن يحكم العالم إلا بالروح والحقّ.

فسألته قائلاً: وهل أنت من الروح؟.

فأجاب: وأنت أيضاً من الروح وإن كنت لا تدري.

وما هي الروح وما هو الحقّ. في الوقت الذي كنت أنا، من أجل سلامة البلاد، وأمته بغيرتها على طقوسها القديمة، نسلم رجلاً بريئاً للموت؟

ما من رجل ولا أمة ولا مملكة تريد أن تتعرج أمام الحقّ السائر في طريقه إلى كمال ذاته.

فقلت له ثانية: هل أنت ملك اليهود؟

فأجاب: أنت نفسك قلت هذا. إنّني قد غلبت العالم قبل هذه الساعة.

وهذه هي العبارة الواحدة التي لم تكن في موضعها من جميع ما قاله. لأن رومة وحدها غلبت العالم.

ولكن أصوات الشعب تصاعدت ثانية. وكان صراخهم يشقّ عنان الفضاء. فنزلت عن عرشي وقلت له: اتبعني.

وخرجت ووقفت ثانية على درجات القصر ووقف هو إلى جانبي.

وعندما رآه الشعب تعالى صراخهم كالرعد القاصف. ولم أسمع من زعاقهم غير هذه الكلمات: إصلبه. إصلبه!.

فأسلمته إلى الكهنة الذين أسلموه إليّ وقلت لهم: إفعلوا ما شئتم بهذا الصدّيق. وإذا شئتم اصطحبوا جنوداً رومانيين لحراسته.

فأخذوه في الحال، وأمرت أن يكتب على الصليب فوق رأسه: «يسوع الناصري ملك اليهود». وكان الأجدر بي أن أقول: «يسوع الناصري الملك». .

فعرّوا الرجل وجلدوه وصلبوه.

قد كان في طوقي أن أخلصه، ولكن خلاصه كان قد أثار نيران الثورة في البلاد. والحكمة تقضي أبداً على الحاكم في ولاية رومانيّة أن يحتمل بالصبر جميع الوساوس الدينية في الأُمّة المغلوبة.

وأنا أعتقد حتى الساعة أن الرجل كان أعظم من ثائر مقلق، وما أمرت به لم يكن بإرادتي، وإنما فعلته من أجل مصلحة رومة.

وبعد ذلك بقليل من الزمن تركنا سورية. ومن تلك الساعة صارت امرأتي كثيرة الكآبة، وكثيراً ما أرى في هذا البستان الجميل نفسه مأساة كئيبة مرتسمة على وجهها.

وقد أخبروني أنها تتكلم كثيراً عن يسوع لنساء رومة.

فتأملوا كيف أن الرجل الذي أمرت بموته يرجع من عالم الأشباح ويدخل إلى بيتي.

وأنا ما زلت أسأل في أعماق نفسي أيضاً وأيضاً: ما هو الحقّ وما هو غير الحقّ؟

فهل يمكن أن السوريّ يتغلب علينا في هدوء ساعات الليل؟
إن هذا بالحقيقة لا يمكن أن يكون.
لأن رومة يجب أن تتغلب على أضغاث أحلام نسائنا.

برثولماوس في أفسس

في العبيد والمنبوذين

يقول أعداء يسوع إنّه وجّه دعوته للعبيد والمنبوذين، وإنّه كان يثيرهم على أسيادهم. ويقولون إنّه، وهو ابن الطبقة الحقيرة، كان يستغيث بأبناء طبقته، بيد أنّه كان يسعى ليخفي حقيقة أصله.

ولكن فلنبحث في أتباع يسوع وفي زعامته.

ففي أول أمره اختار رفقاء له في عمله بضعة رجال من البلاد الشمالية، وكانوا أحراراً، وكانت أجسادهم قوية وأرواحهم جريئة، وفي العشرين سنة الماضية قد أدهشوا العالم بشجاعتهم في مجابهة الموت بإرادتهم وعدم مبالاتهم.

فهل تعتقدون أن هؤلاء الرجال كانوا عبيداً أو منبوذين؟.

وهل يخطر لكم أن أمراء لبنان وأرمينيا المفاخرين بحسبهم ونسبهم قد نسوا مقامهم عندما قبلوا يسوع كنبيّ الله؟

أم هل تفكرون أن أشراف الرجال والنساء في أنطاكية وبيزنطية وأثينا ورومة يمكن أن يستهويهم صوت زعيم من العبيد؟.

ألا إن الناصري لم يكن قطّ مع عبد ضدّ سيده، ولا مع سيدّ ضدّ عبده. إنّه لم يكن مع رجل ضدّ رجل آخر.

فقد كان رجلاً أسمى من الناس. والجداول التي جرت في مجاري قوته كانت تترنّم مع الألم ومع القوة في وقت واحد.

فإذا كانت النبالة في الحماية، فإن الناصري هو أنبل نبلاء العالم. وإذا كانت الحرية في الفكر والقول والعمل، فهو أمير الأحرار في كل الأجيال. وإذا كان شرف الأصل في الكبرياء التي لا تخضع إلا معتزة بالمحبة اللطيفة الرؤوف، فهو إذن من جميع الناس أشرفهم أصلاً.

ولا تنسوا أنّه لا يفوز بالأكليل في السباق إلا القوي والسريع، وأن يسوع

قد توّجه أصدقاؤه ومحبّوه، كما توّجه أعداؤه على غير علم منهم.

وهو حتى الساعة يقتبل أكاليل النصر من كاهنة أرتاميس في المواضع السرية من هيكلها.

متى
يسوع أمام جدار سجن

في أحد الأمساء مرّ يسوع بسجن في برج داود. وكنّا نمشي وراءه.

غير أنّه وقف فجأة ووضع وجنته على حجارة جدار السجن. وشرع يقول:

يا إخوة يومي القديم. إن قلبي يخفق مع قلوبكم وراء الجدران. أودّ لو أنّكم تقدرون أن تتحرروا في حريتي وتمشوا معي ومع رفقائي.

أنتم سجناء، بيد أنّكم لستم وحدكم. فما أكثر السجناء الذين يمشون في الشوارع المفتوحة! ومع أن أجنحتهم غير متكسرة فهم كالطاووس يرفرفون ولكنهم لا يطيرون.

يا إخوة يومي الثاني، قريباً أزوركم في سجونكم وأقدم كتفي لأحمالكم، لأن البريء والمجرم لا ينفصل أحدهما عن الآخر، وكعظامي الساعد لن ينفصلا.

يا إخوة هذا اليوم، الذي هو يومي. قد سبحتم ضد مجرى أفكارهم فقبضوا عليكم. وهم يقولون إنّني أنا أيضاً أسبح ضد هذا المجرى. ومن يدري؟ فقد أسير إليكم قريباً. فأكون معكم كاسر الشريعة مع كاسري الشريعة.

يا إخوة يومٍ لم يأت بعد. إن هذه الجدران ستسقط. ومن هذه الحجارة ستصنع أشكال جديدة بيد ذاك الذي مطرقته النور، وإزميله الريح، وستقفون أحراراً في حرية يومي الجديد.

هكذا تكلم يسوع وسار في طريقه. وظلت يده على جدار السجن حتى ترك برج داود.

أندراوس
في المدنسين

إن مرارة الموت هي بالحقيقة أقل مرارة من الحياة بدونه. فقد صمتت الأيام وسكنت عندما أُخرس صوته. لم يبق سوى الصدى يرجّع كلماته إلى ذاكرتي ولكنه لا يرجع صوته إلى أذني.

سمعته مرّة يقول: اذهبوا في إبّان حنينكم إلى الحقول. واجلسوا إلى جانب الزنابق. فتسمعوها تترنم في الشمس. فهي لا تحوك ثياباً لملابسكم. ولا تصنع أخشاباً أو حجارة لمنازلكم، ولكنها تغني مترنّمة.

إن الذي يشتغل في الليل يكمل حاجاتها وندى نعمته يبلل أوراقها.

وأنتم أيضاً أفلا يعنى بكم ذلك الذي لا يتعب ولا يستريح؟

وفي مرة أخرى سمعته يقول: طيور السماء قاطبة يحصيها أبوكم كما أن شعور رؤوسكم جميعها محصاة. فلا يسقط طير عند قدمي الصياد، ولا تبيضّ شعرة من رؤوسكم ولا تسقط في وهدة الشيخوخة بدون إرادته.

وقال أيضاً: قد سمعت تذمركم في قلوبكم قائلين: يجب أن يكون إلهنا أكثر رحمة معنا نحن أولاد إبراهيم من أولئك الذين لم يعرفوه منذ البدء.

أما أنا فأقول لكم إن رب الكرم الذي يدعو فاعلاً عند الصباح ليشتغل في كرمه، ويدعو فاعلاً آخر عند الغروب، ثم يعطي الأجرة للأخير كما للأول، إن مثل هذا الرّجل مبرّر بالحقيقة في عمله. أفلا يدفع من كيسه بكمال إرادته؟.

هكذا سيفتح أبي بوابة قصره لمن يقرع عليها من الأمم، كما يفتحها لمن

يقرع عليها منكم، لأن أذنه تصغي إلى النغم الجديد بنفس المحبة التي تشعر بها عند سماع الأغنية التي طالما سمعها. وهو يرحب بالنغم الجديد ترحيباً خاصاً لأنّه أصغر وتر في قيثارة قلبه.

وفي مرة أخرى سمعته يقول: تذكروا هذا: اللصّ هو رجل محتاج. والكذاب هو رجل خائف، والصياد الذي يصطاده حارس ليلكم قد اصطاده أيضاً حارس ظلمة نفسه.

أريد أن تشفقوا على جميع هؤلاء.

فإذا قصدوا منازلكم فافتحوا لهم الأبواب وأجلسوهم إلى موائدكم. وإذا لم تقبلوهم فإنّكم لن تكونوا مبررين من أي عمل يعملونه.

وفي أحد الأيام تبعته إلى ساحل المدينة في أورشليم كما تبعه كثيرون غيري، فقص علينا مثل الابن الشاطر، ومثل التاجر الذي باع كلّ ما كان له ليشتري درّة.

وفيما كان يخاطبنا أحضر الفريسيون إلى وسط الجمع امرأة كانوا يسمونها زانية، فأحاطوا بيسوع وقالوا له: قد دنست نذر زواجها. وأُمسكت بالفعل الشنيع.

فنظر إليها ووضع يده على جبينها وتأمل عينيها ملياً.

ثم التفت إلى الرجال الذين أحضروها إليه، وأنعم نظره في وجوههم، وانحنى، وشرع يكتب بإصبعه على الأرض.

فكتب اسم كل رجل. وكتب إلى جانب كل اسم الخطيئة التي ارتكبها صاحب الاسم.

وفيما كان مكباً على الكتابة هربوا من حضرته يجرّون أذيال الفضيحة.

وقبل أن فرغ من كتابته لم يبقَ أمامه أحد إلا نحن والمرأة.

فنظر إلى عينيها ثانية وقال لها: إنّكِ قد أحببت كثيراً، أما الذين

أحضروك إلى هنا فإنهم أحبوا قليلاً، ولكنهم حملوك إليّ كأحبولة لاحتيالي.

فانصرفي الآن بسلام.

لم يبق منهم أحد ليدينك، فإذا رغبت في أن تكوني حكيمة كما أنت محبة، فاطلبيني، فإن ابن الإنسان لا يدينك.

وقد عجبت آنئذ هل كان قد قال هذا لها، لأنه هو نفسه لم يكن بلا خطيئة.

ولكنني منذ ذلك اليوم وأنا أتأمل وأدرس، وها أنا أعرف الآن أن نقيّ القلب وحده يغفر للإنسان عطشه الذي يقوده إلى مياه آسنة.

والثابت الخطى وحده يستطيع أن يمدّ يده لمن يعثر في طريقه.

وأيضاً وأيضاً أقول: إن مرارة الموت هي بالحقيقة أقل مرارة من الحياة بدونه.

رجل غني
في المقتنيات

كان يسوع يتكلم بالسوء على الأغنياء، وقد سألته في أحد الأيام قائلاً: يا سيدي، ماذا أفعل لأحصل على سلامة الروح؟.

فأمرني أن أعطي أموالي للفقراء وأتبعه.

فهو لم يملك شيئاً، ولذلك لم يعرف ما في المقتنيات من التأمين على الحياة والحرية الشخصية، والاحترام الداخلي والخارجي.

في بيتي مائة وأربعون عبداً وخادماً، فالبعض يشتغلون في غاباتي والبعض يسوقون مراكبي إلى الجزائر البعيدة.

فلو أنّني سمعت منه وأعطيت أملاكي للفقراء فماذا كان يحلّ بعبيدي وخدامي وأزواجهم وأولادهم؟ إنّهم ولا شكّ كانوا يصيرون متسوّلين نظيره على بوابة المدينة وفي رواق الهيكل.

نعم إن ذلك الرجل الصالح لم يسبر غور السرّ المحيط بالمقتنيات، ولما كان هو وأتباعه يعيشون على عطايا الآخرين فقد ظنّ أن جميع الناس يجب أن يعيشوا مثله.

وإليكم هذا اللغز الذي يناقض ذاته: هل يجدر بالأغنياء أن يعطوا ثروتهم للفقراء الذين يجب أن يكون لهم كأس الغني ورغيفه قبل أن يرحبوا به على مائدتهم؟

وهل يجدر بصاحب البرج أن يصير مضيفاً لزبائنه قبل أن يدعو نفسه سيد أرضه؟

ألا إن النملة التي تخزن طعاماً للشتاء هي أحكم من الجنادب التي تترنّم يوماً بأناشيدها وتتألم يوماً من مَجاعتها.

في السبت الماضي قال أحد أتباعه في ساحة المدينة: على عتبة السماء حيث يضع يسوع حذاءه لا يستحق رجل غيره أن يضع رأسه.

ولكنني أسأل هذا: على عتبة أي بيت استطاع ذلك الهائم البسيط القلب أن يترك حذاءه؟ فإنّه لم يكن له بيت ولا عتبة وفي أكثر الأحيان كان يمشي بغير حذاء.

يوحنا في بطمس

يسوع الرؤوف

إنّني أود أن أتكلم عنه مرة ثانية.

ومع أن الله قد حبس عني الكلام فقد أعطاني الصوت والشفتين المحترقتين.

وعلى رغم عدم استحقاقي للكلمة الكاملة فأنا أدعو قلبي إلى شفتي.

قد أحبني يسوع، ولم أعلم لماذا أحبني.

أما أنا فقد أحببته لأنّه رفع روحي إلى أعالٍ فوق قامتي، وأنزلها إلى أعماق لا قبَل لي على سبر غورها.

المحبة سر مقدس.

والمحبون الحقيقيون لن يجدوا ألفاظاً للتعبير عن محبتهم.

أما الذين لا يحبون فالمحبة في عقيدتهم سخرية قاسية.

قد دعاني يسوع كما دعا أخي ونحن نشتغل في الحقل.

وكنت آنئذ شاباً ولم تعرف أذني غير صوت الفجر.

ولكن صوته وضع حدًّا نهائيًّا لعملي وبداءة لعهد وجدي وافتتاني.

فلم يبقَ أمامي بعد ذلك إلا المشي في الشمس وعبادة جمال الساعة.

هل تستطيع أن تتصور جلالاً يحول لطفه دون ظهوره؟ أو جمالاً يحول نوره دون رؤيته؟

هل تقدر أن تسمع في أحلامك صوتاً يستحي بمحبته؟

فقد دعاني وأنا تبعته.

وفي ذلك المساء رجعت إلى بيت أبي لأحمل ثوبي الآخر.

وهنالك قلت لأمي: إن يسوع الناصري يرغب في أن يضمني إلى جماعته.

فقالت: سر في طريقه يا بني كما سار أخوك.

فسرت في طريقه.

قد دعاني عبيره وأمرني، ولكن ليحررني فقط.

لأن المحبّة مضيفة جوّادة لضيوفها. ولكن بيتها سراب وهزء لغير المدعوّين.

ترغبون إليّ الآن أن أوضح لكم عجائب يسوع.

فنحن جميعاً إشارة عجائبية للزمان. وربنا ومعلمنا هو المركز الرئيسي لذلك الزمان.

ولكنه لم يشأ أن يعرف أحد بإشارته.

فقد سمعته يقول للمفلوج: انهض واذهب إلى بيتك ولكن احذر أن تقول للكاهن إنّني جعلتك صحيحاً.

ولم يكن فكر يسوع مع المقعدين، بل كان بالأحرى مع الأقوياء والمنتصبين.

فقد طلب فكره غيره من الأفكار وأمسك بها، وزارت روحه الكاملة غيرها من الأرواح.

وبهذا العمل غيرت روحه تلك الأفكار وتلك الأرواح.

وقد بدا هذا العمل أعجوبة خارقة للناس. ولكنه كان في نظر ربنا ومعلمنا بسيطاً كتنفس الهواء في كل يوم.

* * *

والآن فلأتكلم عن أمور أخرى.

كنت أمشي معه في أحد الأيام في حقل، وكنّا وحيدين جائعين، فأتينا إلى شجرة تفاح بري.

ولم يكن على أغصان الشجرة سوى تفاحتين فقط.

فمسك يسوع جذع الشجرة بيديه وهزها فسقطت التفاحتان.

فالتقطهما معاً وأعطاني واحدة منهما، وأمسك التفاحة الأخرى بيده.

وإذ كنت جائعاً جدًّا أكلت تفاحتي بسرعة شديدة.

ثم نظرت إليه فوجدت التفاحة ما برحت في يده.
فأعطاني إياها وقال لي: كل هذه أيضاً.
فأخذت التفاحة وفي قلة حياء مجاعتي أكلتها.
وفيما نحن نمشي نظرت إلى وجهه.
ولكن كيف أستطيع أن أخبركم بما رأيت؟

رأيت ليلاً تحترق الشموع في فضائه، وحلماً لا تصل إليه أحلامنا، ظهيرة يفرح فيها جميع الرعاة ويطربون لرؤية قطعانهم راعية أمامهم، مساءً هادئاً وسكوناً عجيباً وبيتاً تلجأ الروح إليه، ونوماً هادئاً وحلماً لذيذاً.

كل هذا رأيته في وجهه. فقد أعطاني التفاحتين، وعرفت أنّه كان جائعاً مثلي.

ولكنني أعرف اليوم أنّه بأعطائهما لي قد شبع واكتفى. لأنّه هو نفسه أكل من أثمار أخرى لشجرة أخرى.

أود أن أخبركم أكثر من هذا عنه، ولكن كيف أستطيع ذلك؟

فإن المحبة متى اتسعت صعب التعبير عنها بالكلام. والذاكرة إذا كثرت أحمالها سارت تفتش عن الأعماق الصامتة.

بطرس
في الجار

قال ربي ومعلمي مرة في كفر ناحوم:
إن جاركم هو ذاتكم الثانية تقطن وراء الجدار. وبالفهم تسقط جميع الجدران.

ومن يدري إذا لم يكن جاركم هو ذاتكم الفضلى لابسة جسداً آخر؟ فانتبهوا أن تحبوه كما تحبون ذواتكم.

وهو أيضاً مظهر للعلي القدير، الذي لا تعرفونه.

إن جاركم هو حقل يسير فيه ربيع آمالكم بأثوابه الخضراء ويحلم فيه شتاؤكم بالأعالي المجللة بالثلج.

إن جاركم هو مرآة ترون فيها صورتكم وقد جملها فرح أنتم أنفسكم لم تعلموا به، وكآبة أنتم أنفسكم لم تشتركوا بها.

فأحبوا جاركم كما أحببتكم أنا.

فسألته قائلاً: كيف أستطيع أن أحبّ جاراً لا يحبني، وهو يحسدني ويطمع في مالي. بل كثيراً ما يسرق مقتنياتي؟.

فأجاب وقال: إذا كنت تفلح وكان خادمك يزرع البذار وراءك. فهل تقف وتنظر إلى الوراء لتَطرد. زرزوراً يلتقط بضع حبات من بذارك ليغذي بها جوعه؟ فإذا فعلت هذا فأنت لا تستحق ثروة حصادك.

وعندما قال هذا خجلت من نفسي وجلست صامتاً. بيد أنّني لم أكن خائفاً لأن ابتسامة يسوع لم تفارقه.

إسكاف في أورشليم
على الحياد

إنّني لم أحبه. ولكنني في الوقت نفسه لم أبغضه.

ولم أصغ إليه لأسمع أقواله. بل بالأحرى لأسمع رنّة صوته لأن صوته كان يطربني.

وكل ما قاله كان مبهماً في فكري. ولكن موسيقى صوته كانت صريحة في أذني.

بالحقيقة إنّني لولا ما سمعته من الناس عن تعالميه لما كنت قادراً أن أميّز هل كان يسوع مع اليهودية أو ضدها.

سوسان الناصرية جارة مريم

في شباب يسوع ورجولته

قد عرفت مريم أم يسوع قبل أن صارت امرأة ليوسف النجار، وكنّا معاً في ذلك الوقت غير متزوجتين.

في تلك الأيام كانت مريم ترى رؤىً وتسمع أصواتاً، وتتكلّم عن الخدام السماويين الذين يزورونها في أحلامها.

وكان أهل الناصرة شديدي الاهتمام بها وكانوا يلاحظونها في ذهابها وإيابها، وكانوا ينظرون إليها بعيون لطيفة، لأن جبهتها كانت رفيعة وخطواتها كانت سديدة.

ولكن البعض قالوا إنّها مجنونة. وقد قالوا هذا لأنّها كانت تتصرّف بحرية تامّة في جميع أعمالها.

أما أنا فقد كنت أنظر إليها نظرتي إلى شيخة طاعنة في السنّ مع أنها كانت فتاة في ميعة الشباب، لأنّني رأيت حصاداً في أزهارها وأثماراً يانعة في ربيعها.

فقد وُلدت ونشأت بيننا، غير أنها كانت في قريتنا كأنها غريبة من بلاد الشمال. وكانت في عينيها دائماً دهشة الغريب الذي لم يتعرف إلى وجوهنا بعد.

وكانت لها نفس العجرفة التي عرفت بها ميريام القديمة التي خرجت مع شقيقيها من النيل إلى البرية.

ثم خُطبت مريم ليوسف النجار.

وعندما حبلت مريم بيسوع كانت تتمشى بين التلال وترجع عند المساء وفي عينيها جمال فتّان وألم عميق.

وعندما وُلد يسوع أخبرتني إحدى الصديقات أن مريم قالت لأمها: أنا

لست إلا شجرة لم تقلم أغصانها بعد، فانظري أنت في هذه الثمرة، وقد سمعت هذا القول مرتا القابلة.

وبعد ثلاثة أيام ذهبت لزيارتها، فإذا هي منذهلة العينين مرتجفة الصدر، وقد طوقت بكرها بذراعيها كما تطوّق الصدفة درّتها الثمينة.

جميعنا أحببنا ابن مريم وكنا نراقبه بعيون المحبة لأنّه كان ممتلئاً بقوة الحياة والنماء.

مرّت الفصول وتقضت الأقمار فصار الطفل صبيّاً كثير الضحك واللهو. ولم يعرف أحد منّا ماذا سيصير إليه هذا الصبي لأنّه كان يبدو للجميع كأنّه من غير جنسنا. ولم يجسر أحد على توبيخه قطّ مع أنّه كان كثير المغامرة وافر الشجاعة.

أقول إنّه كان يلعب مع الأولاد أترابه، ولكنني لا أقدر أن أقول إنهم كانوا يلعبون معه.

وعندما كان في الثانية عشرة من العمر قاد أحد العميان إلى عبر الجدول حتى أوصله إلى الطريق العامة.

أما الأعمى فلكي يظهر له شكره سأله قائلاً: من أنت أيها الصبي الصغير؟

فأجابه: أنا لست صبيّاً صغيراً. أنا يسوع.

فقال له الأعمى: ومن هو أبوك؟

فأجاب: الرب هو أبي.

فضحك الأعمى وقال: بالصواب أجبت يا بني. ولكن من هي أمك؟

فأجاب يسوع: أنا لست بنيّاً لك. وأمي هي الأرض.

فقال الأعمى: فانظر إذن، فقد قادني ابن الله والأرض إلى عبر الجدول.

فأجاب يسوع: سأقودك حيث شئت، وسترافق عيناي قدميك. وكان ينمو كالنخلة الثمينة في بساتيننا.

وعندما بلغ التاسعة عشرة صار جميلاً كالأيل، وكانت عيناه كالعسل ممتلئتين من دهشة النهار.

وكان على فمه عطش قطيع الصحراء للبحيرة.

فهو لا يمشي في الحقول إلا وحده وعيوننا وراءه، ومثلها عيون جميع الصبايا في الناصرة، ولكننا كنّا نخجل أمام جلال عينيه.

ومع أن المحبة خجولة أبداً من الجمال فالجمال كان وما يزال مطمح أنظار المحبة.

ثم دعته الفصول ليتكلم في بساتين الجليل.

وكثيراً ما كانت مريم تتبعه لتصغي لأقواله وتسمع صوت قلبها، ولكن عندما كان يذهب مع محبيه إلى أورشليم لم تكن تذهب معهم.

لأنّنا نحن أبناء الشمال يهزأ بنا في الغالب في شوارع أورشليم حتى ولو كنّا ذاهبين لنقدم تقدماتنا في الهيكل.

وكانت مريم فخورة بهذا المقدار حتى إنها لم تشأ أن تسلم إباءها لسخرية أهل الجنوب.

وقد زار يسوع بلاداً أخرى في الشرق وفي الغرب. ومع أنّنا لم نعرف البلاد التي زارها ولكن قلوبنا كانت تتبعه.

ولكن مريم كانت تجلس على عتبتها تنتظره، وفي كل مساء كانت تحدق بعينيها إلى الطريق تفتش عن رجوعه إلى بيته.

بيد أنها عند رجوعه تأتي إلينا قائلة: إنّه أعظم من أن يكون ابناً لي، وفصاحته تسمو على إدراك قلبي الصامت، فكيف أدّعيه لنفسي؟

ويلوح لي أن مريم لم تستطع أن تصدق أن السهل قد ولد الجبل، وفي بياض قلبها لم تنظر أن حرف الجبل هو الطريق إلى قنّته.

فقد عرفت الرجل، ولكن بما أنّه كان ابناً لها لم تجرؤ أن تعرفه.

وفي أحد الأيام ذهب يسوع إلى البحيرة ليكون مع أصدقائه الصيادين، فقالت لي مريم: من هو الإنسان إلا هذا الكائن القلق الناهض من الأرض، والحنين المتسامي إلى النجوم؟

إن ابني هو حنين بعيد. بل هو جميعنا متسامين بحنيننا إلى النجوم.
هل قلت إنّه ابني؟ فليسامحني الرب، ولكن قلبي يدلني على أنّني أمه.

* * *

إنّه صعب عليّ جداً أن أخبركم أكثر من هذا عن مريم وابنها. ولكن، وإن طلع الحسك في حلقي، ووصلت كلماتي إليكم وصول الكسيح الذي يدب على العصا، فأنا أودّ أن أقصّ عليكم ما رأيته وسمعته.

كانت السنة فخورة بشبابها، وكانت شقائق النعمان تزين رؤوس التلال عندما دعا يسوع تلاميذه وقال لهم: تعالوا معي إلى أرشليم وشاهدوا ذبح الخروف للفصح.

وفي ذلك اليوم بعينه جاءت مريم إلى بابي وقالت: إنه ذاهب إلى المدينة المقدسة، فهل لك أن تذهبي وتتبعيه معي ومع بقية النساء؟

وللحال سرنا على تلك الطريق الطويلة وراء مريم وابنها حتى وصلنا إلى أورشليم، وهنالك حيّتنا جماعة من الرجال والنساء على بوابة المدينة، لأن مجيئه كان قد أُعلن من قبل لأصحابه وأحبابه، ولكن يسوع ترك المدينة في تلك الليلة مع أصحابه.

وقد أخبرونا أنّه ذهب إلي بيت عنيا.

فأقامت مريم معنا في الفندق تنتظر رجوعه.

وفي مساء الخميس التالي ألقوا القبض عليه خارج الأسوار، وسجنوه.

وعندما سمعنا أنّه سجين لم تنطق مريم بكلمة قطّ، ولكن ظهر للحال في عينيها تحقيق خفي لذلك الوعد بالألم والفرح الذي رأيناه عندما كانت عروساً في الناصرة.

إنها لم تبكِ. ولكنها كانت تمشي بيننا فقط كأنها روح أُم لا تريد أن تنتحب على روح ابنها.

فجلسنا منحنيات على الأرض، أما هي فكانت منتصبة وهي تروح وتجيء على أرض الغرفة.

وكانت تقف بين الهنيهة والهنيهة أمام النافذة وتحدق بنظرها إلى الشرق ثم تسرح شعرها بأصابع يديها.

وعند الفجر بقيت واقفة بيننا، كأنها علَم يخفق في قفر لا جحافل فيه.

قد بكينا لأنّنا عرفنا ما يحمله الغد لابنها، أما هي فإنها لم تبكِ لأنها عرفت أيضاً ما سيصيبه.

كانت عظامها من صلب النحاس وقوتها من الدردار القديم.

وكانت عيناها كالسماء اتساعاً وشجاعة.

عمرك الله، هل رأيت قبّرة تنشد في حين أن عشها يحترق في الهواء؟

وهل رأيت امرأة تفيض كآبتها على دموعها، أو قلباً مجروحاً يرتفع حتى يسمو على ألمه؟

إنّك لم ترَ مثل هذه المرأة لأنّك لم تقف في حضرة مريم ولم تحتضنك بعد الآلام غير المنظورة.

في تلك الساعة الهادئة التي كانت حوافر الصمت تضرب فيها على صدور الأرقين، دخل يوحنا، الابن الأصغر لزبدى، وقال: أيتها الأم مريم، إن يسوع ذاهب، فهلمّي نتبعه.

فوضعت مريم يدها على كتف يوحنا وخرجت معه، ونحن تبعناهما.

وعندما وصلنا إلى برج داود رأينا يسوع حاملاً صليبه وكان جمع غفير حواليه.

وكان معه رجلان آخران يحمل كلّ منهما صليبه.

وكان رأس مريم مرتفعاً، وكانت تمشي معنا وراء ابنها، وكانت خطواتها ثابتة.

وقد مشت وراءها صهيون ورومة، بل العالم أجمع، لينتقم لنفسه من الرجل الحر الواحد.

وعندما وصل إلى التلة رفعوه على الصليب.

فنظرتُ إلى مريم، فلم يكن وجهها وجه امرأة حزينة، بل كان أشبه بمنظر الأرض المثمرة التي تلد أولادها بغير انقطاع وتقبرهم بلا ملل.

ثم عرضت صورة تذكارات صبوته أمام عينيها، فقالت بصوت عظيم: يا ابني الذي ليس ابناً لي، أيها الرجل الذي زار بطني مرة، إنّني أفاخر بقوتك. إنّني أعرف أن كل نقطة من الدم الجاري من يديك ستكون ينبوعاً تتكون منه أنهار أمة بأسرها.

أنت تموت الآن في هذه العاصفة كما مات قلبي مرة في غروب الشمس، ولذلك لم أحزن عليك.

في تلك اللحظة رغبت في تغطية وجهي بوشاحي لأهرب راجعة إلى الشمال، ولكنني سمعت فجأة مريم تقول: يا ابني الذي ليس ابناً لي، ما الذي قلته للرجل الذي على يمينك فجعله سعيداً في آلامه؟ إن ظلّ الموت ضعيف على وجهه، وهو لا يستطيع أن يحول عينيه عنك.

أنت تبتسم لي الآن، وهذه الابتسامة تدلني على أنّك قد غلبت العالم.

فنظر يسوع إلى أمه وقال لها: يا مريم، كوني منذ الساعة أمّاً ليوحنا.

وقال ليوحنا: كن ابناً محبّاً لهذه المرأة. اذهب إلى بيتها وليعبر ظلك تلك العتبة التي طالما جلست عليها. اصنع هذا لذكري.

فرفعت مريم يمينها نحوه، فبدت كأنها شجرة ذات غصن واحد، ثم صرخت قائلة: يا ابني، الذي ليس ابناً لي، إذا كان هذا من الله فليعطنا الله صبراً ومعرفة لحقيقته. وإذا كان من الإنسان فليسامحه الله إلى الأبد.

إذا كان هذا من الله فإن ثلج لبنان سيكون لك كفناً، وإذا كان من هؤلاء الكهنة والجنود فقط فإن لي هذا الثوب لعريتك.

يا ابني، الذي ليس ابناً لي، إن ما يبنيه الله ههنا لا يمكن أن يزول، وكل ما يهدمه الإنسان سيظل مبنياً، ولكن في نظر أسمى من نظر الإنسان.

في تلك الدقيقة أسلمته السماوات للأرض صوتاً ونسمة حيّة.

ومريم أيضاً أسلمته للإنسان جرحاً وبلسماً.

وقالت مريم: انظروا الآن فقد مضى. قد انتهت المعركة وأعطى الكوكب نوره. قد وصلت السفينة إلى الميناء. والذي اتّكأ فيما مضى على قلبي يتموج الآن في الفضاء.

وإذ دنونا منها قالت لنا: إنّه حتى في الموت نفسه يبتسم. فقد غلب العالم. ويسرّني جدّاً أن أكون أمّاً للغالب.

ثم رجعت مريم إلى أورشليم متكئة على ذراع يوحنا التلميذ الصغير.

وكانت امرأة قد تحققت آمالها.

* * *

وعندما وصلنا إلى بوابة المدينة تأملت وجهها فأخذ الدهش بمجامع قلبي لأن رأس يسوع في ذلك اليوم كان أرفع من رؤوس جميع الرجال، ومع ذلك فإن رأس مريم لم يكن أقل منه ارتفاعاً.

حدث كل هذا في فصل الربيع.

ونحن اليوم في فصل الخريف، وقد رجعت مريم أم يسوع إلى بيتها وهي تقطن فيه وحدها.

* * *

منذ سبتين كان قلبي جامداً كالصخرة في صدري، لأن ابني تركني وسافر

إلى صور يطلب سفينة لأنّه يريد أن يكون ملاحاً.

وقد قال لي إنّه لن يرجع إليّ.

وفي أحد الأمساء سرت إلى مريم.

وعندما دخلت إلى بيتها كانت جالسة أمام نولها، وهي لا تلمسه لأنّها كانت تتأمل السماء البعيدة وراء الناصرة.

فقلت لها: السلام عليك يا مريم.

فمدت يدها إليّ وقالت: هلمّي فاجلسي إلى جانبي نراقب الشمس وهي تسكب دمها على التلال.

فجلست بجانبها على المقعد، وكنّا نتأمل الغروب من خلال النافذة. وبعد هنيهة قالت مريم: إنّني لا أدري من يصلب الشمس في هذا المساء.

فقلت لها: قد جئتك أطلب تعزية. إن ابني قد تركني وذهب إلى البحر، وأنا وحدي في البيت في عبر الطريق.

فقالت مريم: إنّني أود أن أعزّيك، ولكن أنّى لي ذلك؟

فقلت: إذا تكلمت عن ابنك فقط فإنّني أتعزى.

فتبسمت مريم ووضعت يدها على كتفي وقالت: إنّني سأتكلم عنه، لأن ما يعزيك إنمّا يحمل لي منتهى التعزية.

وأخذت تحدّثني ملياً عن يسوع، وعن جميع ما كان منذ البدء.

ويلوح لي أنها لم تفارق ابنها في كل حديثها.

فقد قالت لي: إن ابني هو ملاح كابنك، فلماذا لا تسلمين ابنك لحنان الأمواج كما سلمت ابني؟

ستبقى المرأة أبداً رحماً ومهداً، بيد أنها لن تكون رمساً. نحن نموت لكي نعطي حياة للحياة، كما أن أصابعنا تحوك من الخيوط ثوباً لن نلبسه أبداً.

ونحن نلقي الشبكة لنمسك السمك الذي لن نأكله.

لأجل هذا نكتئب ونحزن، ولكن في جميع هذا فرحنا وغبطتنا.

بهذا حدّثتني مريم.

فتركتها ورجعت إلى بيتي، ومع أنّ نور النهار كان قد ولّى فقد جلست إلى نولي أحوك القماش الذي لن ألبسه.

يوسف الملقب بيوستوس

يسوع الهائم

يقولون إنّه كان دنيئاً، وثمرة خاملة لزرع خامل، ورجلاً فظاً غليظاً.

ويقولون إن الريح فقط كانت تمشط شعره، وإن المطر فقط كان يغسل وجهه وثيابه.

ويقولون إنّه كان مجنوناً وينسبون أقواله للشياطين.

ولكن انظروا أيها الناس، إن هذا الرجل الذي احتقروه قد استنهد أعداءه، ولن ينقطع صوت مناهدته، لأنّه ما من بشر يستطيع أن يقف في وجهه.

قد أنشد أنشودة ولا يستطيع أحد أن يقيّد حريتها، فهي ترفرف بأجنحتها من جيل إلى جيل، وتنهض من محيط إلى محيط حاملة ذكرى الشفتين اللتين ولدت في أحضانهما والأذنين اللتين كانتا لها مهداً.

فقد كان غريباً. نعم نعم كان غريباً هائماً في طريقه إلى المقام المقدس، وكان زائراً يقرع أبوابنا، وضيفاً من بلاد بعيدة.

بيد أنّه لم يجد بيننا مضيفاً عطوفاً، ولذلك رجع إلى المكان الذي أعدّ له منذ إنشاء العالم.

فيلبس

وعندما مات ماتت الإنسانية كلها

عندما مات حبيبنا ماتت الإنسانيّة كلها، وسكن كل ما في الفضاء وامتقع لونه، فالشرق أظلم، وهبت من أعماقه عاصفة هوجاء اجتاحت كلّ الأرض. وكانت عيون السماء تنفتح وتنطبق، وتساقطت الأمطار أنهاراً فجرفت الدم الجاري من يديه ومن قدميه.

وأنا أيضاً متّ مع المائتين، وفي أعماق غفلتي سمعته يتكلم ويقول: يا أبتاه اغفر لهم، لأنّهم لا يدرون ما يفعلون.

وقد طلب صوته روحي المختنقة فأرجعني إلى الشاطئ ثانية.

ففتحت عينيّ ورأيت جسده الناصع البياض معلقاً أمام السحاب، وقد تجسدت الكلمات التي سمعتها منه في أعماق قلبي فصرت رجلاً جديداً. ولم أعرف طعم الكآبة فيما بعد.

فمن يحزن على البحر الذي يحسر القناع عن وجهه، أو الجبل الذي يضحك في الشمس؟

هل خطر على قلب بشرٍ، وقد طعن ذلك القلب، أن يقول مثل هذه الكلمات؟

وأي قاض من قضاة البشر صفح عن قضاته؟ وهل سبق للمحبة في كلّ أدوارها أن تغلبت على البغض بمثل هذه القوة الواثقة بذاتها؟

وهل سمعت الإنسانيّة صوتاً كصوت هذا البوق المدوّي بين الأرض والسماء؟

هل سُمع من قبل أن القتيل يسترحم لقاتله؟ أو أن الشهاب يوقف سيره من أجل الخلد؟

أجل، ستنقضي الفصول وستطوى السنون قبل أن يزول من الأرض أثر

هذه الكلمات: يا أبتاه اغفر لهم، لأنّهم لا يدرون ما يفعلون.

وأنا وأنت وإن ولدنا المرة بعد المرة، فإننا لن ننسى هذه الكلمات. وها أنا الآن أمضي إلى بيتي لأقف متسولاً رفيع الرأس على بابه.

بربارة اليمونية

يسوع اللجوج

كان يسوع صبوراً على الحمقى والبلداء، كما ينتظر الشتاء الربيع.

كان صبوراً كالجبل في الريح.

فكان يجاوب بلطف على جميع المسائل البليدة التي وجّهها إليه أعداؤه.

وكثيراً ما كان يصمت أمام المماحكة والمغالطة، لأنّه كان قويّاً، وفي منال القوي أن يكون طويل الأناة.

ولكن يسوع كان أيضاً قليل الصبر.

فإنّه لم يطق صبراً على المرائين.

ولم يسلم سلاحه لمشعوذي الكلام والخبثاء.

ولم يكن في طوق إنسان أن يسود عليه.

إنّه لم يصبر على الذين أنكروا النور لِأنّهم كانوا يعيشون في الظلام، والذين طلبوا علامات في السماء وكان الأجدر بهم أن يطلبوها في قلوبهم.

ولم يكن صبوراً على الذين وزنوا النهار وقاسوا السماء قبل أن أسلموا أحلامهم للفجر والمساء.

كان يسوع صبوراً.

ولكنه كان أقل الناس صبراً.

فهو يريد منك أن تحوك الثوب ولو أنفقت أعواماً بين النول وخيوط الكتان.

ولكنه لم يأذن لأحد أن يمزّق قيراطاً واحداً من النسيج الذي تمّت حياكته.

زوجة بيلاطس إلى امرأة رومانية

المحبة والقوّة

كنت أمشي مع وصيفاتي في الغابات خارج أورشليم عندما رأيته مع بضعة رجال ونساء جالسين حوله، وكان يخاطبهم بلغة لم أفهم سوى نصفها.

ولكن الإنسان لا يحتاج إلى لغةٍ لكي يرى عموداً من النور أو جبلاً من البلور. فالقلب يعرف ما لا ينطق به اللسان وما لا تسمعه الآذان.

كان يخاطب أصحابه عن المحبة والقوّة. إنّني أعرف أنّه تكلم عن المحبة لأنّه كان في صوته لحن شجيّ، وأعرف أنّه تكلم عن القوة لأن جيوشاً جرارة كانت تسير مع إشارته، وكان لطيفاً، وأنا لا أعتقد أن زوجي نفسه يستطيع أن يتكلم بالسلطان الذي تكلم به هذا الإنسان.

وعندما رآني مارّة به توقّف عن الكلام هنيهة ونظر إليّ بلطف. فاتضعت روحي أمام نظرته، وأدركت في أعماق نفسي أنّني مررت بإله.

وبعد ذلك اليوم كانت صورته تزورني في وحدتي عندما لم يزرني أحد من الرجال أو النساء، وكانت عيناه تنفذان إلى أسرار نفسي وأنا مغمضة العينين، وكان صوته سيّداً في هدوء لياليّ.

إنّني سجينة سحر هذا الرجل إلى الأبد، ولكن السلامة في آلامي، والحرية في دموعي.

أنت لم تنظري ذلك الرجل، يا صديقتي، ولن تنظريه.

فقد اختفى عن حواسنا، ولكن هو أقرب إليّ اليوم من جميع الرجال.

رجل خارج أورشليم

يهوذا الاسخريوطي

جاء يهوذا إلى بيتي في ليلة الجمعة العظيمة في مساء عيد الفصح وقرع بابي بعنف شديد.

وعندما دخل نظرت إليه فإذا وجهه كالرماد. وكانت يداه ترتجفان كالأغصان اليابسة في الريح، وكانت ثيابه مبللة كأنّه خارج من النهر، لأنّه في ذلك المساء حدثت عواصف عظيمة.

فنظر إليّ فبانت عيناه كالكهوف المظلمة الممتلئة بالدم.

فقال: قد أسلمت يسوع الناصري إلى أعدائه وأعدائي.

ثم فرك يديه وقال: قد أعلن يسوع أنّه سيقهر جميع أعدائه وأعداء أمتنا، فآمنت وتبعته.

وعندما دعانا إليه وعدنا بمملكة قديرة وسيعة، ونحن بإيماننا شددنا أزره لننال المراكز الرفيعة في بلاطه.

فرأينا أنفسنا أمراء نعامل هؤلاء الرومانيين بما عاملونا به. وقد تكلم يسوع كثيراً عن مملكته، حتى اعتقدت أنّه اختارني قائداً لمركباته، ورئيساً لجنده، ولذلك تبعت خطواته برضى وطمأنينة.

بيد أنّني وجدت أخيراً أنّه لم يطلب مملكة، ولم يقصد أن يحررنا من الرومانيين، لأن مملكته لم تكن سوى مملكة القلب.

وكنتُ أسمعه يتكلم عن المحبة والرحمة والإحسان، وكانت نساء الشوارع تصغي إليه بلهفة وفرح شديد، أما أنا فقد تمرمرت روحي وتحجر قلبي.

فإن ملك اليهودية الذي وعدت به نفسي تحول فجأة إلى ضارب على القيثارة لسكّن حدّة أفكار الهائمين والمتشردين.

فقد أحببته كما أحبّه هيري من أبناء عشيرتي، ورأيت فيه رجاء وعتقاً من نير الغرباء. ولكنه عندما لم يتلفظ بكلمة ولم يحرك يداً لتحريرنا من ذلك النير، وعندما تطرف فأعطى ما لقيصر لقيصر. حينئذ ملأ اليأس زوايا قلبي وتبدّدت جميع آمالي. فقلت في سري: إن من يقتل آمالي سيُقتل. لأن آمالي هي أثمن من حياة أي رجل كان.

ثم صرف بأسنانه، وحنى رأسه. وعندما تكلم ثانية قال: قد أسلمته. وقد صلبوه في هذا اليوم... ولكن عندما مات على الصليب مات ملكاً. فقد مات في العاصفة كما يموت المنقذون وكما يموت العظماء الذين يعيشون فوق الأكفان والحجارة.

وفي كل وقت موته كان ممتلئاً بالعطف واللطف، وكان قلبه يفيض رحمة. فقد أشفق عليّ وأنا الذي سلّمته!

فقلت: قد أخطأت يا يهوذا خطأ فظيعاً.

فأجاب يهوذا: قد مات ملكاً. فلماذا لم يعش ملكاً؟

فقلت أيضاً: وقد ارتكبت جريمة هائلة.

فجلس هنالك، على ذلك المعقد، وكان صامتاً كالصخرة.

أما أنا فكنت أتمشى جيئة وذهوباً مثقلاً بالحزن في الغرفة، ثم قلت له ثالثة: وقد اقترفت خطيئة عظيمة.

ولكن يهوذا لم يقل كلمة، بل ظلّ صامتاً كالأرض.

وبعد هنيهة وقف وتظر في وجهي فبدا لي أطول مما كان.

عندما تكلم كان صوته كالسفينة المتحطمة، وقال: لم تكن الخطيئة في قلبي. وفي هذه الليلة سأمضي وأطلب ملكوته وسأقف في حضرته وألتمس صفحه.

فهو قد مات ملكاً أما أنا فسأموت كخائن. ولكن قلبي يحدّثني بأنّه سيغفر لي. وبعد أن قال هذا لفّ جسده بعباءته جيداً وقال: حسناً فعلت

بمجيئي إليك في هذه الليلة. وإن كنت قد عملت على إزعاجك فهل لك أن تغفر لي أيضاً؟.

قل لأولادك وأولاد أولادك: إن يهوذا الإسخريوطي أسلم يسوع الناصري إلى أعدائه لاعتقاده أنّ يسوع كان عدوًا لأمته.

وقل أيضاً إن يهوذا في نفس اليوم الذي ارتكب فيه هذه الخطيئة العظمى تبع الملك إلى درجات عرشه ليسلم نفسه للمحاكمة.

فسأخبره أن دمي أيضاً مشوق للتراب، وروحي المخلعة تنشد الحرية.

ثم أمال يهوذا رأسه وأسنده إلى الحائط وصرخ قائلاً: أيها الرب الذي لا ينطق أحد باسمه حتى تقبض أصابع الموت على شفتيه، لماذا حرقتني بنار لا نور فيها؟.

لماذا أعطيت الجليليّ شوقاً لأرض غير معروفة، وأثقلت كاهلي برغبة لا تتعدّى البيت والموقدة؟ ومن هو هذا الرجل يهوذا الملطخة يداه بالدم؟ أعضدني لأطرده عني، ثوباً بالياً ومتاعاً رثاً.

ساعدني لأفعل هذا في هذه الليلة، ودعني أقف ثانية خارج هذه الجدران: قد سئمت هذه الحرية المقصوصة الجناح، وأحب سجناً أعظم من هذا.

أحب أن أجري كجدول من الدموع إلى البحر المر. أحب أن أكون رجلاً يتمتّع برحمتك من أن أكون رجلاً يقرع على بوابة قلبه.

هكذا تكلم يهوذا، ثم فتح الباب وخرج إلى العاصفة ثانية.

وبعد ثلاثة أيام زرت أورشليم وسمعت بكل ما حدث فيها. وهنالك عرفت أيضاً أن يهوذا رمى نفسه من قنّة الصخرة العالية.

قد فكرت كثيراً منذ ذلك اليوم، وأنا أفهم سر يهوذا، فقد كمّل حياته الصغيرة، التي تحركت كالضباب فوق هذه الأرض المستعبَدة من الرومانيين..

في حين أن النبيّ العظيم كان يصعد في الأعالي.

فالرجل الأول تاقت نفسه إلى مملكة يكون هو فيها أميراً.

أما الرجل الثاني فقد أراد مملكة يكون فيها جميع الناس أمراء.

سركيس الراعي اليوناني الشيخ
(الملقب بالمجنون)
يسوع والإله بان

رأيت في حلم يسوع الناصري وإلهي «بان» جالسين معاً في قلب الغابة.

وكان كل منهما يضحك من خطاب رفيقه. وكان الجدول الجاري أمامهما يضحك معهما. ولكن ضحك يسوع كان أكثر بهجة. وقد تحدثا طويلاً.

فتكلم «بان» عن الأرض وأسرارها. وعن إخوته ذوي الحوافر وأخواته ذوات القرون، وعن الأحلام. وتكلم عن الجذور وسكونها، وعن العصارة التي تستيقظ وتنهض مترنمة في الصيف.

وتكلم يسوع عن الأغصان الصغيرة في الغابة، وعن الزهور والأثمار، وعن البذور التي ستحملها في فصل لم يأت بعد.

وتكلم عن الطيور في الفضاء وتغريدها في العالم العلوي.

وأخبرنا إلهنا عن الأيائل البيضاء في الصحراء ترعاها عينا القدير.

وقد سرّ «بان» بحديث الإله الجديد وارتعشت مشامّه غبطة.

وفي نفس الحلم رأيت الصمت مخيماً على «بان» ويسوع وقد جلسا صامتين في سكينة الظلال الخضراء.

ثم أخذ «بان» زمّارته وزمّر ليسوع.

وكانت الأشجار تهتزّ والخنشار يرتعش، فتولاني خوف شديد.

فقال يسوع: أيها الأخ الصالح، قد جمعت معابر الأحراج وقنن الصخور في زمّارتك.

فأعطى «بان» الزمّارة ليسوع وقال: زمّر أنت الآن، فقد جاءت نوبتك. فقال يسوع: إن القصب في هذه الزمارة كبير على فمي، فاسمح لي أن أزمر في هذا المزمار.

فأخذ مزماره وشرع ينفخ فيه.

فسمعت وقع المطر في الأوراق، وترنيم الجداول بين التلال، وسقوط الثلج على رأس الجبل.

نبضُ قلبي، الذي اتخذ ضربه من الريح، عاد ثانية إلى الريح، وتراجعت جميع أمواج أمسي إلى شاطئي، فصرت ثانية سركيس الراعي، وتحوّل مزمار يسوع إلى نايات رعاة لا عديد لهم يدعون قطعاناً لا تعد ولا تحصى.

فقال: «بان» ليسوع: أنت أقرب في شبابك إلى الموسيقى مني في شيخوختي. وفي سكوني قبل هذا اليوم بوقت طويل قد سمعت أنشودتك وذكر اسمك.

إن صوت اسمك صالح عذب، وهو سينهض بقوّة مع العصارة إلى الأغصان، وسيركض بعزم مع الحوافر بين التلال.

وهو ليس بالاسم الغريب عليّ، مع أن أبي لم يدعني بذلك الاسم. إن مزمارك قد أعاده إلى ذاكرتي.

والآن هلمّ بنا نزمرّ معاً.

فشرعا يزمران معاً.

وقد ضربت موسيقاهما السماء والأرض، فوقع الرعب على جميع الأحياء.

فسمعت عجيج الحيوانات في الغابة. وسمعت صراخ المستوحشين من الناس وشكوى الذين يتوقون إلى ما لا يعرفون.

وسمعت تنهدات العذراء على حبيبها، ولهاث الصياد وراء صيده.
ثم رجع السلام إلى موسيقاهما، فترنمت السماء والأرض معاً.
كل هذا رأيته في حلمي، وكل هذا سمعته ووعيته.

حنانيا رئيس الكهنة

كان يسوع من السفلة

كان من السفلة، لصًا ودجالاً وضارباً بالبوق لنفسه، ولم يحسن إلا في عيون المدنسين والمعدمين، ولذلك لم يسر إلا في مسالك الملطخين والفاسدين.

وقد سخر منّا ومن شرائعنا، وهزأ من شرفنا وضحك من وقارنا. وتمادى في غوايته فقال إنّه يهدم الهيكل ويدنّس الأماكن المقدسة. إنّه لم يعرف عيباً، ولأجل هذا قضي عليه بموت معيب.

كان رجلاً من جليل الأمم، وأجنبياً من تلك البلاد الشمالية التي ما زال أدونيس وعشتروت ينازعان إسرائيل وإله إسرائيل السيادة عليها.

إن ذلك الذي كان يتلعثم لسانه وهو ينطق بخطب أنبيائنا صار أخيراً مرتفع الصوت وهو يتكلم بلغة النغول الأدنياء والسفهاء من أتباعه.

فهل كان في طوقي إلا أن أحكم عليه بالموت؟.

ألست أنا حارس الهيكل؟ ألست أنا حافظ الشريعة؟ وهل كنت قادراً أن أدير له ظهري قائلاً بكل طمأنينة: إنّه مجنون بين المجانين. دعه وشأنه حتى

يقضي في هذيانه، لأن المجانين والحمقى والذين تقطنهم الشياطين لا يقدّمون ولا يؤخرون في طريق إسرائيل؟ هل كنت قادراً أن أصمّ أذني عن سماع صوته عندما دعانا كذابين ومرائين وذئاباً وحيات وأولاد الأفاعي؟

إلا أنّني لم أقدر أن أصم أذني عن سماعه، لأنّه لم يكن مجنوناً، فقد كان مجذوباً بغرور نفسه. فحمله هذا الغرور الجنوني على تهديدنا ومناهدتنا جميعاً.

لأجل هذا أمرت بصلبه. ليكون صلبه ناصحاً ونذيراً لجميع الذين ختموا أنفسهم بخاتمه اللعين.

إنّني أعرف جيداً أن كثيرين أنحوا عليّ باللائمة على هذا العمل وفريق منهم من أعضاء السنهدريم أنفسهم، ولكنني أدركت آنئذ كما أدرك الآن أن رجلاً واحداً يجب أن يموت عن الأمة قبل أن يضلل الأمة بأسرها.

قد غَلب اليهودية عدوّ خارجيّ، ولكنني سأرى ألا يقهر اليهودية ثانية عدو داخلي.

فما من رجل من الشمال الملعون يستطيع أن يصل إلى قدس أقداسنا، أو يمر بظله على تابوت العهد المقدس.

امرأة من جارات مريم
مرثاة

في اليوم الأربعين بعد موته جاءت جميع جارات مريم إلى بيتها ليعزينها وينشدن مراثيهنّ.

وقد أنشدت واحدة منهنّ هذه المرثاة:
إلى أين يا ربيعي، إلى أين؟
وإلى أي فضاء آخر يتصاعد عبيرك؟

وفي أي حقل آخر ستمشي؟
وإلى أية سماء سترفع رأسك لتتكلم بما في قلبك؟
ستقفر هذه الأودية، ولن يكون لنا غير الحقول الجرداء القفراء.

إن جميع الأشياء الخضراء ستحترق في الشمس، ولن تنتج بساتيننا سوى التفاح الحامض، وكرومنا لن تحمل غير العنب المر.

سنعطش لخمرتك، وستحنّ مشامّنا لعطرك.

* * *

إلى أين يا زهرة ربيعنا الأول، إلى أين؟
أفلن ترجع إلينا؟
أفلن يزورنا ياسمينك، ولن ينبت بخور مريم روحك في جوانب طرقها ليخبرنا أنّنا نحن أيضا لنا جذور عميقة في الأرض، وأن أنفاسنا غير المتقطعة ستظلّ صاعدة إلى السماء أبداً؟
إلى أين يا يسوع، إلى أين يا ابن جارتي مريم، ورفيق ابني الحبيب؟
إلى أين يا ربيعنا الأول، وإلى أي الحقول الأخرى تسير؟
هل ترجع إلينا ثانية؟
وهل تزور، في مدّ محبتك، الشواطى القيمة لأحلامنا؟

آحاز الجسيم صاحب الفندق

العشاء قبل الفصح

إنّني أذكر جيداً المرة الأخيرة التي رأيت فيها يسوع الناصري. فقد جاءني يهوذا عند ظهر ذلك الخميس، وطلب إليّ أن أعدّ عشاءً ليسوع وأصدقائه.

وقد أعطاني قطعتين من الفضة وقال لي: اشترِ كل ما تراه لازماً للعشاء.

وبعد أن تركنا قالت لي زوجتي: إن هذا بالحقيقة لشرف عظيم، لأن يسوع صار نبيًّا عظيماً، وقد صنع آيات وعجائب كثيرة.

وعند الشفق جاء يسوع وأتباعه، وجلسوا في العلية حول المائدة ولكنهم صمتوا كأن على رؤوسهم الطير.

وقد جاؤوا في العام الماضي وفي العام الذي سبقه، ولكنهم كانوا في ذلك الوقت فرحين، فكسروا الخبز وشربوا الخمر وترنّموا بترانيمنا القديمة، ولم ينقطع يسوع عن محادثتهم حتى نصف الليل.

وبعد ذلك كانوا يتركونه وحده في العلية ويذهبون ليناموا في غرف أخرى، لأنّه كان يرغب في الانفراد بعد نصف الليل.

وكان يظلّ مستيقظاً الليلِ بطوله، لأنّني كنت أسمع وقع خطواته وأنا مضطجع في فراشي.

ولكن في هذه المرة الأخيرة لم يكن سعيداً لا هو ولا أصدقاؤه.

وكانت زوجتي قد أعدت سمكاً من البحيرة ودراريج من حوران حشتها بالأرز وحبوب الرمان، وأحضرت أنا لهم جرة من خمرة سروتي.

ثم تركتهم لأنّني شعرت بأنهم راغبون في أن يكونوا وحدهم. وقد أقامُوا في العليّة حتى خيّم الظلام، ثم انحدروا جميعهم معاً من العلية، ولكن يسوع وقف هنيهة عند أسفل السلم فنظر إليّ وإلى زوجتي، ثم وضع يده على رأس ابنتي وقال: ليلتكم سعيدة جميعاً. إنّنا سنأتي ثانية إلى عليتكم، ولكننا لن نترككم في مثل هذه الساعة الباكرة، وسنبقى معكم حتى تشرق الشمس فوق الأفق.

قريباً نعود إليكم ونطلبَ منكم مزيداً من الخبز والخمر، فقد أحسنتم ضيافتنا وسنذكركم إذا أتينا إلى بيتنا وجلسنا إلى مائدتنا.

فقلت له: قد كان لي الشرف في خدمتك يا سيدي. إن بقية أصحاب الفنادق يحسدونني على زيارتكم، فأضحك منهم مفتخراً في ساحة المدينة،

وفي بعض المرات أحوّل وجهي عنهم.

فقال: يجب أن يفتخر جميع أصحاب الفنادق بالخدمة، لأن الذي يعطي الخبز والخمر هو أخ لذلك الذي يحصد ويجمع أغمار الحبوب ويحملها إلى البيدر، وأخ لمن يعصر الخمرة في المعصرة. وأنتم جميعكم كرماء، لأنّكم تعطون من خيركم حتى لمن يأتي إليكم ولا شيء لديه سوى جوعه وعطشه.

حينئذ التفت إلى يهوذا الإسخريوطي الذي كان يحمل كيس الجماعة وقال له: اعطني شاقلين.

فأعطاه يهوذا شاقلين وقال له: هذه آخر قطعة من الفضة في كيسي. فنظر إليه يسوع وقال له: قريباً جداً سيمتلئ كيسك فضة.

ثم وضع الشاقلين في يدي وقال: اشترِ بهذا المال منطقة حريرية لابنتك ومُرها أن تلبسها في عيد الفصح تذكاراً لي.

قال هذا ونظر إلى وجه ابنتي ثانية، وانحنى وقبّل جبينها، ثم قال ثانية: ليلتكم سعيدة جميعاً، وسار في طريقه.

يقولون لي إن ما قاله لنا قد دوّنه أحد أصدقائه على رقّ عنده، ولكني أعدته على مسامعكم الآن كما سمعته من شفتيه.

إنّني لن أنسى ما حييت رنّة صوته وهو يقول هذه الكلمات: ليلتكم سعيدة جميعاً.

فإذا أردتم أن تعرفوا أكثر من هذا عن النبيّ الجديد فاسألوا ابنتي، فهي امرأة الآن ولكنها لم تبدل تذكارات صباها بمال الأرض كلها، وهي أكثر استعداداً للكلام منّي.

باراباس
كلمات يسوع الأخيرة

قد أطلقوني واختاروه. أما هو فنهض وأما أنا فسقطت. وقد قبضوا عليه ضحية وتقدمة للفصح.

وقد تحررتُ من قيودي ومشيتُ مع الجمع وراءه، ولكنني كنت رجلاً حيًّا يسير إلى قبره.

كان الأليق بي أن أهرب إلى الصحراء حيث يحترق العار بأشعة الشمس.
ولكنني مشيت مع الذين اختاروه ليحمل جريمتي.
وعندما سمّروه على الصليب كنت واقفاً هناك.
وقد رأيت وسمعت، ولكن ما يدرك فيّ كان خارج جسدي.
فقال له اللصّ الذي صُلب عن يمينه: وأنت تنزف دماؤك معي يا يسوع الناصري؟

فأجاب يسوع وقال: إنّني لولا هذا المسمار المغروس في يدي لكنت أمدّ يميني وأصافحك.

إنّنا قد صُلبنا معاً، ويا ليتهم رفعوا صليبك ليكون قريباً من صليبي ثم نظر إلى الأرض وتأمّل وجه أمه ووجه شاب كان واقفاً بجانبها.

وقال: يا أمي، هوذا ابنك واقف بجانبك.
يا امرأة، هوذا الرجل الذي سيحمل نقط دمي إلى بلاد الشمال.
وعندما سمع نواح نساء الجليل قال: تأمّلوا فهنّ يبكين وأنا أعطش.
قد رفعوني كثيراً فلا أستطيع أن أصل إلى دموعهنّ.
إنّني لن أشرب الخلّ والمرارة لأطفئ لهيب هذا العطش.
ثم انفتحت عيناه فنظر نحو السماء وقال: يا أبتاه، لماذا تركتنا؟

وبعد أن سكت هنيهة قال والرحمة تملأ صوته: يا أبتاه أغفر لهم. لأنّهم لا يدرون ما يفعلون.

وعندما تلفّظ بهذه الكلمات ظهر لي أنّني أرى أمام عيني جميع الناس ساجدين أمام الله يطلبون مغفرة عن صلب هذا الرجل الواحد.

ثم صرخ ثانية بصوت عظيم: يا أبتاه، في يديك استودع روحي.

وأخيراً رفع رأسه وقال: قد انتهى ولكن على هذه التلة فقط، وأغمض عينيه.

فمزقت سهام البرق وجه السماء الأسود، وحدث رعد عظيم.

إنّني لم أعرف اليوم أن الذين قتلوه عوضاً عنّي قد عملوا على عذابي الذي لن ينتهي.

لأن صلبه لم يأخذ سوى ساعة واحدة.

أما أنا فسأظل مصلوباً إلى نهاية أيامي.

كلوديوس قائد المئة الروماني

يسوع القائد العظيم

بعد أن قبضوا عليه دفعوه إليّ. وكان بيلاطس البنطي قد أمرني أن أوقفه حتى الصباح التالي.

قاده جنودي أسيراً، وكان طائعاً لهم.

وعند انتصاف الليل تركت زوجتي وأولادي وسرت لزيارة دار الأسلحة.

وكانت لي عادة أن أذهب وأفتقد رجال حاميتي في أورشليم لأرى أن كل شيء على ما يرام، وفي تلك الليلة زرت دار الأسلحة لأنّه كان سجيناً فيها.

وكان جنودي وبعض من فتيان اليهود يتلهون بالهزء به، فإذا بهم نزعوا عنه ثوبه ووضعوا إكليلاً من شوك السنة الماضية على رأسه، وأجلسوه أمام عمود، وكانوا يرقصون ويصرخون حوله.

وأعطوه قصبة ليمسكها بيده.

وإذ دخلت عليهم صرخ أحدهم وقال: انظر ملك اليهود أيها القائد.

فوقفتُ أمامه ونظرتُ إليه. وللحال شعرت بخجل عظيم. إنّني لم أدرِ لذلك سبباً.

فقد حاربت في غاليا وفي اسبانيا، وخضت غمرات الموت مع رجالي؛ ولكنني لم أعرف الخوف، وقطّ لم أكن جباناً.

ولكنني عندما وقفت أمام ذلك الرجل ونظر إليّ هلع قلبي وفارقتني شجاعتي، وشعرت بأن شفتيّ قد ختمتا ختما محكماً فلم أقدر أن أنبس بكلمة.

فتركت دار الأسلحة من فوري.

حدث هذا من ثلاثين سنة. وأولادي الذين كانوا أطفالاً في ذلك الوقت هم رجال الآن وهم يخدمون القيصر ورومة.

ولكنني كلما أردت نصحهم أحدّثهم عن ذلك الرجل، الذي كان وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة أمام الموت يلتمس الرحمة والغفران لقاتليه.

ها أنا اليوم شيخ طاعن في السنّ، وقد عشت أعوامي مكتفياً من كلّ شيء. ولكنني أعتقد أنّه لم يكن لبومبي ولا لقيصر من روح القيادة العظيمة ما كان لهذا الرجل الجليليّ.

لأنّه منذ موته، الذي جرى بدون مقاومة، قد نهض من الأرض جيش جبّار ليحارب في سبيله... وهم يخدمونه، مع أنه ميت، بما لم يحلم، لا بومبي ولا قيصر، بالحصول عليه من جنودهما في حياتهما.

يعقوب أخو الرب
العشاء الأخير

ألفَ مرة قد زارتني ذكرى تلك الليلة. وأعرف الآن أنها ستزورني ألف مرة أخرى.

ستنسى الأرض الأثلام المشقوقة في صدرها، وستنسى المرأة الألم والفرح اللذين في ولادة الأولاد، أما أنا فإنّني لن أنسى تلك الليلة ما حييت.

كنّا في المساء خارج أسوار أورشليم، فقال يسوع: لنذهب الآن إلى المدينة لنتعشى في الفندق.

وكان الظلام قد خيّم عندما وصلنا إلى الفندق، وكنّا جياعاً.

فحيّانا صاحب الفندق وصعد بنا إلى علية.

فطلب إلينا يسوع أن نجلس حول المائدة، أما هو فظلّ واقفاً يحدّق بعينيه إلينا.

فخاطب صاحب الفندق وقال له: احضر لي طستاً وإبريقاً ممتلئاً ماء؛ ومنشفة.

ثم نظر إلينا أيضاً وقال بلطف: اخلعوا نعالكم.

فلم نفهم، ولكننا عملاً بأمره خلعنا نعالنا.

فأحضر صاحب الفندق الطست والإبريق، فقال يسوع: سأغسل أرجلكم الآن، لأنّه يجدر بي أن أحرر أقدامكم من غبار الطريق القديمة وأمنحها حرية الطريق الجديدة.

فتولانا جميعاً منتهى الدهش والخجل.

فوقف سمعان بطرس وقال: كيف أقدر أن أزعج معلمي وربي ليغسل قدمَيَّ؟

فأجاب يسوع: إنّني أغسل رجليك لكي تتذكر أن الذي يخدم الناس

سيكون أعظم من جميع الناس.

ثم نظر إلى كل واحد منّا وقال: إن ابن الإنسان الذي اختاركم إخوةً له. ذلك الذي دُهنت قدماه في الأمس بطيوب العربيّة ونُشّفت بشعر امرأة، يرغب الآن في أن يغسل أرجلكم.

فأخذ الطست والإبريق وركع وغسل أرجلنا مبتدئاً بيهوذا الاسخريوطيّ.

ثم جلس معنا إلى المائدة؛ وكان وجهه كالفجر المشرق على معركة بعد ليلة كفاح سالت فيها الدماء.

فجاء صاحب الفندق مع زوجته يحملان الطعام والخمر.

ومع أنّني كنت جائعاً قبل أن ركع يسوع على قدمي فإنّني أضعتُ كلّ شهية للطعام، وكان في حلقي لهيب مقدس لم أشأ أن أطفئه بالخمرة.

وأخذ يسوع رغيفاً من الخبز وأعطانا قائلاً: قد لا نكسر الخبز معاً فيما بعد، فلنأكل هذه الكسرة تذكاراً لأيامنا في الجليل.

ثم صبّ خمراً من الجرّة في كأس وشرب، وأعطانا قائلاً:

اشربوا هذه الخمرة تذكارا للعطش الذي عرفناه معاً، واشربوها أيضاً على رجاء العصر الجديد، فإذا ذهبت ولم أكن معكم فيما بعد، فكلما اجتمعتمْ هنا أو في أي مكان آخر اكسروا الخبز واسكبوا الخمرة وكلوا واشربوا كما تفعلون الآن ثم انظروا حواليكم فعلّكم تجدونني جالساً معكم إلى المائدة.

وبعد أن قال هذا شرع يوزع علينا قطعاً من السمك والدُرّاج كما يطعم الطير فراخه.

ومع أنّنا لم نأكل إلاّ القليل فقد اكتفينا، ولم نشرب سوى نقطة صغيرة، لأنّنا شعرنا بأن الكأس التي أمامنا كانت فضاءً بين هذه الأرض وأرض أخرى.

فقال يسوع: فلننهض قبل أن نترك هذه المائدة، ولنترنم بأناشيد الفرح التي ترنّمنا بها في الجليل.

فنهضنا وأنشدنا بصوت واحد، ولكن صوته كان أرفع من أصواتنا، وكانت في كلّ كلمة من كلماته رنّة خاصة.

فنظر إلى وجوهنا كلاًّ بمفرده وقال: أودعكم الآن، لنذهب إلى ما وراء هذه الجدران، لنذهب إلى الجثمانيّة.

فقال يوحنا بن زبدى: يا معلم، لماذا تودعنا في هذه الليلة؟

فأجاب يسوع وقال: لا تضطرب قلوبكم، فأنا لا أترككم إلا لأعدّ لكم مكاناً في بيت أبي، ولكن إذا احتجتم إليّ فإنّي أرجع إليكم، وحيث دعوتموني أسمعكم، وحيثما طلبتني أرواحكم فهناك أكون معكم.

ولا تنسوا أن العطش يقود إلى المعصرة، والجوع إلى وليمة العرس.

إن حنينكم يحملكم إلى ابن الإنسان، والحنين هو ينبوع الوجد المقدّس والطريق المؤدية إلى الأب.

فقال له يوحنا ثانية: إذا كنت بالحقيقة ستتركنا فكيف نهتدي إلى مسرّاتنا؟ ولماذا تتكلم عن الانفصال؟

فقال يسوع: إن الظبي المطارَد يعرف سهمَ الصياد قبل أن يشعر به في صدره، والنهر يعرف البحر قبل أن يصل إلى شاطئه، وابن الإنسان قد سافر في طرائق الناس.

وقبل أن تخرج شجرة اللوز براعمها في الشمس ستطلب جذور شجرتي قلب حقل آخر.

فقال سمعان بطرس: يا معلم لا تتركنا الآن، ولا تحرمنا مسرّة حضورك بيننا، فإننا نمضي حيث تمضي ونقيم حيث تكون مقيماً.

فوضع يسوع يده على كتف سمعان بطرس، وتبسم وقال له:

من يدري إذا كنت لا تنكرني قبل انتهاء هذه الليلة، وتتركني قبل أن أتركك؟

ثم قال فجأة: لنمضِ من هنا.

فترك الفندق وتبعناه، ولكن عندما وصلنا إلى بوابة المدينة لم نجد يهوذا الاسخريوطي معنا، فعبرنا وادي جهنم، وكان يسوع يتقدمنا ونحن نمشي بعضنا بجانب بعض.

وإذ بلغنا بستان الزيتون وقف والتفت إلينا وقال: استريحوا هنا ساعة.

وكان المساء بارداً مع أن الربيع كان في انتصافه، وكانت أشجار التوت قد أورقت وأشجار التفاح في كمال زهرها، وكانت البساتين جميلة.

فطلب كل واحد منّا جذع شجرة واتكأنا. أما أنا فاضطجعت تحت صنوبرة ملتفّاً بردائي.

أما يسوع فتركنا ومشى وحيداً في بستان الزيتون، وكنت أراقبه وجميع الرفاق الآخرين نيام.

فكان تارة يقف فجأة بهدوء عجيب، ثم لا يلبث أن يسير في البستان ذهاباً وإياباً. وقد فعل هذا غير مرة.

ثم رأيته يرفع وجهه نحو السماء ويبسط ذراعيه إلى الشرق والغرب، فقد قال مرة: إن السماء والأرض والجحيم نفسه كلها من الإنسان. فتذكرت قوله، وأدركت أن الذي كان يتخطر أمامي في بستان الزيتون هو السماء صارت إنساناً، وفكرت أن رحم الأرض لا هي بالبداءة ولا بالنهاية، بل هي بالأحرى مركبة ومحطة، ولحظة عجب ودهشة. وقد رأيت الجحيم أيضاً في الوادي المعروف باسم جهنم، الذي كان قائماً آنئذٍ بين يسوع والمدينة المقدسة.

وفيما كان واقفاً هنالك وأنا ملتف بثوبي على الأرض، سمعته يتكلم، ولكنه لم يكن يتكلم معنا. ثلاث مرات سمعته يتلفظ بكلمة الأب. وهذا كان كل ما سمعته.

وبعد هنيهة سقطت ذراعاه، فوقف هادئاً كأنّه سروة بين عينيّ وبين السماء.

أخيراً رجع إلينا وقال لنا: استيقظوا وانهضوا، فقد دنت ساعتي، وقد خرج العالم عليّ مسلحاً للمعركة.

وبعد قليل قال: منذ هنيهة سمعت صوت أبي، فإذا لم أنظركم ثانية فتذكروا أن الغالب لا يتمتّع بالسلام حتى ينغلب.

وعندما نهضنا ودنونا منه كان وجهه كالسماء المرصعة بالنجوم فوق الصحراء.

ثم قبّل كلّ واحد منّا في وجنته، وعندما قبّل وجنتي شعرت بأن في شفتيه من الحرارة نفس ما في يد الطفل المحموم.

وفيما نحن على هذا سمعنا ضجيجاً عظيماً في آخر البستان كأنّه ضجيج جمع غفير، وعندما قرب منّا رأينا جماعة من الرجال يتقدمون بمصابيح وعصي، وكانوا قادمين بسرعة.

وعندما وصلوا إلى سياج البستان تركنا يسوع وذهب ليستقبلهم، وكان يهوذا الاسخريوطي يقودهم.

وكان الجمع يتألف من جنود رومانيين بسيوف وحراب ورجال من أورشليم بنبابيت وفؤوس.

فتقدم يهوذا إلى يسوع وقبّله، ثم قال للرجال المسلحين: هذا هو الرجل.

فقال يسوع ليهوذا: قد صبرت عليّ يا يهوذا، لأن هذا كان ممكناً لك في الأمس.

ثم التفت إلى الرجال المسلحين وقال: خذوني الآن، ولكن ينبغي أن يكون قفصكم كبيراً ليسع هذه الأجنحة.

فهجموا وقبضوا عليه، وكانوا يصيحون ويضجون.

أما نحن فقد حملنا الخوف على الهرب للخلاص منهم.

فركضتُ وحدي بين أشجار الزيتون ولم أفكر في أحد، لأنّني لم أسمع

في تلك الساعة صوتاً غير صوت مخاوفي.

وفي أثناء الساعات القليلة التي تبقّت من تلك الليلة كنت هارباً متستراً؛ وعند الصباح وجدت نفسي في قرية قريبة من أريحا.

فلماذا تركته؟ إنّني لا أدري، ولكنني حزين لأنّني تركته، فقد برهنت على جبانتي بهربي من أعدائه.

وإذ غمرني عار خجلي وندمي رجعت إلى أورشليم فإذا هو سجين ولا يُسمح لأحد من أصدقائه بأن يكلمه.

ثم صلبوه، فصنع دمه تراباً جديداً للأرض.

أما أنا فما زلت حيّاً، ولكنني أعيش متغذياً بقرص العسل الذي جنتهُ حياته.

سمعان القيرواني

كيف حملت صليبه

كنت أسير في طريقي إلى الحقول عندما رأيته حاملاً صليبه والجماهير تتبعه.

فمشيت أنا أيضاً في جانبه.

وقد أوقفه ثقل حمله غير مرة، لأن قوته كانت قد نفدت.

فتقدم إليّ أحد جنود الرومان وقال: تقدم، فأنت قويّ العضلات متين البناء، فاحمل صليب هذا الرجل.

وعندما سمعتُ هذه الكلمات رقص قلبي طرباً وفرحت بهذه الفرصة فحملت صليبه شاكراً.

وكان الصليب ثقيلاً، لأنّهم صنعوه من شجر الحور المشرب بأمطار الشتاء.

فنظر يسوع إليّ، وكان عرق جبينه ينسكب جارياً على لحيته.

ثم نظر إليّ ثانية وقال: وأنت أيضا تشرب هذه الكأس؟ إنّك بالحقيقة ستمتصّ حافتها معي إلى منتهى الدهور.

وإذ قال هذا وضع يده على كتفي الحرة، وهكذا مشينا معاً إلى تلة الجمجمة.

ولكنني بعد أن وضع يده على كتفي لم أشعر بثقل الصليب قط، بل كنت أشعر بيده فقط، وكانت كجناح الطير على كتفي.

ثم بلغنا إلى رأس التلة، حيث أعدّوا كلّ شيء ليصلبوه.

حينئذٍ شعرت بثقل الصليب.

بيد أنّه لم يتفوّه بكلمة عندما غرزوا المسامير في يديه ورجليه، ولم تخرج من فمه صرخة واحدة.

وأعضاؤه لم ترتجف تحت طرقات المطرقة.

وقد خيّل إليّ أن يديه ورجليه كانت قد ماتت وهي ترجع آنئذ إلى الحياة مستحمة بالدماء. وأما هو فكان ينشد المسامير كما ينشد الأمير صولجانه، وكان شائقاً الارتفاع إلى الأعالي.

ولم يخطر لقلبي أن يشفق عليه لأن الذهول كان يملأ كياني، وها إن الرجل الذي حملت صليبه صار لي صليباً.

فإذا قالوا لي ثانية: احمل صليب هذا الرجل، فإنّي لأحملنّه بملء الرضى حتى تؤدي بي طريقي إلى قبري.

ولكنني ألتمس منه انئذ أن يضع يده على كتفي.

قد حدث هذا منذ أعوام عديدة، ولكنني كلما تبعت الثلم في حقلي،

وكلما غالبني النعاس قبل النوم، أفكر بغير انقطاع في ذلك الرجل الحبيب، وأشعر بيده المجنحة، هنا على كتفي اليسرى.

سيبورية أم يهوذا

تصف ابنها وأطواره

كان ابني رجلاً فاضلاً مستقيماً، وكان لطيفاً رقيقاً في معاملتي، وقد أحب أهله ومواطنيه، وأبغض أعداءنا الرومانيين الملاعين الذين يرتدون الملابس الأرجوانية مع أنّهم لا يغزلون خيطاً ولا يجلسون إلى نول، ويحصدون ويجمعون من غير أن يفلحوا أو يبذروا بذاراً.

كان ابني في السابعة عشرة فقط عندما قبضوا عليه يرمي الحامية الرومانية بنباله وهي تمرّ بكرمنا.

وفي ذلك العمر كان يحدّث أترابه من فتيان البلاد بمجد إسرائيل، وينطق أمامهم بأقوال وخطب عجيبة لم أفهمها.

وكان ابناً محباً، وكان وحيداً.

فقد شرب الحياة من هذين الثديين الناشفين الآن، ومشى خطواته الأولى هنا في هذا البستان، متمسكاً بهذه الأصابع التي هي اليوم كالقصبات المرتجفة.

بهاتين اليدين، اللتين كانتا آنئذٍ فتيتين طريتين كعنب لبنان، قد خبأت حذاءه الأول في منديل من الكتان كانت قد أهدته إليّ أمي. وما زلت أحتفظ به في تلك الخزانة التي بجانب النافذة.

كان بكراً لي، وعندما مشى خطواته الأولى شعرت أنا أيضاً بأني أخطو خطوتي الأولى، لأن النساء لا يسافرن إلا مقودات بأولادهنّ.

والآن يقولون لي إنّه مات منتحراً، فقد رمى نفسه من الصخرة العالية لأن ضميره وبخه على تسليمه صديقه يسوع الناصري.

إنني أعرف أن ابني قد مات، ولكنني واثقة بأن ابني لم يسلم أحداً، لأنّه أحب أبناء جنسه ولم يبغض أحداً غير الرومانيين.

كان لابني ضالة واحدة هي مجد إسرائيل، فلم يكن في أقواله وأفعاله موضوع غير هذا الموضوع.

وعندما تعرّف إلى يسوع على الطريق تركني ليتبعه. أما أنا فقد عرفت في أعماق قلبي أنّه يخطئ إذا تبع أي إنسان لأنّه خُلق ليكون متبوعاً لا تابعاً.

وقبل أن يودّعني أخبرته بخطئه فلم يصغ إليّ.

إن أولادنا لا يصغون إلى نصائحنا، فهم أشبه بمدّ البحر في اليوم لا يلتمسون النصح من مدّ الأمس.

أرجو من فضلكم ألا تسألوني ثانية عن ابني.

فقد أحببته وسأحبه إلى الأبد.

ولو كانت المحبة في اللحم لكنت أحرقه بالحديد الحامي وأحظى بسلامتي، ولكنها في النفس فلا يُبلَغُ إليها.

والآن أنقطع عن الكلام، فاذهبوا واسألوا أمّاً أكثر شرفاً من أم يهوذا.

اذهبوا إلى أم يسوع، فقد جاز السيف في قلبها أيضاً، وهي تخبركم عني فتفهمون.

امرأة من جبيل

مرثـاة

ابكين معي يا بنات عشتروت، ويا كلّ محبي تموز.
مُرنَ قلوبكنّ فتذوب وتنهض فتجري كالدم دموعاً.
لأن الذي صُنع من الذهب والعاج لم يبقَ في الوجود
فقد هجم عليه الخنزير البري في الغابة المظلمة ومزق جسده بأنيابه.

والآن فهو يضطجع ملطخاً مع أوراق الأعوام المنصرمة، ولن يوقظ وقع خطواته البذور الهاجعة في حضن الربيع.

إن صوته لن يأتي مع الفجر إلى نافذتي، وسأعيش وحيدة أبداً.

ابكين معي يا بنات عشتروت، ويا كلّ محبّي تموز، لأن حبيبي قد أفلت منّي. ذلك الذي تكلم كما تتكلم الأنهار، ذلك الذي كان صوته وزمارته توأمين، ذلك الذي كان فمه ألماً ملتهباً فتحوّل إلى عذوبة لذيذة، ذلك الذي كانت المرارة تتحول على شفتيه إلى شهد العسل.
ابكين معي يا بنات عشتروت، ويا كل محبّي تموز.

ابكين معي حول نعشه كما تبكي النجوم، وكما تتساقط أوراق القمر على جسده الجريح.

بلّلن بدموعكنّ أغطية فراشي الحريريّة، حيث استراح حبيبي مرة في حلمي ثم ابتعد عني في يقظتي.

استحلفكنّ يا بنات عشتروت، ويا كل محبّي تموز.
اسندن صدوركنّ وابكين وعزّينني.
لأن يسوع الناصري قد مات.

مريم المجدلية

بعد ثلاثين سنة

مرةً ثانية أقول إن يسوع بالموت غلب الموت، ونهض من القبر روحاً وقوة. وقد مشى في وحدتنا وزار بساتين وجدنا ومحبتنا.

فهو لا يضطجع هنالك في تلك الصخرة المنحوتة وراء الحجارة.

فنحن الذين نحبّه قد رأيناه بهذه العيون التي فتح بصيرتها لترى، ولمسناه بهذه الأيدي التي علمها كيف تنبسط.

إنّني أعرفكم أنتم الذين لا تؤمنون به، فقد كنت منكم وأنتم كثيرون، ولكن عددكم سيتناقص.

فهل يجب أن تكسروا عودكم وقيثارتكم لتشاهدوا الموسيقى فيهما؟

أو هل يجب أن تقطعوا الشجرة قبل أن تقدروا على الإيمان بأثمارها؟

أنتم تبغضون يسوع لأن رجلاً من بلاد الشمال قال إنّه ابن الله، ولكنكم تبغضون بعضكم بعضاً لأن كل واحد منكم يحسب نفسه أكبر من أن يكون أخاً للآخر.

أنتم تبغضونه لأن فريقاً قالوا إنّه ولد من عذراء، وليس من زرع رجل.

ولكنكم لا تعرفون الأمهات اللواتي يذهبن إلى القبر في عذريتهنّ ولا الرجال الذين يذهبون إلى قبورهم مختنقين بعطشهم.

أنتم لا تعرفون أن الأرض زفّت إلى الشمس، وأن الأرض هي التي تبعثنا إلى الجبل وإلى الصحراء.

إن هنالك خليجاً يتثاءب بين الذين يحبون يسوع والذين يبغضونه، بين الذين يؤمنون وبين الذين لا يؤمنون.

فإذا بنت الأعوام جسراً فوق هذا الخليج فحينئذٍ ستعرفون أن الذي عاش فينا لا يموت، وأنّه كان ابناً لله كما أنّنا نحن أيضاً أبناء الله، وأنّه قد وُلد من

عذراء، كما أنّنا نحن أيضاً قد ولدنا من الأرض التي لا زوج لها.

غريب عجيب كيف أن الأرض لا تعطي غير المؤمنين الجذور التي ترضع من ثدييها، والأجنحة التي بها يطيرون محلقين ليشربوا ويمتلئوا من ندى فضائها.

بيد أنّني أعرف ما أعرف، وفي هذا كفاية لي.

رجل من لبنان

بعد تسعة عشر قرناً

يا سيد المرنّمين.
يا سيد الكلمات التي لم ينطق بها.
سبع مرات قد وُلدت، وسبع مرات قد متّ بعد زيارتك المستعجلة وترحيبنا القصير.

وها أنا أحيا ثانية، متذكراً العهد الذي رفعنا فيه مَدّك يوماً واحداً وليلة واحدة بين التلال.

وبعد ذلك قد قطعت أرضاً كثيرة وبحاراً كثيرة.

وحيثما حملتني خيول الأرض أو سفن البحر كنت أرى اسمك إما صلاةً ترتفع من القلب أو موضوعاً لمجادلة يقوم بها الفكر.

والناس حزبان: حزب يباركك وحزب يلعنك.

أما اللعنة فعربون الاحتجاج على الفشل.
وأما البركة فترنيمة الصياد الراجع من التلال ظافراً غانماً.
إنِ أصدقاءك ما زالوا في وسطنا، لتعزيتنا وعضدنا.
وأعداءَك أيضاً معنا، لتقويتنا وتثبيت إيماننا.

وأمك معنا، فقد رأيت نور وجهها في محيّا جميع الأمّهات. إن يدها تهزّ الأسرّة بلطف، وتطوي الأكفان بعطف.

ومريم المجدلية لا تزال في وسطنا.

تلك التي شربت خلّ الحياة ثم خمرتها.

ويهوذا، رجل الآلام والمطامح الصغيرة، ما زال يمشي في أرضنا، وهو ما برِح يصطاد نفسه إذا لم يجد غيرها صيداً، طالباً ذاته الكبرى بالانتحار.

* * *

ويوحنا، الذي أحب شبابه الجمال، هو معنا.

وهو ينشد ألحانه وإن لم يصغ إليه أحد.

وسمعان بطرس، الذي أنكرك لتطول حياته في معرفتك، هو أيضاً جالس أمام مواقدنا.

وهو قد ينكرك ثانية قبل مرور فجر يوم آخر.

بيد أنّه أبداً مستعدّ أن يُصلب في سبيل مبادئك حاسباً نفسه غير مستحقّ لهذا الشرف.

وقيافا وحنّان ما زالا يتمتعان بنور يومهما ويحكمان على المجرم والبريء.

وهما ينامان على فراش من الريش في حين أن الذي حكما عليه تلعب السياط على ظهره.

والمرأة التي أمسكت بالزنى تمشي اليوم في شوارع مدننا وهي تجوع للخبز الذي لم يُخبز بعد، وتعيش وحيدة في بيت فارغ. وبيلاطس البنطي هنا أيضاً، فهو واقف باحترام أمامك، ولا يزال يسألك بيد أنّه لا يجرؤ أن يعرّض بمركزه أو يقاوم أمة أجنبية، وحتى الساعة لم يفرغ من غسل يديه. وحتى الساعة تحمل أورشليم الطست ورومة الابريق؛ وبين الاثنين تنتظر ألف ألف يد لتغسل.

* * *

يا سيد الشعراء، يا سيد ما قيل وما أنشد من الكلام.
قد بنى الناس الهياكل لسكنى اسمك.
وعلى كل قنّة رفعوا صليبك علامةً ودليلاً لأقدامهم الهائمة وليس لمسرّة روحك.

فإن مسرتك تلّة وراء أفكارهم ولذلك لا تعزيهم.
فهم يحبون أن يكرموا الرجل الذي لا يعرفونه.
وأية تعزية في رجل نظيرهم، ورأفته كرأفتهم؟
أو في إله محبته كمحبتهم، ورحمته هي رحمتهم؟

إنهم لا يكرّمون الرجل، الرجل الحيّ، الرجل الأول الذي فتح عينيه ونظر إلى الشمس بأجفان غير مرتعشة.

إلا أنهم لا يعرفونه ولا يريدون أن يكونوا مثله.

* * *

إنهم يريدون أن يكونوا مجهولين، وأن يمشوا في موكب غير المعروف.
إنهم يحبّون أن يحملوا الكآبة التي هي كآبتهم، ولذلك لا يريدون أن يجدوا تعزية في مسرتك.

وقلبهم الوجيع لا ينشد التعزية التي في أقوالك وأنشودتها.

أما آلامهم، الصامتة المخلعة، فإنها تجعلهم مخلوقات مستوحشة لا يزورها أحد.

ومع أنهم يعيشون مع أهلهم وأبناء أمتهم، فهم يعيشون خائفين ولا صديق لهم، ولكنهم يحبون أن يكونوا وحدهم.

وإذا هبّت الريح الغربيّة ينحنون إلى الشرق.
إنهم يدعونك ملكاً، ويريدون أن يجلسوا في بلاطك.
ويقولون إنّك أنت ماسيّا، بيد أنهم يريدون أن يمسحوا أنفسهم بالزيت

المقدّس، إلا أنهم يريدون أن يعيشوا على حسابك.

* * *

يا سيد المرنمين،
قد كانت دموعك كشآبيب المطر في أيار (الشهر الخامس).

وكان ضحكك كأمواج البحر الأبيض.

وعندما تكلّمت عبّرت كلماتك عن همس بعيد لشفاههم، في الوقت الذي كان يجب على تلك الشفاه أن تستنير بالنار.

فقد ضحكت للنخاع في عظامهم الذي لم يكن مستعدّاً للضحك.
وبكيت لعيونهم التي لم تكن تعرف الدموع بعد.
وكان صوتك أباً عطوفاً لأفكارهم وأفواههم.
بلى، وكان أُمّاً رؤوماً لأقوالهم وأرواحهم.

* * *

سبع مرات قد وُلدت، وسبع مرات قد متّ.
وها أنا أحيا ثانية فأراك
محارباً بين المحاربين، وشاعر الشعراء، وملكاً فوق جميع الملوك.
ورجلاً نصفه عارٍ بين رفاقك من عابري السبيل.
في كل يوم يحني الأسقف رأسه عندما يتلفظ باسمك الكريم.
وفي كل يوم يقول المتسولون:
من أجل المسيح، اعطونا نحاسة لنشتري بها خبزاً!
نحن نتوسل بعضنا إلى بعض، ولكننا بالحقيقة لا نتوسّل لغيرك.
فنحن كالمدّ الفائض في ربيع حاجياتنا ورغباتنا.
وعندما يأتي خريفنا نصير كالجزر الشحيح.
فسواء كنّا عظماء أو وضعاء فإن اسمك على شفاهنا،
أنت السيد غير المتناهي، للعطف غير المتناهي.

* * *

يا سيد ساعتنا المستوحشة،
هنا وهناك، بيد المهد والكفن، أرى إخوتك الصامتين،
الرجال الأحرار غير المقيدين، أبناء أمك الأرض والفضاء.
فهم كطيور السماء، وكزنابق الحقل.
وهم يحيون حياتك ويفكرون أفكارك.
ويرجّعون صدى أنشودتك.
ولكن أيديهم فارغة،
ولا يُصلبون مع الصلب العظيم، وفي هذا المنهم.
إن العالم يصلبهم في كل يوم، ولكن بطرائق بسيطة.
فالسماء لا تهتزّ حين صلبهم، والأرض لا تتمخض بأمواتها.
فهم يُصلبون ولا أحد يشهد عذابهم.
ويديرون وجوههم إلى اليمين وإلى الشمال،
فلا يجدون أحداً ليعدهم بمكان في ملكوته.
بيد أنهم يريدون أن يُصلبوا المرة بعد المرة،
ليكون إلهك إلهاً لهم، وأبوك أباً لهم.
يا سيد المحبة،
إن الأميرة تنتظر مجيئك في عليّتها المعطّرة،
والمرأة المتزوجة في قفصها،
والمومس التي تنشد خبزها في شوارع عارها،
والراهبة التي لا زوج لها في صومعتها،
والعاقر أيضاً، أمام نافذتها، تتأمل صورة الغابة التي رسمها الصقيع على زجاج النافذة، فتجدك في تناسب خطوطها، فترضعك في أحلامها وتتعزّى.

* * *

يا سيد الشعراء،
يا سيد رغباتنا الصامتة،
ان قلب العالم يخفق مع نبضات قلبك، ولكنه لا يحترق مع أناشيدك،

إن العالم يجلس ليصغي إلى صوتك بفرح وطمأنينة، ولكنه لا ينهض عن مجلسه ليزين حافات تلالك.

والإنسان يحلم حلمك، ولكنه لا يستيقظ مع فجرك الذي هو أعظم من حلمك.

وهو يريد أن يرى بصيرتك، ولكنه لا يجر قدميه الثقيلتين إلى عرشك.

بيد أن كثيرين أُجلسوا على العروش باسمك، وتُوِّجوا بقوتك فحولوا زيارتك الذهبية إلى تيجان لرؤوسهم وصوالجة لأيديهم.

* * *

يا سيد النور،
الذي تقطن عيناه في أصابع العميان البصيرة،
إنّك ما زلت تُحتقر ويُهزأ بك،
رجلاً يحول ضعفك وسقمك دون صيرورتك إلهاً.

وإلهاً تحول انسانيتك المتناهية دون حصولك على العبادة.

إن ما يقدمه الناس أمام عرشك في القداديس والترانيم، والأسرار والذبائح، إنّما هو لأجل ذاتهم السجينة.
فأنت وحدك ذاتهم البعيدة، وصراخهم الشاسع، وشوقهم وحنينهم.

* * *

أيها السيد، أيها القلب السماوي.
يا بطل أحلامنا الذهبية.

إنّك ما زلت تتخطر أمامنا في هذا اليوم،
فلا السهام ولا الحراب تستطيع أن توقف خطواتك.
لأنّك تمشي بين جميع سهامنا وحرابنا.

إنك تتبسم لنا من أعاليك.
ومع أنّك أصغر من جميعنا سناً، فأنت أبٌ لجميعنا،

أيها الشاعر، .

أيها المرنم،
أيها القلب الكبير.
ليبارك الرب اسمك،
والبطن الذي حملك،
والثدي الذي أرضعك،
وليسامحنا الرب جميعاً!!.

آلهة الأرض

تعريب

الارشمندريت انطونيوس بشير

آلهة الأرض

وعندما حلت ليلة العصر الثاني عشر، وابتلع الصمت، الذي هو مدّ بحر الليل، جميع التلال.

ظهر الآلهة الثلاثة، المولودون في الأرض، وأسياد الحياة، على الجبال فتراكضت الأنهار إلى أقدامهم.

وغمرت أمواج الضباب صدورهم.

وارتفعت رؤوسهم بجلال فوق العالم.

ثم تكلموا، فتموجت أصواتهم كالرعد البعيد، فوق السهول.

الإله الأول:

إن الريح تهب شرقاً،
فأريد أن أحول وجهي نحو الجنوب،
لأن الريح تملأ مشامي برائحة الأشياء الميتة.

الإله الثاني:

هذه رائحة الأجسام المحترقة، وهي لذيذة وسخية.

وأنا أود أن أتنشقها.

الإله الأول:

هي رائحة الميتوتة المحترقة على لهيبها الضئيل.
وهي تملأ دقائق الهواء بوفرة،
فتزعج حواسي كما يزعجها الهواء الفاسد في الهاوية.
ولذلك أريد أن أحول وجهي إلى الشمال الذي لا رائحة فيه.

الإله الثاني:

إنها العبير الملتهب للحياة المثمرة،
وهي ما أود أن أتنشقه الآن وفي كل أوان.
إنما تعيش الآلهة على التضحية،
وتبرّد غلة عطشها بالدم،
وتسكّن قلوبها بالنفوس الفتية،
وتشدد عزائمها بالتأوهات الدائمة التي تصعّدها أرواح القاطنين في قلب الموت،
وعروشها مبنية على رماد الأجيال.

الإله الأول:

قد سئمت روحي كل ما هو كائن،
فأنا لن أمدّ يداً لأخلق عالماً،
ولا لأمحو عالماً من الوجود.

إنني ما كنت لأعيش لو أنني قادر أن أموت،
لأن ثقل الأعصر كلها على كتفي،
وهدير البحر الذي لا ينقطع يستنفد كنوز نومي.
فيا ليت لي أن أخسر المطلب الأول.
فأزول كالشمس الزائلة.
أود لو أستطيع أن أجرد ألوهيتي من غايتها،

لأنفخ أنفاس ميتوتتي في الفضاء،
فلا أكون فيما بعد.
يا ليت لي أن أحترق وأمضي من ذاكرة الزمان إلى فراغ الأزمان!.

الإله الثالث:

أصغيا يا أخوي، أصغيا أيها الشقيقان القديمان.
فإن شاباً في ذلك الوادي،
ينشد مكنونات قلبه في أذن الليل.
إن قيثارته من الذهب والأبنوس.
وصوته من الفضة والذهب.

الإله الثاني:

إنني لست مغروراً بهذا المقدار لأتمنى أن لا أكون.
فأنا لا أقدر أن أختار إلا أصعب الطرق،
لأتتبع الفصول وأخضد شوكة السنين، لأزرع البذور وأراقبها إلى قلب الأرض،
لأدعو الزهرة من مخبأها وأسلحها بقوة لتحضن حياتها، ثم أعود فأقلعها عندما تضحك العاصفة في الغابة، لأنهض الإنسان من الظلمة السرمدية،
ولكنني أحفظ لجذوره حنينها إلى الأرض،
لأغرس فيه العطش للحياة، وأجعل الموت حامل أقداحه،
لأعطيه المحبة النامية بالألم، المتسامية بالشوق، المتزايدة بالحنين، والمضمحلة بالعناق الأول،
لأمنطق لياليه بأحلام الأيام العلوية،
وأسكب في أيامه رؤى الليالي المقدسة.
ثم أحكم على أيامه ولياليه بالمماثلةالتي لا تتغير،
لأجعل خياله كالنسر على الجبل،
وأفكاره كعواصف البحار،
ثم أعطيه يداً بطيئة في الحكم،
وقدماً ثقيلة في التأمل،

لأمنحه مسرة ليترنم أمامنا، وكآبة ليلتَجِىء إلينا،
ثم أجعله وضيعاً عندما تصرخ الأرض في مجاعتها طالبة طعاماً،
لأرفع نفسه عالية فوق الجلد،
ليصير قادراً على مذاقة غدنا،

وأحفظ جسده يتمرّغ بالحمأة،
لكي لا يتناسى ذكر أمسه.
هكذا يليق بنا أن نحكم الإنسان إلى منتهى الزمان،
مقيدين النسمة التي تبدأ بصراخ أمه،
وتنتهي بنواح أولاده.

الإله الأول:

إن قلبي يحترق عطشاً، بيد أنني لا أريد أن أشرب دماً ضعيفاً لجنس ضعيف.

لأن الكأس ملطخة، والعصير الذي فيها مرّ المذاق في فمي.

وأنا مثلك قد عجنت الطين وصنعت منه أشكالاً متنفسة لم تلبث أن سقطت من بين أصابعي إلى الآجام والتلال.

وأنا مثلك قد أنرت الأعماق المظلمة لبداءة الحياة.

وراقبتها تزحف من الكهوف إلى الأعالي الصخرية.

أنا مثلك قد أحضرت الربيع ووضعت جماله،
ليكون غواية تقبض على الشباب وترغمه على الانتاج والتكاثر.

أنا مثلك قد سرت بالإنسان من مزار إلى مزار.

وحولت مخاوفه الصماء من غير المنظورات إلى إيمان مضطرب بنا من غير أن يرانا أو يعرفنا.

أنا مثلك قد جعلت العاصفة الهوجاء على رأسه لينحني أمامنا.
وزعزعت الأرض تحت قدميه حتى يصرخ إلينا.
ومثلك أثرت الأوقيانوس البربري فطغى على عش جزيرته،
حتى مات في توسله إلينا.
كل هذا فعلته، وأكثر منه.
وكل ما فعلته فارغ باطل.
باطلة هي اليقظة وفارغ هو النوم.
وثلاث مرات باطل وفارغ هو الحلم.

الإله الثالث:

يا أخوي، إن في غابة الريحان تلك فتاة ترقص للقمر،
وفي شعرها ألف نجمة من الندى،
وحول قدميها ألف جناح.

الإله الثاني:

إننا قد غرسنا الإنسان، كرمتنا.
وفلحنا الأرض في الضباب الأرجواني للفجر الأول،
وراقبنا الأغصان النحيلة نامية،
وغذينا الأوراق الفتية على مر الأيام والسنين التي لم تعرف الفصول.
وحصّنّا البراعم ضد العناصر الغضوب،
وحرسنا الزهرة من اعتداء الأرواح المظلمة.
والآن، وقد أخرجت كرمتنا عنبها،
فأنتم لا تحملونه إلى المعصرة لتملأوا الأقداح.
فأية أيدٍ أقدر من أيديكم ستجمع الثمر؟.
وأي مطلب أنبل من عطشكم ينتظر الخمرة؟.
فالإنسان طعام للآلهة.

ومجد الإنسان يبتدئ عندما تمتص شفاه الآلهة المقدسة نسمته الهائمة على غير هدى.

كل ما هو بشري لا قيمة له إذا ظلّ بشرياً.

إن طهارة الأطفال، ووجد الشباب اللذيذ،

وهوى الرجولة العزوم، وحكمة الشيخوخة الناضجة،

إن مجد الملوك، ونصر المحاربين،

وشهوة الشعراء، وشرف الحاكمين والقديسين،

كل هذه، وكل ما تحمله في ثناياها، هو خبز الآلهة.

وهي لن تكون إلا خبزاً بغير بركة إذا لم ترفعها الآلهة إلى أفواهها.

وكما أن حبة الحنطة الصماء تتحول إلى أنشودة محبة عندما يبتلعها البلبل، هكذا الإنسان إذا كان خبزاً للآلهة يتذوق الألوهية.

الإله الأول:

نعم، إن الإنسان هو خبز الآلهة!

وكل ما هو من الإنسان سيأتي إلى مائدة الآلهة الخالدة!

آلام الحمل، وعذاب الولادة،

صراخ الأطفال الذي يشق كبد الليل،

وغم المرأة وهي تصارع النوم الذي تتوق إليه لتسكب الحياة الذاوية من ثدييها.

الأنفاس الملتهبة الخارجة من صدور الشباب المتقطعة، والعبرات المثقلة بأحمال الأهواء التي لم تفتح خزائنها بعد.

جباه الرجولة القاطرة عرقاً وهي تحرث الأرض الجدباء، وتحسرات الشيخوخة الذابلة عندما تدعو الحياة ـ ضد إرادة الحياة ـ إلى القبر.

تأملوا، هذا هو الإنسان!
مخلوق يلده الجوع فيصير طعاماً للآلهة الجائعة،
وكرمة تدبّ في تراب الأرض تحت أقدام الموت الذي لا يموت.

زهرة تزهر في ليالي الأشباح الشريرة،
وعنب لا ينضج إلا في أيام الدموع والرعب والعار.

وأنتم على رغم هذا كله تطلبون إليّ أن آكل وأشرب،
وترغبون إليّ أن أجلس بين الوجوه المكفنة.
وأستقي حياتي من الشفاه الصخرية،
وأقتبل خلودي من الأيدي اليابسة!

الإله الثالث:

يا أخويّ، أيها الأخوان الراعبان،
إن الشاب يغني في أعماق الوادي،
ولكن أنشودته تتصاعد إلى أعالي الجبال،
وهو يهزّ الغابة بصوته، ويشق كبد السماء، ويبدّد أحلام الأرض.

الإله الثاني:

(يصمّ أذنيه دائماً).

إن النحلة تطنّ بغلاظة في أذنيك،
والعسل مرّ المذاق في فمك،
إنني أودّ أن أعزّيك،
ولكن أنّى السبيل إلى ذلك؟
فليس يصغي غير الهاوية عندما تخاطب الآلهة الآلهة،.

لأن الهوة الفاصلة بين الآلهة لا تحد ولا تقاس،
والفضاء صامت لا ريح فيه.
ومع كل هذا أريد أن أعزيك،

أريد أن أجعل دائرتك المتلبدة بالغيوم نقية صافية.
ومع أننا متساويان بالقوة والفهم.
فإنني أريد أن أخلص لك النصح.

عندما خرجت الأرض من الفضاء، ورأينا نحن، أبناء البدء، أحدنا الآخر في النور الذي لا عيب فيه، حينئذ أصعدنا الصوت الخفي، المرتعش، الأول، الذي أنعش مجاري الهواء والماء.

ثم مشينا، جنباً إلى جنب، على سطح العالم الفتيّ الشيخ، ومن صدى خطواتنا البطيئة ولدَ الزمان إلهاً رابعاً، فاقتفى آثار خطواتنا، وأظلم بخياله أفكارنا ورغباتنا، ولم يرَ إلّا بنور عيوننا.

ثم جاءت الحياة إلى الأرض، وجاءت الروح إلى الحياة، وكان الروح نغماً مجنحاً في الوجود، فحكمنا على الحياة والروح، ولم يقدر أحد غيرنا على معرفة مقاييس السنين، وموازين الأحلام السديمية في الأعوام، حتى جاء العصر السابع فزففنا في مدّ ظهيرته البحر عروساً للشمس.

ومن مضجع هذا الزواج المقدس أخرجنا الإنسان، الذي على رغم ضعفه وسقمه، ما برح يحمل شارة والديه.

وبواسطة الإنسان، الذي يمشي على الأرض وعيناه في النجوم، قد وجدنا طرقاً نافذة إلى أبعد الأصقاع النائية في الأرض، ومن الإنسان، وهو القصبة الوضيعة النامية على المياه المظلمة، قد صنعنا مزماراً نسكب من قلبه الفارغ صوتنا إلى العالم الصامت في جميع أرجائه، ومن الشمال الذي لا شمس فيه، إلى رمال الجنوب المحترقة بالشمس، ومن أرض عرائس النيل حيث تولد الأيام، إلى جزائر الأخطار حيث تذبح الأيام،
ترى الإنسان الضعيف القلب يتشجع بغايتنا،
فيغامر بالقيثارة والسيف.
فهو يذيع إرادتنا، ويعلن سيادتنا،
والمجاري التي يطؤها بأقدام محبته هي أنهار سائرة إلى بحر رغباتنا.



«زفاف البحر، إلى الشمس»

فنحن، جالسين إلى أعالينا، نحلم أحلامنا في نوم الإنسان.

إننا نحث أيامه لتفارق وادي الشفق البعيد، وتنشد كمالها على التلال.

وأيدينا تسيّر العواصف التي تجرف العالم،
وتحمل الإنسان من السلامة العقيمة إلى الجهاد المثمر،
ومن ثمت إلى الانتصار،
وفي أعيننا بصيرة نيرة تحول نفس الإنسان إلى لهيب،
وتقوده إلى وحدة رفيعة ونبوة ثائرة،
ومن ثمت إلى الصلب،
فقد ولد الإنسان للعبودية،
وبالعبودية شرفه ومكافأته،
بالإنسان نطلب علامةً لما بنا،
وبحياته ننشد كمال ذواتنا.

فإذا أخرس تراب الأرض قلب الإنسان، فأيّ قلبٍ يستطيع أن يرى صدى صوتنا؟

وإذا عميت عيون الإنسان بظلمة الليل، فمن يستطيع أن يرى لمعان مجدنا؟

فماذا يجب أن نفعل بالإنسان وهو ابن قلبنا الأول، وهو صورتنا ومثالنا.

الإله الثالث:

يا أخويّ، أيها الأخوان القديران،
إن قدمي الراقصة الحسناء قد سكرتا بخمرة الإنشاد،
فأثارتا دقائق الهواء المرتعشة،
وهي كالحمامة تحلق مرتفعة بجناحيها.

الإله الأول:

القبرة تنادي القبّرة،
ولكن النسر يحوم فوقها،

وهي لا تتوقف لتصغي إلى الإنشاد
أنت تريد أن تعلن محبة الذات متكملة بعبادة الإنسان، وراضية بعبودية الإنسان.
ولكن محبة ذاتي لا حدّ لها ولا قياس.
فأنا أريد أن أسمو على ما يموت مني في الأرض،
وأتخذ لي عرشاً في السماوات،
فأمنطق الفضاء بذراعيّ، وأحيط بالأفلاك،
وأريد أن أتخذ من المجرة قوساً،
ومن المذنبات سهاماً.
وباللانهاية أريد أن أحكم اللانهاية.
أما أنت فلا تريد أن تفعل هذا ولو كان في منالك.
فنسبة الإنسان إلى الإنسان،
هي كنسبة الآلهة إلى الآلهة.
وأنت تريد أن تحمل إلى قلبي التَعِب،
ذكرى الأدوار المنقضية في الضباب.
في حين أن نفسي نشدت ذاتها بين الجبال.
وعينيَّ تعقبتا صورتهما في المياه الهاجعة،
ولَكن عروس أمسي قضت نحبها في أثناء ولادتها،
فالصمت فقط يزور رحمها،
والرمال التي تقذفها الرياح ترضع ثديها.
فيا أمسي أيها الأمس المائت ، يا والد ألوهيتي المقيدة.
أي إله عظيم قبض عليك في طيرانك،
وأرغمك على الولادة في قفص؟
وأية شمس جبّارة بعثت حرارتها في بطنك لتلدني؟
إنني لا أباركك، ولكنني لا ألعنك.
فكما أنك أثقلت كاهلي بأحمال الحياة،
هكذا أثقلت أنا كاهل الإنسان.

بيد أنني كنت أقل قساوة منك.
فأنا، الخالد، قد جعلت الإنسان ظلاًّ زائلاً.
أما أنت، المائت، فقد خلقتني خالداً.
فيا أمسي. أيها الأمس المائت.
هل تعود مع الغد البعيد،
فأقودك إلى المحاكمة؟
وهل تستيقظ مع الفجر الثاني للحياة،
فأمحو ذاكرتك العالقة بالأرض من الأرض؟.

أودّ لو أنّك تقوم مع جميع الأموات القدماء،
حتى تختنق الأرض بأثمارها المريرة،
وتنتن جميع البحار بدماء المذبوحين فيها،
ويستنزف الويل فوق الويل كل ما في الأرض من الخصب الذاهب عبثاً.

الإله الثالث:

يا أخويّ، أيها الأخوان القدّيسان،
قد سمعت فتاتنا الأنشودة الساحرة،
وهي تفتش الآن عن المرتّم.

وهي كالخشف، في دهشة مسرّتها،
ترقص فوق الصخور والجداول،
فتديرها في جميع الجهات.

ما أجمل الغبطة التي ترافق المطالب المائتة،
والعين التي تفتحها الغاية النصف المولودة!
ما أحلى الابتسامة المرتجفة لما ستتمتّع به من الغبطة الموعود بها!
أية زهرة تساقطت من السماء،
أي لهيب ارتفع من الجحيم،
فحمل قلب الصمت إلى هذا الفرح والخوف المقطع الأنفاس؟

أي حلم حلمناه على الأعالي،
أيّ فكر بعثناه في الريح،
فأيقظ غفلة الوادي،
وفتح عيني الليل؟

الإله الثاني:

إنّك قد أُعطيت النول المقدس.

وأُعطيت الفن لحياكة الثياب.
فالنول والفنّ سيكونان لك إلى الأبد،
وسيكون لك معهما الخيط الأسود والنور،
ولك أيضاً الأرجوان والذهب.

وأنت مع كلّ هذا تحوك من نفسك ثوباً.

قد نسجت يداك نفس الإنسان من الهواء الحيّ والنار،
وأنت تريد الآن أن تقطع الخيط،
وتطلق أصابعك الشعرية في الأبدية الخاملة.

الإله الأول:

نعم، نعم، إنّني سأطلق يدي في الأبدية التي لم تسبك في قوالبها بعد،
وفي الحقول التي لم تطأها قدمٌ سأطلق قدمي،

فأية مسرة لي في سماع الأناشيد التي طالما سمعها غيري، التي تلتقط ذاكرة الأذن أنغامها قبل أن يسلمها النَّفَسُ إلى أمواج الهواء؟

إن قلبي يحنّ إلى ما يستطيع أن يتصوره،
وأنا لن أرسل روحي إلاّ إلى عالم غير المجهول الذي لا تقطن فيه الذاكرة.

بربك، لا تجربني بمجد فارغ،
ولا تطلب لي تعزية بأحلامك أو أحلامي،

لأن كل ما فيّ، وكل ما في الأرض،
وكل ما سيكون في الوجود، لا يقدر أن يستهوي نفسي

فيا نفسي،
إن وجهك صامت،
وأشباح الليل نائمة في عينيك.

ولكن صمتك راعب،
وأنت راعبة.

الإله الثالث:

يا أخويّ، أيها الأخوان الرصينان،
إن الفتاة قد وجدت المرنم.
فهي تنظر وجهه المحبوب.
وهي كالنمر تتخطر بخطوات ساحرة،
بين الدوالي والأسيجة المتموجة.
وهو ينظر إليها الآن في وسط أناشيد محبته.
أواه يا أخويّ، أيها الأخوان الغافلان،
هل هنالك إله آخر وقد حاك من آلامه هذا النسيج القرمزيّ والأبيض؟
أي نجم جامح قد أفلت هارباً؟
ومن يفصل الليل عن النهار بسرّه؟
ومن يضع يده على عالمنا؟

الإله الأول:

يا نفسي، يا نفسي،
أيتها الدائرة المحترقة التي تمنطقني بلهيبها،
كيف أستطيع أن أقود سيرك،
وإلى أيّ فضاء أدير شوقك؟
يا نفسي التي لا رفيق لها،

إنك في مجاعتك تصطادين ذاتكِ،
وبدموعك تريدين أن تبرّدي عطشك،
لأن الليل لا يجمع نداه في أقداحك،
والنهار لا يحمل إليك أثماره.

يا نفسي، يا نفسي،
أنت تحملين سفينتك إلى الشاطئ وهي مثقلة بأحمال الراغبات،
فمن أين تأتي الرياح لتملأ شراعك،
وأي مدّ فيّاض يقدر أن يحرّر دفّتك؟
إن مرساتك حاضرة وجناحيك على أهبة الطيران،
ولكن السماء صامتة فوقك،
والبحر الهادئ يهزأ بسكونك.
فأي رجاء ثمت لي ولك؟
وأي تقلب في العوالم، أو تبدل في غايات السماء سيطلبك؟
هل تحمل رحم عذراء اللانهاية زرعَ منقذك،
ذلك الذي هو أقدر من أحلامك،
وستنقذك يده من عبوديتك؟

الإله الثاني:

احبس صراخك اللجوج،
وأنفاس قلبك الملتهب،
لأن أُذن اللانهاية صماء، وغافلة هي عين السماء،
فنحن كل ما وراء العالم وكل ما فوقه،
وبيننا وبين الأبدية غير المحدودة لا يوجد شيء غير أهوائنا التي لم تتشكلْ، وغاياتها التي لم تتكمّل.

أنت تستهوي غير المعروف،
وغير المعروف، المرتدي بالضباب المتحرك،

إنما يقطن في أعماق نفسك.

نعم، فـي أعماق نفسك يضطجع منقذك نائماً،
وهو يرى في نومه ما لا تراه عيناك المستيقظتان.

هذا هو سرّ كياننا،
فهل تعرض عن جمع حصادك،
لتلقي بذارك بعجلة في أثلام أحلامك؟
وعلامَ تبسط سُحبك في الحقول الخربة،
في حين أن قطيعك يفتش عنك،
وأنت عبثاً تجمع في خيالك؟
فتأنّ، وأنعم نظرك في العالم.

انظر إلى أولاد محبتك غير المفطومين.

إن الأرض هي مسكنك، والأرض هي عرشك،
وفوق أرفع آمال الإنسان تقبض يدك على قسمته،
أنت لا تريد أن تتركه،
وهو المجاهد أن يصل إليك بمسراته وآلامه.
وأنت لا تحوّل عينيك عن الحاجة التي في عينيه.

الإله الأول:

هل يضمّ الفجر قلب الليل إلى صدره؟
أم هل يعبأ البحر بأجسام موتاه؟
كالفجر تنهض نفسي في أعماقي،
عارية غير متحيّرة.
وكالبحر الذي لا يستريح،
يطرح قلبي عنه النفاية الزائلة من الأرض والإنسان.
إنّني لن أعلق بكل من يعلق بي،

ولكنني أريد أن أسمو إلى ذلك المتسامي فوق ما تصل إليه قوتي.

الإله الثالث:

يا أخويّ، تأمّلا أيها الأخوان،
إن روحين سائرتين إلى النجوم قد اجتمعتا في الجوّ للحساب.
وهما تنظران الواحدة إلى الأخرى بصمت وسكون.
إن المرنم قد انقطع عن الغناء،
ولكن حلقه الذي حرقته الشمس يرتعش بالأناشيد،
ورفيقته الراقصة قد سكن الرقص في أعضائها،
بيد أنّه لم ينم.
يا أخويّ، أيها الأخوان الغريبان،
إنّ الليل يشتدّ ادلهماماً،
والبدر يزداد إشراقاً، وبين الغابة والبحر،
تصرخ المحبة بأعلى الصوت تدعوكما وتدعوني إلى قلبها.

الإله الثاني:

يا لتفاهة الكيان، والنهوض والاحتراق أمام الشمس الملتهبة،
والحياة والمراقبة لليالي الأحياء،
كما تراقبنا عين الجوزاء!
يا لحقارة مجابهة الرياح الأربع برأس مكلل رفيع،
وشفاء أسقام الناس بأنفاسٍ لا مدّ في بحرها!
إن الخيّام جالس يخبط خبط عشواء أمام نوله،
والخزّاف يدير دولابه بعدم اكتراث،
أما نحن، الذين لا ينامون، ويعرفون كل شيء،
فقد أُعتقنا من ظلمة الظنّ والتخمين.
فنحن لا نتردّد ولا ننعم الفكر والنظر،
لأنّنا قد سمونا رفعة على جميع الأسئلة القلقة.

فلنعش مطمئنين، ولنطلق طيور أحلامنا من أقفاصها.
وكالأنهار فلنسكب في البحر،
من غير أن تديرنا حافات الصخور،
فإذا بلغنا قلب اللجة، وابتلعتنا أمواجها،
انقطعنا عن المجادلة والتأمل في مصير الغد، إلى الأبد.

الإله الأول:

أفٍّ من ألم هذا التكهّن الذي لا ينقطع،
وهذا السهر السائر بالنهار إلى الشفق،
والذاهب بالليل إلى الفجر!
أفٍّ من هذا المدّ الذي يحملنا إلى الذكرى الدائمة، والنسيان الدائم،
وهذا الزرع المتواصل لبذار الأقدار التي لا تحصد منها غير الآمال،
وهذا الرفع غير المتغير للذات من التراب إلى الضباب،
لتحنّ إلى التراب، ثم تسقط بحنينها إلى التراب،
ثم لا يلبث أن يتضاعف حنينها فتنهض ناشدةً الضباب ثانية!
أفٍّ من هذا القياس الذي بغير أوانه للزمان الذي لا يتغير!
وهل تحتاج نفسي إلى أن تصير بحراً تزعج مجاريه بعضها بعضاً إلى الأبد، أو جوّاً تتحوّل فيه الرياح المتحاربة إلى زوبعة؟

لو كنت رجلاً، لو كنت عبيراً أعمى،

لكان في طوقي الصبر على كل هذا.

أو لو كنت الإله الأعلى، الذي يملأ فراغ الإنسان والآلهة، لكنت أكتفي بذاتي.
ولكن أنا وأنت لسنا بشراً،
ولا نحن بالعليّ الذي فوقنا،
ولكننا أشفاق (جمع شفَق) لا تنقطع عن الظهور والزوال من أفق إلى أفق.

وآلهة، نمسك بالعالم ويمسك العالم بنا.

وقد قضي علينا أن ننفخ بالأبواق،

ولكن الروح النافخة والموسيقى الخارجة من أبواقنا ليست منّا بل تأتي من فوق.

لذلك تراني أرغب في الثورة.

أريد أن أستنزف ما بي حتى أصير فارغاً،

أريد أن أبتعد عن بصيرتك،

أريد أن أختفي من ذاكرة هذا الشاب الصامت، الذي هو أخونا الأصغر، الجالس قريباً منّا يتأمّل في ذلك الوادي،

ومع أن شفتيه تتحركان، فهو لا ينطق بكلمة.

الإله الثالث:

إنّني أتكلم أيها الأخوان الغافلان.

إنّني أتكلم بالحقيقة.

ولكنكما لا تسمعان غير حديثكما.

أطلب إليكما أن تنظرا مجدكما ومجدي،

بيد أنّكما تتحولان، وتطبقان أجفانكما، وتهزّان عرشيكما.

فيا أيها الحاكمان الراغبان في السيادة على العالم العلوي والعالم السفليّ،

أيها الإلهان الأنانيّان اللذان لا ينقطع أمسهما عن حسد غده،

أيها التّعِبَان من أثقال ذاتكما، المهدّئان حدّة غضبكما بالكلام، والضاربان محاجرنا بالصواعق!

ليست مخاصمتكما سوى صوت القيثارة القديمة،

التي نسيت أصابع القدير نصف الضرب على أوتارها، ذلك الذي الجوزاء عوده والثريا صنوجه،

وهو حتى في هذه الساعة التي تتمتمان وتدمدمان فيها يضرب على عوده وصنوجه،
فألتمس منكما أن تصغيا إلى أنشودته.
انظرا، رجلاً وامرأة،
لهيباً مع لهيب،
يذوبان وجداً وهياماً.
جذور ترضع ثدي الأرض الأرجواني،
وزهور من نار على صدر السماء.
ونحن الثدي الأرجواني،
ونحن السماء الباقية.
إن نفسنا، التي هي نفس الحياة، نفسكما ونفسي،
إنما تقيم الليلة في حلق ملتهب،
مجللة جسم فتاة طاهرة بثوب من الأمواج الثائرة.
إن صولجاتكما لن يغير هذه القسمة المعدّة لنا.
وهمومكما هي الطموح بعينه.
لأن هذا جميعه سيمحى من الوجود في هوى الرجل والمرأة.

الإله الثاني:

وما شأن هذه المحبة بين الرجل والمرأة؟
تأمل كيف ترقص الريح الشرقية الرشيقة،
وتنهض الريح الغربيّة مترنّمة بأنشودتها.
انظر إلى محجّتنا المقدسة جالسة على عرشها الآن،
باستسلام روح يغني إلى جسد يرقص.

الإله الأول:

إنّني لن أحوّل عيني إلى وهم الأرض،

ولن أنظر إلى أولادها في الألم البطيء الذي تسميه محبّة.

وما هي المحبّة،

سوى طبل مقنّع يقود مركباً طويلاً من الريب اللذيذ، إلى شكل آخر من الألم البطيء؟

إنّني لا أريد أن أنظر إلى هذا الوهم.

وأي شيء تراه هناك،

إلا رجلاً وامرأة في الغابة التي نمَتْ لتصطادهما في فخاخها، وتعلمهما إنكار الذات،

وولادة المخلوقات لغدنا الذي لم يولد بعد؟

الإله الثالث:

أفّ من الألم الذي تجلبه المعرفة!

والقناع المظلم الذي وضعه تفحّصنا وتساؤلنا على وجه العالم، والاستنهاد الذي نوجهه في كل ساعة للصبر البشري!

فنحن نضع تحت حجرٍ شكلاً من الشمع،

ثم نقول: إنّه شكل من الطين،

فليجد في الطين آخرته.

ونمسك بأيدينا لهيباً أبيض،

ثم نقول في قلوبنا:

إنّه عبير ذواتنا يرجع إلينا،

ونسمة نسمتنا الفالتة منا،

وبعد ذلك نعمد مفتشين في أيدينا وشفاهنا عن المزيد من العبير.

فيا إخوتي، آلهة الأرض،

إنّنا وإن كنّا في أعلى الجبل،

فنحن ما زلنا نسير إلى الأرض،

بواسطة الإنسان الراغب في الساعات الذهبية التي في نصيب أخيه الإنسان.

فهل تسلب حكمتنا الجمال من عينيه؟

أم هل تخضع مقاييسنا أهواءه فتحملنا إلى السكون، أو تقودنا إلى مستوى أهوائنا؟

ماذا تقدر أن تصنع جيوش أفكاركم،
حيث تجتمع المحبة بجيوشها الجرارة؟
إلا إن الذين غلبتهم المحبة،
وسارت بمواكبها فوق أجسادهم من البحر إلى الجبل،
ومن الجبل إلى البحر،
يقفون الآن، وفي كل أوان، متعانقين بحياء ووقار.
باجتماع أوراق زهور محبتهم يتنشقون عبير الحياة المقدس،

وباتحاد نفوسهم يجدون نفس الحياة،
وعلى أجفانهم ترتسم صلاة مرتفعة إلينا.
المحبة هي ليلٌ منحنٍ بوقار تحت خيمة مقدسة،
وسماء قد تحولت إلى غابة،
بل هي جميع النجوم قد تحولت إلى حباحب.
نحن بالحقيقة كل ما وراء العالم وكل ما فوقه.
ولكن المحبة أبعد من أن تصل إليها أسئلتنا
وأسمى من أن تبلغ إليها أنشودتنا.

الإله الثاني:

أتطلب دائرة بعيدة،
ولا تهتم بهذا الكوكب الذي غرست فيه عزيمتك؟
ليس في الفضاء مركز إلا حيث نزف النفس إلى النفس،
ويكون الجمال شاهداً وكاهناً.
فتأمّل وانظر الجمال مبعثراً حول أقدامنا.
تأمّل جيداً كيف يملأ الجمال أيدينا لينزل العار بشفاهنا،

إن الأبعد هو الأقرب.
وحيث يكون الجمال يكون كل شيء.
أواه أيها الأخ الحالم الرفيع!
ارجع إلينا من عهد أرض الكآبة القاتمة.
حرّر قدميك من اللاّمكان واللاّزمان.
واقطن معنا في هذه الطمأنينة الآمنة،
التي ابتنتها يداك وأيدينا حجراً فوق حجر.
انزع عنك ثوب خفقان قلبك،
وكن رفيقاً لنا في السيادة على هذه الأرض الفتية، الحارّة بجلال خُضرتها.

الإله الأول:

أيها المذبح الخالد!
هل تريد بالحقيقة إلهاً لضحيتك في هذه الليلة؟
إذن فأنا قادم، وبقدومي أقرّب محبّتي وألمي.
هنالك تقف الراقصة، التي نُحتت من شوقنا القديم.
والمرنّم يصيح بأناشيدي في أمواج الريح.
وفي ذلك الرقص، وفي ذلك الإنشاد،
يموت إله قدير في أعماقي.
إن إله قلبي القاطن وراء ضلوع بشريّتي ينادي إله قلبي المقيم في الهواء.
والهاوية البشرية التي طالما عطلت عليّ راحتي تصرخ إلى الألوهية.
والجمال الذي نشدناه منذ البدء يصرخ إلى الألوهية.
وفي إصغائي قد قست هذا الصراخ.
وها أنا ألقي سلاحي.
فالجمال طريق يؤدي إلى الذات المقتولة بيد ذاتها.
فاضرب أوتارك.

إنّني مستعدّ للسير على الطريق.
فهي تمتدّ إلى فجر آخر.

الإله الثالث:

قد انتصرت المحبة!

سواء أكانت المحبة بياضاً ناصعاً أو خضرة زاهية بجانب بحيرة، أو كانت جلالاً وفخاراً في القباب الرفيعة، أو كانت في بستان حافل بالناس، أو في صحراء لم تطأها قدم الإنسان.

فالمحبة هي ربنا ومعلّمنا في كل حال،
فهي ليست بالشهوة الزائدة في الجسد.
ولا هي فُتات الرغبة المتساقط من مصارعة الرغبة للذات.
كلاّ، ولا هي بالجسد الحامل سلاحه على الروح،
لأن المحبة لا تعرف الثورة،
ولكنها تهجر طريق الأقدار القديمة لتسير إلى الغابة المقدسة،
لترقص وتترنّم بأناشيد أسرارها في آذان الأبدية.
المحبة شباب قد تحطّمت قيوده،
ورجولة قد تحرّرت من عناء الأرض،
وأنوثة حارة بلهيب مقدس، مشرقة بنور سماء أبهى من سمائنا.
المحبة ضحك بعيد في أعماق الروح.
المحبة حملة قديرة تسير بك إلى يقظتك.
المحبة فجر جديد على الأرض،
ويوم لم تصل إليه لا عينك ولا عيني،
ولكن المحبة قد وصلت إلى قدس أقداسه بقلبها الأعظم.
يا أخويّ، يا أخويّ،
إن العروس قادمة من قلب الفجر،
لتلاقي عروسها القادم من الغروب.

وسيكون عرسٌ في الوادي،
ويومٌ أعظم من أن تدوّن حوادثه.

الإله الثاني:

هكذا كان منذُ أطلقَ الصباحُ الأولُ السهول إلى التلال والأودية،
وهكذا سيكون إلى بعد المساء الأخير.
إن جذورنا قد أنبتت الأغصان الراقصة في الوادي،
ونحن أزهار عبير الأنشودة المرتفعة إلى الأعالي.
فالخالد والمائت نهران توأمان يناديان البحر بغير انقطاع.
وليس بين النداء والنداء فراغ قط، إلا في الأذن.
فالزمان يزيد اصغاءنا ثقة،
ويضيف إلى رغباته.
ولا يخرس الصوت في المائت غير المرتاب.
أما نحن فقد تسامينا على الشكوك.
فالإنسان هو ابن قلبنا الأصغر.
الإنسان إله يرتفع إلى ألوهيته ببطء شديد،
وبين مسرته وألمه ننام ونحلم أحلامنا.

الإله الأول:

دع المرنّم يترنم، والراقصة تحرّك قدميها،
ودعني أطمئن هنيهة،
إن نفسي تريد أن تستريح الليلة.
فقد يغلبني النوم،
وفي نومي أرى عالماً أكثر نوراً من هذا العالم،
فتأتي مخلوقات أبهى من مخلوقاتنا فتسترق طريقها إلى فكري.

الإله الثالث:

إنّني أنهض الآن فأجرّد نفسي من حدود الزمان والمكان،

وأرقص في ذلك الحقل الذي لم تطأه قدما إنسان،
وستتحرك قدما الراقصة مع قدمي.
وسأترنّم في ذلك الملإ الأعلى،
وسيختلج صوت بشري مع صوتي.
سنعبر إلى الشفق البعيد،
فقد نستيقظ في فجر عالم آخر.
ولكن المحبة باقية،
ولن تمحى آثار أصابعها.
إن الكور المقدس متأجج بالنار،
وكل شعلة تصعد منه هي شمس محترقة.
فالأجدر بنا، والأحكم لمصلحتنا،
أن نفتش عن زاوية صغيرة فننام في ألوهيتنا الأرضية،
تاركين أمر قيادتنا إلى اليوم المقبل، إلى المحبة البشرية الضعيفة.

التائه

تعريب
عبداللطيف شرارة

التائه

لقيته على مفترق الطرق، وكان رجلاً معدماً لا يملك سوى ثوبه وعكّازه، تعلو محيّاه مسحة ألم عميق. وحيّا كلٌّ منا الآخر، وقلت له: «تعال إلى منزلي وكن ضيفي».

وقبل الدعوة...

واستقبلتنا زوجتي مع أولادي على عتبة البيت، فابتسم لهم ورحبّوا من جانبهم بمقدمه.

ثم جلسنا جيمعاً إلى المائدة، وكنّا في غبطةٍ من لقاء هذا الرجل الذي يكتنفه الغموض، ويهيمن الصمت في سريرته.

واجتمعنا بعد العشاء حول النار، ورحت أسأله عن جَوَلانه.

وقصّ علينا أكثر من قصّة في تلك الليلة، وفي اليوم الذي تلاها، غير أنّ ما أرويه الآن، إنّما هو زبدة ما كابد في أيّامه من مرارة، وإن كان هو نفسه أثناء سرده لطيفاً، قريباً من القلب. وهذه الحكايات أثر من غبار طريقه، وبعضٌ من نتاج المشقة التي كابدها وتحملها.

وعندما تركنا، بعد ثلاثة أيام، لم نشعر أن ضيفاً رحل عنّا، بل واحداً منّا لا يزال خارج المنزل في الحديقة، ولمّا يدخل.

ملابس

تلاقى الجمال والقبح ذات يوم على شاطئ البحر، فقال كلّ منهما للآخر: «هل لك أن تسبح؟»

ثم خلعا ملابسهما، وخاضا العباب، وبعد برهة عاد القبح إلى االشاطئ وارتدى ثياب الجمال، ومضى في سبيله.

وجاء الجمال أيضاً من البحر، ولم يجد لباسه، وخجل كل الخجل أن يكون عارياً، ولذلك لبس رداء القبح، ومضى في سبيله.

ومنذ ذلك اليوم، والرجال والنساء يخطئون كلّما تلاقوا في معرفة بعضهم البعض.

غير أن هنالك نفراً ممن يتفرّسون في وجه الجمال، ويعرفونه رغم ثيابه، وثمة نفر يعرفون وجه القبح، والثوب الذي يلبسه لا يخفيه عن أعينهم.

النسر والقبّرة

تلاقى نسر وقبّرة على صخرة فوق ربوة عالية. قالت القبّرة: «طاب صباحك أيها السيد»، فنظر إليها النسر من عل، وقال بصوت خافت: «طاب صباحك».

وقالت القبّرة: «أرجو أن يكون كل شيء على ما تروم، أيها السيد».
أجابها النسر: «أجل كل شيء على ما نروم. ولكن ألا تعلمين أنّني ملك الطيور، وأنّه لا يجوز لك أن تخاطبينا قبل أن نبدأكِ بالكلام؟»
قالت القبّرة: «يلوح لي أنّنا من الأسرة نفسها».

نظر إليها النسر بازدراء وقال: «من هو هذا الذي قال إني وإياك من أسرة واحدة؟»

أجابت القبّرة: «ولكني أودّ أن أذكّرك بهذا الأمر، وهو أن في مستطاعي أن أطير في العلاء كما تعلو، وفي مستطاعي أن أغنّي وأدخل الفرح على قلوب المخلوقات الأخرى من أبناء الأرض، ولا تملك أنت أن تقدّم لها فرحاً ولا متعة».

عند ذاك غضب النسر وقال: «فرح ومتعة! أنت أيتها المخلوقة الصغيرة المدّعية! إنّي لقادر على تحطيمك بنقرةٍ واحدةٍ من منقاري، وما أنت إلاّ بحجم قدمي».

فما كان من القبرة إلا أن ارتمت على ظهر النسر وأخذت تنقر ريشه. وأحسّ النسر بضيق وانزعاج، وطار بقوّة وارتفع ما استطاع الارتفاع وقد أضمر أن يُلقي القبّرة عن ظهره، ولكنه أخفق في ذلك. وأخيراً انطرح على الصخرة العالية ذاتها التي طار عنها، وهو أشدّ ما يكون غيظاً وحنقاً، ولم تفارق القبّرة الصغيرة ظهره، وراح يلعن تلك الساعة وما قُدّر له فيها.

واقتربت منه في تلك اللحظة سلحفاة صغيرة، واستغرقت في الضحك من المنظر، واستمرّت تضحك حتى استلقت على ظهرها.

ونظر النسر من عليائه إلى السلحفاة وقال: «أنتِ أيتها المخلوقة البطيئة الحدباء، اللاصقة أبداً بالأرض! ممّ تضحكين؟»

أجابت السلحفاة: «ذاك أني أراك تحوّلت إلى حصان، وقد ركبك طير صغير، غير أنِ الطير الصغير هو الأحسن».

فقال لها النسر: «انصرفي لشأنك. إنها قضية أسرة. بيني وبين أُختي القبّرة، ولا دخل لغريب فيها».

أغنية الحب

نظم شاعر مرةً أغنية حبّ، وكانت رائعة. وكتب عدّة نسخ عنها وأرسلها إلى أصدقائه ومعارفه من الرجال والنساء على السواء، ولم ينس أن يرسلها حتى إلى امرأة شابّة لم يسبق له أن شاهدها سوى مرّةٍ واحدة، وكانت هذه تقيم وراء الجبال.

وجاءه رسول من قبَل تلك الشابّة، بعد يوم أو يومين، يحمل رسالة تقول له فيها: «دعني أؤكّد لك أنّني تأثّرت تأثراً عميقاً بأغنية الحبّ التي نظمتها لي. تعال الآن، وقابل والدي ووالدتي، وسنتخذ التدابير التي تقتضيها الخطبة».

وكتب الشاعر جواب الرسالة، وقال لها فيه: «لم تكن يا صديقتي سوى أغنية حبّ صدرت عن قلب شاعر، يغنيها كل رجلٍ لكل امرأة».

وكتبت إليه ثانية تقول: «أيها الكاذب الخبيث في كلماتك! سأقيم منذ اليوم إلى ساعة أجلي، على كراهية الشعراء جميعهم بسببك!».

دموع وضحكات

لقيت ضبع تمساحاً في العشية، على شاطئ النيل، واستوقف كلّ منهما الآخر وتبادلا التحية.

تكلمت الضبع وقالت: «كيف قضيت يومك يا سيد؟»

أجابها التمساح قائلاً: «قضيته على أسوأ حال، وإني لأبكي أحياناً في أساي وعنائي، والكائنات من حولي تقول دائماً: «ليست هذه سوى دموع التمساح». وهذا يجرحني إلى حدّ لا سبيل لوصفه».

قالت له الضبع عند ذاك: «تتحدّث عن أساك وعنائك، ولكن فكّرْ فيّ أيضاً، ولو للحظة. إني لأحدّق إلى جمال العالم، وغرائبه ومعجزات بدائعه،

وأضحك مستبشرة عن فرحٍ خالصٍ يفعم نفسي، كما النهار يضحك، غير أنّ أهل الأدغال يقولون: ليس هذا سوى ضحك الضبع».

في السوق

جاءت مرةً فتاة من الريف إلى السوق، وكانت آية في الملاحة والظرف، يتوزع محياها الورد والزنبق، وشعرها بلون الغروب، والفجر يبتسم على شفتيها.

ولم تكد هذه المخلوقة الساحرة، الغريبة، تظهر، حتى أحدق بها الشبان ينشدون التعرّف إليها والتقرّب منها. أهذا يودّ أن يراقصها، وذاك يريد أن يقسم الكعك على شرفها، وكلّهم يبتغون تقبيل خدّها. ألم يكن ذلك سوقاً، بعد كل حساب؟.

غير أنّ الفتاة أحست بصدمة وأصابها ذُعر وامتعاض، وحسبت السوء في سلوك الشبان، فزجرتهم، وبلغ بها الغيظ أن صفعت واحداً أو اثنين منهم، وعلى وجهه، ثم انصرفت في سبيلها لا تلوي على أحد.

وفيما هي تتجه عند المساء نحو بيتها الريفي. قالت في سرّها: «إني لأشعر باشمئزاز. ما أقلّ أدب أولئك الرجال، وأحطّ أخلاقهم. هذا شيء لا يطاق. ولا يمكن الصبر عليه».

وانقضى عام كانت الفتاة الجميلة تفكر خلاله كثيراً بالأسواق والرجال، ثم قدمت مرة ثانية إلى السوق ومحياها ورد وزنبق، وشعرها بلون الغروب، والفجر على شفتيها يبتسم إلا أن الشبان كانوا ينظرون إليها، ويميلون عنها، وقضت نهارها ذاك وهي وحيدة، مبعدة، لا يتقرّب منها أحد. ولدى العشيّة عادت إلى منزلها وهي تصيح في سرّها: «ما أقلّ أدب أولئك الشبان! إني لأشعر باشمئزاز لا يطاق، ولا يمكن الصبر عليه».

الأميرتان

كان في مدينة شواكيس أمير يحبّه الناس كلّهم من رجال ونساء وأولاد. وحتى بهائم الحقل كانت تألفه وتقبل عليه تحيّيه وتأنس بحضوره.

غير أن جميع الناس كانوا يقولون إن زوجته الأميرة لا تحبه، ويغلو بعضهم فيحسب أنها تكرهه.

وذات يوم، جاءت أميرة إحدى المدن المجاورة، تزور أميرة شواكيس، وجلستا تتحدثان، وساقهما الحديث إلى ذكر زوجيهما.

قالت أميرة شواكيس بحرارة وتحمس: «إني لأحسدك على سعادتك مع الأمير زوجك. وإن كانت قد مرت أعوام طوال على زواجكما. أما أنا فإنيّ أمقت زوجي، إنّه ليس لي وحدي، وأنا في الحقيقة أتعس امرأة».

حدّقت إليها الأميرة الزائرة وقالت: «الحقيقة يا صديقتي هي أنّك تحبين زوجك. نعم! لا تزال لديك عاطفة جامحة نحوه لم تطلقيها بعد، وتلك في المرأة حياة كينبوع في بستان. ولكن واهاً لي ولزوجي فإنّنا لا ننطوي على أي عاطفة، سوى أنّ كلاًّ منّا يتحمل الآخر بصبر صامت. وأنتِ، وغيرك من الناس، تحسبون ذلك سعادة!».

وميض البرق

كان ذات يوم عاصف، أسقف مسيحيّ في كنيسته الكبرى، وجاءته امرأة غير مسيحية، ووقفت أمامه، وقالت: «لست مسيحية. هل لي أن أخلص من نار الجحيم؟».

حملق الأسقف في المرأة، وأجاب: «لا! ليس ثمة من خلاص إلاّ لأولئك الذين تعمّدوا بالماء والروح».

وفيما هو يتكلم انقضّت من السماء صاعقة على الكنيسة الكبرى، ودوّى الرعد، واندلعت النار في الكنيسة وملأت أرجاءها.

وأقبل رجال المدينة مسرعين، وخلّصوا المرأة. ولكن الأسقف كان قد احترق، وقضى طعماً للنار.

الراهب والوحوش

كان راهب يعيش مرّةً وسط الروابي الخضر، وكان نقيّ الروح، أبيض القلب، وكانت جميع بهائم البرّ وطيور الجوّ تأتيه أزواجاً، فيكلّمها وهي تصغي إليه مسرورة مستبشرة، وبودّها أن تتقرّب منه، وأن تبقى حتى مغرب الشمس معه، ولكنه كان يصرفها عنه، ويتركها للريح والغابات بعد أن يلقي عليها بركته.

وفيما كان يتكلم ذات أصيلٍ عن الحبّ، رفعت فهدةٌ رأسها وقالت للراهب: «تكلّمنا عن الحب، حدّثنا أيها السيد عن رفيقة حياتك، أين هي؟»

قال الراهب: «ليس لي رفيقة حياة».

وارتفعت عند ذاك صيحة دهشة كبرى من جمهرة الوحوش والطيور، وراحوا يتهامسون فيما بينهم: «كيف يستطيع أن يحدثنا حديث الألفة والحب، في وقتٍ لا يعرف به شيئاً عنهما؟» وانسلّ جمعهم بهدوء. وتركوه وحيداً، وهم له مزدرون.

وانطرح الراهب عشية ذلك النهار على حصيرته، وعيناه في الأرض، وبكى بكاء مرًّا، وضرب بيديه على صدره.

النبيّ والغلام

لقي النبيّ «شاريا» ذات يوم غلاماً في حديقة، ومذ بصر به هذا، أسرع إليه وقال: «طاب صباحك يا سيّدا!» وردّ النبيّ تحيّته: «طاب صباحك يا سيدا!» وتابع الكلام بعد قليل: «أراك وحيداً».

أجابه الغلام، ضاحكاً فرحاً: «لقد مضى عليّ وقت طويل وأنا ضائع عن مربيّتي. وهي تحسب أني وراء هذه الوشائع[1]. ولكن ألا ترى أنّني هنا؟» ثم حدّق إلى وجه النبيّ وقال: «أنت أيضاً وحيد. ماذا فعلت مع مربيتك؟».

وردّ النبيّ قائلاً: «ها! الأمر بيننا مختلف. الحقيقة الدامغة أنّني لا استطيع أن أضيعها أغلب الأحيان، ولكني الآن، إذ أتيت هذه الحديقة، كانت هي تسعى في طلبي وراء الوشائع»:

ضرب الغلام يداً بيد وصاح: «أنت إذن ضائع مثلي. أليس حسناً أن يكون الإنسان ضائعاً؟» ثم قال: «من أنت؟».

أجابه الرجل: «يدعونني النبيّ شاريا، وأنت؟ قل لي من أنت؟»

قال الغلام: «أنا ذاتي وحدها، ومربيتي تبحث عني، وهي لا تعرف أين أنا».

وحدّق النبيّ إلى الفضاء قائلاً: «أنا أيضاً تهرّبت من مربيتي لبرهة، ولكنها ستعثر عليّ خارجاً».

وقال الغلام: «وأنا أعرف أن مربيتي ستجدني خارجاً أيضاً».

وسُمِعَ في تلك اللحظة صوت امرأة تنادي الغلام باسمه، فقال هذا: «انظر! قلت لك إنّها ستجدني».

وفي تلك اللحظة أيضاً سمع صوت آخر يقول: «أين أنت يا شاريا؟».

---

(١) الوشائع، جمع وشيعة: وهي حظيرة الشجر حول الكرم والبستان.

وقال النبيّ: «انظر يا ولدي! لقد وجدوني أيضاً».

وأدار شاريا وجهه للعلاء، وأجاب: «أنا هنا».

اللؤلؤة

قالت محارة لمحارةٍ تجاورها: إنّ بي ألماً جدّ عظيم في داخلي. إنّه ثقيلٌ ومستدير، وأنا معه في بلاء وعناء».

وردت المحارة الأخرى بانشراح فيه استعلاء: «الحمد للسماوات والبحار. لا أشعر في سرّي بأي ألم. أنا بخيرٍ وعافية داخلاً وخارجاً».

ومرّ في تلك اللحظة سرطان مائي، وسمع المحارتين وهما تتساقطان الحديث، وقال للتي هي بخير وعافية داخلاً وخارجاً: «نعم! أنت بخير وعافية. ولكن الألم الذي تحمله جارتك في داخلها، إنما هو لؤلؤة ذات جمالٍ لا حدّ له».

جسد وروح

جلس رجل وامرأة بجانب شبّاكٍ يطلّ على الربيع، وكانت جلستهما تجعلهما جدّ متقاربين، فقالت المرأة: «أنا أحبّك. أنت جميل، وغني، وأنت أبداً ودائماً على جانب كبير من الجاذبية».

وقال الرجل: «وأنا أحبّكِ. أنت فكرة جميلة، بل أنت شيء تسامى عن أن تناله يد. أنت أغنية في حلمي!».

غير أنّ المرأة أدارت وجهها عنه وانفتلت غاضبةً وقالت: «أرجوك أيها السيد أن تفارقني منذ اللحظة، فأنا لست فكرة، ولا شيئاً يطوف بك في

أحلامك. أنا امرأة وأودّ أن تشتاق إليّ، أن تشتهيني. أنا زوجة وأمّ لأطفال لم يولدوا بعد».

وافترقا...

وقال الرجل في سرّه: «ها هو ذا حلم آخر تبدّد منذ الآن، وتحوّل إلى ضباب».

وقالت المرأة، وهي تتأمّل وحيدة: «ما لي ولرجل يحوّلني إلى ضبابٍ وحلم؟»

الملك

أحاط شعب مملكة صادق بقصر الملك، وراحت الجماهير تصرخ ثائرة عليه، فنزل هذا من علياء قصره، وقد حمل تاجه بيد، وصولجانه باليد الأخرى، واستحوذ على الجماهير حين أبصرته صمت مَهيبٌ وقور، ووقف أمامهم وقال: «أيها الأصدقاء! لستم بعد الآن رعاياي فها أنا أتخلّى عن تاجي وصولجاني لكم، وبودّي أن أكون واحداً منكم. لست سوى رجلٍ عاديّ، غير أني أودّ كرجل، أن أعمل معكم، ونجهد جميعاً في أن يكونَ حظنا أوفى وأجمل وأحسن. لا حاجة إلى ملك! فلنذهب إذن إلى الحقول والكروم ونشتغل يداً بيد. كلّ ما أريد منكم أن تدلوني على الحقل أو الكرم الذي ينبغي لي أن أذهب إليه، فكلّ واحد منكم الآن ملك!».

وعجب الناس، وخيّم عليهم الهدوء، فالملك الذي حسبوه مصدر بلائهم، تخلّى الآن عن تاجه وصولجانه وسلّمهما لهم، وأصبح كأيّ واحدٍ منهم.

ثم ذهب كل منهم في سبيله، ومشى الملك مع أحدهم إلى بعض الحقول.

إلاّ أن مملكة صادق لم تسر أحسن مما كانت، وعادت سحب السخط والاستياء تتلبّد وتتراكم في آفاقها وعلى أرضها، وعاد الناس يصرخون بأعلى أصواتهم في الساحات العامّة، أنهم يريدون من يحكم بينهم ويدير أمورهم، وصاح الشيب والشبان قائلين بصوت واحد: «نريد ملكنا!».

وبحثوا عن الملك فوجدوه يكدح في الحقل، وأتوا به إلى مكانه، وسلّموه تاجه وصولجانه، وقالوا: «الآن أحكمنا بعزمٍ وعدل».

قال: «سأحكمكم في الحقيقة بعزم، وأدعو آلهة السماء والأرض أن تعينني على أن أحكمكم أيضاً بعدل».

ثم جاءه رجال ونساء كلّموه في شأن والٍ أساء معاملتهم، واتخذ منهم عبيداً، وما كان ينظر إليهم إلا على أنّهم عبيد، فأمر الملك رأساً بإحضار الوالي، حتى إذا مثل بين يديه قال له: «إنّ حياة إنسان في موازين الله تعادل حياة أي إنسان غيره. وما دمت لا تعرف كيف تَزِنُ حيوات هؤلاء الذين يعملون في حقولك وكرومك، فقد نفيتك وعليك أن تترك هذه المملكة إلى الأبد».

وفي اليوم التالي جاءت الملك جماعة أخرى وكلّمته في شأن أميرة قاسية القلب تقيم وراء التلال، وحدّثته عن البؤس الذي نشرته في البلاد، فجيء فوراً بالأميرة، وحكم عليها الملك أيضاً بالنفي قائلاً: «إنّ هؤلاء الذين يحرثون حقولنا ويبذلون العناية بكرومنا أشرف منّا نحن الذين نأكل الخبز الذي يصنعون، ونشرب الخمرة التي يعصرون، وما دمتِ لا تعرفين ذلك، فإنّ عليكِ أن تتركي هذه الأرض وتبتعدي عن هذه المملكة».

ثم جاءه رجال ونسوة أخبروه أن الأسقفّ يرغمهم على حمل الحجارة ونحتها لإقامة الكنيسة، ثم لا يعطيهم شيئاً لقاء عملهم هذا، وهم يعرفون أن خزائن الأسقفّ ملأى بالذهب والفضة، ويبيتون مع ذلك على الجوع لا يجدون ما يقتاتون به.

ونودي على الأسقف، وحين مثل بين يدي الملك قال له: «هذا الصليب

الذي تحمله على صدرك، إنّما يعني إعطاء حياة لقاء حياة. ولكن أنت أخذت حياةً من حياة دون أن تعطي شيئاً. ولذا، عليك أن تترك هذه المملكة، وأن لا تعود أبداً».

وهكذا، مر شهر بأكمله على الملك، وكلّ يوم يأتيه فيه رجال ونساء يخبرونه عن الأعباء التي ألقيت على كواهلهم، وكان كل يوم يمر من ذلك الشهر، يشهد ظالماً أو أكثر ينفى من البلاد.

وعجب شعب صادق، وامتلأت القلوب غبطة وفرحاً.

وذات يوم أقبل الشيب والشبان وأحاطوا ببرج الملك ونادوه فأتاهم وهو يحمل تاجه بيد، وصولجانه بيد.

ثم خاطبهم قائلاً: «والآن ماذا تريدون منيّ؟ ها أنا أعيد إليكم الأشياء التي رغبتم إليّ في حملها».

ولكنهم صاحوا: «لا! لا! أنت ملكنا الصالح، العادل. لقد جعلت أرضنا نظيفةً من الأفاعي، وردتها خلواً من الذئاب، ونحن جئنا نترنّم بحمدك والثناء عليك. التاج لك في جلال، والصولجان لك في مجد».

أجاب الملك عندئذٍ قائلاً: «لا. لست أنا! لست أنا! أنتم أنفسكم الملك. فأنتم حين قدرتم بي الضعف وسوء الحكم، كنتم أنفسكم ضعافاً سيّئي الأحكام. والآن إنما تسير البلاد سيرها الحسن، لأن تلك هي مشيئتكم. ما أنا إلا فكرة في عقولكم جميعها، ولا وجود لي إلا في أعمالكم، ليس هناك شخص اسمه حاكم. المحكومون وحدهم هم الذين وجدوا ليحكموا أنفسهم».

وعاد الملك فدخل برجه مع تاجه وصولجانه ومضى الشبان والشيب كلّ في سبيله وهم في غبطة وسرور.

وكان كل واحد يحسب في نفسه أنّه ملك يحمل تاجاً بيد، وصولجاناً بيد.

على الرمل

قال رجل لآخر: «كتبت بطرف حذائي، عندما ارتفع مدّ البحر، سطراً على الرمل. ولا يزال الناس يتوقّفون عنده ليقرأوه، ويحرصون على أن لا يمحوه في المستقبل شيء».

وقال الرجل الآخر: «وأنا كتبت أيضاً سطراً على الرمل، ولكن كان ذلك عندما انخفض المدّ، وجاءت أمواج البحر فمحته، ولكن قل لي: ماذا كتبت؟.

أجاب الرجل الأول وقال: «كتبت هذا: «أنا من هو كائن». وأنت ماذا كتبت؟».

وقال الآخر: «هذا ما كتبت: لست سوى قطرة من هذا الأوقيانوس الكبير».

الهدايا الثلاث

كان في مدينة بشرّي مرةً، أمير عطوف، محبوبٌ ومقدّر من جميع رعاياه.

غير أنّه كان ثمة رجل فقير الحال، معدمٌ، جعل دأبه وديدنه ذمّ الأمير، والتشهير به، وتحريك لسانه أبداً ودائماً في التشنيع عليه.

وكان الأمير يعرف ذلك، ولكنه ظلّ صابراً لا يحرك في شأنه ساكناً.

وأخيراً خطر بباله أن يضع له حدّاً، وأرسل إليه في ليلة من ليالي الشتاء خادمه، وحمّله كيس طحين، وعلبة صابون، وقالب سكّر.

قرع الخادم باب الرجل وقال: «أرسل إليك الأمير هذه الهدايا، علامة تذكار، ودليل رعاية».

وشعر الرجل بالزهو، وأخذه العجب، إذ حسب أن الهدايا تكريم من الأمير له، وذهب في نشوة الكبرياء إلى المطران وأخبره بما فعل الأمير قائلا: «ألا ترى كيف أن الأمير يطلب رضاي؟».

ولكن المطران قال: «إيه! ما أحكم الأمير، وما أقلّ فطنتك! إنّه يتكلم بالرموز. الطّحين لمعدتك الفارغة، والصابون لقذارة سريرتك والسكر ليحلو لسانك المر».

وأصبح الرجل خجلاً منذ ذلك اليوم، حتى من نفسه، واشتدت كراهيته للأمير كما لم تكن من قبل قطّ، وامتدّت هذه الكراهية للمطران الذي كشف له طوّية الأمير، وأطلعه على مقاصده.

إلا أنّه سكت بعد ذلك، ولم يتعرض للأمير بكلمة....

السلم والحرب

كان مرة ثلاثة كلاب في الشمس يتدفأون ويتحدّثون.

قال الكلب الأول بلهجة الحالم: «إنّه حقاً لعجَبٌ أن نعيش في هذا اليوم عيشة الكلاب. فكر في هذا اليسر الذي نسافر به تحت البحر، وفوق البر، وحتى في الجو. وتأمل الاختراعات التي أتت بالرفاهية للكلاب، وتمتّعت بها عيوننا وآذاننا وأنوفنا».

وتكلم الكلب الثاني وقال: «إنّنا أكثر عناية بالفنون. إنّنا ننبح القمر على نحو أكثر إيقاعاً مما كان يفعل أجدادنا، وعندما نحدّق إلى أنفسنا في الماء، نرى ملامحنا أنقى من ملامح الأمس وأوضح».

وتقدم الكلب الثالث وقال: «غير أن الذي يشوقني أكثر من كلّ ما يشوق، ويخلب لبّي، إنّما هو هذا التفاهم القائم بين ممالك الكلاب!».

ونظر الكلاب الثلاثة إلى ما حولهم في تلك اللحظة، وإذا بمطارد الكلاب يقترب. يا للهول!

ووثب الثلاثة، وضربوا على غير هدى في الشارع. وفيما كانوا يركضون، صاح الكلب الثالث فيهم قائلاً: «اركضوا بالله، من أجل حياتكم، المدنيّة وراءنا تتعقّبنا.

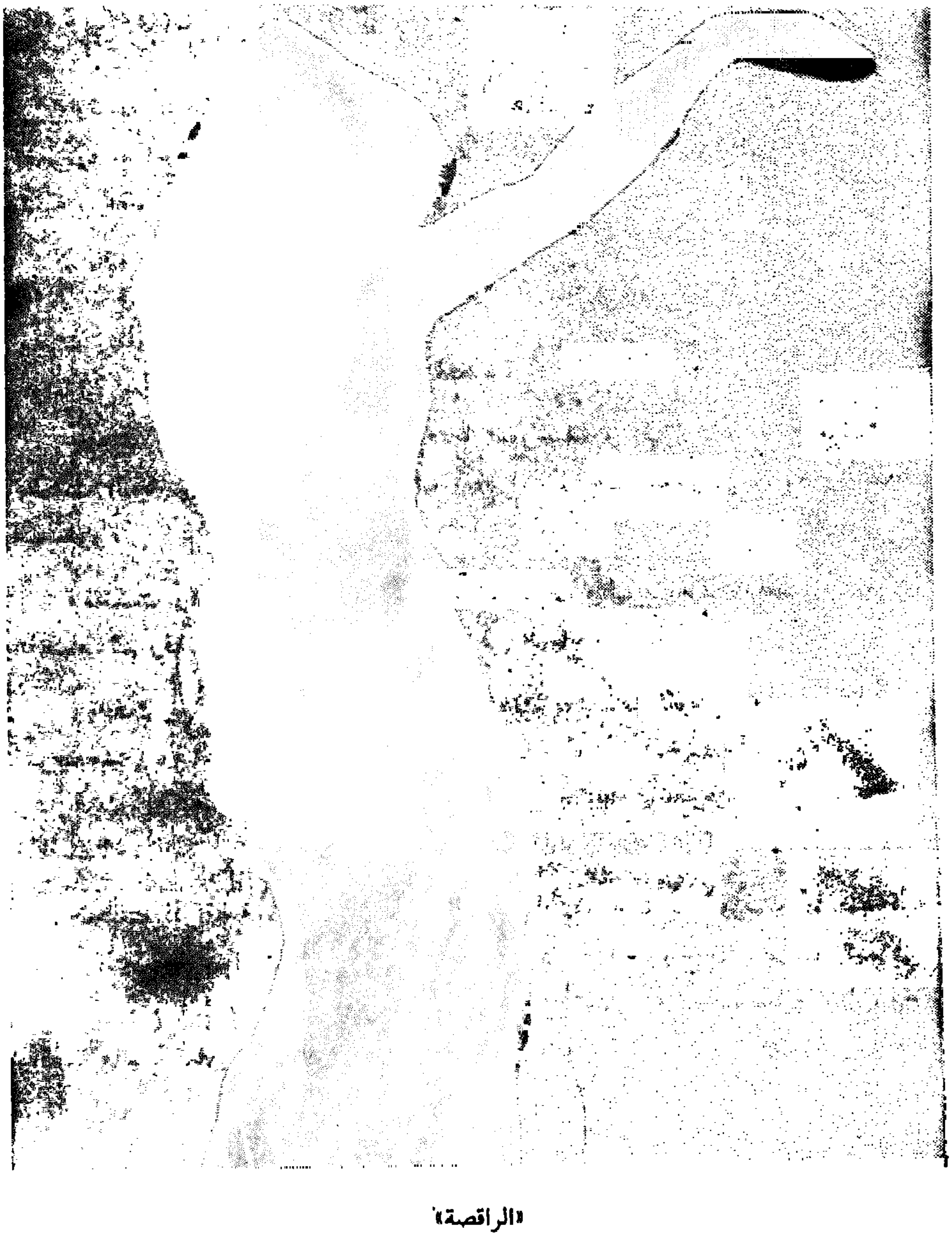
الراقصة

جاءت مرةً راقصة ترافقها جوقتها الموسيقية، إلى بلاط أمير بركاشا، فأحسنت الحاشية استقبالها، ورقصت أمام الأمير على موسيقى العود والشبابة والسنطور.

رقصت رقصة اللهب، ورقصة السيوف والرماح، ورقصة النجوم والفضاء، ثم رقصت أخيراً رقصة الأزهار في الرياح.

ووقفت بعد ذلك أمام العرش، وانحنت بجسمها للأمير، فأمرها هذا أن تقترب منه، وقال لها: «أيتها المرأة الجميلة، يا ابنة النعيم والفرح، من أين أتيتِ بفنّك؟ وكيف أتيح لك أن تقودي عناصر الطبيعة وتصرّفيها على إيقاعاتك وقوافيك؟».

انحنت الراقصة ثانية أمام الأمير، وأجابت: «أنا لا أعرف، يا صاحب السمو والنعمة، جواب أسئلتك. كلّ ما أعرفه هو هذا: روح الفيلسوف تقيم في رأسه، وروح الشاعر في قلبه، وروح المغنّي تعيش في حنجرته، أما روح الراقصة فإنها تقطن في جسدها كلّه».



«الراقصة»

الملاكان الحارسان

التقى ذات مساء ملاكان عند بوّابة المدينة، وتبادلا التحيّة، وراحا يتحدّثان.

قال أحدهما: «ماذا تعمل في هذه الأيام، وما هي المهمة التي أُسندت إليك؟».

أجاب الآخر: «أُسندت إليّ حراسة إنسان سقط، وهو يعيش في الوادي، وكان خاطئاً كبيراً، هوى إلى أحطّ الدركات. واسمح لي أن أؤكّد لك أنّه واجب ضخم، خطير، أكابد منه عناء كبيراً».

قال الملاك الأول: «تلك مهمة يسيرة، فكثيراً ما تعرّفت إلى خاطئين وكنت حارساً لهم أكثر من مرّة. وقد أُسند إليّ أخيراً حراسة قدّيس طيّب القلب والنفس يعيش في ظلّ خيمةٍ من أغصان الشجر، منقطعاً عن الناس، معتزلاً، بعيداً. وإني لأؤكّد لك أن ذلك عمل في منتهى الصعوبة والدقة».

قال الملاك الثاني: «ليس هذا سوى ادّعاء محض، إذ كيف يمكن أن تكون حراسة قدّيس أصعب من حراسة خاطئ؟».

أجابه الآخر: «أيّةُ قِحَةٍ هذه أن تحسبني مدّعياً! أنا لم أقرّر سوى الحقيقة. ويبدو لي أنّك أنت المدّعي!»

وهنا أخذ الملاكان في شجار وعراك، بدأ بالكلام، وانتهى بالقبضات والأجنحة.

وفيما كانا يتعاركان مرّ بهما ملاك أعلى، فوقف وقال: «لمَ تتنازعان؟ وما هو الأمر الذي جرّكما إلى هذا العراك كلّه؟ ألا تعلمان أن العراك بين الحَرَس من الملائكة أبعد ما يكون عن اللياقة، ولا سيما عند بوابة المدينة؟ أخبراني، ما هو الخلاف بينكما؟».

وراح الملاكان يتكلمان معاً في آن واحد، وكلّ يدّعي أن العمل الذي

وُكِلَ إليه أصعبُ من عمل زميله، وأنّه هو الذي يستحق الإقرار الأكبر بفضله.

هزّ الملاك الأعلى رأسه وأمعن يتأمّل...

أخيراً قال: «لا أستطيع يا صاحبيّ أن أقول لكما الآن أيكما أحقّ بالشرف الأكبر والمكافأة الأولى، ولكن ما دامت السلطة ممنوحةً لي، فإنّي أعطي لكلّ منكما عمل الآخر، حفاظاً على السلامة وتأميناً للحراسة، وسيكون كل منكما مغتبطاً، وهو الذي يصرّ على أن واجب الآخر أيسر من واجب زميله. اذهبا الآن، وليسعد كل منكما بالعمل الذي أُسند إليه».

ومضى الملاكان ينفّذان الأمر الذي وجّه إليهما، غير أنّ كل واحد منهما راح ينظر وراءه إلى الملاك الأعلى، شزراً، ويقول في سره: «آهٍ من هؤلاء الملائكة الأعلين! إنّهم يجعلون الحياة لنا نحن الملائكة، أعسر فأعسر، يوماً بعد يوم».

ولكن الملاك الأعلى وقف هناك، وراح يحدّث نفسه، ويقول في سره: «علينا، في الواقع، أن نكون حذرين، وأن نقيم حرساً على الملائكة الحارسين».

التمثال

كان ثمة رجل يعيش فوق الروابي، ولديه تمثال نحته أحد الأساتذة الأقدمين، وقد ألقي مطروحاً على الأرض أمام بابه، فلم يكن يعيره أدنى اهتمام.

ومرّ ذات يوم بمنزله رجل من المدينة، كان ذا بصر ومعرفة، ومذ شاهد التمثال، سأل عن صاحبه يريد شراءه.

ضحك صاحب التمثال وقال: «أفأنت ترجو من يودّ أن يجد شارياً لهذا الحجر القذر الكاسد؟»

قال ابن المدينة: «أعطيك هذه القطعة من الفضة لقاءه».

ودهش الرجل وفرح.

ونقل التمثال إلى المدينة على ظهر فيل، وذهب رجل الروابي إلى المدينة في زيارة، بعد عدة أشهر. وفيما هو يجوب شوارعها، وقع نظره على جمهور من الناس أمام دكان، وفيهم رجل يصرخ بصوتٍ عالٍ: «تعالوا وادخلوا، فها هنا أجمل وأعجب تمثالٍ في العالم كلّه. يمكنكم بقطعتين فقط من الفضة أن تشاهدوا أبدع ما صنع أستاذٌ في فنّ النحت».

وعند ذاك، دفع رجل الروابي قطعتين من الفضة، ودخل الدكان ليشهد التمثال، فإذا هو ذاك الذي كان قد باعه بقطعة واحدة من الفضة!

المبادلــة

لقي شاعر فقير مرة غنياً غبيّاً عند ملتقى طرق، ودار بينهما حديث طويل. وكان كل ما قالاه ينمّ عن استياء وسخط، ولا شيء سوى سخطٍ واستياء.

ومرّ آنذاك ملاك الطريق، ووضع يده على كتف الرجلين، وإذا بمعجزة تتحقّق: لقد انتقلت أملاك كلّ منهما للآخر.

ثم انصرفا، وكان أغرب ما جرى لهما أن الشاعر نظر فلم يجد في يده شيئاً سوى رملٍ جاف متحرك، والغبيّ أغمض عينيه ولم يشعر بشيء سوى غيمة متحركة في قلبه!

حب وبغض

قالت امرأة لرجل: «أنا أحبك». وقال الرجل: «إنما أكون أهلاً لحبّك هذا، فِي قلبي».

وقالت المرأة: «ألا تحبّني أنت؟» وحدّق الرجل إليها مليّاً ولم يقل شيئاً.

عند ذاك صرخت المرأة بصوتٍ عال: «أنا أكرهك». وقال الرجل: «إنما أكون إذن أهلاً لبغضك، في قلبي أيضاً».

أحلام

رأى رجل حلماً في نومه، وعندما أفاق ذهب إلى عرّافه، وطلب إليه أن يفسّر له رؤياه.

قال العراف للرجل: «تعال إليّ مع الأحلام التي تراها في يقظتك، وسأخبرك عن معناها، أمّا الأحلام التي تراها في نومك فإنها مما لا تناله معرفتي، ولا يدركه خيالي».

المجنون

كان ذلك في حديقة المارستان: لقيت شابّاً شاحب الوجه، رائع الطلعة، يثير العجب.

وجلست بجانبه على المقعد وقلت: «لِمَ أنتَ هنا؟».

نظر إليّ بدهشة وقال: «ذاك سؤال غير لائق، ولكني أجيب عنه مع ذلك: أراد أبي أن يجعل منّي نسخة جديدة عنه، وكذلك أراد عمّي. وشاءت

والدتي أن أكون صورة عن أبيها الشهير، وأختي شاءت أن تجعل لي من زوجها البحّار المثل الأكمل الذي ينبغي لي أن أقتدي به. وأخي حسب أنّ عليّ أن أكون مثله، بطلاً رياضيّاً مرموقاً.

«وكذلك هو شأن أساتذتي، من الدكتور في الفلسفة، إلى أستاذ الموسيقى، إلى المناطقة، قرّروا جميعهم، وكل واحد منهم أرادني على أن أكون انعكاساً لوجهه في مرآة.

«ولذلك، جئت إلى هذا المكان. وإنّي لأجده أردّ بالسلامة عليَّ والعافية. فأنا أستطيع به أن أكون إيّاي، لا غيري، على الأقل».

ثم دار فجأة نحوي، وقال: «ولكن قل لي: هل ساقتك إلى هذا المكان أيضاً نصائح الآخرين ورغبتهم في تثقيفك؟».

أجبته: «لا! أنا زائر».

قال: «أنت إذن واحدٌ من أولئك الذين يعيشون في المارستان القائم وراء الجانب الآخر من الجدار».

الضفادع

قالت ضفدعة لرفيقتها، في يومٍ من أيام الصيف: «أنا أخشى أن نزعج أولئك القوم الذين يقيمون في ذلك البيت، على الشاطئ، بأغانينا الليلية».

أجابت رفيقتها قائلة: «حسن! ولكن ألا تجدين أَنهم يعكّرون صمتنا أثناء النهار بثرثرتهم؟».

قالت الضفدعة: «يجب أن لا يغرب عن بالنا أنّنا نكثر الغناء، ونغلو في الإكثار منه، أثناء الليل!».

قالت رفيقتها: «ويجب أن لا يغرب عن بالنا أنّهم يكثرون الضجيج

والثرثرة، ويغالون في اللغط أثناء النهار».

قالت الضفدعة: «ما القول في فحل الضفادع الذي يزعج الجيران كلّهم بهديره المحرّم؟».

أجابت رفيقتها: «نعم! وما تقولين في السياسيّ والكاهن والعالم الذين يرتادون هذا االشاطئ ويملأون الهواء بضوضاء لا رويّ لها ولا إيقاعاً؟».

قالت الضفدعة: «حسن! فلنكن أفضل من هذه الكائنات البشريّة. لنهدأ في الليل، ولنحتفظ بأغانينا في قلوبنا، حتى وإن تاق القمر إلى أنغامنا، وتطلّعت النجوم إلى إيقاعنا، لنصمت ليلة أو ليلتين على الأقلّ، وحتى ثلاث ليال متواليات».

قالت رفيقتها: «حسن جدّاً! أنا أوافق. وسنرى ما سينجم عن طيبة قلبك».

ومرّت تلك الليلة، والضفادع صامتة، وصمتت أيضاً في الليلة التي تلت، ثم في الليلة الثالثة.

وكان أغرب ما جرى أن المرأة الثرثارة التي كانت تقيم في البيت القائم بجانب البحيرة، نزلت في اليوم الثالث تتناول فطورها، وصاحت لزوجها: «ومرت الليالي الثلاث الماضية لم أذق خلالها طعم النوم، لقد كنت أغفو على نقيق الضفادع، ولا بدّ من أنْ يكون هنالك شيء قد حدث، فإني لم أسمع لها صوتاً منذ ليالٍ ثلاث، ويكاد جنوني يُجَنّ من الأرق».

سمعت الضفدعة هذا الكلام، ودارت نحو رفيقتها، وقالت وهي تغمز بطرف عينها: «ونحن كدنا نجنّ من الصمت. ألم نكد نجن؟».

أجابت رفيقتها: «أجل! كان صمت الليل ثقيلاً علينا. وقد أصبح في مستطاعي الآن أن أدرِك أن لا حاجة بنا إلى الانقطاع عن الغناء، ترفيهاً عن أولئك الذين يملأون فراغ نفوسهم بالضجيج».

الشرائع والتشريع

كان في العصور السالفة ملكٌ كبير، وكان هذا الملك حكيماً، وقد رغب في سنّ الشرائع لرعاياه.

ودعا بألف حكيم اختارهم من ألف قبيلة، وطلب إليهم سنّ القوانين ليعمل بها في المملكة الكبيرة، المترامية الأطراف.

وعندما وضعت القوانين المكتوبة على الرق ـ وعددها ألف ـ أمام الملك وأخذ في قراءتها، بكى في سرّه بكاء مرّاً، إذ لم يكن يعرف أن في مملكته ألف شكل للجريمة.

ثم دعا بكاتبه، وراح يملي عليه بنفسه الشرائع، والابتسامة تعلو شفتيه، حتى إذا انتهى لم يتجاوز عدد القوانين التي وضعها السبعة.

وتركه الحكماء الألف وهم غاضبون وعادوا إلى قبائلهم ومعهم الشرائع التي سنّوها، وراحت كل قبيلة تأخذ بالشريعة التي وضعها حكماؤها.

لذلك، كان لديهم ألف شريعة حتى يومنا هذا.

إنّه بلد كبير، ولكن لديه ألف سجن، وهذه السجون ملأى برجال ونساءٍ من الخارجين على الألف شريعة.

إنه في الحقيقة بلد كبير، ولكن أهله تحدّروا من ألف مشترع وملك حكيم واحد.

أمس، واليوم، وغداً

قلت لصديقي: «هل ترى إلى اتّكائها على ذراع ذلك الرجل؟ لقد كانت حتى الأمس تتكئ على ذراعي».

قال صديقي: «وغدا تتكئ على ذراعي».

قلت: «انظر إلى جلوسها بجانبه! لقد كانت حتى الأمس تجلس هكذا بجانبي».

أجاب: «غدا ستجلس بجانبي».

قلت: «انظر! إنها تشرب الخمرة من كأسه، وأمس كانت تشربها من كأسي».

قال: «غداً تشربها من كأسي».

قلت: «انظر كيف تحدّق إليه بحنان، وعينين مستسلمتين. كانت حتى أمس تحدّق هكذا إلي».

قال صديقي: «يمكن أن تحدّق إلي هكذا غداً».

قلت: «ألا تسمعها الآن وهي تتمتم بترانيم الحبّ في أذنيه؟ هذه الترانيم ذاتها هي التي كانت تتمتمها حتى الأمس في أذنيّ».

قال: «وغداً ستهمس بها في أذنيّ».

قلت: «انظر! إنها تعانقه. كانت إلى أمس فقط تعانقني».

قال: «غداً ستعانقني أيضاً».

قلت عندئذٍ: «يا لها من امرأة غريبة!».

ولكنه أجابني: «إنها شبيهة بالحياة يتمتّع بها كلّ الرجال، وشبيهة بالموت تقهر كل الرجال، وشبيهة بالأبدية تحتضن كل الرجال».

(١) وردت هذه القطعة بلغة جبران العربية في المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران العربية صفحة ٦٠٥ ـ طبعة دار الجيل.

الفيلسوف والإسكافي

جاء مرة فيلسوف بحذاء ممزق، إلى دكان اسكافيّ، وقال له: «أرجو إصلاح حذائي».

قال الإسكافي: «أنا أصلح الآن حذاء رجل آخر، ولديّ أحذية أخرى، مضطرّ إلى ترقيعها، قبل أن يصل الدور لحذائك. غير أن في إمكانك أن تتركه هنا، وتلبس هذا الحذاء اليوم، وغداً تأتي وتلبس حذاءك بعد أن أكون قد أصلحته».

اغتاظ الفيلسوف وقال: «أنا لا ألبس حذاء ليس لي».

قال الإسكافي: «حسن إذن! أحقاً أنت فيلسوف ولا تستطيع أن تضع قدميك في حذاء رجل آخر؟ هناك في أول هذا الشارع نفسه إسكافي آخر، يفهم الفلاسفة أكثر مني، اذهب إليه للقيام بعملية الإصلاح».

بناة الجسور

أقيم في انطاكية، حيث يجري نهر العاصي ليصب في البحر، جسرٌ يصل نصف المدينة بنصفها الآخر، وقد بني من حجارة عريضة نقلت من الروابي على ظهور بغال انطاكية.

وعندما انتهى الجسر، نُقِش على أحد أعمدتهِ بالإغريقية والآرامية: «بنى هذا الجسر الملك انطيوخوس الثاني».

وكان الناس جميعهم يعبرون من ضفة إلى ضفة فوق الجسر الذي وصل ما انقطع بين نصفي المدينة.

وذات مساء نزل شاب يحسبه البعض مجنوناً إلى حد ما، واستمرّ ينزل حتى بلغ العمود الذي نقشت عليه تلك الكلمات، وغطاها بالفحم، وكتب

فوقها: «حجارة هذا الجسر جيء بها من الروابي على ظهور البغال. وانتم إذ تمرون فوقه جيئة وذهاباً، إنما تركبون ظهور بغال انطاكية بُناة هذا الجسر».

وعندما قرأ الناس ما كتبه الشاب، ضحك بعضهم، وتعجّب آخرون. وفيهم من قال: «ها! نعم! إنَّا لنعرف الذي فعل ذلك. أما هو ذلك المجنون الصغير؟».

ولكن بغلاً قال، وهو يضحك، لبغلٍ آخر: «ألا تتذكّر أننا حملنا تلك الأحجار؟ ومع ذلك، لا يزال هناك من يقولُ حتى الآن، إن الملك أنطيوخوس هو الذي بنى الجسر».

حقل زاآد

لقيَ مسافر على طريق زاآد، رجلاً كان يقيم في قرية مجاورة، فسأل المسافر الرجل، وهو يشير بيده إلى حقل واسِع: «ألم يكن هذا الحقل ساحة القتال الذي انتصر به الملك أهلام على أعدائه؟».

أجاب الرجل قائلاً: «هذا لم يكن قطّ ساحة قتال، وإنما كانت تقوم هناك مدينة زاآد الكبيرة، وقد أُحرقت حتى تحوّلت إلى رماد، غير أنها أصبحت الآن حقلاً خصيباً. أما هي كذلك؟».

وانصرف كل من الرجل والمسافر إلى شأنه.

وقبل أن يقطع المسافر نصف ميل بعد، لقي رجلاً آخر، وأشار بيده إلى الحقل مرة ثانية، وقال: «أهذا هو المكان الذي كانت تقوم فيه مدينة زاآد الكبرى؟».

قال الرجل: لم يكن ثمة مدينة في هذا المكان قط. وإنما كان هناك مرة دير، وقد دُمّر على أيدي فئة من أهل القطر الجنوبي».

وبعد قليل لقي المسافر، على طريق زاآد نفسها، رجلاً ثالثاً وأشار مرة أخرى إلى الحقل الفسيح وقال: «أليس صحيحاً أن هذا هو المكان الذي كان يقوم فيه دير كبير من قبل؟».

أجابه الرجل: «لم يكن قطّ في هذا الجوار دير، ولكن آباءنا وأجدادنا أخبرونا أنّ شهاباً كبيراً وقع مرةً فوق هذا الحقل».

وتابع المسافر سيره، متعجباً في سره. ثم لقي، وهو يمشي، رجلاً عجوزاً طاعناً في السنّ، فحياه، وقال له: «لقيت أيها السيد، على هذه الطريق ثلاثة رجالٍ يقيمون في هذا الجوار، وقد سألت كل واحدٍ منهم عن هذا الحقل، وكل واحد منهم نفى ما قاله الآخر، وروى لي حكاية جديدة لم يذكرها الآخر».

رفع الشيخ العجوز رأسه، وأجاب: «كل واحد من هؤلاء الرجال أخبرك في الحقيقة، يا صاحبي، عما كان. ولكنْ قلةٌ منا هم الذين يقدرون على إضافة واقع إلى واقع مختلف، ويؤلّفون من ذلك حقيقة».

الحزام الذهبي

تلاقى ذات يوم رجلان كانا يسيران على الطريق إلى سالاميس، مدينة الأعمدة، فترافقا، ووصلا عند منتصف الأصيل إلى نهرٍ عريضٍ، وليس من جسرٍ يربط بين ضفتيه، فكان عليهما أن يسبحا، أو يسلكا طريقاً آخر لا يعرفانه.

وقال واحدهما للآخر: «فلنسبح! فالنهر ليس عريضاً لدرجة نتجشم بها مشقة السير على طريق نجهله». وألقيا بنفسيهما للماء.

وما هي إلا فترة قصيرة حتى أخذ أحدهما يفقد فجأة توازنه، ويدفعه التيار بعيداً، وهو لا يملك من أمره شيئاً، وكان من قبل يعرف الأنهار ومسالكها،

بينما الآخر الذي لم يسبح قطّ من قبل، قطع النهر على خطٍّ مستقيم، ووقف على الضفة المقابلة. ومذ بصر رفيقه يصارع التيار، قذف بنفسه ثانية في الماء وجرّه سالماً إلى الشطّ.

وقال الرجل الذي جرفه التيار: «أخبرتني أنّك لا تحسن السباحة، فكيف إذن قطعت النهر بمثل هذه الثقة؟».

أجاب الرجل: «أترى يا صديقي إلى هذا الحزام الذهبي الذي يطوقني؟ إنّه مليء بالنقود الذهبية التي حصلت عليها خلال عامٍ كامل من العمل، في سبيل زوجتي وأولادي. إنها قيمة هذا الحزام الذهبي الّتي حملتني عبر النهر، إلى زوجتي وأولادي، وهؤلاء كانوا فوق كتفيّ وأنا أسبح».

وتابع الرجلان سيرهما معاً نحو سالاميس

التراب الأحمر

قالت شجرة لرجل: «إنّ جذوري توغل عمقاً في التراب الأحمر، وسأعطيك من ثمري.»

وقال الرجل للشجرة: «ما أشبه الواحد منا بالآخر. إن جذوري عميقة أيضاً في التراب الأحمر، والتراب الأحمر يمنحك القوة لتهبيني من ثمركِ، وهو الذي يعلمني أن أتقبل منك مع الامتنان».

البدر الكامل

طلع البدر كاملاً، مجيداً، على المدينة، وراحت كلاب تلك المدينة جميعها، تنبح القمر.

إلا أن هناك كلباً واحداً لم ينبح، قال لرفاقه بصوت صارمٍ: «لن توقظوا الموات من سباته، ولن تنزلوا القمر إلى الأرض بالنباح.»

وانقطع حينئذ جميع الكلاب عن النباح، وساد صمت راعب. ولكنّ الكلب الذي كلّم الجمع، استمر في نباحه من أجل الصمت، طوال الليل بأكمله.

النبي الناسك

كان هناك مرة نبيّ منقطع للعبادة والنسك، ولم يكن يترك صومعته سوى ثلاث مرات في الشهر، يذهب خلالها إلى المدينة. يعظ الناس في الأسواق ويدعوهم إلى بذل العون والمشاركة في حمل الأعباء. وكان فصيحاً بليغاً، قادراً على الإقناع، حتى طار صيته في طول البلاد وعرضها.

وذات يوم قدم إلى صومعته ثلاثة رجال، حيّاهم وأكرم وفادتهم ثم قالوا له: «وعظت الناس بالبذل والمشاركة. وكنت تبغي تعليم أولئك الذين لديهم الكثير، أن يقدموا لمن ليس لديهم سوى القليل، ونحن لا يخامرنا شك في أن شهرتك عادت عليك بأموالٍ طائلة. فالآن. تعال وقدّم لنا من أموالك، فإنّا في حاجة وفاقة.»

أجاب الناسك وقال: «ليس لدي أيها الأصدقاء شيء سوى هذا الفراش وهذا اللحاف وهذا الإبريق. خذوها اذا كنتم ترغبون فيها. أنا لا أملك فضة ولا ذهباً».

عند ذاك نظروا إليه بازدراء، وأداروا وجوههم عنه، ووقف آخرهم عند الباب لحظةً وقال: «أوه! أنت تغش! أنت تخادع! إنك لتعلّم وتعظ أشياء لم تبدأ بتحقيقها في نفسك!».

الخمرة العتيقة، العتيقة

كان غني مرة كثير الافتخار بقبوه والخمر المعتقـة فيه، وكان ثمة إبريق احتفظ به لمناسبة لا يعرفها أحدٌ غيره.

وزاره حاكم الدولة، فأبدى له امتنانه على زيارته وقال له: «لن يفرغ هذا الإبريق من أجل حاكم تفضل بزيارة.»

وزاره مطران الأبرشية فقال لنفسه: «لا! لن أفرغ هذا الإبريق، فهو لن يعرف قيمته، ولن يبلغ أريجه أنفه.»

وجاء أمير المملكة وتناول عشاءه معه، فقال الغني في سره: «إنها خمرة ملكية، فلا يصح إهراقها من أجل أمير!»

وقال لنفسه أيضاً. حتى عندما تزوج ابن أخيه: «لا! ليس لمثل هؤلاء الضيوف يفرغ مثل ذلك الإبريق!»

ومرت الأعوام تتلوها الأعوام، ومات عجوزاً،متهافتاً، ودفن في التراب كأي بذرة أو بلوطة.

وفي اليوم الذي دفن به، جيء بالإبريق الذي لم يسخُ به لأحد، مع غيره من أباريق الخمر، وتقاسمه فلاّحو الجوار، وما من أحدٍ عرف عمره الكبير. كان في نظر الذين شربوه خمراً كغيرها من الخمور.

القصيدتان

تلاقى على طريق أثينا، قبل قرونٍ متطاولة شاعران، وكان كل واحدٍ منهما مسروراً بلقاء الآخر.

سأل أحدهما الثاني قائلاً: «ماذا نظمت أخيراً، وكيف هي قريحتك في هذه الأيام؟».

أجاب الثاني بزهو قائلاً: «لقد انتهيت إلى لحظات خلت من نظم أروع قصيدة قيلت حتى الآن بالاغريقية. إنها مناجاة لزوس الأعلى!»

ثم تناول من باطن جلبابه رقاً، وقال: «ها هي هنا. إنها معي. وإنه ليسرني أن أتلوها عليك، تعال ولنجلس في ظل هاتيك السروة البيضاء.»

وراح الشاعر يتلو قصيدته، وكانت طويلة.

وقال له الشاعر الآخر برقة ولطف: «إنها قصيدة طويلة. ستظل حية مدى العصور، وستمجدك عليها الأجيال.»

قال الأول بهدوء: «وماذا نظمت أنت آخر ما نظمت؟»

أجاب الثاني: «لم أنظم سوى القليل، نظمت ثمانية أبيات فقط تذكاراً لصبيّ كان يلعب في الحديقة.» وتلا الأبيات.

قال الشاعر الأول: «ليس رديئاً لدرجةٍ كبيرة. ليس رديئاً لدرجة كبيرة»

ومضيا.

واليوم بعد ألفي سنة، لا تزال الأبيات الثمانية التي نظمها الشاعر الثاني تدور على كل لسان، ويردّدها الناس بإعجاب وإعزاز.

أمّا القصيدة الطويلة، فإنها وإن تناقلتها الأجيال من بعد في المكتبات وحجرات الباحثين والدارسين، وكان الناس يذكرونها، لا تلقى من يحبها، ولا من يتلوها.

الليدي روث

وقف مرةً ثلاثة رجال يتأملون من بعيد بيتاً أبيض اللون يقوم وحده فوق رابية خضراء، فقال أحدهم: «ذلك هو بيت الليدي روث، إنها ساحرة عجوز».

وقال الثاني: «أنت مخطئ، الليدي روث امرأة جميلة تعيش منقطعة هناك إلى أحلامها.»

وقال الثالث: «كلاكما على خطإ، الليدي روث صاحبة هذه الأرض الفسيحة، وهي تمتص دم العبيد الذين يعملون فيها.»

ومضوا يتجادلون حول الليدي روث.

وحين بلغوا مفترق طرق لقوا رجلاً طاعناً في السن، فسأله أحدهم قائلاً: «هل لك أن تخبرنا ما شأن الليدي روث التي تقيم في ذلك البيت الأبيض، فوق الرابية؟»

رفع الشيخ رأسه، وابتسم ساخراً منهم، وقال: «أنا في التسعين من سنّي، وإني لأتذكر الليدي روث مذ كنت صبياً صغيراً، غير أن الليدي روث ماتت منذ ثمانين عاماً، والبيت الآن خاوٍ تنعب فيه البوم، والناس يقولون أحياناً: إنّه مسكون.»

الفارة والهر

لقي شاعر ذات مساءٍ فلّاحاً، وكان الشاعر جافياً، والفلّاح خجولاً، ومع ذلك دار بينهما الحديث.

قال الفلاح: «دعني أقصّ عليك قصة قصيرة سمعتها أخيراً، وقعت فأرة في فخّ، وفيما كانت تأكل جبنة الفخ سعيدةً بالعثور عليها، وقف بجانبها هر. ارتجفت الفأرة لأول وهلة، ولكنها كانت تعلم أنها في أمانٍ داخل الفخ.

ثم قال الهر: «لقد أكلت آخر وجبة يا صديقتي»

أجابت الفأرة: «إنّ لي حياة واحدة وإذن سأموت ميتة واحدة. ولكن ما شأنك أنت؟ لقد خُبّرتُ أن لك تسع حيوات. ألا يعني ذلك أنه سيكون عليك أن تموت تسع مِيتّات؟».

ونظر الفلاح إلى الشاعر وقال: «أليست هذه قصة غريبة؟»

لم يجبه الشاعر، ولكنه مشى بعيداً عنه قائلاً في سره: «إن لنا على وجه التأكيد تسع حيواتٍ، تسع حيوات على وجه التأكيد، وعلينا أن نموت تسعِ مرات. تسع مرات علينا أن نموت. ربما كان من الأفضل أن لا يكون لنا سوىَ حياةٍ واحدة، أطبق عليها فخ، حياة فلاح مع قطعة جبن لآخر وجبة. ألسنا مع ذلك أنسباء السباع في الصحارى والأدغال!».

اللعنة

قال لي مرة بحّار عجوز: «لقد مضى على ذلك البحار الذي خطف ابنتي وهرب بها ثلاثون عاماً. ورحت ألعنهما في قلبي، إذ كنت لا أحبّ في هذا العالم أحداً، سوى ابنتي.

«ولم يكد يمضي زمن غير طويل على ذلك، حتى غاص البحار بمركبه إلى قاع البحر، وخسرته. وخسرت معه ابنتي الحبيبة.

«والآن انظر فيّ إلى قاتل شاب وفتاة، إنها لعنتي التي قضت عليهما، وإني لأرجو مغفرة الله وأنا في الطريق الآن إلى القبر.»

.هذا ما قاله العجوز، ولكن لهجته كانت تنم عن زهو وافتخار، ويبدو أنّه لا يزال فخوراً بقوة لعنته.

الرمانات

كان لرجل مرةً عدد وافر من أشجار الرمان في بستانه. وكان في أكثر من خريف يضع رمانه على أطباقٍ فضية خارج مسكنه، ويضع على الأطباق علامات يكتبها بيده: «خذ واحدة لقاء لا شيء. أهلاً بك.»

غير أنّ الناس كانوا يمرون بالأطباق، وما من أحدٍ يأخذ شيئاً من الثمار.

عند ذاك فكّر الرجل في نفسه، حتى إذا أقبل الخريف التالي لم يضع رماناً على أطباقٍ فضية خارج منزله، ولكنه أبرز العلامة الآتية وكتبها بحروفٍ كبيرة: «لدينا هنا أفضل رمان تنتجه الأرض، ولكننا نبيعه بثمن أغلى من أثمان سائر الرمان.»

وتدفق الناس عليه بعد ذلك من رجال الجيرة ونسائها يشترون.

الله والآلهة العديدة

جلس سفسطائي في مدينة كيلافيس، على دَرَج المعبد، وراح يدعو الناس إلى الآلهة العديدة، والناس يقولون في قلوبهم: «إنا لنعرف كلّ ذلك. ألا تعيش هذه الآلهة معنا وتتبعنا أينما ذهبنا؟»

ولم يمض على ذلك زمن طويل، حتى وقف رجل آخر في ساحة المدينة يخطب الناس ويقول لهم: «ليس هناك إله» وقد فرح كثيرٌ ممن سمعوه بهذه البشائر، إذا كانوا في جزعٍ من الآلهة.

وذات يوم أقبل رجل قوي العارضة، بليغ الحجّة، وقال: «ليس هناك سوى إله واحد.» وجزع الناس في قلوبهم، وخافوا حكم إله واحد، أكثر مما كانوا يخشون حكم آلهة عديدة.

وجاء في الموسم نفسه رجل آخر وقال للناس: «هنالك ثلاثة آلهة تقيم فوق الريح كأنها واحد، ولهم أم حانية، واسعة الصدر، تقوم مقام رفيقة لهم وأخت في آنٍ واحد.»

عند ذاك سُرّيَ عن الجميع، إذ قالوا في سرّهم: «ثلاثة آلهةٍ في واحد، يقتضي أن يختلفوا على عيوبنا، وإلى ذلك، فإنّ أمهم ذات القلب الحنون، لابد أن تقف بجانبنا وتدافع عن نقاط ضعفنا.»

ولا يزال حتى اليوم في مدينة كيلافيس تلك، أولئك الذين يتجادلون ويتنازعون حول الآلهة العديدة. وليس هناك إله، والإله الواحد، والآلهة الثلاثة في واحد، وأم حنون للآلهة.

تلك التي كانت صماء

كان مرّة لرجل غنيّ زوجة شابة ولكنها كانت صماء صمم الحجر.

وذات صباح، بينما كان الغني وزوجه يتناولان فطورهما، بدأت هذه الكلام وقالت: «زرت السوق أمس، ورأيت فيما رأيت من معروضاته، رداءً حريرياً صنع دمشق، وأبراداً هندية، وعقوداً فارسية، وأساور يمانية، وبدا أن القوافل اقتصرت على هذه الأشياء في كل ما جلبت إلى المدينة. والآن انظر إليّ، وأنا بهذه الأطمار البالية، أنا زوجة الثريّ المعروف. أريد منك بعض هذه الأشياء الجميلة.»

قال الزوج، وهو ما يزال يحتسي قهوة الصباح: «عزيزتي! ليس هناك ما يبرر عدم نزولك إلى السوق وابتياع كلّ ما يشوقك، ويرتاح إلى نيله فؤادكِ.»

وكان من الزوجة الصماء أن قالت: «لا! أبداً تقول: لا! لا! هل قدر عليّ أن أظهر في الأسمال بين أصدقائنا وصديقاتنا ليخجل بي أهلي. ويُخجلَ الناس ثراءك؟»

قال الزوج: «لم أقل: لا يمكنك أن تذهبي إلى السوق، وتبتاعي أجمل الحلى والزينات التي وردت إلى هذه المدينة.».

وأساءت الزوجة فهم كلام زوجها للمرة الثانية. وأجابت: «أنت أشح الأغنياء جميعهم إنك لتأبى عليّ كلّ ما هو جمال وأناقة، بينما يطوف نساء جيلي حدائق المدينة رافلات في أبدع الحلل القشيبة وأغلاها.»

واستخرطت في البكاء، وفيما كانت دموعها تتهاوى على نحرها،

صاحت للمرة الثانية: «دوماً تقول: لا! لا! كلما رغبت في حلية أو رداء.».

وهنا اضطرب الزوج ووقف، وتناول من خزينته حفنة من النقود الذهبية، ووضعها أمامها، قائلاً بصوت رقيق ناعم: «اذهبي إلى السوق يا عزيزتي واشتري كل ما تريدين»

ومنذ ذلك اليوم، أخذت الزوجة الشابة الصماء تظهر أمام زوجها بدرّة من الدمع في عينيها كلما رغبت في الحصول على شيء، وهو يتناول من جانبه صامتاً، حفنةً من الذهب، ويلقي بها في حضنها.

ثمّ حدث أن وقعت المرأة الشابة في هوى شابّ من عادته أن يقوم برحلات طويلة، وكلّما سافر في رحلة، جلست في مخدعها تبكي. وكان زوجها عندما يجـدها على تلك الحال من البكاء، يقول في سرّه: «لا بدّ من أن تكون ثمة قافلة جديدة قد وصلت. وبعض الحلى والحلل النادرة قد عُرضت في السوق.»

وعند ذاك يتناول حفنة من الذهب ويلقي بها إليها...

المسالة

تلاقى فيلسوفان، قبل نحو من ألف سنة، فوق منحدرٍ من لبنان، فقال أحدهما للآخر: إلى أين أنت ذاهب؟»

أجاب الآخر: «أنا أبحث عن عين الصبا التي أعرف أنها تنبع وسط هذه الروابي وقد عثرت على كتابات تنبئ أن تلك العين تتألق تألق الزهرة مع الشمس. وأنت عمَّ تبحث؟»

أجاب الأول: «أنا أبحث عن سرّ الموت..»

وأدرك حينذاك كلّ من الفيلسوفين أن الآخر ينقصه الشيء الكثير من

العلم، على سعة معرفته، وراحا يتنازعان، ويتهم كلّ منهما الآخر بالعماوة الروحية.

وفيما كان الفيلسوفان يصخبان صخب الريح، مرّ بهما غريبٌ كان يحسبه أهل قريته ساذجاً، وقف برهة يصغي إلى حجة كلّ منهما.

ثم اقترب منهما وقال: «يبدو أنكما يا صاحبيّ، تنتميان معاً إلى مدرسة فلسفية واحدة، فأنتما تتحدثان عن شيء واحد، ولكن بكلمات مختلفة؛ إن أحدكما يبحث عن عين الصبا، والآخر يبحث عن سرّ الموت، وهما في الحقيقة شيء واحد، وهذا الشيء نفسه يقيم فيكما معاً.».

وابتعد الغريب عنهما، وهو يقول: «وداعاً أيها الحكيمان!» وفيما كان يدير ظهره منصرفاً سُمع وهو يضحك ضحكة هادئة.

ونظر الفيلسوفان كلّ منهما للآخر في صمت لحظة، ثم ضحكا أيضاً، وقال أحدهما لزميله: «حسن! ألا يحسن بنا الآن أن نمشي ونبحث معاً؟».

الصولجان

قال ملكٌ لزوجه: «لستِ يا سيدتي ملكة حقاً! أنتِ جدّ عادية ومبتذلة وغير لائقة لأن تكوني رفيقة حياتي!»

قالت الزوجة: «أنت تحسب نفسك ملكاً، وما أنت في الحقيقة سوى رجع صدى مسكين لمن قبلك!»

وأغاظت هذه الكلمات الملك، فتناول صولجانه بيده، وضرب الملكة على جبينها بالقبضة الذهبية منه.

ودخل رئيس الخدم في تلك اللحظة وصاح: «ماذا؟ ماذا يا صاحب الجلالة؟ هذا الصولجان صنعه أكبر فنان في البلاد، واحسرتاه! سوف يأتي يوم تُنسى به أنت والملكة، وهذا الصولجان يحفظ كرائعة فنية، من جيل لجيل،

والآن وقد أسلت الدم به من رأس صاحبة الجلالة، فإنه سيصبح أوفر اعتباراً وأكثر تذكرا».

الطريق

كانت امراة تعيش في أعالي الرُّبَى مع ابنها، وكان بكرها ووحيدها، الذي تنفق عليه كل ما في قلبها وحياتها من عطف وحنان.

ومات الولد بحمّى فاجأته، وراحت تصرخ وتولول، وتخاطب الطبيب قائلة: «قل لي! قل لي! ما الذي أسكن حركته، وأسكت غناءه؟»

قال الطبيب: «إنها الحمى»

قالت الأم: «وما هي الحمى؟»

أجاب الطبيب: «لا أستطيع شرحها. إنها شيء متناهٍ في الصغر يزور الجسم، ولا نقدر على رؤيته بالعين المجردة»

ثم تركها الطبيب، وراحت تكرّر ما قال، لنفسها: «شيء متناهٍ في الصغر، لا نقدر على رؤيته بالعين المجردة»

وجاء الكاهن في المساء يعزيها، فراحت تبكي بين يديه وتُعْوِلُ قائلة: «لماذا فقدت ولدي، ولدي الوحيد، ولدي البكر؟»

أجاب الكاهن: «إنها يا ابنتي مشيئة الله!»

قالت المرأة: «ما هو الله وأين هو الله؟ أريد أن أشاهده لأمزق صدري أمامه، وأنزف دم قلبي على قدميه، قل لي أين أستطيع أن أجده؟».

قال الكاهن: «الله رحب لا نهاية لرحابته، ولا سبيل إلى رؤيته بالعين البشرية المجردة»

صرخت الأم عند ذاك: «إن الشيء الذي لا نهاية لصغره أهلك ولدي من خلال مشيئة الذي لا نهاية لكبَره! ونحن؟ ما نحن إذن؟ ما نحن؟»

وأقبلت أم المرأة في تلك اللحظة وولجت الغرفة ومعها كفن الصبيّ وكانت قد سمعت كلمات الكاهن، وصراخ ابنتها، ورمت بالكفن إلى الأرض، وأخذت يد ابنتها بيدها، وقالت: «نحن يا ابنتي الشيء الذي لا نهاية لصغره، ولا نهاية لكبره، معا. نحن الطريق بين الاثنين».

الحوت والفراشة

وجد رجل وامرأة نفسيهما ذات مساء، معاً في عربة مسافرين، وكانا قد التقيا من قبل...

كان الرجل شاعراً، وفيما هو جالس بجانب المرأة، قصد إلى تسليتها بقصص ابتدع بعضها، وسمع بعضها الآخر.

ولكن المرأة غفت بينما كان يسرد عليها قصصه. وعثرت العربة فجأة وأفاقت المرأة، وقالت: «أنا معجبة بتفسيرك لقصة يونس والحوت.»

قال الشاعر: «غير أنني كنت أقص عليك يا سيدتي قصة أنا وضعتها حول فراشة ووردة بيضاء، فكيف انتقلت واحدتهما إلى الأخرى!».

السلم يعدي

قال غصن مزهر لجاره: «هذا يوم تافه، أجوف.» فأجابه الغصن الآخر: «إنّه في الحقيقة أجوف، تافه.».

وتعلق في تلك اللحظة عصفور على أحد الغصنين، وجاء عصفور آخر وقف بجانبه.

وترنّم أحد العصفورين وقال: «هجرتني رفيقتي.»

وصاح العصفور الآخر: «ورفيقتي أيضاً ذهبت ولن تعود، فأي شي يهمني من ذلك؟».

وراح العصفوران يتلاحيان ويتوجه كل منهما بالتوبيخ إلى الآخر، ثم م لبثا أن تنازعا، وأثارا ضجة كبيرة في الجو.

وانقض فجأة من السماء عصفوران آخران، وارتميا بهدوء إلى جانب زميليهما المتشاجرين، وساد الهدوء والسلم.

ثم طار الأربعة معاً زوجين، زوجين!

وقال الغصن الأول لجاره: «أحدث قدوم العصافير ضوضاء كبيرة.»

وأجابه الغصن الآخر: «سمّ ذلك ما شئت. الآن سلم وهدوء. إذا كانت الطبقة العليا من الجو في سلام، فإنّه يبدو لي أن أولئك الذين يقيمون في الطبقة الدنيا، يحيون في سلام أيضاً، أتريد أن لا تتمايل في الريح أكثر مما تفعل، كي تظل بعيداً عني؟»

قال الغصن الآخر: «إيه! ربما أفعل ما تشاء من أجل السلم، لحظة وينتهي الربيع.»

ثم مال مع الريح بقوة ليعانقها...

الظل

قال العشب في يوم من أيام حزيران، لظلّ دوحة كبيرة: «أنت لا تني تتنقلّ يمنة ويسرة أغلب الأحيان، إنك لتزعجني عما أنا فيه من هدوء وراحة بال»

أجاب الظل قائلاً: «لست أنا الذي يتنقل! انظر إلى السماء، إلى الأعالي، هنالك شجرة تتقلب في الريح شرقاً وغرباً، بين الشمس والأرض.».

وتطلع العشب إلى العلاء، وشاهد الدوحة لأول مرة، وقال في سرّه: «ها إن هنالك عشباً أكبر مني بكثير!».

وران عليه الصمت...

سبعون

قال الشاعر الشاب للأميرة: «أنا أحبك.» أجابت الأميرة: «وأنا أيضاً أحبك يا ولدي!»

ردّ الشـاب: «ولكني لست ولدك. أنا رجل وإني لأحبك.»

قالت: «أنا أم البنين والبنات، وهؤلاء هم آباء وأمهات للبنين من بعدهم والبنات، وإن أحد أولاد أولادي أكبر منك سناً.»

وقال الشاعر الشاب: «ولكني أحبك»

ولم يمض على هذا الحوار زمن طويل حتى ماتت الأميرة، ولكنها في اللحظة التي تلقت بها الأرض آخر أنفاسها، قالت في سرّها: «يا حبيبي! يا ولدي الحبيب! يا شاعري الشاب. ربما كان لنا أن نلتقي بعدُ مرة ثانية. ولكني لن أكون عندئذٍ في السبعين.»

العثور على الله

كان رجلان يمشيان مرة في الوادي، وأشار أحدهما بإصبعه ناحية الجبل، وقال: «هل ترى تلك الصومعة؟ هناك يقيم رجل طلّق الدنيا منذ زمنٍ طويل، إنّه لا يبحث عن شيء، ولا يريد شيئاً سوى الله، على أديم هذه الأرض».

قال الرجل الآخر: «إنّه لن يجد الله حتى يهجر صومعته، وعزلته، ونسكه، ويعود إلى العالم، يشاركنا في أفراحنا وأتراحنا، ويرقص مع الراقصين في ولائم الأعراس، ويبكي مع الباكين حول أجداث الموتى».

واقتنع الرجل في سريرته بصحة هذا الكلام، ولكنه أجاب، على الرغم من اقتناعه: «أنا أوافق على كل ما تقول، غير أني أعتقد أن الناسك إنسان طيب، ألا يمكن أن يكون من الأفضل أن يعتزل إنسان طيّب فيخدم بعزلته أكثر مما يفعَل هؤلاء الرجال بطيبتهم الظاهرة؟»

النهر

التقى جدولان صغيران في وادي قاديشا حيث يتدفق النهر العظيم، وراح كلّ منهما يتحدث إلى الآخر.

قال أحد الجدولين: «كيف أتيت يا صديقي، وكيف كانت طريقك؟»

أجاب الآخر: «كانت طريقي أكثر الطرق عراقيل ووعورة، فقد كسر دولاب المطحنة، والمزارع الذي اعتاد قيادتي من القناة إلى زروعه، قضى نحبه، وكان عليّ أن أكافح، وأتسرّب مع قذارة أولئك الذين لا يعملون شيئاً، إلا أن يخبزوا كسلهم في الشمس. ولكن، قل لي كيف كانت طريقك أيها الصديق؟»

أجاب الجدول الآخر، وقال: «كانت طريقي تختلف عن طريقك: لقد نزلت من أعالي الرُّبَى، وسط الأزهار العاطرة الناضرة، وأشجار الصفصاف المتهدّلة، وكان الرجال والنساء يرشفون مني بأكواب فضيّة، والأطفال الصغار يغمسون على حفافّي أقدامهم الوردية في مياهي، وكانت ضحكات البشر والإيناس ترتفع موسيقية في الفضاء من حولي، وكانت هناك أغانٍ عذبة تملأ الجو فرحاً وألقاً، يا لها من مأساةٍ أن لا تكون طريقك هكذا سعيدة!»

وفي تلك اللحظة، تكلم النهر بصوت عالٍ وقال: «تعال! تعال! إنّنا ذاهبون إلى البحر، تعال، تعال، ولا تقل بعد شيئاً، كن الآن معي. نحن ذاهبون إلى البحر، تعال إليّ، تعال إليّ، فإنك تنسى إذ تلجني كلّ جولاتك التائهة، حزينة كانت أم سارّة، تعال وادخل، ادخل، فأنا وأنت سننسى جميع طرقنا عندما نبلغ قلب أبينا البحر».

الصيادان

التقى السرور والحزن، في يوم من أيام نوّار، بجانب إحدى البحيرات، فتبادلا التحية، وجلسا على مقربة من المياه المطمئنة، يتطارحان الأحاديث..

تحدّث السرور عن الجمال الذي يغمر الأرض، وعن الروعة اليوميّة التي تفعم الحياة في الغابة، وبين الهضاب، والأغاني التي تُسمع عند الفجر والأصيل.

وتكلم الحزن، ووافق على كل ما قاله السرور، لأن الحزن كان يدرك سحر الساعة والجمال المنبعث فيها، والحزن بليغ حين يخوض في حديث نوّار وسط الحقول وفوق الهضاب.

وتحدّث الحزن والسرور طويلاً، وكان الوفاق بينهما تاماً حول جميع الإشياء التي يعرفانها.

ثم مرّ بهما صيّادان على الضفة الأخرى من البحيرة. وفيما هما ينظران إليهما عبر الماء، قال أحدهما: «إني لأعجب من عسى هذان الشخصان أن يكونا؟» وقال الآخر: «قلت: اثنان؟ أنا لا أرى إلا واحداً».

قال الصياد الأول: «ولكن هناك، اثنان». وردّ الثاني قائلاً: «ليس هناك إلا شخص واحد أستطيع أن أتبيّنه، وانعكاس صورته في البحيرة واحد أيضاً».

قال الصّياد الأول: «لا! هناك، اثنان، وانعكاس الصورة في الماء الهادئ، إنما هو لشخصين أيضاً».

ولكن الرجل الثاني قال ثانية: «أرى واحداً بمفرده». وقال الآخر للمرة الثانية أيضاً: «ولكني أرى اثنين بوضوح».

ولا يزال أحد الصيادَين يقول حتى اليوم إن الآخر رأى شخصاً مضاعفاً، بينما الآخر يقول: «صديقي أعمى على نحوٍ ما».

التائه الآخر

لقيت ذات مرة رجلاً آخر يتسكّع على الطرق، وكان أيضاً على بعض الجنون. فراح يكلمني هكذا: «أنا تائه، ويبدو أغلب الأحيان أني أجوب الأرض مع الأقّاقين، ومذ كان رأسي أبعد بسبعين ذراعاً عن الأرض من رؤوسهم، فإنّه يبدع أفكاراً أسمى وأكثر انطلاقاً من أفكارهم.

«غير أني في الحقيقة لا أسير مع الناس، بل فوقهم، وكلّ ما يستطيعون أن يروه مني، إنما هو آثار أقدامي في حقولهم المنفتحة.

«وكثيراً ما سمعتهم يتجادلون ويتعارضون حول شكل هاتيك الآثار لأقدامي وحجمها، إذ كان هنالك من يقول: إنها آثار تنّين طاف الأرض في الماضي السحيق، وآخرون قالوا: لا! هذه هي الأماكن التي هبطت عليها النيازك من أفلاك الكواكب القصيّة.

«ولكن أنت يا صديقي، تعرف أتمّ المعرفة أن هذه ليست شيئاً سوى آثار أقدام لتائه»...

حديقة النبي

تعريب

عبداللطيف شرارة

حديقة النبي

١

عاد المصطفى، المختار، المحبوب الذي عاش ضحى مؤتلقاً حتى أتاه يومه، إلى جزيرة مولده في شهر تشرين، شهر التذكار.

وما إن اقتربت سفينته من المرفإ حتى انتصب واقفاً على مقدّمها، ووقف حوله بحارته، وقد أفعمت قلبه الفرحة بلقاء الوطن.

وراح يتكلم، والبحر يهدر في صوته، ويقول: «ها هي ذي جزيرة مولدنا. لقد لفظتنا الأرض هنا، أغنية ولغزاً: أغنية تتسامى إلى السماء، ولغزاً تحاربه الأرض، وأي شيء هناك بين الأرض والسماء يُقلّ الأغنية ويحلّ اللغز سوى هوانا؟

«لقد لفظنا البحر مرة أخرى إلى هذه الشطآن، وما نحن سوى موجةٍ أخرى من موجاته، دفع بنا لنردد كلامه، ولكن كيف لنا أن نقوم بذلك، ما لم نحطّم تناغم قلوبنا على الصخر والرمل؟

«تلك هي شريعة البحر والبحّارة، فإذا أنت أردت الحرية كان عليك أن تحوّل حاجات الحياة إلى ضباب، ان ما لا شكل له ينشد أبداً أن يكون ذا شكل، حتى السديم الذي لا يُعد، يودّ أن يتحوّل إلى شموس وأقمار. ونحن الذين طلبنا الكثير وعدنا الآن إلى الجزيرة قوالب صلبة، علينا أن نصبح ضباباً مرة أخرى، ونأخذ في التعلم من البدء، وأيّ شيءٍ هناك ينمو ويشهق في الأعالي إلا وهو يتحطم عند الهوى والحرية.

«سنظل بعد اليوم، وإلى الأبد، ننشد الشطآن التي نملك فيها أن نتغنى، ونجد عليها من يستمع إلينا. ولكن ما القول في الموجة التي تتحطم ولا من أذن تسمع تحطمها؟ إنّ ما يحتضن أسانا الأعمق ويغذيه هو تلك الأنغام التي لا يسمعها أحد، وهذه الأنغام أيضاً هي التي تحفر في قرارة أرواحنا لتصوغ مصائرنا وتقولبها.».

وعند ذاك تقدم أحد بحّارته وقال: «لقد قدت أيها المعلم حنيننا إلى هذا المرفأ، وها نحن وصلنا، ومع ذلك تتحدّث عن الأسى والقلوب التي ينتظرها التحطم».

أجابه قائلاً: «ألم أتحدّث عن الحرية، وعن الضباب الذي هو حريتنا الكبرى؟ ومع ذلك، فإنّي بألم حججتُ إلى جزيرة مولدي حتى كما لو كنت طيف ذبيح جاء يركع أمام أولئك الذين ذبحوه.»

وتكلم بحّار آخر وقال: «ها هي الجماهير على الشاطئ، لقد تنبأت، في صمتها، حتى عن يوم قدومك وساعته، واجتمعت من حقولها وكرومها، لانتظارك تعبيراً عن حبها واشتياقها.»

وألقى المصطفى من بعيد، بنظرةٍ على الجماهير، فعاودت قلبه ذكريات حنينها إليه، وصمت.

وارتفعت لحظتئذٍ صرخة من أعماق الشعب، وكانت صرخة ادّكارٍ واستعطاف.

ونظر إلى بحّارته وقال: «وما الذي أتيت به إليهم؟ صياداً كنت أنا في أرض نائية، وقد أفرغت بعزم وتصميم جعبتي من السهام الذهبية التي قدّموها إليّ، غير أني لم آتهم بألهيةٍ مّا، ولم أتبَع السهام، ربما كانوا الآن قد انتشروا تحت الشمس مع ريش النسور الجريحة التي لا تهوي على الأرض. ولربما هوت رؤوس السهام بين أيدي أولئك الذين هم في حاجة إليها لينالوا بها خبزاً وخمراً.

«أنا لا أعرف ما حلّ بها وهي تطير، ولا أين طارت، غير أني أعرف أنها مالت وهي في السماء.

«حتى ولو كان الأمر كذلك، لا يزال الحبّ ملء يدي، وأنتم يا بحارتي لا تزالون توجهون شراع رؤيتي في البحر، ولن أكون أبكم، سوف يرتفع صراخي حين تضغط يد الفصول على عنقي، وسأغني كلماتي حين تلتهب شفتاي.»

وسرى اضطراب إلى قلوبهم، وهو يقول لهم هذه الأشياء، وتكلم أحدهم قائلاً: «علمنا أيها المعلم كل شيء! ربما أدركنا ما تقول لأن دمك يجري في عروقنا، وأنفاسنا من عبق طيبك.»

عند ذاك أجابهم، والريح تهب في صوته، وقال: «أتراكم جئتم بي إلى جزيرة مولدي لأكون معلماً؟ أنا ما زلت حتى الآن خارج قفص الحكمة وإني لصغير السنّ، طريّ العود إلى درجةٍ لا تتيح لي أن أتكلم عن أيّ شيء، إلا عن نفسي التي ستظل إلى الأبد، النداء العميق للعميق.

«دعوا ذاك الذي يبتغي الحكمة، ينشدها في زهرة الأقحوان الأصفر، أو في حفنة من الطين الأحمر، فأنا ما زلت حتى الآن المغنيّ، وسأغني جمالَ الأرض، وحلمكم الضائع الذي يتنزه النهار كله بين رقدة اليقظة ورقدة الكرى، غير أني لن آلوَ تحديقاً إلى البحر.»

ودخلت السفينة المرفأ، وبلغت الشطّ، وهكذا وصل إلى جزيرة مولده، ووقف مرة أخرى بين أهله، وارتفعت صرخة عالية من أعماق قلوبهم، اهتزت لها صحراء حنينه في قرارة سريرته.

وخيّم عليهم الصمت وهم يتوقعون سماع كلماته، ولكنه لم يستجب لهم، لأن كآبة الذكرى أفعمت نفسه، وقال في سرّه: «ألم أقل إنّني سأغني؟ ها أنا لا أملك إلا أن أفتح شفتيّ، ولصوت الحياة أن يغدو ويروح مع الريح لينعم بالفرح ويعين عليه.»

وعند ذاك، تقدمت كريمة، تلك الصبيّة التي كانت تلعب معه في حديقة

أمه، وقالت: «أخفيت عنّا وجهك اثني عشر عاماً، ومنذ اثني عشر عاماً ونحن نتلهف لسماع صوتك.».

ونظر إليها برقة متناهية، لأنها هي التي أطبقت جفون والدته حين أقلتها أجنحة الموت البيضاء إلى السماء.

ثم أجاب قائلاً: «اثنا عشر عاماً؟ قلت: منذ اثني عشر عاماً يا كريمة؟ أنا لا أقيس حنيني بمقياس المجرة، ولا أرجّع عمق الصدى منها، وذلك لأن الحب عندما يكون حبّ حنين يستنفد مقاييس الزمن، وترجيعاته.

«هنالك لحظات تحمل دهوراً من فراق، والنوى مع ذلك ليس إلاّ ضنى الروح، وربما نحن لم نبتعد قطّ عن بعضنا.».

ونظر المصطفى إلى الناس، وأبصر جمعهم كلّه، شيباً وشباناً، هزالى ومعافين، أولئك الذين لفحتهم الشمس والريح، والذين تبدو عليهم نضرة النعيم، ورأى على وجوههم شعاعاً من الشوق والسؤال.

وتكلم أحدهم فقال: «لقد خيبت الحياة، أيها المعلم، آمالنا ورغائبنا، خيبة مريرة، وإن قلوبنا لواجفة، فلا ندرك بعد شيئاً، أرجوك أن ترفّه عنا، وتكشف لنا معاني أحزاننا.»

واختلج قلبه بالرأفة وقال: «الحياة أقدم من جميع الكائنات الحية، حتى الجمال تجنّح قبل أن يولد الجميل على الأرض، والحقيقة منذ كانت حقيقة، عُرفت ووُجد من تفوه بها.

«الحياة تتغنى في صمتناوتحلم في كرانا، وحتى عندما نغلب على أمرنا ونهوي، تظلّ الحياة سامية معتليةً عرشها، وعندما نبكي، تبسم الحياة للنهار، وتكون حرة حتى عندما نجرّ سلاسل عبوديتنا.

«كثيراً ما نطلق على الحياة أفظع النعوت والأسماء، عندما نكون نحن أنفسنا في ظلمة ومرارة، وكثيراً ما نحسبها جوفاء لا جدوى فيها، عندما تتيه

أرواحنا ضالة في القفار الجرداء، وتكون قلوبنا سكرى بخمرة الحرص والجشع.

«الحياة عميقة وسامية ونائية غامضة، وإنها مع ذلك لقريبة، وإن كان نظركم الواسع لا يستطيع أن يبلغ إلاّ أقدامها. وإن ظل ظلكم يعترض طلعتها، وإن كان نَفَس نَفَسكم لا يبلغ إلا قلبها. وكان صدى أدقّ همسة منكم يتحول إلى ربيعٍ وخريفٍ في صدرها.

«والحياة مقنّعة ومخبّأة، تماماً كما هي روحكم الكبرى مقنّعة وخافية. عندما تتكلم الحياة، تتحول مع ذلك الرياح جميعها إلى كلمات، وحين تتكلم ثانية، تتحوّل البسمات على شفاهكم، والدموع في عيونكم، إلى كلمات أيضاً، وعندما تتغنى يسمعها الصمّ وترتفع بهم إلى سمائها، وحين تقبل ماشية يهلل لها ذوو الأبصار المكفوفة، وتأخذهم الدهشة ويتبعون خطاها في رعدة وذهول.»

وانقطع عن الكلام، وغمر الناس صمت شامل، وارتفع في فضاء ذلك الصمت نشيدٌ لا يُسمع، وسرّي عن الحضور ما كانوا فيه من همّ وضيق.

٢

. . . وكان منه أن تركهم، وسلك الطريق القويم الذي يقود رأساً إلى حديقته التي كانت من قبل حديقة أمه وأبيه، وفيها كانا يرقدان كما كان يرقد أجدادهما.

وكان هناك أولئكَ الذين سيأتون من بعده، ورأى بأم عينه أنها المقرّ الأخير، وأنّه وحيدٌ فيها، إذ لم يبق ثمة أحد من أقاربه يحتفل بقدومه ويقيم مأدبة الترحيب به على طريقة أهله.

إلا أن ربّان سفينته نصحهم قائلاً: «دعوه يتابع طريقته في الحياة، وتحمّلوه، لأن) خبزه خبز الوحدة، وفي كأسه خمرة الذكرى التي يحتسيها وحده.»

وقفل بحّاروه راجعين لأنهم كانوا يعرفون أن أمره كما أنبأهم به ربّان السفينة، وكبح أولئك الذين تجمعوا على الشط من اندفاعهم نحوه وعادوا برمتهم من حيث أقبلوا.

ولكن كريمة وحدها تبعته، بخطى وئيدة، وفيها توقٌ إلى وحدته وذكرياته، ولم تقل شيئاً، إلاّ أنها حوّلت وجهة سيرها نحو بيتها الخاص، وفي الحديقة، في ظلّ اللوزة بكت، ولم تدر لمَ تبكي.

٣

وجاء المصطفى، ولقي حديقة أمه وأبيه، ودخلها، وأغلق بوّابتها بحيث لا يستطيع أحد أن يلجها بعده.

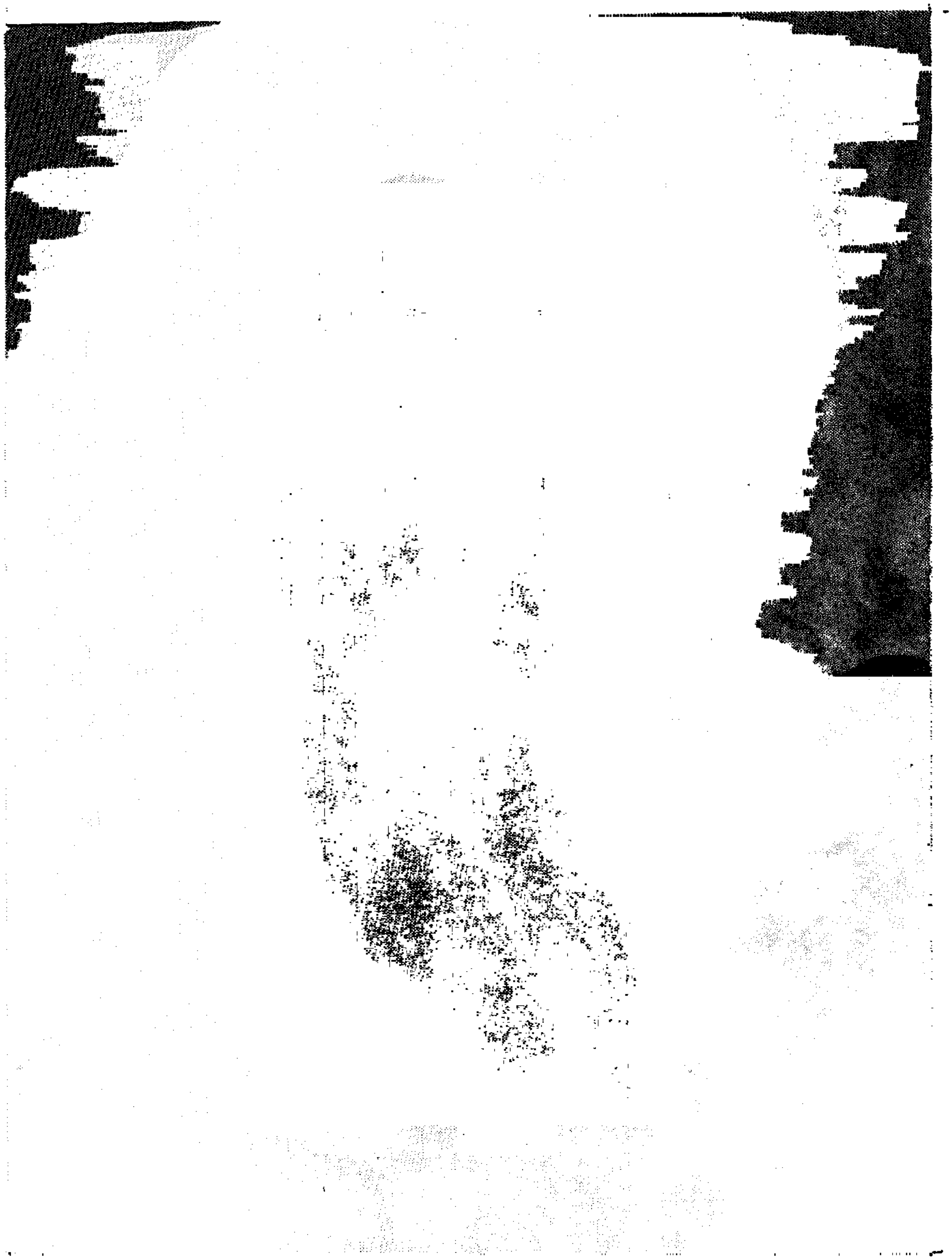
وأقام أربعين يوماً وليلة وحده في ذلك المنزل وتلك الحديقة ولم يفد عليه أحد، إذ كانت مقفلة، والكل يعرفون أنه متفرد، وحيد.

وعندما انتهت الأيام الأربعون بلياليها فتح المصطفى البوّابة، وأصبح في مستطاع الناس أن يدخلوا.

وجاءه تسعة رجال ليقيموا معه في الحديقة: ثلاثة بحارة من سفينته، وثلاثه ممّن كانوا يخدمون في المعبد، وثلاثة من رفاقه في اللعب أيام كانوا صبية معاً، وهؤلاء كانوا تلامذته.

وذات صباح، جلس تلامذته حوله، وكانت عيناه تأتلقان بذكرياتٍ بعيدة، وتهيمان في أقاص نائية، وخاطبه، أول من خاطبه، ذلك التلميذ الذي كان يدعى « حافظ »: «حدّثنا يا معلم عن مدينة أورفليس، وعن تلك الأرض التي أقمت فيها تلك السنوات الاثنتي عشرة».

بقي المصطفى صامتاً، وألقى ببصره بعيداً على الروابي، والمدى الأثيري الرحب، وبدا صمته مشحوناً بصراع داخلي.



«الصمت»

ثم قال: «يا أصدقائي ويا رفاق طريقي، ويل لأمة تكثر فيها المذاهب والطوائف وتخلو من الدين.

«ويل لأمة تلبس مما لا تنسج، وتأكل وتشرب مما لا تعصر.

«ويل لأمّة تحسب المستبدّ بطلاً، وترى الفاتح المدلّ رحيماً.

«ويل لأمّة تكره الشهوة في أحلامها، وتعنو لها في يقظتها.

«ويل لأمة ترفع صوتها إلا إذا مشت في جنازة، ولا تفخر إلا بالخرائب، ولا تثور إلا وعنقها بين السيف والنطع.

« ويل لأمة سائسها ثعلب، وفيلسوفها مشعوذ، وفنّها فنّ الترقيع والتقليد.

«ويل لأمة تستقبل حاكمها بالتطبيل وتودّعه بالصّفير، لتستقبل آخر بالتطبيل والتزمير.

«ويل لأمة حكماؤها خرس من وقر السنين، ورجالها الأشداء لا يزالون في أقمطة السرير.

«ويل لأمة مقسمة إلى أجزاء، وكل جزء يحسب نفسه فيها أمّة»

٤

وقال أحدهم: «حدثنا عن هذا الذي يجيش في صدرك الآن». فنظر إلى مخاطبه ذاك، وارتفع في صوته نغم كأنّه كوكب يتغنّى، وقال: «عندما تكون صامتاً مصغياً إلى ذاتك العميقة، في حلمك المستيقظ، تنثال أفكارك انثيال الثلوج المندوفة، وتتهاوى وتنتثر وتلف أصداء فضائك بصمت أبيض.

«وأي شيء هي الأحلام المستيقظة سوى غمام يبرعم ويتفتح في شجرة



«الخلـق»

سماء قلبك ؟ وأي شيء هي أفكارك سوى الأوراق التي تذروها رياح قلبك على الروابي وحقولها؟

أنت تنتظر السلام حتى يتخذ في سريرتك ما لا شكل له، شكلاً، كذلك لا بد أن يتجمع الغيم ويتراكم إلى أن تشكل الأنامل المباركة أمنيته الدكناء، في بلور صغير من شموس وأقمار ونجوم.»

وتناول الحديث عند ذاك سركيس، وهو الذي خالجه بعض الشك، فقال: «ولكن الربيع سيأتي، وتذوب ثلوج أحلامنا وأفكارنا، ثم لا يبقى منها أثر.»

فأجابه قائلاً: «عندما يأتي الربيع ليلتقي حبيبته في الغياض والكروم الهاجعة، ستذوب الثلوج في الحقيقة، وتجري سواقي تنشد النهر في الوادي، وتحمل الكؤوس(للسقي أشجار الآس والغار.

«وكذلك هو شأن الثلج في قلبك، فإنه سيذوب عندما يأتي ربيعك، وكذلك يجري سرّك سواقي تنشد نهر حياتك في الوادي، وسيلف النهر سرك ويحمله إلى الخضم الكبير.

«ستذوب جميع الأشياء حين يأتي الربيع وتتحول إلى أناشيد، حتى الكواكب، وقطع الثلج التي تنهال ببطء على الحقول الفسيحة، ستذوب في سواقٍ تترنم، وعندما تشرق شمس «طلعته» على الأفق الأرحب، أي رواء متجمد لا يتحول بعد ذاك إلى أغنية منسابة؟ وأي امرىء منكم لا يود أن يكون ساقي الآس والغار؟

إنّه لم يمضِ عليكم سوى ليلة احدة، كنتم قبلها تتحركون مع البحر الهائج، بلا ذات ولا شاطئ ثم نسجت لكم الريح، وهي أنفاس الحياة، شراعاً من نور على محياها، ثم جمعتكم يدها ووهبتكم شكلاً، وتطلعتم إلى الأعالي برأس شامخ، ولكن البحر تبعكم من بعد، وظلت أغانيه تفعم قلوبكم، وسيظل إلى الأبد يحنو عليكم، وإن نسيتم ذوي قرباكم، وإلى الأبد سيظل يناديكم.

«ولسوف تتذكرون على الدوام أعماق فؤاده البارد، في متاهاتكم بين الجبال والصحراء، وإنكم، وإن لم تعرفوا أغلب الأحيان، لأي معنى تتوقون فإنما أنتم تتوقون في الحقيقة، إلى سلامة الرحب الرتيب.

«وكيف يمكن أن يكون خلاف ذلك؟ عندما يتراقص المطر أوزاقاً متناثرة على الرابية في الغابة والحديقة، وعندما ينهال الثلج بركةً ووفاء، وعندما تقودون قطعانكم في الوادي إلى النهر، وعندما تلتقي في حقولكم الغدران كأنها سواق من لجين، وتلتحق بالحلل السندسية في المروج، وعندما تعكس الأنداء في خمائلكم صورة السماء على الأرض، وعندما يحجب الضباب في مروجكم لدى المساء، طريقكم بحجاب شفّاف، يكون البحر في هذه الأويقات كلّها، معكم شاهداً على تراثكم، ناشداً حقه في حبكم.

«إنّه انثيال الثلج في أعماقكم يهبط على البحر».

٥

وذات صباح، عندما كانوا يتمشون في الحديقة، ظهرت وراء البوابة امرأة، وكانت كريمة التي أحبها المصطفى كأخت في أيام صباه، ووقفت دون أن تسأل شيئاً، أو تقرع البوابة بيدها، وإنما كانت تحدق سادرة كئيبة في أرجاء الحديقة.

ورأى المصطفى الشوق في جفنيها، فمشى بخطىً وئيدةٍ ناعمة، نحو الجدار وفتح لها البوابة فدخلت، ورحب بها.

ثم أخذت المرأة تخاطبه قائلة: «ما الذي حملك على هجرنا جميعاً، فلا نملك بعد أن نستنير بضياء طلعتك، ونحن الذين أحببناك، وانتظرنا بلهفة عودتك، وسلامتك، إن الشعب يناديك الآن، ويود سماع حديثك وأنا رسولته إليك، جئت ألتمس منك أن تظهر نفسك للناس، وأن تتحدث إليهم عما

اختزنت من حكمة، وأن تجبر قلب الكسير، وتنير أذهاننا التي هيمن عليها جنون الظلمات.»

حملق فيها، وقال: «إذا كنت لا تحسبين الناس كلهم حكماء، فلا تناديني بوّصفي حكيماً فأنا ثمرة فجّة، لا أزال عالقاً بالغصن، وحتى الأمس لم أكن سوى برعم تفتح.

«وإياك أن تحسبي أحداً منكم مجنوناً لأننا لسنا، في الحقيقة، حكماء ولا مجانين، لحن أوراق خضر على شجرة الحياة، والحياة نفسها فوق الحكمة، وهي قطعاً فوق الجنون.

«وأنا، هل هجرتكم، وعزلت نفسي عنكم في الحقيقة؟ ألا تعلمين أن ليس ثمة من بعد سوى ذاك الذي لا تملك الروح أن تقطعه بالخيال؟ وعندما تقطع الروح تلك المسافة، تصبح هذه المسافة نغماً في الروح؟.

«إن المسافة التي تفصلكم عن جاركم القريب الذي لا تصادقونه أبعد في الحقيقة، من تلك التي تفصلكم عمن تحبون، وهو يقيم وراء الأرضين السبع والسماوات السبع.

«ذلك بأن الأبعاد لا وجود لها في التذكار، والمسافة الشاسعة إنما تكون في النسيان، وهي مما لا يستطيع صوتك ولا عينك اختصاره.

«هنالك طريق سرية بين شطآن المحيطات وذروة أعلى الجبال، عليكم أن تقطعوها، في اللحظة التي تتحدون بها مع أبناء الأرض.

«وهنالك طريق خفية بين معرفتكم وفهمكم عليكم أن تكتشفوها في اللحظة التي تتحدون بها مع الإنسان، ومن ثمة مع أنفسكم.

«هنالك هوّة سحيقة بين اليد اليمنى التي تعطي، واليد اليسرى التي تأخذ. ولا سبيل إلى إزالة هذه الهوّة بينهما إلا بحملهما معاً على العطاء والأخذ في آنٍ واحدٍ، لأنّكم لا تستطيعون التغلّب على تلك الهوّة إلا عندما تعرفون أن ليس هناك ما تأخذون ولا ما تعطون.

.«الحقّ إنّ أبعد مسافة إنما هي تلك التي تقوم بين رؤياكم في النوم ويقظتكم، وبين ما هو ليس إلا حاجة و ما هو رغبة.

«ولا تزال هنالك طريق أخرى عليكم أن تقطعوها حين تصبحون مع الحياة شيئاً واحداً، غير أني لا أقول شيئاً عن تلك الطريق الآن، وأنا أرى أنكم أصبحتم متعبين من السفر».

٦

ومضى مع المرأة، هو والتسعة، حتى بلغ ساحة السوق، وتحدّث إلى الناس، إلى أصدقائه وجيرانه، وكان الفرح يغمر قلوبهم ويظهر على جفونهم.

ثم قال: «إنكم تكبرون في النوم، وتحيون أكمل حياتكم في أحلامكم. وذلك لأن كلّ أيامكم تنفق في الشكر لما نلتم خلال هدأة الليل.

«وإنكم لتفكرون أغلب الأحيان وتقولون عن الليل إنّه وقت الراحة، مع أنّه في الحقيقة وقت السعي والتحصيل.

«النهار يزوّدكم بقوة المعرفة، ويعلّم أناملكم الحذق في فنّ الأخذ، ولكن الليل هو الذي يقودكم إلى خزانة كنز الحياة.

«الشمس تلقّن جميع الأشياء أن تغذّي في نفسها الحنين إلى النور، ولكن الليل هو الذي يرفعها إلى النجوم.

«إنّها هدأة الليل التي تنسج، في الحقيقة، ثوب العرس على الأشجار في الغابة، والأزهار في الحديقة، وتمدّ من ثمة المائدة السخيّة وتُعِدّ غرفة العرس إعداداً مغرياً، وفي جوّ ذلك الصمت القدسي يتكوّن الغدُ في رحم الزمن.

«وهكذا تجدون القوت والكفاية في أنفسكم، ومن خلال سعيكم، ويظلّ

لوح الأحلام ممدوداً، وغرفة العرس مُعَدّة، وإن محت اليقظة في الفجر الذاكرة».

وسكت برهةً من الزمن، وهم ينتظرون عودته إلى الكلام، ثم نطق ثانية، وقال: «أنتم أرواح وإن كنتم تتحرّكون في أبدان، وإنّكم لكالزيت الذى يحترق في الظلام، شعلٌ، وإن حملتم في مصابيح.

«وإذا أنتم لم تكونوا شيئاً سوى أجساد، فإن موقفي أمامكم وخطابي إياكمَ، لن يكون سوى هراء، كما لو كان ميت يخاطب أمواتاً. ولكن الأمر على غير ذلك، فكل ما هو خالد فيكم إنما هو حرّ آناء الليل وأطراف النهار، ولا سبيل إلى الحجر عليه وتقييده، لأن تلك هي مشيئة القدير الأعلى. أنتم نَفَسهُ الذي لا يُقبض عليه ولا يمكن أن يزجّ في قفص. شأنكم في ذلك شأن الريح. وأنا أيضاً نَفَسُ نَفَسه».

وانصرف من بينهم يمشي وئيداً، وولج حديقته من جديد. ولكن سركيس الذي خامره بعض الريب فيما سمع، تكلم قائلاً: «وما القول في القبح أيها المعلم؟ إنّك لا تذكر القبح أبداً في أحاديثك».

أجابه المصطفى، وكانت كلماته تنهال كالسوط، وهو يقول: «يا صديقي! أنّى لامرئ أن يدعوك بخيلاً إذا هو مرّ بمنزلك ولم يقرع بابك؟

«ومن هو هذا الذي يزعم أنّك غافلٌ وأصمّ إذا هو كلّمك بلسان غريب لا تفهم منه شيئاً؟

«أليس ما تحسبه قبحاً هو ذاك الذي لم تجهد قطّ في بلوغه، ولا تلهّفت قطّ إلى ولوجه؟

«إذا كان القبح شيئاً ما، فما هو في الحقيقة إلاّ قشرة الصدإ على عيوننا، والوقر في آذاننا.

«لا تدع شيئاً قبيحاً يا صديقي، سوى الخوف الذي يخالج روحاً ما حيالٍ ذكرياتها الخاصة».

٧

وفيما كانوا جالسين ذات يوم في ظلال أشجار الحور، تكلّم أحدهم قائلاً: «أنا يا معلم خائف من الزمن. إنّه يمرّ بنا، ويسلبنا صبانا، فما هو الشيء الذي يعطيه بدلاً منه؟».

أجابه قائلاً: «خذ الآن حفنةً من التراب. قد تجد فيها بذرة، وقد تجد دودة، فإذا كانت يدك كبيرة وقوية بما فيه الكفاية فإن في وسع البذرة أن تصير إلى غابة، والدودة إلى جمع من الملائكة. ولا تنس أن السنين التي حوّلت البذور إلى غابات، والديدان إلى ملائكة، إنما يعود أمرها كلّه إلى هذا «الآن»، كل السنين قائمة في «الآن» هذا نفسه.

«وأيّ شيء هي فصول الأعوام سوى أفكارنا تتغير وتتبدّل؟ الربيع يقظة في صدركم، والصيف ما هو إلا اعتراف بأثماركم، والخريف أما هو العتيق من غنائكم لترنيمة لا تزال طفلةً في كيانكم؟ وهل الشتاء، أنا أسألكم، سوى رقدة طويلة تفعمها الأحلام بالفصول الأخرى كلّها؟».

ونظر عند ذاك مأنوس، التلميذ البحّاث، إلى ما حوله، ورأى أغراساً مزهرةً تعلقت على شجرة جمّيز، وقال: «ها هي الطفيليات يا معلم. ما تقول فيها؟ إنها لصوص ذات أجفان نهكها التعب، تسلب النور من أبناء الشمس أولي العزم، وتتباهى بالنسغ الذي يتدفّق في أغصان هؤلاء وأوراقهم».

أجابه المصطفى قائلاً: «كلنا يا صديقي طفيليات؛ إنّنا نحن الذين نحوّل المدر إلى حياة نابضة، لسنا أرقى من أولئك الذين يأخذون الحياة مباشرةً من المدر، دون أن يعرفوا المَدَر.

«هل لأمّ أن تقول لطفلها: «أنا أردّك إلى الغابة، أمك الكبرى، لأنّك ترهقني قلباً ويداً»؟

«أم هل للمغني أن يزجر الأغنية التي ينشدها قائلاً: «عودي الآن إلى كهف الأصداء الذي أتيت منه، لأن إنشادك يستهلك أنفاسي»؟

«وهل للراعي أن يقول للفصيل الذي أدرك عامه الأول: «ليس لديّ مرعى أستطيع أن أقودك إليه، وعليك الآن أن تنفصل عن أمك، وتضحّي بنفسك في سبيل هذه القضيّة»؟

«أصغ يا صديقي! كلّ هذه أسئلة تلاقي أجوبتها قبل أن تُطرح. وهي تتحقّق مثل أحلامك قبل أن تنام.

«إننا نعيش بعضنا على بعض وفقاً للشريعة القديمة السرمدية. دعنا نعش هكذا في نعيم الحب. وإنّنا لننشد بعضنا البعض في وحدتنا، ونتسكّع على الطريق، حين لا يكون لدينا موقدة نجلس إلى جانبها.

«إن أوسع طريق، يا أصدقائي وإخواني، إنما هو طريق رفاقكم من الناس.

«وهذه الأغراس التي تعيش على الشجرة، تمتصّ حليب الأرض أثناء هدأة الليل الناعمة، والأرض بدورها ترضع ثدي الشمس أثناء حلمها الهادئ.

«والشمس، شأنها شأنكم، وشأني وشأن كل كائن، تجلس مساويةً لغيرها في الشرف، إلى مأدبة الأمير الأعظم ذي الباب المفتوح أبداً، والمائدة الممدودة أبداً.

«يا صديقي مأنوس، كل ما هو كائن يعيش على كل ما هو كائن. وكل ما هو كائن يعيش بالإيمان الذي لا ساحل له، على رحمة العليّ الأعلى».

٨

وذات صباح، والسماء لم تأتلق بعدُ بالنور، راح الجميع يتنزّهون في الحديقة، ويتأملون المشرق، وهم صامتون حيال الشمس الطالعة.

وأومأ المصطفى، بعد برهة، بيده وقال: «ليست صورة شمس الصباح في قطرة الندى، أقل من الشمس، وانعكاس الحياة في روحكم ليس أقلّ من الحياة.

«إن قطرة الندى تعكس النور لأنها هي والنور شيء واحد، وأنتم تعكسون الحياة، لأنكم أنتم والحياة شيء واحد.

«وعندما يخيّم الظلام عليكم، قولوا: «الظلام فجر لما يولد بعد، وعندما يلفني الليل بجلبابه، فإن الفجر يولد في نفسي على نحو ما يولد فوق الروابي».

«وليست قطرة الندى التي تنداح كرةً في شفق الزنبق، غير شبيهة بكم، وأنتم تجمعون روحكم في قلب الله.

«وإن خطر لقطرة الندى أن تقول: «ولكني سأظلّ بعد ألف سنة قطرة ندى» قولوا لها: «ألا تعلمين أن نور تلك الأعوام كلها يشرق في دائرتك؟».

٩

وذات مساء هبّت عاصفة كبيرة على المكان، وذهب المصطفى وتلامذته التسعة، خلال هبوبها، وجلسوا حول النار هادئين، صامتين.

ثم تكلّم أحد التلامذة قائلا: «أنا وحيد، يا معلّم! وحوافر الزمن تمر على صدري ثقيلة الوطء، بطيئة الخطى».

وقف المصطفى، وانتصب في وسطهم، وقال بصوت يشبه عصف الريح الهائجة: «وحيداً وماذا في الأمر؟ جئت إلى هذا العالم وحيداً، وستمضي وحيداً في الضباب.

«إشرب كأسك إذن، وأنت صامت، وحيد. لقد أعطت أيام الخريف

شفاهاً أخرى، أقداحاً أخرى، وملأتها بخمرة مرة وعذبة كما سبق لها أن ملأت كأسك.

«إشرب كأسك وحدك، وإن كان لها طعم دمك ودموعك، واحمد الحياة على نعمة الظمإ، فإن قلبك من غير ظمإ ليس إلاّ شطّاً لبحرٍ قاحل، لا نشيد فيه، ولا جزر ولا مدّ.

«إشرب كأسك وحدك، واشربها بفرح.

«إرفعها فوق رأسك، وعبّ منها نخب أولئك الذين يشربون وحدهم.

«لقد حدث لي مرة أن سعيت في عشرة الناس، وجلست معهم إلى الموائد، وشربت معهم كثيراً، ولكنّ خمرهم لم تصعد إلى رأسي، ولا سرت في جوفي، وإنما هوت فحسب إلى أقدامي، وتخلّت عني حكمتي مغاضبة، وختم على قلبي وأصبحت مغلقاً، ولم يبق سوى قدميّ معهم في دخانهم.

«ثم لم أسع من بعد قطّ في معاشرة الناس، ولا شربت الخمر معهم على مائدتهم.

«ولذلك أقول لك: ماذا وإن راحت حوافر الزمن تمرّ على صدرك ثقيلة الوطء؟ إنّ من الخير لك أن تشرب كأس أساك وحيداً، فستشرب كأس نعيمك وأنت وحيد أيضاً».

١٠

وذات يوم أقبل فردوس الإغريقي يتمشّى في الحديقة، فعثرت قدمه بحجر، وسخط لذلك، ثم دار والتقط الحجر، وقال بصوت خافت: «يا لك من شيءٍ ميت في طريقي!»وقذف به بعيداً.

وقال المصطفى المختار، الحبيب: «لماذا تقول: يا لك من شيء ميت؟

هل قضيت زمناً طويلاً في هذه الحديقة على هذه الحال، وأنت لا تعرف أن ليس فيها شيء ميت؟ إن جميع الأشياء هنا تحيا وتتألّق بضياء النهار وجلال الليل، أنت والحجر شيء واحد. هنالك فرق وحيد في نبضات القلب، فإن قلبك ينبض على نحو أدق قليلاً. أليس كذلك يا صديقي؟ إلا أنّه لا ينطوي على هدوء الحجر.

«يمكن أن يكون لخفقه نغم آخر، غير أني أقول لك: إذا أنت سبرت أغوار روحك وقست أعالي الفضاء، فإنّك لن تسمع سوى أغنية واحدة، والحجر والنجم يترنّمان بتلك الأغنية معاً في جوقة متكاملة منسجمة.

«وإذا كانت كلماتي لا تبلغ فهمك، فدعها إذن إلى فجر آخر. وإذا كنت قد لعنت هذا الحجر الذي عثرت به في حمّى عماوتك، فهل تلعن النجم لو أن رأسك ارتفع حتى اصطدم به في السماء؟ ولكن اليوم الذي تجمع به الحجارة والنجوم على نحو ما يجني الولد زنابق الوادي، آتٍ قريباً، وعند ذاك ستعلم أن جميع هذه الأشياء مفعمة بالطيب والحياة».

١١

وعندما بلغت أصوات الأجراس في المعبد آذانهم، وكان ذلك في اليوم الأول من الأسبوع، تكلّم أحدهم وقال: «إنّا لنسمع في جوارنا يا معلم، كلاماً كثيراً عن الله، ماذا تقول في شأنه، ومن هو في حقيقة أمره؟».

ووقف أمامهم كأنّه شجرة شابّة لا تخشى الريح ولا العاصفة، وأجاب قائلاً: «فكروا الآن، أيها الرّفاق الأحبّاء، في قلب يحوي قلوبكم جمعاء، في حُبٍّ يحيط بكل حبٍّ يخالجكم، في روحٍ تغلّف أرواحكم كلّها، في صوت ينطوي على أصواتكم جميعها، في صمت أعمق من كل صمت تمرون به، فيما هو سرمدي.

«ثم حاولوا أن تدركوا في كمال ذاتكم جمالاً أبهى من جميع الأشياء البهيّة، ونشيداً أرحب من أناشيد البحر والغابة. وجلالاً يقيم على عرشٍ، كوكبة الجبّار أمامه ليست سوى موطئ قدم، وبيده صولجان ليست حياله نجوم الثريا سوى وميض لقطرات ندى.

«لقد قصرتم نشدانكم دوماً على المأكل والمأوى، على اللباس والأثاث، فانشدوا الآن «واحداً» لا هو بهدف لسهامكم، ولا بكهف حجري يقيكم عوادي الطبيعة.

«وإذا كانت كلماتي صخرةً ولغزاً، فانشدوا، وليس هذا أقلّ ما يطلب إليكم، أن تخشع قلوبكم وتنكسر، وأن تسوقكم ضراعاتكم إلى حبّ العليّ الأعلى وحكمته، إلى ذلك القدير الذي يدعوه الناس: الله».

وخيّم الصمت عليهم جميعاً، وسرت الحيرة إلى قلوبهم، واضطربوا في قرارة نفوسهم، وأشفق عليهم المصطفى، ونظر إليهم برقة وقال: «لنقف الآن عن الكلام في شأن العليّ الأعلى، ربّ الأرباب. ولنتكلم عن الأرباب من جيرانكم وإخوانكم، وعن عناصر الطبيعة التي تثور حول منازلكم وفي حقولكم.

«إنكم لتودّون أن ترتفعوا بالخيال إلى النعيم، وتحسبون ذلك علوّاً، وتودّون أن تعبروا البحر الرحيب وتدّعون أن ذلك مسافة شاسعة، غير أني أقول لكم إنّكم تبلغون، إذ تزرعون بذرة في الأرض، مكاناً أعلى، وعندما تمجّدون رواء الصباح لقريبكم، تقطعون بحراً أرحب.

«إنكم تترنمون أكثر الأحيان باسم الله السرمدي، غير أنكم لا تسمعون، في الحقيقة، النشيد الذي تترنمون به. هلاّ أصغيتم إلى أغاني العصافير، إلى أنين الأوراق التي تنتزعها الريح عن الأغصان حين تهبّ عليها، ولا تنسوا، يا أصدقائي، أن هذه لا تغنّي إلا عندما تفارق الأغصان!

«وإني لأكرر عليكم ما أمرتكم به، أن لا تتكلّموا عن الله الذي هو الكلّ في الكلّ، من غير وعي أو تقدير، ولكن أحرى بكم أن يتحدّث بعضكم عن

بعض، ويفهم الواحد منكم الآخر، قريباً لقريب، وإلهاً لإله.

«بم يقتات الفرخ في العشّ إذا هجرته أمه وحلّقت في أجواز السماء؟ وأنى لشقيقة النعمان في الحقل أن تتكامل إذا لم تلقحها نحلة برحيق شقيقة غيرها؟

«إنكم لا تنشدون السماء التي تدعونها «الله» إلا عندما تضيعون في ذاتكم الصغيرة، هلاّ جهدتم في أن تجدوا سبل الرّشاد في ذاتكم الكبرى. هلا سعيتم في أن تكونوا أقلّ كسلاً مما أنتم عليه وأخذتم في تعبيد الطرق!

«لقد كان من الأحكم، يا أصدقائي وبحّارتي، أن يقلّ كلامنا عن الله الذي لا نستطيع أن نفهمه، ويكثر حديثنا بعضنا عن بعض، إذ يتاح لنا أن نتفاهم. وكان بودّي أن تعرفوا، مع ذلك، أننا عبق الله وأريج طيبه، نحن الله في الورقة، في الزهرة، وأغلب الأحيان في الثمرة».

١٢

وذات صباح، عندما ارتفعت الشمس، تقدم أحد التلامذة. وكان من أولئك الثلاثة الذين لعب معهم في أيام صباه. وقال له: «تهلهل ثوبي يا معلم، وليس لديّ غيره، فاسمح لي أن أذهب إلى السوق وأساوم، علّ الحظ يتيح لي أن أحصل على كساء جديد».

حدّق المصطفى مليّاً إلى الشاب وقال: «اعطني ثوبك» فخلعه الشاب ووقف عارياً في الهجيرة.

وعند ذاك، راح المصطفى يقول بصوت شبيه بالصوت الذي يحدثه مهرٌ يعدو على طريق: «العاري وحده يعيش في الشمس. والساذج وحده يركب

الريح. والذي يضيع عن طريقه ألف مرة، هو الوحيد الذي يبلغ منزلاً يطمئن فيه.

«لقد تعب الملائكة من الحاذقين المدرّعين بالفطنة. وجاءني البارحة ملاك، لم يأتني إلا البارحة، وقال لي: «خلقنا جحيماً لأولئك الذين يتباهون. أي شيء يمحو المظهر اللمّاع، ويذيب الشيء حتى يردّه إلى جوهره سوى النار؟».

«وقلت: «ولكنكم تخلقون أيضاً، إذ تخلقون الجحيم، شياطين للقيام بأمره». فردّ الملاك قائلاً: «إنما يقوم على الجحيم أولئك الذين لا تنال منهم النار».

«يا للملاك الحكيم! إنّه يعرف سُبُلَ الرجال وطرائق أنصاف الرجال. إنه واحد من أولئك الأبرار الذين يأتون لمعونة الأنبياء حين يوسوس لهم المخادعون الأذكياء. ولا ريب أنّه يبتسم عندما يبتسم الأنبياء، ويبكي أيضاً عندما يبكون.

«العاري وحده،. أيها الأصدقاء والبحّارون، يعيش في الشمس. والربّان الذي لا دفّة له وحده هو الذي يركب البحر العباب ولا يبالي، وذو النفس المظلمة هو الذي يُظلم في الليل ويستيقظ مع الفجر، والوحيد الذي يدرك الربيع هو الذي ينام مع الجذور تحت الثلج.

«ذلك بأنكم تشبهون الجذور، فأنتم [illegible]اء كالجذور، ولكم مع ذلك حكمة بالغة، هي التي تستقونها من الأرض. وأنتم صامتون، ولكن لكم مع ذلك من أغصانكم التي لما تولد بعد، جوقة الرياح الأربع.

«أنتم واهون، لا شكل لكم، ولكنكم مع ذلك بداية أشجار سامقة جبّارة، ومستهلّ أدواح تناطح السحاب.

«أقول لكم ثانية وأكرر: لستم سوى جذور بين التراب والسماوات المتحركة. وكثيراً ما شاهدتكم ترتفعون لترقصوا مع النور. غير أني رأيتكم أيضاً يخامركم الحياء وأنتم ترتفعون. وكل الجذور يخامرها الحياء. لقد

أخفت قلوبها زمناً طويلاً، فلا تعرف بعدُ ما تصنع بقلوبها.

«ولكنّ نواراً سيأتي. ونوار عذراء لا تعرف الراحة، وسيكون منها أن تحنو على الروابي والسهول».

١٣

وتقدّم إليه أحد الذين خدموا في المعبد، ضارعاً وقال: «علّمنا يا معلّم أن تكون كلماتنا مثل كلماتك، غِناء للناس وطيباً عابقاً».

أجابه المصطفى قائلاً: «سوف تسمو على كلماتك، ولكن طريفك ستظلّ نغماً وأرجاً: نغماً للمحبين وكلّ مَن هم أحباء على السواء. وأرَجاً لأولئك الذين يودّون الحياة في بستان.

«بيد أنّك ستسمو على كلماتك إلى ذروة يتناثر فوقها غبار النجوم وستفتح يديك حتى تمتلئا، وعند ذاك ستضطجع وتغفو كما يغفو الفرخ في عش أبيض، وتحلم بالغد كما تحلم البنفسجة البيضاء بالربيع

«أجل! وستغوص إلى أعمق من كلماتك، ستنشد ينابيع الجداول التائهة، وستكون كهفاً مخبّأ يردّد أصداء الأصوات الخافتة التي تتعالى في الأعماق، وأنت لا تسمعها الآن.

«ستغوص إلى أعمق من كلماتك، إلى أعمق من كل الأصوات، إلى قلب الأرض، وهناك ستكون وحيداً «معه»، مع ذاك الذي يسير أيضاً على المجرّة».

وبعد برهة، سأله أحد التلامذة قائلاً: «حدِّثنا أيها المعلّم، عن الكون، ما هو؟».

نظر المصطفى إليه مليّاً، وشعر بانعطاف حبّ نحوه، ثم وقف، ومشى

بضع خطوات بعيداً عنهم، ثم عاد وقال: «هنا، في هذه الحديقة يرقد أبي وأمّي، دفنتهما أيدي أحياء. وفي هذه الحديقة ترقد مدفونة بذور الأمس، جاءت بها إلى هنا أجنحة الريح. وسيدفن أبواي هنا ألف مرة، وألف مرة ستدفن البذور هنا. ولذلك سوف نأتي أنا وأنتم وهذه الأزهار معاً لألف سنة في هذه الحديقة، كما نحن الآن، ولسوف «نكون» نحب الحياة، ونحلم بالمدى، ونتسامى نحو الشمس.

«غير أن «الكينونة» الآن، إنما هي أن تكون حكيماً، لا غريباً مع ذلك، عن المجنون، أن تكون قوياً ولكن لا لتسيء إلى الضعيف، وأن تلعب مع الأطفال، لا كوالد بل كرفيق يودّ أن يتعلّم ألعابهم.

«وهي أن تكون بسيطاً وديعاً مع الطاعنين في السنّ من الرجال والنساء، وتجلس معهم في ظلّ السنديانة العتيقة، وإن كنت لا تزال تمشي مع الربيع.

«هي أن تسعى وراء شاعر وإن كان يعيش وراء سبعة أنهر، وتهدأ في حضوره، لا تريد شيئاً، ولا ترتاب في شيء، ولا تنبس شفتاك بسؤال.

«هي أن تعرف أن القدّيس والخاطئ أخوان توأمان، أبوهما «الملك الغفور»، وأن أحدهما ولد قبل الآخر بلحظةٍ فقط، ولذا نحن ننظر إليه على أنّه أمير متوّج.

«هي أن تتبع الجمال حتى وإن قادك إلى حافة الهاوية، وهو، وإن كان مجنحاً وأنت بلا أجنحة، وإن مرّ فوق الهاوية، عليك أن تتبعه، لأنه حيث لا جمال، لا شيء هناك.

«هي أن تكون بستاناً بلا جدران، وكرماً بلا حارس، وخزانة كنز مفتوحة للعابرين.

«هي أن تكون سليباً، مخدوعاً، مخيَّباً، أجلا ومضلَّلاً، وقع في الفخ، ومع ذلك كلّه تنظر من علياء ذاتك الرحبة إلى ما هو دونك، وتبتسم عارفاً أن ثمة ربيعاً لا بدّ أن يأتي إلى كرمك ليرقص في أوراقه، وخريفاً ليُنضج عناقيده، عارفاً أنّه لو ظل لديك شباك واحد منفتح على الشرق، لن يفرغ

منزلك أبداً، عارفاً أنّ جميع أولئك الذين اعتبروا أشراراً، ولصوصاً، ومحتالين، وغشاشين، إنما هم إخوتك في الفاقة، وأنّك ربما كنت هؤلاء جميعاً في نظر أهل تلك المدينة اللامنظورة، القائمة فوق هذه المدينة.

«والآن أوجه الكلام إليكم أيضاً أنتم ذوي الأيدي البارعة التي تصوغ وتوجد جميع الأشياء اللازمة لرفاهية عيشنا في الليل والنهار:

«الكينونة هي أن تكون حائكاً ذا أنامل تبصر، وعمّاراً واعياً للنور والمدى، أن تكون حرّاثاً وتشعر أنك تخبّئ كنزاً في كل بذرةٍ تزرعها. أن تكون صياداً وقناصاً ذا رأفةٍ بالسمكة والطريدة، وأن تكون إلى ذلك، أرأف بالجائع والمحتاج من بني الإنسان.

«وأقول فوق كل شيء ما يلي: أريد أن يكون كل واحد منكم، كائناً من كان، شريكاً وعوناً لغيره في تحقيق غايته الطيبة النبيلة.

«كونوا، يا أصدقائي وأحبّائي، شجعاناً لا وديعين، رحاب الصدور لا محدودين محصورين، حتى إذا جاء أجلي وأجلكم كان في الحقيقة، ذاتكم الكبرى».

وانقطع عن الكلام، وخيم على التسعة ظلام دامس، وتحوّلت قلوبهم عنه، لأنّهم لم يفهموا شيئاً مما قال.

وراح الرجال الثلاثة من البحّارة يحنّون في تلك اللحظة إلى البحر، والثلاثة الذين كانوا يخدمون المعبد، يتوقون إلى سُلُوّ حالهم في حرمه، والثلاثة الذين لعبوا معه أيام صباه، يتشوّقون إلى ساحة السوق. كان الجميع صُمّاً حيال كلماته، لدرجة أن أصداءها كانت ترجع إليه، كالطيور المتعبة التي فقدت المأوى تحوم بحثاً عن ملجأ.

ومشى المصطفى بضع خطوات نأى بها عنهم في الحديقة، دون أن يقول شيئاً، أو ينظر إليهم.

وراحـوا يتشـاورون فيمـا بينهـم ويبحثـون عـن عـذرٍ يبـرّر رغبتهـم فـي الذهاب.

وهنا، انصرفوا، وذهب كلّ واحد منهم إلى مكانه، وظل المصطفى المختار، الحبيب، وحيداً، فريداً....

١٤

وعندما أقبل الليل، وضرب سرادقه على الكون كلّه، توجّه نحو المقبرة التي ترقد فيها والدته تحت شجرة الأرز التي كانت تتعالى شامخةً، وهناك، أطلّ طيف نور عظيم على السماء، وائتلقت الحديقة ائتلاقة حلية على صدر الأرض.

وصاح المصطفى، من قرارة الوحدة التي تلّف روحه، وقال[١]: «لقد أُثقلت روحي بثمرتها الناضجة. من ترى يأتي ويأخذها ويكون بها مسروراً؟ أما هناك من صائم طيب القلب، كريم النفس، يأتي ويفطر على أول نتاج لي، ويخفف بذلك من عبء خصبي؟

«إن روحي تتدفّق بخمرة العصور. أما هناك من ظامئ يأتي فيشرب؟

«ها إنّ هنالك رجلاً وقف على مفترق الطرق، ويداه ممدودتان للعابرين، وقد امتلأتا بالحُلِيّ والجواهر، وهو ينادي المارّة، قائلاً: «ارثوا لحالي، وخذوا مني، أرجوكم باسم الله العليّ العظيم أن تأخذوا منّي ما في يديّ وتؤاسوني».

---

(١) ورد هذا المقطع بلغة جبران العربية في المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران العربية صفحة ٥٧٧ تحت عنوان «نفسي مثقلة بأثمارها» ـ طبعة دار الجيل.

«ولكن المارّة كانوا ينظرون إليه فقط، وما فيهم من أحد أخذ ما في يده.

«ولو أنّه كان متسوّلاً يمدّ يده ليأخذ! نعم! يمدّ يداً مرتعشة ويرجعها فارغةً إلى حضنه، لكان خيراً له من أن يمدّها ملأى بالعطايا الوافرة، ولا يجد من يتقبّلها.

«وها إن هنالك أميراً أيضاً ذا لطف وأريحيةٍ، ضرب خيامه الحريرية بين الجبل والصحراء، وأمر خدمه أن يشعلوا النار علامةً يهتدي بها الغريب والتائه، كما وجّه عبيده إلى الأمكنة النائية والطرق الموحشة يراقبونها بحثاً عن الضيوف، ولكنهم لم يجدوا فيها أحداً.

«ولو أن ذلك الأمير كان رجلاً عاديًّا لا يُعرف من أين أتى ولا كيف أتى، راح ينشد القوت والمأوى، بل لو كان هو نفسه التائه المعدم الذي لا يملك سوى أسماله وكشكوله، لكان خيراً له، وللقي عند انسدال الظلام أشباهه من الشعراء والمشرّدين، وشاركهم في تسوّلهم وتذكاراتهم وأحلامهم.

«وها إن هنالك ابنة ملك عظيم، استيقظت من سباتها وارتدت رداءها الحريري، وتحلّت بلآلئها وجواهرها، ونثرت المسك على شعرها، وغمست أناملها في العنبر، ثم نزلت من برجها العالي إلى حديقتها، حيث احتفل الندى بمقدم حذائها الذهبي.

«وراحت ابنة الملك العظيم تنشد الحبّ، في الحديقة، خلال هدأة الليل، ولكنّ أحداً من أبناء مملكة أبيها الواسعة، لم يكن يحبّها.

«لقد كان من الأفضل لها أن تكون ابنة حرّاث، جارّة نعجتها في حقل، وعند المساء تعود إلى منزل أبيها، وغبار الطريق يعلو قدميها وعبير الكروم يفوح من ثنايا ردائها، حتى إذا أقبل الظلام، وخيم بأجنحته ملاك الليل على العالم، تتسلّل إلى نعجتها وتنسلّ بها إلى نهر الوادي حيث ينتظرها حبيبها.

«بل إنها لتودّ لو كانت راهبة في دير يحترق فؤادها بخوراً، ويصّاعد طيباً مع الريح، وتفني روحها شمعةً في نورٍ يصّاعد نحو نور أسمى، برفقة جميع

أولئك الذين يتعبّدون والذين يُحِبّون ويُحبّوّن.

«كان الأفضل لو أنها امرأة من الطاعنات في السنّ، تجلس تحت الشمس وتتذكّر ذاك الذي شاركها أيام صباها».

واشتدّ ظلام الليل، واربدّ وجه المصطفى مع الليل، وأمست روحه غيمة مثقلة، فصرخ ثانية:

«ناءت روحي بعبء ثمارها الناضجة.
ناءت روحي المثقلة بثمارها
من ذا الذي يأتي الآن فيقتات ويشبع؟
إنّ روحي لتفيض بخمرتها
من ذا الذي يستقي الآن ويحتسي ويبترد من رمضاء الصحراء؟
«ليتني كنت شجرة لا زهر لها ولا ثمر
فإنّ عناء الخصب أمرّ من القحط
وعذاب الموسر الذي لا يجد من يأخذ منه
أكبر من عذاب المتسوّل الذي لا يجد من يعطيه.

* * *

«ليتني كنت بئراً ناضبة، جافّة
والناس يلقون بي الأحجار
فإن ذلك أجدى وأخفّ حملاً من أن أكون ينبوع ماء حيّ.
يَمرّ به الناس ولا يشربون.

* * *

«ليتني كنت قصبة يدوسها المارّة بأقدامهم
فإن ذلك خير من أن أكون عوداً ذا أوتار فضيّة في بيت ليس لصاحبه أنامل،
وأولاده صُمّ».

* * *

١٥

ثم انقضت سبعة أيام وسبع ليالٍ، لم يمر خلالها أحد قرب الحديقة، وأقام وحيداً مع ذكرياته وعذابه. وذلك لأن الناس انصرفوا عنه، ومضوا يبحثون عن أماكن أخرى ينفقون فيها أيامهم، حتى الذين أصغوا إلى كلماته بحبّ وأناة.

إلا أن كريمة وحدها أقبلت، والصمت يعلو محياها كأنّه حجاب، وبيدها قدح وصحن، ولحم وشراب، ثم مضت لشأنها، بعد أن وضعت هذه الأشياء أمامه.

وعاد المصطفى إلى صحبة أشجار الحور البيضاء، وجلس وراء بوابته يتأمل الطريق، وإذا به يبصر، بعد برهة، شبحاً كأنّه غمامة لاهثة على الطريق، قد أقبل عليه. وانجلت تلك الغمامة عن الأشخاص التسعة، وأمامهم كريمة تقودهم.

تقدّم المصطفى ولاقاهم على الطريق، ومرّوا من البوابة، وكان كل شيءٍ على ما يرام، ثم مضوا كما لو أنهم تابعوا السير، ولم ينقطعوا عنه سوى ساعة.

دخلوا وتناولوا عشاءهم معه على مائدته البسيطة، بعد أن أضافت كريمة إليها بعض الخبز والسمك وسكبت آخر ما لديها من خمرة في الأقداح. وفيما كانت تسكب، توجهت للمعلم برجاء قائلة: «اسمح لي أن أذهب إلى المدينة، وأبحث عن خمر أملأ بها الأقداح من جديد، بعد أن نفد ما لدّي منها».

ونظر إليها، وكان في عينيه طيف رحلة وبلدٍ بعيد، وقال: «لا! إن هذا كافٍ حتى الساعة».

وأكل الجميع وشربوا وكانوا في سرور، حتى إذا فرغوا، تكلّم المصطفى بصوت جهوريّ، عميقٍ كالبحر، زاخر كالتيار الدافق في ضوء القمر، وقال: «يا أصحابي ويا رفاق طريقي، لا بُدّ لنا من أن نسافر اليوم. لقد مضى علينا زمن طويل قطعنا به البحار المهلكة، وتسلّقنا الجبال الوعرة

وصارعنا العواصف. ولقد عرفنا الجوع، غير أنّنا جلسنا أيضاً إلى مآدب الأعراس، وغالباً ما كنّا عراة، ولكنّا ارتدينا أيضاً حللاً ملكية. ولقد سافرنا، في الحقيقة، إلى أماكن بعيدة، ولكنّنا الآن نرحل. ستذهبون معاً في طريقكم، ولكن سأسلك وحدي في طريقي.

«وإنّنا سنظلّ، وإن كانت البحار والبراري الشاسعة ستفصل بيننا، رفاق سفر إلى الجبل المقدّس.

«غير أني أودّ، قبل أن نمضي في مسالكنا الوعرة الشاقّة، أن أقدم لكم حصاد قلبي ولقاطه:

«سيروا في سبيلكم وأنتم تغنّون، ولكن لتكن كلّ أغنية قصيرة لأن الأغاني التي تموت باكراً على شفاهكم، هي وحدها التي تعيش في قلوب الناس.

«قولوا حقيقة جميلة في كلمات قليلة، ولا تقولوا أبداً حقيقة قبيحة أية كانت الكلمات. قولوا للفتاة التي يلمع شعرها في الشمس إنها بنت الصباح. ولكن إذا شاهدتم الأعمى، إياكم أن تقولوا له إنّه هو والليل شيء واحد.

«أصغوا إلى عازف الشبابة كما لو كنتم تصغون إلى نيسان، ولكن إذا أنتم سمعتم الناقدين والباحثين عن الزلّات يتكلمون، كونوا صُمًّا كأنّكم عظام جامدة، وابتعدوا إلى أبعد ما يشطح بكم الخيال.

«يا رفاقي ويا أحبّائي! ستلاقون في طريقكم رجالاً ذوي أظلاف، فأعطوهم من أجنحتكم، وآخرين ذوي قرون، فقدّموا لهم أكاليل غار، ورجالاً ذوي مخالب، فأعطوهم عسلاً لكلامهم.

«أجل! ستلاقون هؤلاء جميعاً وأكثر. ستلاقون عرجاً يبيعون العكاكيز، وعمياناً يبيعون المرايا، وستلاقون الأغنياء على أبواب المعابد يتسوّلون.

«أعطوا العُرْج من رشاقتكم، والعُمْي من بصركم، وانظروا إذا كنتم تعطون من أنفسكم للأغنياء المتسولين، فهؤلاء أفقر أهل الأرض، لأن ما من

رجلٍ يمدّ يده للصدقات إلا إذا كان حقيقة فقيراً، وإن كان ذا أملاك وافرة.

«يا رفاقي ويا صحابي! أوصيكم باسم الحبّ الذي يجمع قلوبنا، أن تكونوا مسالك لا حصر لها يتلاقى بعضها مع البعض الآخر في الصحراء حيث تسير الأسود والأرانب، وتطوف الذئاب والنعاج.

«واذكروا هذا عني، أنا لا أعلّمكم أن تعطوا، بل أن تأخذوا، ولا ألقنكم النكران بل الوفاء، ولا الاستسلام بل الفهم بابتسامة على شفاهكم.

«أنا لا أعلمكم الصمت، بل الغناء ولكن بصوت غير صاخب.

«أنا أعلمكم أن تحققوا ذاتكم الرحيبة التي تسع الناس أجمعين».

ونهض عن المائدة، وذهب يمشي في خطّ مستقيم نحو الحديقة، وسار في ظلال السرو، بينما كان النهار ينحدر إلى مغربه، وتبعوه عن مسافةٍ قريبة إذ كانت أفئدتهم مثقلة، وألسنتهم معقودة.

وجاءته كريمة وحدها، بعد أن طرحت فتات المائدة جانباً، وقالت: «أودُّ يا معلّم أن تسمح لي بإعداد الزاد لرحلتك وغدك».

نظر إليها بعينين تطل منهما عوالم أخرى غير هذا العالم، وقال: «يا أختي ويا حبيبتي! الزاد مُعَدّ منذ بدء الزمن. والطعام والشراب جاهزان للغد، وحتى لأمسنا ويومنا.

«أنا ذاهب، غير أني إذا ذهبت ولديّ حقيقة لم أقلها بعد، فإن تلك الحقيقة نفسها ستسعى في نشداني وتلملمني، وإن كانت عناصر جسمي قد تبدّدت في صمت الأبدية، وأعود ثانية إليكم، بحيث أستطيع أن أكلمكم من جديد بصوتٍ يرتفع من قلب ذلك السكون الأبديّ.

«وإذا كان ثمة شيء من جمال لم أصرّح به لكم، فسأدعى ثانية باسمي، أجل باسمي ذاته« المصطفى»، وسأعطيكم علامة تعرفون بها أني رجعت لأقول كلّ ما أنتم في حاجة إلى قوله، لأن الله لن يأذن بأن يخفى على الإنسان، ولا أن تظلّ كلمته محجوبة في حفرةٍ خفيّةٍ من قلب إنسان.

سأحيا وراء الموت، وسأغنّي في أسماعكم.
حتى بعد أن تحملني أمواج البحر وتعيدني إلى أعماق الخضمّ الأكبر.
وسأجلس إلى مائدتكم، حتى من غير جسد.
وسأذهب معكم إلى حقولكم، روحاً غير منظورة.
سآتيكم إلى مواقدكم ضيفاً لا ترونه.
الموت لا يغيّر شيئاً سوى الأقنعة التي تغطي وجوهنا.
وسيظّل الحطّاب حطّاباً
والحرّاث حرّاثاً
والذي يغنّي أغنيته للريح سيظلّ أيضاً يغنيها للأفلاك الدائرة».

وكان التلامذة صامتين صمت الحجارة، والأسى يفعم قلوبهم، لأنّه قال «أنا ذاهب»، غير أن أحداً منهم لم يضع يده في طريقه لإبقائه، ولا تبعه أحد، وهو يخطو.

وخرج المصطفى من حديقة أمّه، وكانت خطواته هادئة، لا صوت لها. وما هي إلا لحظة، حتى انطلق مرتفعاً عنهم وابتعد، كورقة ممزّقة حملتها الزعازع، وأبصروا من أثره، كلّ ما أبصروه، نوراً شاحباً يتحرّك في أجواز السماء.

وسار التسعة في طريقهم يهبطون، ولكنّ المرأة ظلّت واقفة في الليل الزاحف، تشهد كيف أصبح النور والغسق شيئاً واحداً، وراحت تواسي وحدتها ووحشتها بكلماته: «أنا ذاهب، ولكن إذا أنا ذهبت ولدّي حقيقة لم أقلها بعد، فإن تلك الحقيقة نفسها ستسعى في نشداني وتلملمني، وأعود إليكم مرة ثانية».

* * *

١٦

ثم وكان مساء.

وكان قد بلغ الروابي. وقادته خطاه إلى السديم، ووقف وسط الصخور وأشجار السرو البيضاء، محجوباً عن كلّ ما حوله، فأخذ يتكلّم قائلاً:

«أيتها الغمامة، يا أختاه، يا نسمة لم تشاهد بعد في قالب.
أعود إليك نسمة بيضاء لا صوت لها،
وكلمة لم يفه بها أحد بعد.

* * *

«أيتها الغمامة، يا شقيقتي المجنّحة، نحن الآن معاً
وسنظلّ معاً إلى أن يُلقيكِ يوم الحياة الثانية
قطرات ندى، في الفجر، على حديقة.
وأنا طفل في حضن امرأة
نتذكر ماضينا معاً.

* * *

«أيتها الغمامة، يا أختي! عدت قلباً يصغي إلى أعماقه،
مطمئناً كقلبك
وشوقاً خافقاً لا هدف له مثلما هو شوقك
وفكرة لم تُجنَ بعد كفكرتكِ.

* * *

«أيتها الغمامة، يا أختي، ويا بكر أمّي!
يداي لا تزالان تحملان البذور الخضر التي أمرتني أن أنثرها.
وشفتاي مختومتان على الأغنية التي أمرتني أن أغنيها
وأنا لم اتِكِ بثمرة، ولم أحمل إليك أصداء
لأنّ يديّ كانتا عمياوين، وشفتيّ لا تنبسان.

* * *

«أيتها الغمامة، يا أختي! أحببت العالم كثيراً، والعالم أحبّني
لأن بسماتي كلها كانت على شفاهه، وكلّ دموعي في عيونه
وكان، مع ذلك، بيننا برزخ من صمت لم يضع فوقه جسراً
ولم أستطع من جانبي أن أعبره.

* * *

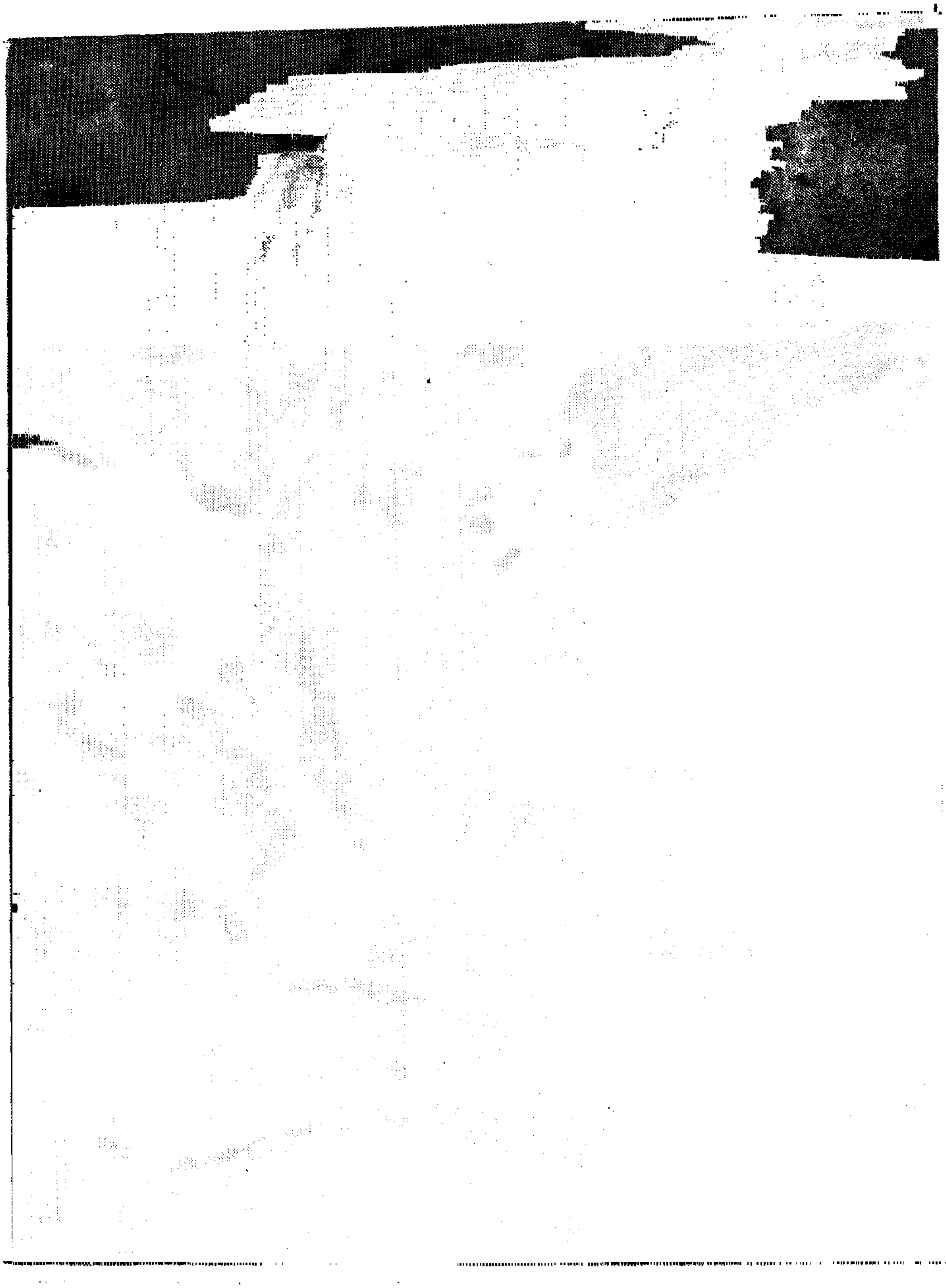
«أيتها الغمامة، يا أختي، يا شقيقتي التي لا ينالها الموت
أنا أنشد الأناشيد العتيقة لأولادي الصغار
وهم ينصتون، والدهشة تعلو وجوههم
ولكن يمكن أن ينسوا الأنشودة غداً
وأنا لا أعرف إلى مَن سيحملها الريح
وهي وإن كانت ليست لي، فإنّها بلغت فؤادي
وأقامت برهةً على شفتيّ.

* * *

«أيتها الغمامة، يا أختي
رغم أن كل ذلك مضى وانقضى، فإني في سلام
لقد كان كافياً أن أغني لمن ولدوا
وإنّه، وإن كان الغناء ليس لي في الحقيقة،
ليرتفع من أعمق أشواق فؤادي.

* * *

«أيتها الغمامة، يا أختي الغمامة
أنا وأنت الآن شيء واحد
لم أكن ذاتاً منذ زمن طويل
الجدران انهارت
والسلاسل انكسرت
وأنا ارتفعت إليكِ
وسنُبحر معاً إلى أن يأتي يوم الحياة الثانية،
عندما يلقيك الفجر قطرات ندى في حديقة،
ويقذف بي طفلاً في حضن امرأة».



«الذات التائقة إلى الغمام»

فهرســـت

المجنـــون

السابق

النبي

رمل وزبد

يسوع ابن الإنسان

آلهة الأرض

التائـــه

حديقة النبي